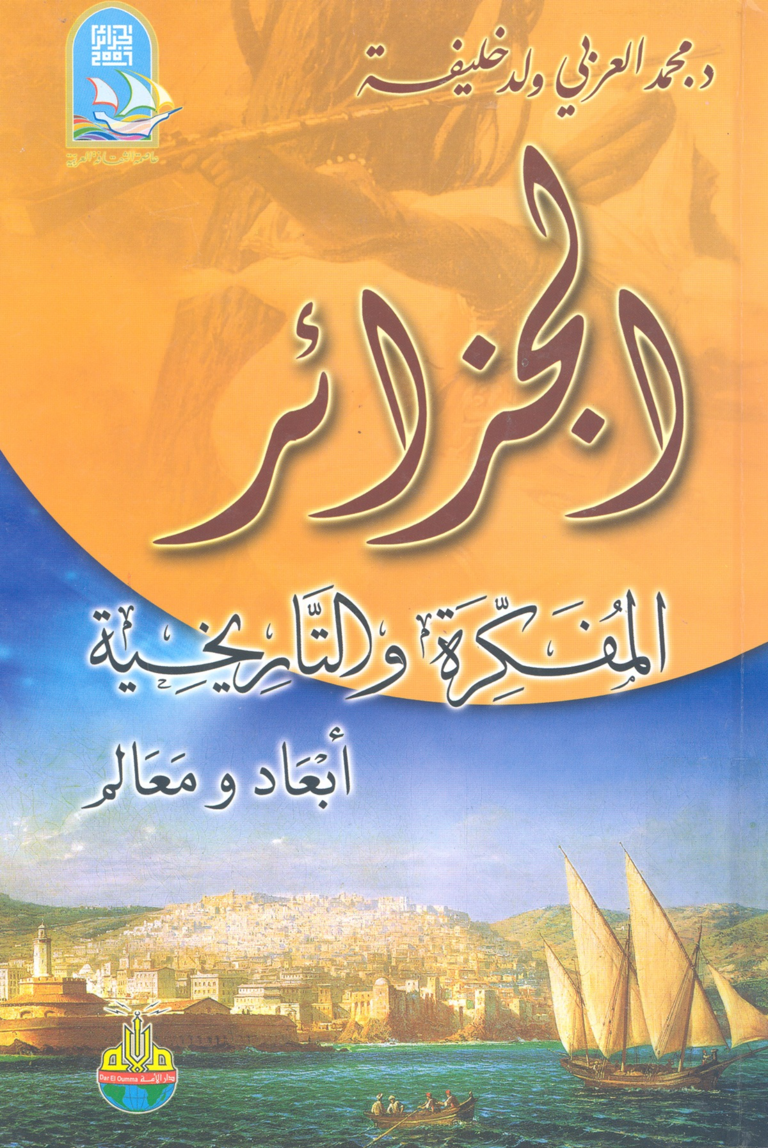

الجزائر 2007
عاصمة الثقافة العربية
د. محمد العربي ولد خليفة
الجزائر
المفكرة والتاريخية
أبعاد و معالم
Dar El Oumma
دار الأمة

د . محمد العربي ولد خليفة

الجزائــر

المفكرة والتاريخية



شركة دار الأمة

للطباعة والنشر والتوزيع

ص. ب 109 برج الكيفان 16120 الجزائر

E-Mail: Dar-el-Oumma @ mail.com

تصفيف ومعالجة النص: ياسين أصنام

طبعة 2007

إيداع قانوني: 2007 / 1321

ردمك: 5 210 67 9961 978



الإهداء

إلى روح أخي الشهيد:

محمد الطيب ولد خليفة (1934 – مارس 1959)

لا يزال صوتك يتردد بكلمات بسيطة: لا وطن بلا كرامة وحرية، رسالة أجدادنا هي أن نتوحد لهزيمة أعداء الحرية، وعودة وطننا الجزائر إلى مكانها منارة للإنسانية.

الفهرس

القسم الأول
مناظرة حوارية: خطابات ثقافية عن العصر والمرجعية

القسم الثاني
الثورة الجزائرية: مطلب المواطنة والحرية
كفاح شعب وعدالة قضية

القسم الثالث

التربية والهوية و«الباتولوجيا الاجتماعية»

توضيح وتنويه

رشحت دار الأمة هذه الدراسة ضمن مشروع الألف كتاب وكتاب التي خصصتها وزارة الثقافة ومحافظة الجزائر عاصمة الثقافة العربية لسنة 2007، وعرفنا في منتصف يناير أن لجنة الكتاب في المحافظة قد وافقت، بعد النظر والتقييم، على إعادة طبعها ضمن ذلك المشروع الطموح، ومن المعروف أنه من النادر أن يعاد طبع كتاب في بلادنا بعد بضع سنوات من نشره.

ليس في النيّة أن نعرض لمصاعب النشر والتوزيع والمقروئية والعلاقة بين الكاتب والمبدع وجمهوره وصنعة الكتاب (وهي في رأي أهل المهنة في تحسّن)، ومسألة الترويج (الإشهار) والربحية في قطاع يقع بين الفن والتجارة وما تتطلبه من ربحية مشروعة.

إن كل ذلك يرتبط في نظرنا، بنشأة رأي عام ثقافي يُميّز من جهة بين القشريات التي يلفظها سوق القراءة بلا اعتذار، وبين الإبداع والابتكار في الأفكار والجماليات وأداة التوصيل بما فيها اتقان صنعة الكتاب من جهة أخرى.

يمكن للرأي العام أن ينتخب بحسّه السليم ومعه أرمادا من النقّاد والمترجمين الرجال والنساء الذين يتوّجُهم على قمة المبدعين، من أهل الفكر والذكر والفن (Best sellers) في كل سنة ومن مختلف أجيال النخبة المتعاصرة، وخاصة إذا كان المعيار الأول والأخير، هو التفوق والاستحقاق.

في تلك البلدان تُمثّل الصفوة سلطة معنوية مؤثرة في المجتمع المدني وفي شؤون بلدانها، ولها موقف ورأي مستقل نسبيا في القضايا الدولية.

أشرنا إلى هذه القضايا بشيء من التفصيل في دراسات منشورة، وأكدنا أن ضعف المقروئية بأي لسان، والنقص والضحالة في وسائط الثقافة، علامات لا تخطئ على التخلف الثقافي، الذي تنتشر فيروساته المعدية، وتتفرع عنه كل ظواهر التخلف الأخرى على مستوى الفرد والمجتمع والدولة، فلا يمكن أن يتطور بلد معرفيا وتكنولوجيا واقتصاديا إذا كان يعاني من القحط الثقافي، إذ وراء وأمام كل جوانب التطور السابقة نخبة تنتج العلوم والفنون والآداب أي الثقافة.

إن انتشار حوانيت الورّاقين في عهود الأنوار الإسلامية، وتزاحم طلاب العلم ومفكّرين وأدباء من أعلى طراز، حتى على المبيت فيها للمطالعة ونسخ مجلدات بمئات الصفحات، وبأدوات بسيطة، تؤكد لنا اليوم وجود نخبة شغوفة بالمعرفة ترغب في الاطلاع على علوم وفنون المتقدمين والمتأخرين، وترى أن من واجبها أن تنمي رصيد المعرفة الموجودة بين أيديها، وأن تُورّثه مسجلا للأجيال اللاحقة لتُحيّن ذلك الرصيد بما تتوصل إليه من اكتشافات وتحقيق وتجديد.

ونشهد في أيامنا هذه أهمية الرأي العام الثقافي في الجزء المتقدم من العالم، حيث أن للإبداع أعياد معولمة من جائزة نوبل إلى بوليتزر إلى غونكور... وأن منتوج أهل الفكر والإبداع يتصدر الصفحات الأولى في أكثر الجرائد انتشارا وشعبية، فضلا عن الدوريات المتخصّصة والمهرجانات الموسمية.

ومن العادي هناك، أن يحمل الشخص في جيبه أو حقيبته، كتاب الأسبوع أو الشهر، وتدور أحاديث الكهول والشباب عن نجوم السينما وكُتّاب القصة والرواية والشعر، في لغتهم الأصلية والمترجم إليها، وتُعلّق على ما يجري من مناظرات على الشاشات الصغيرة وأمواج الإذاعة، ولا تعجب إذا حضرْتَ استراحة تناول الشاي (Tea Time)، وأن تشهد أحاديث بين موظفين وعمال وإطارات، حول المفكر فلان والروائي علان والأغنية والمقطوعة الموسيقية أو معرض اللوحات وأبطال المسرحية أو الفيلم الذي يعرض في تلك المدينة أو في ذلك المكان.

لن أقدم مرة ثانية هذا الكتاب، والحقيقة أنه ليس أفضل من البسملة التي تتصدر آي الذكر الحكيم، ويصف فيها المولى عزّ وجل بالرحمان الرحيم، فقد قبل المثقف العصامي والمبدع باللغتين في فنون البيان الأستاذ مرزاق بقطاش، أن يقوم بالتعريف والتحليل والتعليق، ومرزاق الأديب كاتب ومفكر حرّ لا يدين بالولاء لغير الله والوطن.

قد يتساءل القارئ لماذا اختار الكاتب هذا الشكل أو ذلك من فنون الاتصال والتبليغ الثقافي؟ فتلك عادة مهمة النقّاد، وبعضهم يشتغل بالبيع والشراء في بضائع الغير، كما أنه من النادر أن ينقد المبدع نفسه، وما جادت به قريحته، فمن الصعب أن تنفصل الذات عن الموضوع، فهل يرى الشخص غير قساماته في المرآة!

يشعر الإنسان أحيانا بالوحدة، وهو يتحدث صباح مساء مع من حوله من الناس بسبب الغربة الفكرية عن اهتماماتهم، فيعود إلى محاورة نفسه للإفلات من قبضة الحصار الداخلي، وقد يكون في مقام

«صاحب المعالي» و«صاحب السعادة»، ولا ينسى أن هناك أجيالا من بين قومه حرموا من كل شيء، وماتوا في كمد ومسغبة، ولم يروا علم الوطن مرفوعا، ولم يعرفوا مواطنة في جزائر النضال والشهداء جزائر الآباء والأجداد، ولا تأخذه عزّة اللحظة ويغيب عن باله أن في بلاده الكثيرين ممن يستحقون تلك المقامات والألقاب مثله، أو أفضل منه، على الرغم من أنه لمْ يطلب شيئا منها، فقد تأتي العزائم على قدر أهل العزم وقد لا تأتي، وتبقى قيمة الإنسان في نهاية الأمر فيما قال أو فعل وفيما لم يقل أو لم يفعل، إذا كان الدافع هو الاقتراب من مُثُل الحق والخير والجمال، والهدف هو نُصرة مطالب الحرية والعدل والتقدم.

وأتقدم في نهاية هذه السطور بالشكر الجزيل للأستاذ بقطاش ولمدير دار الأمة الهمام حسان ابن صديقنا د. أحمد بن نعمان فهذا الغصن من تلك الشجرة الطيبة.

محمد العربي ولد خليفة

الجزائر في 2007/02/06

تصدير

جميل أن تتوزع اهتمامات المرء في هذه الجزائر بين التاريخ واللغة والفكر، وأن تتخذ من الوطنية لبوسا لها في كل آن، بل، وتتدرع بها. والوطنية، ورب الكعبة، ما كانت قطعة من قماش نفيس نتحايل عليه في كل مرة لكي نصنع منه بذلة حسب المقاس، ووفقا لذوق هذا أو ذاك. الوطنية هي الوطنية، وكفى بالله وكيلا، أي إنها لا تحتمل الأخذ والرد، ولا اللف والدوران. من السهل أن يقفز المرء فوق حواجز التاريخ واللغة والفكر، وأن يربط فيما بينها في قالب من هذه الوطنية بالذات، ولكن، من الصعب عليه جدا أن يجعلها متناغمة متناسقة خاصة إذا ما تعلق الأمر بالجزائر فكرا وتاريخا. ذلك ما فعله الزميل المفكر الدكتور محمد العربي ولد خليفة في بحوثه هذه.

فأنا منذ أن التقيت به عام 1971، في ملتقى التعريف بالفكر الإسلامي بمدينة وهران، رفقة أستاذي المرحوم الدكتور حنفي بن عيسى -ولعله لا يتذكر ذلك- وهو مهووس باللغة، وبما يتصل بها من جانب نفسي ووطني. والزمن لا يكذبني، والحمد لله، فلقد سار على نفس الدرب. اللغة تفضي دائما وأبدا إلى الوطن، والوطن قد ندخله من بوابة واحدة، ولكن، من الأفضل أن ندخله من أبواب متفرقة على غرار ما أوصى به سيدنا يعقوب عليه السلام بنيه عندما قصدوا أرض مصر. وذلك ما أقدم عليه الدكتور محمد العربي ولد خليفة في بحوثه هذه التي يشرفني أن أضع لها هذه الكلمة الاستهلالية.

ليس سهلا أن تتأبط التاريخ، يا هذا، أن تضعه في زوادتك، أن تحمله معك أينما حللت وارتحلت. فأنت تكون بذلك أشبه بالمرجاف الذي تقاس به الزلازل. وهذه الزلازل في هذا المضمار إلا تلك التي تحدث في صلب اللغة والتاريخ والوطن؟ وهل اللغة إلا بداية كل شيء؟

هل اللغة قادرة على التعبير عن كل شيء؟ الفنان التشكيلي الفرنسي برنارد بوفي (Bernard Buffet) يقول إنها أعجز ما تكون على تأدية ما يعتمل به صدر الإنسان وما تصطخب به جوانحه. وتلك قولة فنان ليس غير على الرغم من اقتداره في الساحة الإبداعية التي يتحرك فيها ولد خليفة يدخل إلى الوطن عبر بوابة اللغة، من جوانبها النفسية والتحليلية، مع أنه في مقدوره أيضا أن يدخل إليه عبر مختلف البوابات وهو بذلك لا يطرح موضوعا واحدا وإنما مواضيع متعددة، قد تتقارب وقد تتباعد، لكن الحصيلة تظل هي هي.

وعليه، فإن الدكتور محمد العربي ولد خليفة، على الرغم من استمساكه بالوطن، بهذا المغرب الأوسط، بهذه الجزائر، يتجول بنا في حدائق التاريخ، قد يحدث له أن يقفز بينها، لكنها قفزات غايتها تحقيق التماسك والتلاحم بين مختلف الحلقات حتى لا ينفرط عقدها، والسبب في هذا السلوك، أو هذا المسعى، إنما يتمثل في تسليط الضوء على هذا الشعب، والمضي معه قدما في نطاق الحراك الاجتماعي، هذا الحراك الذي يمثل في حقيقة أمره العمود الفقري لنضاله، ومن ثم، لكل ما هو مرتبط ارتباطا عضويا بالفكر الإسلامي، ووقفة هذا الفكر بالذات وقفة هي أشبه ما تكون بوقفة السنجاب الذي لا يكف عن تحريك دماغه شرقا وغربا، علوا وسفلا، من أجل استشراف ما حواليه، واستشراف الآفاق دونه، أي آفاق المستقبل،.وهل لنا مناص من ذلك؟ أو ليست مشكلتنا هي هذه الحيرة التي تستبد بتلابيبنا كلما أردنا أن نضع قدما راسخة في أرض المستقبل؟.

في هذا الكتاب صفحات جديرة بأن تكون محل منتخبات تضمها دفة كتاب من المختارات الأدبية والفكرية واللغوية والتاريخية، وأعني بها خاصة تلك التي تقوم على الحوار، أو المناظرة الحوارية، وبالفعل، فلقد أثبت فيها الزميل ولد خليفة أنه يمتلك ناصية السرد الروائي، حتى وإن أنا لم أعرف عنه أنه عالج فن الرواية، وحسنا فعل إذ أخذ بهذا الأسلوب من

أجل عرض أفكاره، بل وعساه أن يكون بذلك قد أحيا شكلا فنيا كاد يعفي عليه الزمن عندما لجأ إلى الأخذ بأسلوب المحاورة، ذلك الذي ابتدعه الفيلسوف أفلاطون، ونهج نهجه في العديد من مؤلفاته، خاصة منها في حديثه عن سقراط (Socrate) وبارمنيدز (Parmenides).

محمد العربي ولد خليفة يبدي اهتماما واسعا بكل ما له علاقة باللغة، ذلك أنه مؤمن أشد الإيمان أن الوطنية الحقيقية إنما هي تلك التي تجعل اللغة مقوما من مقوماتها الجوهرية ولأنه، خلافا لكل ما يقول به القوميون وغير القوميين، يؤمن بالحديث المأثور بأن كل من تكلم االعربية فهو عربي، وبأن هذه الجزائر، بعربيتها وأمازيغيتها المتآخيتين منذ حوالي خمسة عشر قرنا من الزمان، عبارة عن مجموعة وفقا لما تقول به نظرية المجموعات في الرياضيات الحديثة. لا يمكن أن ينفصل هذا العنصر عن ذاك ما دام مندرجا ضمن مجموعة محددة المعالم، وكل من أراد أن يلعب مقلبا على هذه المجموعة وجد نفسه خارج الميدان بصورة تلقائية، بل إن هذه الجزائر تنتمي إلى هذا الحوض الحضاري العربي الكبير من حيث كونها عنصرا في المجموعة الكبيرة، وذلك ما يرفضه البعض عندنا ظنا منهم أن الانتماء إلى المجموعة الكبيرة يفتت هويتنا، بل، وقد يقضي عليها قضاءً مبرما.

ولكن، هل ننكر المتنبي والبتاني والبيروني لأنهم ولدوا في الشرق وتفتحت قرائحهم الفكرية والإبداعية في الشرق؟ وهل نضرب صفحا عن ابن رشد وابن باجة وابن طفيل وغيرهم من أقطاب الفكر في الجهة الغربية من هذه المجموعة لأنهم ولدوا وأبدوا في أرض الأندلس؟ وهل نتخلى عن سي محند أو محند والتراث الأدبي الأمازيغي بحجة أن أنصار التفرقة قد يدخلون من بوابته لكي يخلخلوا دعائم بنياننا الوطني، أو لأن بقايا الاستعمار اللاتيني الفرنسي قد تتسلل منه لتوجيه ضرباته؟ انطلاقا من هذا التصور السقيم، أين نضع أبوليوس (Apulée)؟ هل نظل نقدمه على طبق من ذهب لأهل الحضارة اللاتينية الرومانية والعالم الغربي برمته بسبب من

أن أبوليوس هذا كتب بالبونيقية وباليونانية وباللاتينية؟ وهل نكتفي، على سبيل المثال لا الحصر، بما نظمه الأمير عبد القادر الجزائري من شعر، وما كتبه من نثر، وبقصائد مفدي زكريا، ونثريات أحمد رضا حوحو؟ وهل نطرد من دارتنا هذه، كاتب ياسين ومحمد ديب ومولود معمري وغيرهم لأنهم دوّنوا أعمالهم بلغة المستعمر الفرنسي؟.

الدكتور محمد العربي ولد خليفة يفرش دوننا سفرة ثرية بما لذّ وطاب من الأطعمة الفكرية، ويدعونا، من حيث يدري ولا يدري، إلى إعادة النظر في تاريخنا كله من أجل سد بعض الثغرات، وتقويم ما اعوجّ في بعض جوانبه، كل ذلك دون إصدار الحكم القاطع عليه على غرار ما يفعله بعض المتطرفين، وليس أدل على ذلك من أنه ينتقل بين اطواء التاريخ، مغربيه ومشرقيه، أندلسيه وصحراويه، مغربلا هناك، منخلا هناك، ذلك أن سبائك الذهب لا تسلم نفسها إلا لمن عمل على استخلاص الشوائب منها، وذلكم بالذات ما نجح فيه الدكتور محمد العربي ولد خليفة، ولست أقول هذا الكلام على سبيل المدح، فهو نفسه يعرف أنني لا آلاين ولا أداهن أحدا، ولكن، هذه هي الحقيقة على الرغم من أنني لم أتعمق التعمق كله في قراءة هذه البحوث.

وهو في هذا الجانب، أي جانب التحليل التاريخي الصرف، قريب من مفاهيم تلك الكوكبة من فرسان التاريخ عندنا، وأعني بها تلك التي برزت بعيد الحرب العالمية الثانية، والمتمثلة في الأساتذة مصطفى الأشرف والشريف ساحلي والدكتور خالدي، ولعله يتميز عن هؤلاء جميعا بإضافته الجانب اللغوي إلى اهتماماته هذه وقضايا التكوين والتعليم من زاوية الحداثة والعصرنة، جملة الإهداء إلى شقيقه الشهيد (محمد الطيب ولد خليفة) تدلنا على ذلك، فنحن كثيرا ما نمر مرور الكرام على مثل هذه الجمل، في حين أنها تلخص موقفا بأكمله، ونظرة متكاملة إلى هذه الحياة، ولكأنني به يقول في أعقاب الجزائريين الذين عاشوا ما بين 1830 و1954: نحن نحن، وهم هم، أي نحن في ضفة حضارية وهم في ضفة

حضارية أخرى، قد نلتقي فيما بيننا، ولكن، لا نريد أن نكون عبئا عليهم، ولا أن يكونوا عبئا علينا، وذلك كله ما يفسر نضال الشعب الجزائري المستميت، وعزيمته الصلدة في سبيل أن يكون على مسرح التاريخ لأنه يعرف نفسه بنفسه دون أن يتوكأ على عصا شعب آخر مثلما فعلت بعض الشعوب الإفريقية والآسيوية في عصرنا هذا، هذه الكينونة المتميزة التي يتحدث عنها الفلاسفة على اختلاف مشاربهم ونزعاتهم هي التي جعلت من الشعب الجزائري شعبا حسب المفهوم القرآني الكريم، ومكّنته في الوقت نفسه من الوقوف على قدميه على الرغم من الهزّات الذاتية التي اعترضت سبيله في نهايات القرن العشرين، وعلى الرغم من تكالب أصحاب الأطماع الاستعمارية وأتباعهم من أجل تركيعه، وتأسيسا على ذلك، يخلص الدكتور محمد العربي ولد خليفة إلى النتيجة التالية وهي أن الشعب الجزائري عرف ما الحداثة، لا عن طريق الكلام والبهرجة اللفظية، أو السفر إلى باريس والعمل في مصانعها وغيرها من المدائن الفرنسية، وإنما عن طريق الدم الذي سقى به أرضه ووجدانه في المقام الأول، تلكم هي الحداثة الحقيقية! وهل يستطيع أحد أن ينكر عليه ذلك؟ حروب في إثر حروب استعمارية، وظلامية ما بعدها ظلامية جاء بها بعض أبنائه الذين يعيشون على هامش التاريخ، لكن هذا الشعب وقف جبارا عتيا، فكان -دون مبالغة منا- أعجوبة هذا الزمن. قد لا نقدّر هذا الجهاد حق قدره بحكم أننا ننظر إليه من الداخل، أو لأننا، على حد تعبير المثل، لا نستطيع أن نحدق في الشمس ولا في الموت، بسبب من أننا المدية والجرح، الخصم والحكم، ولكن، عندما ننظر في شؤون الشعوب الأخرى، نصل إلى عظمة هذا الشعب. أجل، وليس في هذا الكلام أدنى نية من نيات التمويه. لقد رأينا شعوبا بأكملها تخرج من إطار حدودها لتعيش في أرباض الدول الأخرى لأن الحروب الأهلية أكلت الأخضر واليابس فيها. رأينا ما حدث في أوغندا الإفريقية ورواندا، وفي يوغوسلافيا الأوربية، ورأينا نفس الشيء في كمبوديا الآسيوية وفي أمريكا اللاتينية وغيرها من أماكن الدنيا. أجل،

لقد عشنا المأساة بفعل فاعل، ورأينا كيف ظلّت دولة الجزائر قائمة على الرغم من أنها في فترة من الفترات أوشكت على الخروج من التاريخ. ورأينا كيف يذهب الجزائري إلى السوق ويبتاع كيلوغراما من الدقيق. والدقيق في العرف البشري كله دليل على الاستقرار، وذلك ما أراد الدكتور ولد خليفة أن يقوله بأسلوب آخر في إطار من النقد الإيجابي البنّاء.

فكرة الانقلابيين صادفت هوى من نفسي، ربما لأنني لا أحب الانقلابيين، أيا ما كانت مشاربهم، اللهم إلا إذا كانوا يعيدون صياغة التاريخ، ولكن باحترام هذا التاريخ، أي بكل ما يحمله من مقومات إيجابية جميلة.

لكن ينبغي الاعتراف بأننا لم نعرف كيف نوظّف هذا البعد الأصالي في تطلعنا إلى المستقبل، بل، إننا أبعدناه من دائرة اهتمامنا. البناء يبدأ مما هو متوافر بين أيدينا، باستخدام ما صلح من مقوماتنا التاريخية، وتوظيف عناصر هذا العصر الذي نعيشه. وذلك ما يقوله الدكتور ولد خليفة في هذا الكتاب، لأنه، إن جاز التعبير، مهووس بالوطن، وبموقع هذا الوطن، تاريخا ولغة وهوية ومعاصرة. وأعترف أنني أعجبت بالفكرة التي قولبها عن كل ما هو انقلابي في حياتنا السياسية. الانقلاب، سواء أكان عسكريا أم سياسيا أم فكريا، لا يعني شيئا إن هو لم ينطلق من رؤية واضحة إلى الأرضية التي نعيش عليها. إذ كان عتاة الاستعمار قد انصرفوا عن هذا البلد مهزومين مخذولين إلى غير رجعة فإنما لكي لا يخلفهم (قدور) و(علي) وغيرهما، وإنما لكي تنطلق جحافل جديدة في اتجاهات جديدة. أما التغيير من أجل أن تحتل بعض الأسماء الساحة فذلك ما ينبغي أن ننبذه نبذا كليا. دخل الرسول ﷺ مكة فاتحا، وقال لأعدائه القدامى: اذهبوا، فأنتم الطلقاء! ولم يفتك بأحد منهم، مثلما فتك الانقلابيون في زمننا هذا بأجمل ما ورثناه من معركة التحرير، وأعني به، البعد الحضاري الذي سمح لنا بأن ننطلق في تأسيس دولة حقيقية استطاع أبناؤنا أن يجمعوا بين العناصر كلها، وأن يوظفوها إلى حد ما. الانقلاب الحقيقي هو ذلك الذي يمكننا من أن نموقع أنفسنا، بالاعتماد على قدراتنا أولا، أي قدراتنا

الفكرية التي تقولبت بفعل التصادم مع العالم الحديث. الفلاح عندنا، وإلى فترة من الفترات، ما عاد فلاحا يقوم مع الفجر ويعود إلى كوخه بعد غروب الشمس، بل إنه لا يوجد شبه له في عوالم الفلاحين الآخرين في هذا العالم العربي، والسبب هو أنه سفح دمه من أجل أن يغير ذاته، ويغير المحيط الذي يعيش فيه، وينظر صوب الدنيا الجديدة. هذه هي الثورة الحقيقية التي قام عليها الحراك الاجتماعي التاريخي عندنا.

هذا الفلاح، ومعظم الجزائريين فلاحون في أصولهم، ما كان في حاجة إلى من يدرجه ضمن خانة النظام الاقتصادي الآسيوي ويعمل على تشريحه على حد ما تقول به المفاهيم الماركسية، فلقد تجاوز الأطر الكلاسيكية في هذا الشأن. واستطاع هو، أو ابنه، أو ابنته، أن يحقق حداثته الأصيلة عندما جلس على المدرج الجامعي. فهل حدث شيء من هذا القبيل في ثورات هذا الزمن؟ ولكننا، ويا للأسف، وجدنا أناسا لم تتغير ذهنياتهم، وتمكّنوا في فترة من الفترات من تجميد كل طاقة إبداعية، ومن كل تطلع إلى المستقبل. ولهذا السبب بالذات، حدثت فينا المقاتل والمذابح والمجازر بعد 1988، وخلال ما يسمى بالعشرية السوداء. توظيف التاريخ تحقق بالمعكوس عند البعض منا عند أشباه الانقلابيين الذي يزعمون تغيير دفّة التاريخ وتحويلها نحو وجهة أخرى. الصلاة صارت مكاءً تصدية على حد ما يقول به القرآن الكريم. والاقتصاد تحوّل في طرفة عين إلى تجارة المخزن والسوق السوداء. والمدرسة، هذه التي يفترض فيها أن تكون الركيزة في بنائنا الحضاري وتنطلق ضمن الرؤية الإيجابية التي انتزعنا انتزاعا، أجل، ولم لم ننتزع مثل هذه الرؤية ودماؤنا قد سالت غزيرة مدرارة بفعل الحرب التحريرية؟ –هذه المدرسة– تزعزعت دعائمها، واختلطت دونها السبل. أما الجامعة فصارت إلى حين من الأحيان، تفرخ جهلة بدلا من أن تصنْع طلابا يقضون مضاجع هذه الجزائر. ما الذي نفعله بتلاميذ وطلاب جامعيين إن لم تكن جوانحهم تنطوي على همة قعساء تقضُّ مضاجع الدنيا كلها؟.

دخلنا معركة التعريب، وما كان من الطبيعي أن ندخل هذه المعركة. بل إن كلمة (التعريب) التي لاكتها ألسنتنا أزمنة طويلة، في غير محلها. صرنا نصارع الطواحين الهوائية ولا ننتج طحينا. كيف أحارب نفسي بنفسي؟ كيف أشهر سلاحا ضدها وهويتي معروفة للخاص والعام. والتعريب الذي اضطلع به البعض يعني عودة إلى الرؤية الضبابية المشوشة، تلك التي تجعل من اللغة مجرد أداة كغيرها من الأدوات الأخرى بدلا من أن تكون ركيزة من الركائز الأساسية في البناء كله. الدين الإسلامي نفسه تزعزع بين أيدينا، وبفعل أولئك الذين يزعمون التقدم إلى الأمام في حين أن بوصلاتهم تشير إلى الوراء. وحدث الذي حدث عندنا! وبعدت الشقة بيننا وبين تلك الكوكبة من الأفكار الجميلة الرائدة التي حركت مجرى التاريخ عندنا، وصاغت ثورة هي من أجمل الثورات في هذا العصر.

وعليه، ما عاد من السهل أن نعمد إلى تقويم مسارنا التاريخي على الرغم من ضرورته القصوى. الوهج انطفأ بعد أن بلغ مرحلة التقديس في مرحلة من مراحلنا التاريخية. حقا، الثورات تتحول إلى ما يناقضها عندما تطول بها الأعمار، وذلك ما حدث عندنا لأننا لم نحسن التعامل مع ثورتنا. وقد يكون ذلك سنة من سنن هذه الحياة. فلقد قرأنا الشيء الكثير عن المقاتل التي حدثت بين صحابة الرسول ﷺ بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، على الرغم من أنه نبّههم في يوم من الأيام قائلا: لا ترجعوا بعدي كفّارا يضرب بعضكم رقاب بعض!

الدكتور محمد العربي ولد خليفة لا يتحدث مباشرة في مثل هذه المواضيع، لكن الأفكار التي يبثها في تضاعيف كتابه هذا تشير إليها في مجموعها. وكيف لا يكون الأمر كذلك وغاية همه هو النهوض بهذا الوطن؟ فهو من جيل تربى في الثورة وداخلها، ودرس في نطاق هذه الثورة، وحمل الحلم بين جوانحه في سبيل أن نكون أو لا نكوْن. وليس معنى ذلك أن البحوث التي تضمنها كتابه هذا متشائمة، كلا وألف كلا، بل هي تنبض بالتفاؤل، ويجري في عروقها النسغ الثوري الجميل، ولو

جاز لي أن أتحدث باسمه في هذا السياق لقلت إن جنباته تفيض تفاؤلا حتى وإن هو وجّه انتقاداته للعديد من جوانبنا التاريخية. وليس أدل على ذلك من أنه يولي اهتماما بالغا لكل ما له علاقة بهذا الوطن من الداخل ومن الخارج، بما في ذلك المفاهيم التي قولبها المفكرون الأجانب عنا بحكم أنها تعالج جوانب من تاريخنا ضمن رؤية خارجية. كما أنه يعير اهتمامه للأفكار التي صاغها عظماء المفكرين الأوربيين من أمثال إينشتاين وجاك بيرك ومن لفَّ لفّهما.

المنظومة التربوية التي يعروه التردد، الإقدام والإدبار، ينظر إليها نظرة من خبر أروقتها ودهاليزها. وهو قد فعل ذلك بحكم أنه كان في يوم من الأيام مسؤولا كبيرا في مجال التعليم. وها هو بالفعل يلخص كل ما يصطخب به وجدان كل جزائري يريد أن تكون مدرسته من أقوى المدارس في هذا الزمن. الشيء الجميل في نظرته هذه هو أنه ينظر إليها على أنها عباب زاخر زخار، لا ينبغي أن تتطامن غواربه، وتلكم هي المدرسة الحقيقية التي تميز الأمم المتقدمة، إنها سيرورة دائمة إلى الأمام، أو طلقات مدفعية نصحح مسارها بين الحين والآخر من أجل إصابة الهدف، ونكررها على الدوام. إنها أشبه بالبندول في التصورات الفيزيائية الكلاسيكية، ذلك الذي لا ينبغي أن يتوقف أبدا. وبالفعل، فنحن لا نريد لهذه المنظومة التربوية أن يجيء من يزعم أنه وحده القادر على السير بها إلى الأمام، بل هي جهد يتكرر، وينبغي أن يكون لكل واحد منا نصيبه من المشاركة فيها. الأمم المتقدّمة تسير على هذا النهج، بل إنه يحدث لها أن تقوم بثورات عنيفة في هذا الشأن مثلما وقع في فرنسا عام 1968، ومثلما حدث في روسيا بعد سقوط النظام الشيوعي حيث انتقلت المدرسة من الشمولية إلى النظام الجديد وكأنما أمضى القوم وقتهم كلهم وهم يعدون العدة في صمت للدخول في هذا النظام الجديد دون تلكؤ أو تعثر أو تردد.

ومن الطبيعي جدا أن يفرد الدكتور محمد العربي ولد خليفة صفحات طويلة للثورة الجزائرية، فكرا وتاريخا، وأن يمضي بعض الوقت في هذه الدارة

الجميلة التي يقال لها المرأة الجزائرية، هذه المشتلة التي تلد الجميل فالأجمل، والرائع فالأروع، على حد تعبيره. هذه الثورة التي تمثل شهادة ميلادنا في هذا الزمن، هي الركيزة والمنطلق، المبدأ الذي لا يعرف منتهى، لأنه لو عرف نقطة النهاية لسقط كل شيء. وهل النقطة إلا شكل هندسي جميل بسيط انطلقت منه جميع المفاهيم الهندسية بدءاً من أوقليدس ومرورا بالإخوة بني شاكر في العهد العربي الإسلامي الزاهر ووصولا إلى زمننا هذا؟ الثورة نقطة هندسية، وأعظم بها، أخي القارئ، من نقطة هندسية! منها ننطلق لكي نرسم وجودنا وفقا للنظرة التي نلقيها عليها، وقد فعل آباؤنا ذلك حقا وصدقا، وها هي الجزائر تفعل نفس الشيء على الرغم من المصائب التي انتابتها، وعلى الرغم من اشتداد العواصف وتكالب الأعداء عليها.

لو حق لي أن ألخص بحوث هذا الكتاب في جملة قصيرة لقلت عنها إنها الحركة الدؤوب، وذلك ما أرتجيه شخصيا من كل مقالة وكتاب في هذا الوطن. أجل، نعمل، ونخطئ، ثم نصوب خطواتنا ونسددها. هكذا وإلا فلا لا!.

أجل، هي الحركة الدؤوب، تلك التي تعلمناها في العصر العربي الإسلامي، وفي السباحة الفلكية في المقام الأول على حد التعبير القرآني، وفي التراث الفلسفي العالمي بدءا من هيراقليط، ذلك الذي رأى أن الإنسان لا ينزل إلى نفس النهر مرتين، وغاليليو، ذلك الذي قال في قرارة نفسه بعد أن زحفت عليه جيوش الظلام: ولكنها ما زالت تدور! إلى أولئك الذين فلقوا النواة في هذا الزمن، فغيّروا المفاهيم الزمنية، وغيّروا وجهة البشرية.

ألا ما أجمل وأدق هذا المرجاف الذي يسجل أدنى الهزات في كل حركة نأتيها في هذا الزمن! الشيء الجميل دقيق، وما هو دقيق لا يمكن أن يكون إلا جميلا!.

أبارك للزميل محمد العربي ولد خليفة جهده هذا، وأبارك للمكتبة الجزائرية هذا المولود الذي خرج من بطن أمه، واقف على قدميه، وراح يسعى في أرض الجزائر، في أرض الله.

بقلم: مرزاق بقطاش

مدخل

هذا الكتاب وموضوعه

ساهمت الثقافة بوجه عام في تأجيج الحسّ الوطني، والدفاع عن الانتماء الحضاري، كما كانت واحدة من الجبهات الرئيسية لتعبئة الشعب وتجنيده في معركة التحرير من الكولونيالية في الجزائر بوجه خاص، وفي بقاع مختلفة من المنطقة العربية والإفريقية.

اتخذت تلك المساهمة أشكالا مختلفة من التعابير الفكرية والجمالية متقاربة في موضوعاتها، وكثيرة نسبيا إذا تتبعنا شواهدها من بداية المقاومة الوطنية حتى انتصار الثورة التحريرية، فأيا كان لون التعبير الثقافي فإن المحور الأساسي كان في الأغلب الأعم هو تصوير وضعية الاحتلال، وما وصلت إليه الجزائر من تخلف وهوان وقهر، يتطلب استنفار آلياتها الدفاعية وفي مقدمتها المرجعية الروحية والتراث الشعبي.

مكّن ذلك الاستنفار من الصمود أمام الاعتداء اليومي على الشخصية الوطنية وحافظ على حالة من الاستعداد الدائم للتعبئة والمواجهة، – يمكن التعرف عليها اليوم في قسم كبير من القصص الشعبي – بكل اللّهجات – الذي تناقلته الأجيال، والدور الهام «للمداحين» في أسواق المدن والقرى، الذين كانوا يذكّرون الناس ببطولات حقيقية أو أسطورية ومعارك انتصر فيها الأجداد على قوى الظلم والطغيان بهدف تحفيز الهمم، وامتصاص حالة الإحباط والإحساس باليأس والإذلال، بعد سلسلة من عمليات القمع العقابي أو الردعي ضد المقاومة الشعبية، وتحويل كل ذلك الى تمرّد وسخط على القهر والتسلط الأجنبي وحلفائه من الأتباع المحليين.

بلغ النشاط الثقافي بمختلف أشكاله ذروته خلال الأربعينات ومستهل الخمسينات، فظهر في الجزائر رعيل من المفكرين والأدباء والفنانين على

علاقة بتيارات الحركة الوطنية الأكثر قربا من الشعب مثل حزب الشعب (حركة انتصار الحريات الديمقراطية فيما بعد) وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين في ظل القيادة المستنيرة للشيخ عبد الحميد بن باديس، وتنظيمات أخرى موازية لهياكل الإدارة الكولونيالية تعمل في السر وأحيانا تتحدى وتعمل في العلن من خلال جمعيات ونوادي على صلة وثيقة بالتوجيهات السياسية للحركة الوطنية، هدفها رفع الروح المعنوية للشعب والدفاع عن شخصيته المتميزة عن العدو الاستعماري والمحافظة على حسّه «الوطني» في حالة توثّب وغليان، كما نلمس ذلك على سبيل المثال في الشعر والغناء والمسرح وبعض المصنفات عن تاريخ الجزائر وأناشيد الكشافة الإسلامية الجزائرية التي خرجت منها فيما بعد كثير من قيادات جيش التحرير الوطني.

في تلك الظروف التي كانت فيها النشاطات الثقافية ضرباً من حرب العصابات، سخرت الأغلبية من المفكرين والأدباء والفنانين الجزائريين طاقاتهم الفكرية وتعبيراتهم الجمالية لخدمة القضية الوطنية على الرغم من التضييق ومصاعب التنظيم والتمويل والتبليغ، قاموا بتلك الأعمال عن طواعية واقتناع، بل تنافسوا في كثير من الميادين الثقافية للتعبير عن محنة الأمة وتبشيرها مسبقا بيوم النصر الموعود.

لقد تبنت ثورة أول نوفمبر أولئك المبدعين من المفكرين والشعراء والفنانين الذين هيأوا لمعارك التحرير أو شاركوا فيها بالشعر والأغنية والمسرحية واللوحة والرواية داخل الوطن الجريح وخارجه، وتجاوزت أعمال بعضهم النطاق المحلي والجهوي، وأخذت طريقها نحو العالمية وأصبحت جزءا من التراث الإنساني، لم يحصل أصحابها على أوسمة أو مكافآت مادية، وقلما ظهرت أسماؤهم في منشورات ما وراء البحار، بل كانوا تحت رقابة أجهزة الأمن الفرنسية وعانى كثير منهم من النفي والسجن أو تعرضوا للبطش والاغتيال.

ينبغي أن نلاحظ أنه في تلك الفترة العصيبة لم تمنح أية جائزة للمفكرين والأدباء الثوريين من طرف الهيئات الدولية المتورطة في الحرب

الباردة بين المعسكرين، والمتواطئة مع مراكز النفوذ الكولونيالي، فكثيرا ما كانت تلصق «شبهة الشيوعية» بكل نضال فكري أو فني من أجل الحرية والكرامة الوطنية.

وقد آثار ترشيح «الربوة المنسية» لمولود معمري جدلا طويلا في الصحافة الأدبية الفرنسية، وشكك عدد من الكتاب والمفكرين المنتمين للحركة الوطنية مثل شريف ساحلي ومصطفى الأشرف في دوافع الترشيح واقترحوا على معمري رفضه، سبب الريبة هو أن الإدارة الكولونيالية والأوساط المرتبطة بها من النقاد والمفكرين تتابع الإنتاج الفكري والأدبي لأغراض الرقابة والقمع وليس للتشجيع والمكافأة، إلا إذا كان في خدمة أهدافها وفي مقدمتها التنويه بمهامها التمدينية المزعومة وتجميل وجهها البشع أمام الأهالي.

ظهرت أهم تلك الانتقادات في صحيفة الشاب (المسلم) (Le jeune musulman) الناطقة باسم جمعية الشبان الجزائريين أولاها بقلم المرحوم الأستاذ شريف ساحلي تحت عنوان «ربوة الردّة» الذي يقول في نهاية مقاله الملتهب: «وضعت الأقاويل رواية السيد معمري تحت حماية أحد مارشالات فرنسا الذي يتعرف بسهولة على القومية (عدد بتاريخ 2 يناير جانفي 1953 بعنوان (La colline du Reniemant).

وبعد أسابيع قليلة كتب الأستاذ مصطفى الأشرف في قضية الصحيفة تحت عنوان الربوة المنسية أو تخلف الوعي (La colline oubliée ou la Couscienle anachronique) يقول «إننا على يقين بأن جبال القبائل قد ولدت دائما رجالا بسطاء وصرحاء وأكثر نقاء وشجاعة وهذا مالا نراه فيما نقرأ في الربوة» (الشاب الجزائري بتاريخ 1953/02/13).

ليس في نيتنا في هذه المقدمة جرد القائمة الطويلة للمبدعين في شتى ميادين الفكر والفنون والآداب فضلا عن التحليل والتقييم الذي يحتاج لاختصاص في كل واحد من تلك الميادين، ولكننا نذكر للاستشهاد فقط أسماء مثل محمد راسم شيخ مدرسة الرسم بالمنمنمات وخدة واسياخم وفارس في

الفن التشكيلي، وإيقربوشن أحد أعلام الموسيقى العالمية، ومصطفى كاتب وعبد الرحمن كاكي وعلولة، من بين كوكبة من رجال ونساء مسرح جزائري عبر بواقعية، جمعت بين الصدق والبساطة، وقدمت لمحة عن مفارقات الحياة اليومية لأهالي ليسوا مواطنين في بلدهم وليسوا أجانب تحميهم بلدانهم الأصلية، وصورت بطريقة تراجيدية كوميدية آلام القهر والانسحاق وآمال الناس العاديين وانتظارهم لمكان تحت الشمس.

كما تصدر القافلة شعراء من أعلى طراز من مستوى العمودي وآل خليفة ومفدي زكريا وكلهم من شعراء التحدي والعزة الوطنية، حيث كانت أشعارهم أشبه بالمناشير التحريضية التي تدعو الى التمرد والثورة وتذكر بأمجاد الجزائر، وتحثُّ شبابها على التمسك بجذوره الحضارية، والاستماتة في خوض معركته المقبلة ضد العدو، وتعده بحدس الشاعر المرهف بأنه سينتصر لا محالة. يدخل ضمن تلك القافلة رواد القصة والرواية، من بينهم مالك حداد المثقف الشريف والثائر على سجون الكولونيالية اللغوية الذهنية أو المادية والثقافية، وكاتب ياسين الذي أعلن في شبابه العصيان والتمرد على النظام الكولونيالي ونوه بجذوره الحضارية ورموز الجزائر التاريخية والمناضلة من أجل التقدم والحرية، ومحمد ديب الذي صور في ثلاثيته الرائعة حالة الحمل والمخاض لثورة أول نوفمبر 1954.

لا ينبغي أن ننسى مؤلفين معروفين ومجهولين للشعر الملحون وملحنين ومغنين في المناسبات الاجتماعية، يبدأون أشعارهم وأغانيهم بمدح الرسول (ﷺ) لتضليل الرقابة القمعية لأجهزة الاحتلال الفرنسي، ثم ينتقلون لتحريض الجماهير على التمرد ورفض الخضوع للمسخ والتدجين الكولونيالي.

هذه أسماء قليلة لقوافل من المبدعين طوى الكثير منهم التجاهل والنسيان، تحتاج لأنطولوجيا أدبية يساهم فيها المؤرخون والنقاد وتعمل على جمع وتصنيف وتوصيف تراثنا وتنقذه من التداول الشفهي الذي سيؤدي بعد جيل أو جيلين الى فقدانه تماما، ولا عذر لنا إذا حصلت هذه الكارثة لأن الوسائل العصرية للتحقيق والحفظ والتسجيل

متوفرة وفي متناول المختصين والهيئات المعنية في الولايات وكثير من بلديات الجمهورية، كما أن الفترة الزمنية المهمة تمتد على حوالي قرن ونصف، أي من بداية الاحتلال الى سقوطه في مستهل الستينات.

يمثل التراكم الثقافي بعدا أساسيا في الأنا الجماعي والذاكرة التاريخية للأمة وهي لا تقتصر على سلاسل من أسماء القادة والساسة البارزين أو على حوادث خارقة للعادة، بل تتضمن كذلك الذين يعطون لتلك الذاكرة الجماعيـة مـضامين فكـرية وجمالية وبطانة وجدانية ترسخ الانتماء الحضـاري والعـزة الوطنيـة التي يشعر بها الفرنسي وهو ينتمي الى فولتير أو هيغو أو ديكارت.

ويحس بها الروسي وهو ينصت لروائع دايستوفسكي أو يطالع غوركي أو تولستوي أو تشيخوف، ويتحمس لها البريطاني وهو يشاهد مسرح شكسبير أو يقرأ تشارلز ديكنز وسمرست موم، وهو ما يقال على ألمانيا التي قسمتها الحرب والإيديولوجية ووحدتها مآثر غوته وكانط وبتهوفن... لاشك أن تلك الثروة الثقافية هي التي تضع الأمة في سياقها التاريخي الحضاري وتساعد على تطويره من داخل تاريخيته (historicité) أي تعطيه خصوصية تمثل مدى مساهمة تلك الأمة في تراث الإنسانية.

لكي تكون الأمة في صميم المعاصرة والحداثة، ينبغي أن يكون لها «سجل» ثقافي فيه من الإبداع والاختراع ما يرقي الى العالمية ويعكس ثقافتها المشتركة وثقافاتها الفرعية أي يجمع بين الوحدة والتنوع فيما يسمى «الكل» الاجتماعي بحيث لا يؤدي التجديد والتطور الى انقطاعات مصطنعة في الزمان والمكان، بل يكون صورة للاستمرارية المعنوية للمجتمع وسجلا لعبقرية الأجيال المتلاحقة التي تتعرف من خلاله على ذاتيتها المتيمزة، وتعتز بالانتماء الى وطن واحد – فترى ملامحها على سفوح جرجرة وهي تقرأ أشعار محند أو محند، مثلما تزهو بالسهل الوهراني وهي تنشد قصائد بلخير والأخضر بن خلوف، أو تستحضر بهاء ووقار التل والصحراء وهي تردد أشعار السماتي وبن قيطون وبن كريو،

تحسّ تلك الأجيال بأن وراء التنوع وحدة وثراء، وأن سر تلك الوحدة هو التنوع في أشكال التعبير الفني والجمالي.

خلف ذلك الرعيل شباب (هم الآن كهول) تبنى الكثير منهم خلال العقدين السابقين (السبعينات والثمانينات) أهم القضايا الوطنية وأضافوا إليها إشكاليات جديدة مثل مكانة المفكر والفنان في المجتمع، والعلاقة بالدولة والنظام السياسي والحدود بين حرية المبدع، والالتزام بمعانيه الإيديولوجية والسياسية، ومسائل الهوية والانتماء الحضاري، كما حظي مطلب العدالة الاجتماعية ودور المرأة ومكانتها في مجتمع تتجاذبه رواسب التخلف وعقلية «ليس بالإمكان أحسن مما كان» من جهة، وتطلعات نحو التقدم والتواجد في صميم العصر وتحرير الرجل والمرأة معا وإعدادهما للدخول في سباق لا يرحم الضعفاء والمترددين من جهة أخرى.

وقد أهتم أولائك المفكرون والكتاب والشعراء والفنانون بقضايا الثورة والثروة مما ساعد على تبلور تيارات أو لنقل «عائلات» فكرية فنية ذات توجهات إيديولوجية متمايزة سواءا أكانت منتمية بالفعل وعلنا الى حركات وأحزاب سرية أو معروفة، أم كانت تعبر عن قناعات شخصية.

أسفر مجموع تلك المقاربات عن إنتاج فكري وفني وجمالي لا يستهان به، لابد لتقييمه من ناحية المحتوى الفكري والمضامين الفنية من إخضاعه للنقد والمقارنة، ووضعه في السياق التاريخي المجتمعي لتلك الفترة من عمر الدولة الوطنية الفتية، ولكن تكفي نظرة إجمالية لما نشر من مصنفات في فروع المعرفة والفن والأدب، وما ظهر من مجلات متخصصة ودوريات على علاقة بالجامعات أو بالنوادي والجمعيات المحلية والوطنية للتعرف على عشرات الأسماء لرجال ونساء اقتحموا الميدان بأدوات معرفية وفنية خفيفة، في البداية استمر البعض منها بشجاعة ومثابرة لم تنل منها العوائق والإحباطات الكثيرة المتعلقة بالطبع والنشر والعرض الفني والتبليغ الواسع للجمهور، وتوقف البعض الآخر أو هاجر الى الخارج بعد أن يئس من إدارة ورثت أسوأ مخلفات العهد الكولونيالي.

حدثت حركية مشابهة على مستوى المنطقة العربية حتى تأكد الانهيار الشامل (1967) على مستوى الأنظمة السياسية التي خرج معظمها من الثكنات بلا مشروع ولا قضية ليلبس البدلات الأنيقة فوق قمصان بلون الكاكي، أنظمة خدعت شعوبها وعاثت فيها النمونكلاتورا فسادا، وضاعت في أوهام اللاتنمية والصراع على اقتسام «الكعكة».

وجدت تلك الأنظمة نفسها في قبضة عدوّ شعوبها الأكثر خطورة وهو النظام الدولي للهيمنة والتبعية، وتولت أداته الاصطناعية (إسرائيل) إذلالها في عقر دارها وفي المحافل الدولية، لتتحول بعد ثرثرة مخزية عن الإنجازات العظيمة والانتصارات التاريخية [من كامب ديفيد الى أسلو مرورا بمدريد وبرشلونة]، الى شحات يتسول السلام ويستغيث من الرمضاء (إسرائيل) بالنار (الولايات المتحدة).

تم كل ذلك على مرأى ومسمع من جماهير أنهكها البؤس والإحباط: لا تسمع في مشرقها إلا ما يدمي القلب ويندى له الجبين، أخبار مرْوعة عن النكبة والاجتياح واستعراضات «فرعون» الصغير (إسرائيل) في البر والبحر والجو، وأما في مغربها فالحديث يكاد يقتصر على الإفلاس والأزمة (وهما تقريبا كلمتان مترادفتان في قسم كبير من الخطاب السياسي والثقافي).

يضاف الى كل ذلك ما حل بالجزائر منارة الحرية ومفخرة المنطقة كلها في التضحية من أجل الكرامة الوطنية: تقتيل إجرامي للنخبة الفكرية والاجتماعية ومذابح على أوسع نطاق لسكان القرى والأكواخ القصديرية، انكفاء وانفراط والتهابات تثيرها كلمات مثل: إسلام، سلطة، حداثة، ثورة، عدالة، انتخاب، ديمقراطية الخ... كلمات كانت قبل سنوات قليلة جد عاديّة.

أما الشعوب الموضوعة تحت الحراسة على درجات متفاوتة من طانجة الى عمان، فقد تولّت أمرها أجهزة متخصصة في الوعد والوعيد.

– وعد تولى إعلام «التبييض» المزيّف ترويج مغالطاته في صورة أحلام مخملية عن الغد الأفضل، والتنويه اللفظي بالشعب الكادح والجيل الصاعد والمثقف الملتزم.

– ووعيد أشرفت على تنفيذه أجهزة أمنية مزودة بتكنولوجيا متطورة في بلدان تنخرها أمراض العشائرية والفساد والإهدار، وتستعد للسيطرة على قرارها السياسي جماعات من الأثرياء الجدد بأسماء صريحة أو مستعارة، حققت عن طريق المضاربة وصفقات الاستيراد، أرباحا طائلة بدون جهد أو استحقاق، لتودع تلك الأرباح في البنوك الأرو أمريكية، وهي تتصف بالإضافة الى الجهل بالبطر والاستعراضية.

تعرض الفكر والفن في مجموع المنطقة الى «دايلاما» عويصة فبالإضافة الى الحدود والقيود التي فرضتها الأنظمة الشمولية بحد السيف أو بقفازات حريرية، بدأت موجة أخرى موازية للأولى في الوسائل ولكنها مختلفة في الأهداف، وهي ظاهرة ما يسمى الإسلام الشعبي لأغراض الرد الاحتجاجي أو لأغراض أخرى أشرنا لبعضها في مقاربة أخرى (انظر الكتاب: التنمية والديمقراطية في الجزائر والمنطقة العربية، المطبوعات الجامعية الجزائر 1991).

نتج عن هذه الدايلاما الخطيرة هجرة مكثفة لمئات، بل لآلاف من المفكرين والباحثين في مختلف فروع المعرفة والتكنولوجيا والأدباء والفنانين من أعلى طراز، ساهم أولائك المهاجرون طوعا أو كرها بعيدا عن أوطانهم الأصلية، في نشاطات البحث العلمي والتكنولوجي، وتم استعمال بعضهم، وخاصة المختصون في الآداب والعلوم الاجتماعية لدراسة الأوضاع في بلدانهم وتقديم ما يشبه التقارير «الاستطلاعية» عن حاضرها ومستقبلها وأشكال الصراع وتوازنات القوة وجوانب الضعف في مجتمعاتهم مقابل الوظيفة وشهادة الإقامة، وأحيانا الجنسية.

والملاحظ أن حركة التنقل والإقامة ازدادت منذ بداية عقد التسعينات تعقيدا وصعوبة بالنسبة للمواطنين العاديين داخل المنطقة العربية فضلا عن العلماء والمبدعين الذين يجدون تسهيلات وأحيانا ترحيبا في لندن وباريس وبرلين ونيويورك وغيرها من بلدان الغرب الأرو أمريكي، وهذا هو الوجه الأول من الدايلاما.

أما الوجه الثاني فيرجع الى علة أعمق وهي استيلاء السلطة على الدولة، وابتعادهما معا عن المجتمع كما هو بالفعل، مما أدى الى علاقة مشوهة

بين الأنظمة القائمة وعدد كبير من نساء ورجال الفكر والإبداع، فإذا ما أيدوا أو دافعوا عن قضية تبنتها السلطة، فإنه من السهل اعتبارهم من المأجورين في وكالة «التبييض» الإعلامي وفي أسوإ الحالات الإشارة إليهم بأنهم من ذباب الحاشية أو ذئابها الشرسة.

وإذا ما دافعوا عن دولة العدل والقانون ودعوا لأن تكون صورة صادقة للمجتمع، وقاطرته الرشيدة والأمينة نحو التقدم والتجانس والازدهار، وتمسكوا بحرية التفكير والتفكير الحر، تصدت لهم أجهزة متمرسة في أساليب الإسكات والإغراء، أو وجهت لهم جماعات و«وكلاء» مقنعين للرقابة على الثقافة تهمة العمالة والمروق والتخريب، تمهيدا لتصفيتهم المعنوية أو الجسدية، فلا يجدون حلا سوى الصمت الذي يزيدهم حنقا وغيظا، أو التوبة والالتحاق بمجمع الذباب، وفي احتمال آخر، وقد يكون الأول، الهجرة الى أرض الله الواسعة.

شغلتنا تلك القضايا والإشكاليات مدة طويلة، وكانت محور خصومات ومناقشات في أروقة الجامعة ومع الخلان والرفاق وفي هيئات جبهة التحرير، ومع عدد كبير من السفراء العرب والأجانب وبعض الساسة من أعلى مستوى أثناء تواجدنا في الخارج وكنا نتلمس في الأفق، بوادر رأي عام ثقافي – سياسي، يرقى الى مستوى الوعي والتسيس الذي بلغه شعبنا أثناء مرحلة الحركة الوطـنية في الثلاثيـنات والأربعـينات، وازداد نضجا خلال فترة الثورة وكفاح التحرير.

الحقيقة أننا كنا قاب قوسين من تثمين ذلك الرصيد العظيم بعد المناقشات الواسعة والمنقطعة النظير للميثاق الوطني سنة 1976 والحقبة الذهبية التي أعقبت ذلك الى سنة 1980 حيث تعددت الاجتهادات وتصارعت التيارات في جبهة التحرير التي نجحت في تنظيم أول تعددية نظيفة والى حد كبير شفافة وديمقراطية.

أزعجت تلك التجربة القصيرة دوائر كثيرة فأعيدت «الجبهة» الى سيرتها القديمة وأسدل الستار على محاولات التجديد والابتكار في

المناهج والأفكار، وأبحرت السفينة نحو فاجعة أكتوبر الأليمة، لقد انخدع أناس أمام وخلف الستار، بإرشادات وتشجيعات جاءت من وراء البحار، فانفجرت التناقضات وانفرطت الجوامع والمشتركات، وتمكن بعض القناصة من تحويلها الى متفجرات، تضرب أركان الأمة وتهدد تجانس المجتمع وطغت المنعكسات البافلوفية (نسبة الى بافلوف وتجارب الكلب واللعاب) والثنائيات الانشطارية، وكثرت الأحكام المتسرعة والتبسيطية في مسائل على درجة عالية من التعقيد والأهمية.

هل كان بالإمكان أن تكون المنطقة عموما والجزائر بوجه خاص في وضعية أفضل مما هي عليه الآن؟ أجبنا جزئيا على هذا السؤال في مقاربتين أولاهما عن الهيكلة الجديدة للعالم: من الحرب الباردة الى الأحادية القطبية[1] وثانيتهما خصصناها لجوانب من الأزمة المفروضة على الجزائر[2].

ونعرض في هذا المجهود المتواضع لبعض الانشغالات الثقافية والمجتمعية والسياسية المتعلقة بالجزائر ومنطقتها الجيوسياسية وهو يتكون من ثلاثة أقسام، اخترنا في القسم الأول أسلوب المناظرة القائم على التوليد الجدلي أي عرض الفكرة، ثم الاعتراض عليها وصياغة خلاصة تركيبية تخضع بدورها لنفس العملية السابقة، وهو المنهج الذي ابتكره أفلاطون وبلغ به أعلى درجات الإتقان. وقد أعجب به أوائل الفلاسفة الإسلاميين وسموه «الشيخ» أو «أفلاطن» واعتبروه أقرب فلاسفة الإغريق والثقافة الهلينية كلها الى إشراقات الإسلام وفيوضاته الروحية فهو عندهم فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة.

نشرت مقاطع من هذه المحاورة في الصحافة الأسبوعية في أواخر الثمانينات، وقمنا في نفس الفترة بمراجعتها واستكمالها لغرض نشرها في صورة كتاب بإلحاح من الأصدقاء والزملاء والقراء الذين أطلعوا على العينات المنشورة منها، وقدمناها فعلا للمرحومة بدون تأبين: المؤسسة

---

(1) نشر ديوان المطبوعات الجامعية، فبراير (فيفري) 1998.

(2) نشر دار الأمة، 1998.

الوطنية للكتاب، لتبقى في رفوفها أو كهوفها العنكبوتية سنوات طوالاً، نلخص وقائع الاختفاء والظهور في كلمات:

بعد مقابلات ومراجعات تخللتها مرافعات تافهة عن قوانين السوق، وسوق الكتاب، والإفلاس، أخبرنا كبير السدنة بلا خجل ولا اعتذار، بفقدان الأصل والصورة، لأسباب مجهولة، وقصة العجب الذي امتزج فيه الصبر بالغضب طويلة، نهايتها مكالمة هاتفية آمرة بإحضار الوديعة، في مدة قصيرة، لا تزيد على يوم وليلة، وقد نبه الآمر الكريم تابعه السادن بالنيابة، أن الجالس في مكتبه في رياض الفتح هو صاحب الكتاب المفقود، وهو أيضا سلفه الأسبق على رأس القطاع قبل بضع سنين.

بعد استعادة الوديعة، قمنا بتعديلات جزئية، فيها حذف وإضافة وتمحيص، وهي موزعة على سبعة مسائل حوارية تتبارز فيها الأفكار، ويعبر فيها الثلاثي المتحاور عن آراء ومواقف بطريقة «الجنتلمان» التي تجمع بين اللطف والصرامة، والعفوية والرزانة، ويتجاور في كل مسألة الرضى والأمل مع السخط والتمرد، ويلتقي الاستلاب والعدمية مع الحيرة واللاأدرية.

أما القسم الثاني فقد تم تحريره ما بين 1994 و1997 وهو يتوزع أيضا على سبعة مسائل تحت عنوان: (الثورة الجزائريةِ مطلب المواطنة والحرية كفاح شعب ومشروعية قضية)، وهو عبارة عن سلسلة من المقاربات التوصيفية يقترب أحيانا من التقييم والنقد والمقارنة، قدمنا بعضها كمساهمات متواضعة في الذكرى الأربعين لثورة نوفمبر 1954 وخصصنا بعضها الآخر لمعاناة شعبنا، خلال ليل الكولونيالية الأسود، وقدراته الفذة على الصمود والانتصار عندما يجد النخب الوفية التي تحسن بآلامه وآماله.

وفي القسم الثالث والأخير وهو يتضمن أيضا سبعة موضوعات، نتناول فيها بالتحليل بعض قضايا التربية والهوية ووضعية البحث في جانب من العلوم الاجتماعية، كل ذلك على ضوء التحولات الجارية في بلادنا، وفي العالم من حولنا.

تستند كل فصول هذه المساهمة المتواضعة على ثلاثة أفكار رئيسية **أولاها**: أن الجزائر تتمتع بمؤهلات مادية ومعنوية هائلة، أغلبها في حالة كمون، لا يمكن تفعيلها بالاكتفاء بالاستنساخ والببغائية أو بالاقتصار على الأوصاف الرنّانة، وأن توظيفها الصحيح يتوقف الى حد بعيد على إدراك مسلكية شعبها والانطلاق دائما من تجربته التاريخية، **ثانيتهما**: أن النخب القيادية، فكرية وسياسية لا يمكن أن تنجح في مهام البناء الحضاري والمؤسساتي وتضمن الازدهار والاستقرار وقوة الدولة لا دولة القوة، وترقية العلوم والفنون والآداب واستحقاق الوطن للهيبة والمناعة، لا يمكنها أبدا أن تنجح أو تضمن كل ذلك إذا تناست حقوق وواجبات المواطنة، أو اعتبرت نفسها طائفة خارج المجتمع أو فوقه، **وثالثتها**: أن في جوهر الوطنية الجزائرية اعتزازاً طبيعيًا بالهوية العربية الإسلامية وبالأمازيغية باعتبارها الرابطة القوية بين الإسلام عقيدة وحضارة والعروبة لسانا وثقافة، فإذا اهتزت تلك العلاقة أو ضعفت فهناك يقينا بصمات للذئب الكولونيالي وروائح متعفنة لتركته الإجرامية، وأن الدولة تعاني من الوهن والاضطراب بسبب فساد التدبير وسوء التقدير.

إننا نميل إلى منهج الجدل الصاعد الذي يرفع الثقافة الوطنية الى مستوى العالمية، ولا نثق في الجدل النازل الذي يبدأ بالعالمية ليحط من عليائه فيما يصبح في نظره فولكلورا للفرجة والتسلية، لقد ضاع كثير من دعاة عالمية بلا وطن ولا جنسية وفقدوا في نهاية المطاف المدار والجاذبية.

محمد العربي ولد خليفة

بن عكنون جويلية 1998.

القسم الأول

مناظرة حوارية: خطابات ثقافية

- الفكر واللغة: المذهب والأداة
- الفتوحات المعرفية ولفظيات العصرنة والعقلانية
- عقداء المعرفة الانقلابيون
- الانفتاح: تبادل حر للأفكار.. نحو الفعل الحضاري
- جيل اليتامى السعداء في الغرب وثقافة الصحافة
- الحكم والقيادة
- الثورة الجزائرية والمسألة الإيديولوجية.

الفكر واللغة... المذهب والأداة

فارح كمال

اقترح أيها الأصدقاء أن نبدأ بسؤال لم يخطر على بالنا طرحه في لقاءاتنا السابقة وهو: لماذا اخترنا المحاورة أسلوبا للتفكير؟ قد يكون سبب النسيان هو التلقائية التي تعاهدنا عليها منذ أول لقاء وصادقنا عليها بالإجماع، ونحن نعرف أن كثيرا من آلياتنا السلوكية والذهنية، مثل المشي والكلام والنوم تحظى بمصادقة ضمنية ولا نفكر في كيفية حدوثها إلا إذا طرأ عليها اضطراب.

وقد يكون السبب هو شيوع الممارسة والتداول فالناس يتبادلون العملة المعدنية والورقية وقلما ينتبهون الى ما تشير إليه رسوماتها من معاني ورموز وبالمثل فان الناس يتحاورون قياما وقعودا، احترافا وهواية أليست الاجتماعات الرسمية والشعبية محاورات وما يتراءى لنا من هواجس وأحلام محاورات صامتة؟ ألا تعتبر المحاضرات والتدخلات والخطب قراءات متبادلة - أي حوارية - للأفكار والنوايا؟ ولا يجذب كل ذلك انتباهنا إلا إذا حدث خلل عطل العادة أو عرقل آليتها.

واسمحوا لي إذن أن أضيف الى التلقائية شيئا من السذاجة البريئة فأذكر ببعض البديهيات التي نسيناها في غمرة اللقاءات السابقة، فما العلم سوى تذكر وما الجهل سوى نسيان، فما هو الحوار؟

تغطي هذه الكلمة كل تبادل للأفكار يفترض أن يكون متكافئا ويبدأ بتبادل الإشارات والإيماءات والأحكام والتقديرات حول الشؤون العادية التي يواجهها الناس في حياتهم اليومية ويمتد الى قضايا أكثر تعقيدا تتصل بما يسميه ابن رشد عالم الغيب (كل ما يدرك بالحدس والوجدان) وعالم الشهادة (كل ما يمكن نفيه أو إثباته بالبرهان).

ويشترك في الحوار عادة أكثر من شخص واحد لهدف التداول أو التفاوض أو المناقشة وتمحيص الآراء ولكن من الممكن أيضا أن يحدث الحوار بين الشخص ونفسه، وقد يرقى هذا الشكل من الحوار الى مستوى التوليد المنهجي الذي ابتكره أفلاطون ثلاثة قرون قبل الميلاد وهو الأساس الذي تبنى عليه الى اليوم فنون المسرح والقصة والرواية والإخراج السينمائي، كما استمد منه علماء التحليل النفسي طريقتهم المعروفة بالتداعي الحر لأغراض علمية وعلاجية ومكنت هذه الطريقة الفنانين الموهوبين من الارتفاع بالواقعي الى مستوى المتخيل وإعطاء المتخيل طابع الواقعي، كما هو الشأن في الرواية التاريخية والقصص الفنية من ابن طفيل (حي بن يقظان) حتى والت ديزني (أفلام الكارتون).

وقد ارتقى أفلاطون بهذا الشكل من التعبير الفني الى مستوى لم يسبق له نظير وقلما بلغه مفكر آخر بعده، ويذهب أغلب النقاد الذين درسوا محاوراته مثل فيدون والمائدة في لغتها الأصلية أو ترجماتها المتعددة الى أنها جمعت بين قوة الفكرة وروعة الأسلوب، وذلك بغض النظر عن الاتفاق أو الاختلاف مع صاحبها، لقد حل هذا الفيلسوف الفنان منذ وقت مبكر الإشكالية المفتعلة بين الشكل (كل طرق التعبير الفني من الشعر الى الرسم)، والمضمون (الرسالة الفكرية أو الشحنة الوجدانية أو المعلومة البسيطة).

ألا تريان معي أن أسلوب الحوار ليس في النهاية سوى مفتاح يمكن أن يستعمله ذوو الرؤية الفنية الثاقبة ويبلغون به قمة التعبير الجمالي كما هو الحال في سيمفونيات بيتهوفن وموزارت وتشايكوفسكي.. أو يصعدون به الى ذروة الترانسندنتالي (التعالي الاشراقي) كما هو الشأن في مسرحيات شكسبير وبريخت.

وقد يستعمل الحوار لأغراض نفعية وتكتيكية فنقول الحوار بين الشرق والغرب والحوار بين الشمال والجنوب والحوار بين الأطراف المتصارعة في لبنان ونكتفي أحيانا بوصفه فنقول: هذا حوار مفتوح ولكنه مفتوح على ماذا؟ وكيف يحدث الحوار إذا كانت أبوابه موصدة؟

فارح كمال:

أثار انتباهي نسبتك الحوار الى جد أول هو أفلاطون متناسبا الحكمة الشرقية التي سبقته في الصين وفارس وما بين النهرين، هل نسيت كوفيشيوس وزرادشت وفنون اليوغا والنيرفانا في بلاد الهند؟ وهي أشكال لحوار بين الروح ومثلها الأعلى، وهو الصفاء الشفاف الذي يهيء للإنسان الطمأنينة والسعادة والرضى ولعل أبلغ تعبير عن ذلك هو الآية الكريمة: «يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية».

وتقبل اليوم بعض الفئات في المجتمعات المصنعة على اعتناق الحكمة الشرقية الصحيحة والمزيفة - (مثل حركة مون التجارية ذات الأصل الكوري) - باعتبارها منفذا وملاذا من وضعية التشيء (Choisme) والتفاهة والوتيرية أو الميكانيكية التي تسود تلك المجتمعات، ألا يحتاج الإنسان أحيانا الى التحاور مع ما هو سحري وفوق حسي لا يقبل الحساب ولا يخضع لمقولات العقل أو كما يقول الفقهاء ما يشم ولا يحك، لا اعتقد أن هناك من ينكر أهمية أفلاطون في الفكر الإنساني ومساهمته الكبيرة في منهج التوليد الحواري، ولكنني أعارض الطريقة الشائعة بيننا في تضخيم دور شخص وتأليهه، وقصر الفضل على منطقة جغرافية أو حقبة تاريخية دون غيرها، فإذا تحدثنا عن القانون سارع البعض بنسبته الى (روما) وكأن حامورابي لم يوجد، وإذا تحدثنا عن الفلسفة تبادر الى الذهن أنها نشأت بين كريت وأثينا. وقد انعكست هذه الطريقة فيما أسميه العقدة الحضارية، فإذا قرر أحد المفكرين الغربيين بأن الطب والرياضيات والهندسة قد أحرزت على تقدم كبير عند العرب والمسلمين أو أن «شمس الله أشرقت على الغرب» من بغداد وقرطبة اعتبرنا ذلك اعترافا خطيرا وهللنا له واستشهدنا به بمناسبة وبغير مناسبة.

وإذا ما اكتشف المفكرون الغربيون أحد أساطين الفكر كما حدث لابن خلدون وابن رشد وابن الهيثم.. تسابق عندنا المعلقون والمجتهدون في ترديد الصدى فتتهاطل الأطروحات الجامعية والمؤلفات التنويهية،

وشاعت المبالغة في خلع صفات مثل المؤسس الأول، والمكتشف الحقيقي، والمعلم السباق الذي كان ضحية النسيان أو الافتراء، ولكن كيف حدث النسيان؟ وعلى من تقع اللائمة؟ ولماذا اللجوء الى المبالغة؟

هل هي ناجمة عن الإحساس بالذنب والتكفير عنه بالتبرير؟ أم هناك حاجة الى شهادة من الغير ترفع المعنويات؟

لا أطيل عليكما الحديث في هذا الموضوع فقد أتى التلميح إليه على مضض لأنه مجرد أعراض للوهن الحضاري والارتباك الثقافي الذي يدفع لأكثر من ذلك فيجعل الشخص يسب ماضيه ويشوه خلقته لإثبات تواجده الانطباعي في العصر أو يلتجيء الى خيمة الماضي يختبيء في ذكرياتها بسبب العجز عن مواجهة الحاضر وعبور الجسر المعلق والاتجاه نحو المستقبل أي تحقيق التقدم.

أملي أن تتسع الصدور عندما أزعم بأن انشغالنا منذ أمد طويل بقضية الأصالة والحداثة يعني أننا نتخاصم على تركة الأجداد ونتطاول بالكلام على منجزات العصر فأية أصالة التي نتحدث عنها ونحن عاجزون عن المبادرة بأي جهد جماعي منسق ومتواصل لحصر روائع التراث المتناثرة عبر العالم وتصويرها بالميكروفيلم واستعادتها من المهجر؟ وأية حداثة هذه ونحن لا ننتج التقدم ونسمح لأنفسنا في نفس الوقت بالاشتباك في مصارعات وملاكمات عن معناه وحدوده ونتطاول على الغير فنقيم انجازاتهم التقدمية ونلصق بها صفات تذكرني بقصة الثعلب مع العنب؟! ومهما كان الأمر فأنا مع الأخ طارق في اعتباره الحوار مدخلاً للحرية، والحرية حق يكتسب بمجهود جماعي (نضال الشعوب) وفردي بالعمل على جعل ذلك المكسب الجماعي واقعا يمارسه الأفراد.

غضبان وحيد:

أنا غضبان وأقبل على مضض أن نتحاور في معنى الحوار لأني اعتقد أن ذلك يفسد نكهته ألا تريان معي أنه لو قام الناس بتحليل الهواء الذي يتنفسونه والماء الذي يشربونه الى عناصره الأولى لشق عليهم الأمر وكرهوا الماء والهواء وكرهوا حتى أنفسهم.

ولكن لا بأس... سأعود بالموضوع الى أساسه وهو علاقة الفكر باللغة وهي علاقة كانت وما زالت موضوع جدل ساخن منذ ايساغوجي أرسطو مرورا بلسانيات ابن جني الى بنيوية ميرلو بونتي، يرى البعض أن الفكرة هي الشرارة الأولى التي تنقدح فتخلع على الأصوات معاني ودلالات نسميها اللغة فيحدث الحوار والتبادل، ويرى البعض الآخر أن اللغة ليست مجردوعاء، بل هي الفكر نفسه فهل يفكر من لا لغة له (الحيوان)؟ وهل هناك لغة لمن لا فكر له (المعتوه)؟ وهناك من يرى التزامن بين التفكير والتعبير، وبالتالي هل يصح أن يقول أحدهم عندي فكرة أعجز عن التعبير عنها؟ ألا يدل ذلك على أن لديه أوهام فكرة لا أكثر ولا أقل؟ ألا يعني ذلك أيضا أن هناك كلاما خال من التفكير نسميه التخريف أو الهذيان؟ ولذلك ميز المختصون في اللسانيات والصوتيات بين النطق والكلام واللسان وبين الدالة والدلالة والمدلول واعتبروها درجات متمايزة في التعبير وتذهب أحدث النظريات الى افتراض وجود كائنات أرقى من الجنس البشري في عوالم لم تكتشف بعد انتجت (أو هي تنتج الآن) حضارة أعظم وأقوى من حضارة النطق والتفكير!

لا أريد أن أثقل عليكما أيها الصديقان بهذا الجدل الكلاسيكي فالثابت أن اللغة تكتسب وتنمو من المهد الى اللحد، وهذا الاكتساب هو ما أقرته الآية الكريمة: «خلق الإنسان علمه البيان» ليس من هواياتي مع أني «غضبان» نبش الماضي والتهكم على الحاضر، لأن سبب غضبي هو أساسا على نفسي ومن نفسي الأمارة بالسوء، والسوء هنا هو المغالاة في التفاؤل حتى تسمع نفسي وترى ما يخالف ذلك، وبناء عليه سأبدأ غضبي المتفائل من الماضي ولا أتقدم به الآن الى الحاضر.

لقد وصل أفلاطون ومنهجه الحواري الى العالم الإسلامي ربما في منتصف القرن الأول للهجرة (وعرف إذاك باسم «الشيخ» أو أفلاطن) وفضّله الاتجاه الروحاني باختلاف نزعاته على تلميذه أرسطو، ولكن هل أثر أسلوبه الحواري الشيق على طرق التعبير الفني عند أوائل المفكرين

المسلمين؟ الجواب: إنه إذا استثنينا الترجمة الخالدة التي قام بها ابن المقفع لكليلة ودمنة، وهي ذات أصل شرقي واضح، فأن رواد الفكر الأوائل الكندي والفارابي عانوا مشقة كبيرة في تطويع اللغة ونحت المصطلح، وتدل شروح وترجمات الإلهيات والطبيعيات الأرسطية على أن أصعب الأمور هي حقا مباديها، إن النجاح الكبير الذي حققه أولئك الرواد في إنقاذ التراث اليوناني واستيعابه وخاصة نقل وتطوير أفكار أرسطو ومدرسته لا يوازيه نجاح آخر في التأثر بأسلوب أفلاطون الشاعري ونظريته في الفيوضات التي طورها تلميذه المتأخر أفلوطين في «تساعياته» الشهيرة.

طارق سعيد:

على الرغم من شيوع المصطلح الفلسفي اليوناني في علوم اللغة والبيان والبلاغة فأن سلسلة المفكرين من الكندي الى ابن رشد وعلماء الكلام من الجهم حتى ابن تيمية قد بهرهم الأسلوب القرآني. فجعلوا منه النموذج الأعلى، واقتصروا في البداية على إعجازه من الوجهة الدينية البحتة، قبل أن يدركوا بأن تعظيم القرآن لا يمنع من دراسته من الناحية اللغوية والفكرية والبلاغية وهو ما قام به عبد القاهر الجرجاني في مؤلفين هما «دلائل الإعجاز» و«أسرار البلاغة» ووضع فيهما مفاهيم علمية لا تزال موضع اهتمام الدارسين الى اليوم سواء في علوم اللغة والصوتيات أم في النقد الأدبي والأدب المقارن.

لقد أضافِ الجرجاني وخاصة في «أسرار البلاغة» بعدا جديدا للنص القرآني فهو في رأيه ليس عقائديا فحسب، بل هو أيضا نص جمالي، ألم يقل سبحانه وتعالى: **«ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء»**؟ والكلمة الطيبة هي كلمة جميلة وتدخل نظرية الجرجاني عن الإبداع البياني في سياق مدرسة إسلامية موازية للمدرسة الأفلاطونية التي سادت أدبيات الصوفية وتكمل جهدا ساهم فيه الرماني بكتابه «النكت في إعجاز القرآن» والباقلاني في كتابه «إعجاز القرآن» والشريف في كتابه «تلخيص البيان في مجازات القرآن»

والبغدادي في مؤلفه عن «المجاز في تشبيهات القرآن» وبذلك اتخذ البيان ثلاث اتجاهات متمايزة هي الاتجاه الفلسفي المتأثر بكتاب الشعر لأرسطو كما يبدو ذلك في «الحكمة العروضية» لابن سينا و«كتاب الموسيقى الكبير» قبله للفارابي، والاتجاه القرآني عند الجرجاني والاتجاه الصوفي المتأثر بأفلاطون وبوجه خاص تلميذه أفلوطين وقد التجأ هذا الاتجاه الى أسلوب الرمزية وشحن الكلمات بتعابير غير معهودة عند الزهاد مثل الحب الإلهي والفناء والتوحد.. وأشهر أثر فني يمثل هذا الاتجاه هو «فصوص الحكمة» لابن عربي ولو سألتماني عن أقرب المفكرين الفنانين الى نفسي لقلت بلا تردد أنه الجاحظ الذي اعتز بفكره وفنه وأدرك أن البلاط وحاشيته في حاجة إليه أكثر مما هو في حاجة الى عالمهم الذي يكتم الأنفاس بما فيه من مكر ونفاق، وما يعجبني في هذا الرجل هو أنه أسس الفكر على موقف وبنى على الموقف سلطة معنوية أنها احترام المفكر الفنان فحاول الجميع كسبه وليس استخدامه في المناسبات، وتحضرني في هذا السياق إجابةُ «ديغول» على سؤال وجه له في بداية الستينات ومؤداه لماذا لا تعتقل «سارتر وهو يقود المظاهرات ضدك»؟ فقال: هل سجن ملك فرنسا فولتير؟ هّه... فكيف تعتقل الجمهورية سارتر؟ لست أدري هل رجحت هذه الكلمات التفاؤل أو الغضب عند الأخ غضبان ولكن هل الغضب انفعال سلبي؟ هكذا أوهمتنا بعض الدراسات في علوم النفس عندما قرنته بالعدوانية فاعتبر قيمة سلبية ينبغي بترها من الجهاز الانفعالي للأفراد والشعوب فأين السلبية والعدوانية عندما نغضب دفاعا عن الحق وثأرا للكرامة الوطنية وطلبا للعدالة الاجتماعية؟ وهل غضبت جماعة المواجهة «الجغرافية» على إسرائيل؟ أم غضب بعضهم على بعض؟! الأقرب الى الصحة في رأيي أن عكس الغضب أي الرضى والاستسلام والهوان هو القيمة السلبية، زدنا من غضبك أيها الصديق أن خير الدواء هو الكي!

فارح كمال:

مع فرحي الدائم وترحيبي بمن أتى وسرعة نسياني لما مضى فاني أرى أنكما من أنصار الغضبانية ولا أريد أن أكون بينكما أقلية خاصة ومجتمعنا هذا يُثمّن الفعالية ويدين بمذهب معاوية وكأن السلام هو الاستسلام والمرونة جبن وخذلان لقد تسربت اليّ الآن عدوى الغضب فتخيلت نفسي عنترة على صهوة جواده يغضب فيقول شعرا عن الحب والحرب والظلم فهل هذا هو الذي تسمونه الشعر الملحمي؟ ولكن... لا تنسيا أيها الصديقان أن عنترة الرقيق الرهيب مات وحيدا فوق حصانه كما تذكر الأسطورة، وأنا شخصيا أصدقها فالشامتون والحاقدون دائما أكثر من النزهاء والمنصفين حتى بعد موت البطل! ولذلك أحب الغضب على طريقة معاوية فقد أرضى الناس فرضوا عنه وقالوا في لحظة صدق قلوبنا مع علي وسيوفنا مع من يدفع.. مع معاوية، ويقول بعض أحفادهم اليوم عواطفنا الخطابية مع الفسطينيين وسيوفنا في رقابهم حتى تحرير المخيمات من آخر مقاتل على قيد الحياة، فما أشبه الليلة بالبارحة!.

لا بأس سأترك فرحي جانبا وانخرط معكما مؤقتا في المدرسة الغضبانية ولا أطمح أبدا لدخول الجامعة الثورية والتخصص في المادية الجدلية.

لقد توقفت يا صديقي طارق فجأة وبدون سابق إنذار عندما لاح لك الضوء الأحمر وتسمي هذه الظاهرة بالرقابة الذاتية وهي تعني بالنسبة للصحافة أن كل تحليل وتعليق ينبغي أن يبدأ بالمدح وينتهي بالتمجيد وأما ما بينهما فهو دفاع عن النقائص وتبرير لها فهي دائما تقع غلى عاتق الامبريالية والاستعمار والأعداء مثل الشيطان، وأقاربه من الأبالسة والجان، فلنقل جميعا: «**أعوذ برب الناس من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس**».

لا علينا.. إن الاتجاهات والرواد الذين ذكرتهم وفي مقدمتهم صاحبك المفضل الجاحظ كانوا نهاية وليسوا بداية، نهاية سلسلة المبدعين في الفكر والعلم والفن وسرعان ما ساد بعدهم الرصف والنظم والسجع

والشرح، والتعليق على الشرح وتكشف المبالغات في الشروح والزخرفة اللفظية عن عقم العقول وهزال الأفكار وتردي الذوق الجمالي، تماما كما تكثر العجوز الشمطاء من المساحيق لتخفي قبح ملامحها فتزداد وقاحة وهي تتوهم أنها اكتسبت السحر والجاذبيّة! وكم يزداد غضبي – مع أني بطبعي فارح – كلما قلبت الكتب المدرسية ووجدت فيها أكوام القش أي مقاطع النظم والسجع والحشو وهو في رأيي قسم من التراث يدخل تاريخيا فقط في باب الفن والأدب وتقديمه كنماذج للتعبير الفني يحرف الذوق ويفسد الأسلوب. إن دقة التعبير هي علامة لا تخطيء على دقة التفكير والدقة تعني الإتقان والإتقان مرادف للجمال.

فكيف نفسر ونحن من بين المعجبين بمحاورات أفلاطون ظاهرتين متناقضتين في التعبير الفني والتعبير العادي؟ الظاهرة الأولى تتمثل في تيار مهوش التفكير داخل الشعر الحر يعمد الى إخفاء ضحالة الوجدان وتفاهة الأفكار بتهشيم اللغة وتقطيع أوصالها، فإذا قرأت شعرا حرا ولم تفهمه فالعيب فيك لأنك لست حرا وذوقك أفسده تعاطي الشعر القديم، ولكن لماذا يتذوق الناس شعرا حرا آخر لعبد الصبور والبياتي والسياب وقباني والخ... الجواب بسيط وهو أن الوجدان الصادق والفكرة القوية هي التي تنجح أيضا في اختيار الثوب الذي ترتديه، فليست الضحالة والعجز والتطاول من الثورية والتجديد في شيء!.

أما الظاهرة الثانية فهي أخطر من الأولى ونلاحظها خاصة بين سكان مدننا الكبيرة وأسميها فقر وشح الرصيد اللغوي الخاص بالتعامل اليومي ويتخبط الناس في هذا الفقر ويشيع بينهم استخدام «الفرانكأراب» واللجوء الى الإيماءات والإشارات والهمهمات، ومن المفارقات العجيبة أن الريف بوجه عام يتعرض بدرجة أقل لهذا الخلط والتشويه للغتين تختلفان في التركيب والأسلوب والموسيقى، آن الأوان لأضع حدا لغضبي المؤقت وأعود لفرحي الدائم فما طول في الأعمار غضب ولا قصر في الأعمار طول الفرح.

غضبان وحيد:

ماذا يعجبكما في الغضب وعاقبته الأولى هي الوحدة؟ ألم يبلغكما نبأ أبي ذر الغفاري الذي ولد وحيدا وعاش وحيدا وسيبعث وحيدا؟ والسبب هو الغضب الذي أبتلى به، وأقسى حالاته هي الوحدة بأن يسبق الشخص عصره أو يتخلف عنه فلا يفهم الناس ولا يفهمونه فيضطر لاعتزالهم أو هم يعزلونه أي يغضبون عليه. حقيقة أن الغضب في عائلتنا وراثي ولذلك فنحن آل غضبان نحمل أرقاما أبا عن جد، فرقمي المتسلسل في الشجرة العائلية هو غضبان 1987 (م) وأخي الصغير هو غضبان 1407 (هـ) وحدث ذات يوم أن غضبنا كلنا في نفس الوقت فعوضنا الحوار والمفاوضة بالقصف والتدمير المتبادل لمدن بعضنا البعض وأطربنا حساب الجثث ومنظر الانقاض والخرائب هل هناك أحلى من أصوات المدافع والصواريخ وأزيز الرصاص وموسيقى الانفجارات وهي تسحق الأبرياء في الشوارع وتشوه الأطفال والشيوخ والنساء؟ إنها سمفونية الحروب الأهلية والمعارك الانشقاقية والخلافات البيزنطية حول الوحدة والقومية والعصرنة والديمقراطية والإسلام والجمهورية نبدأ تحرير القدس؟ بأيها نتغلب على التخلف؟ وأخيرا حصل اتفاق على استئناف الخلاف والقضاء على العدو بتصفية كل مقاومة له بغير الشعارات!

لعلي أطلت عليكما بقصة آل غضبان فلنتركهم يصفون حساباتهم بالطريقة الانتحارية التي اختيرت، لهم وأعود الآن لرأي الأخ فارح حول لغة أهل المدينة ولغة أهل الريف وبإمعان النظر ستجدان أنها متصلة بكلامي السابق، لأنه إذا سلمنا بنظرية النشوء والارتقاء في المجال البيولوجي (من الأميبيا الى الإنسان) وفي المجال الاجتماعي (من القبيلة الى الدولة) وفي المجال الاقتصادي (من القطف والجني عند البدائيين الى الشركات المتعددة الجنسيات) فينبغي أن نسلم بأن

عكسها يمكن أن يحدث أيضا أي التقهقر والتردي والعودة الى الوراء وهذا هو تفسيري لمهزلة التعبير اللغوي في مدننا فقد تراجع التمدن والتحضر بالتدريج كلما أشتد زحف الأمية وانحسرت الثقافة وساد الفقر، فمما لاشك فيه أن تلك المراكز العمرانية عادت الى حالة النزيف منذ زمن بعيد وعجزت من إنتاج الحضارة وأداتها الأولى ألا وهي اللغة واجهزت الوضعية الكولونيالية على بقايا الثقافة التقليدية وعطلت آلياتها فأصبحت مدننا تتكون من فئتين: فئة المجتمع الكولونيالي الذي يعيش اقتصاديا وسياسيا في بلادنا ويعيش ثقافيا وحضاريا وراء البحر وهو بذلك يشكل امتدادا طبيعيا لوطنه الأم فرنسا، وفئة أخرى هامشية تتكون من الفقراء والمضطهدين المنفيين الى الأطراف أما العلاقة فقد كانت هي نفس العلاقة السائدة بين العبيد والأسياد تقوم على الاستغلال والاحتقار والخوف.

قد تقولان أن هذه الوضعية انتهت منذ حوالي ربع قرن فلماذا بقيت آثارها نعم، فباستثناء المصطلح الذي يحمله الخطاب السياسي فإن اللغة المتداولة بقيت على حالتها من الفقر والتشوه، والغريب أن هذه الحالة لا تقتصر على العاديين من الناس، بل هي بين الإطارات أدهى وأمر، لقد قادتني الصدفة في نوفمبر الماضي الى مشارف باب الزوار حيث العلم والتكنولوجيا فتأكدت حينها من أن دار لقمان على حالها، بل تزداد سوءا، فهناك خليط من الكلمات تتطلب اتقان أكثر من لغتين لتفهم ما يقال لك وعدت أدراجي وقد أضيف الى غضبي شيء من الخجل وأنا أسمع أصواتا مألوفة وغريبة في نفس الوقت تنادي من بعيد «وان – تو – ثري فيفا لالجيري».

أما الريف فقد تسربت إليه مؤخرا العدوى بسبب الهجرة ووسائل الإعلام والمدرسة والسياحة في بلاد ما وراء البحر ويبدو لي أن التلف الذي لحق باللغة واللهجات المحلية خلال الفترة الأخيرة يعادل أو يزيد على ما لحقهما خلال قرن من الزمان، ومما زاد الطين بلة تسويغ كل

ذلك باسم الفعالية والبراغماطية والنفعية والمردودية وكل الكلمات التي تنتهي بـ (ية) .

إن الأخطاء اللغوية الفادحة في وسائل الإعلام والاعوجاج الفاضح في الملصقات كلها مسائل شكلية المهم الفائدة.. النتيجة.. الغاية، مع العلم أننا ننادي بالجودة والنوعية والإتقان، فمن أين يأتي ذلك إذا اعتبرنا أن الغاية.. أية غاية تبرر كل وسيلة.. أية وسيلة؟

ألا تلاحظان أني هذه المرة بدأت بالغضب وانتهيت بالخجل، فهل يخجل الغضبان ويغضب الخجلان إلا من نفسه؟

الفتوحات المعرفية
ولفظيات العصرنة والعقلانية

طارق سعيد:

أين مكاني بين فارح وغضبان؟ الواقع أنا لست حيران ألا يبدأ العلم بالشك وينتهي، الى اليقين والإيمان؟ هذا هو السبيل الذي سلكه أب الجدلية الأول أفلاطون ويدفعني نزوعي المثالي الى الاقتداء به، فهناك دائما المثل الأعلى للحق والخير والجمال وهناك ظلالها، والمثل هنا كل ما هو كامل ذاتيا، وهذا أمر كما نعرف عسير المنال يتطلب من الإنسان جهدا لا ينتهي للاقتراب باستمرار من الكمال لأنه إذا أدركه انتهى من الوجود أي فقد الرغبة في التفكير والعمل، وبالتالي مات عقليا وعاد الى عالم الحيوان جسديا، وفكرة المثل تقابل في خطابنا الثقافي اليوم ما نسميه الأصالة (أو الإنية) والحداثة (أو المعاصرة) مع الفارق طبعا بين ما ينتجه العقل العظيم واللاعقل المسكين عفوا! النامي وأقرب ما اطلعت عليه في هذا الصدد كتاب لمفكر مغربي وتصريح أو استجواب لآخر جزائري وعلى الرغم من الاختلاف والتناقض الضاهر بين الرجلين فهما يلتقيان في منهج نفي الثابت وتثبيت المتغير.

المفكر الأول هو محمد عابد الجابري والكتاب هو «الخطاب العربي المعاصر» أما المنهج فهو «البنيوية» التي لم يتق منه – كما سأوضح في سياق الحوار سوى بعض الأطلال المبعثرة على طول الساحة الأوروبية وعرضها.

ويذهب الجابري الى أن الخطاب الثقافي العربي يتوزع على أربعة أنماط هي:

1- **الخطاب النهضوي**: وهو خطاب فاقد للنموذج وللمشروع المستقبلي ولذلك فهو خطاب كابوسي يتطاول أحيانا على نفسه فيتوهم أنه موجه للإنسانية جمعاء باسم الإسلام ويتوهم تارة أنه مخول لإنقاذ الحضارة الغربية من التهافت والسقوط ويراهن مرة أخرى على قيادة الإنسانية بأمة واحدة ذات رسالة خالدة ويجد الجابري مادة التوتر الانفعالي «النهضوي» والتضخم في كتابات النموذج الإسلامي «سيد قطب» والوعي الحالم عند مطاع صفدي ومنيف الرزاز وقانون النهضة والسقوط عند غالي شكري وميشل كامل، وبالإضافة الى إشكالية النهضة والسقوط يطرح المؤلف قضية الأصالة والحداثة، وهي تدور أساسا حول مقولة الإمام مالك «لا يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها» ويتلخص الحوار حول هذه المقولة في كيفية الباس الجديد ثوب القديم وكيفية خلع ثوب جديد على ما هو قديم ويتم ذلك في أغلب الأحيان بالقفز فوق التاريخ بسبب العجز عن صنعه، ويمثل هذا النمط مفكرون مثل سلامة موسى، زكي نجيب محمود، عبد الله العروي، نسيب نمر... الخ.

2 - **الخطاب السياسي**: وهو في رأيي أكثر الأنماط أهمية ويرى د. الجابري أن الخطاب السياسي يدور بين اتجاهين الأول ليبيرالي يتصدره مفكرون أمثال بطرس البستاني وعلي عبد الرازق، ويدعو هذا الاتجاه الى فصل الدين عن الدولة، واتخاذ الحضارة الغربية قدوة والعلمانية منهاجا للتقدم.

والاتجاه الثاني سلفي نادي به جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وهو يضع الدولة والمجتمع والتاريخ كله في إطار الدين واليوم يشعر الاتجاهان بأن كلا منهما يكمل الآخر فالجامعة الإسلامية في حاجة الى النظرة الوطنية والقومية وهي البعد الحضاري (العروبة)، والدولة (العلمانية) في حاجة الى إطار مرجعي هو البعد الديني، (الإسلام).

ويفسر المؤلف انتصار الخطاب الليبيرالي وشيوع شعارات العلمانية بتبني السلطة له، إن فصل الدين عن الدولة يفقد المعدمين المجردين من العلم والسلطة والمال من وسيلة الضغط الوحيدة المعبئة للجماهير ضد السلطة.

3 – **الخطاب القومي**: وهو ناتج عن شعور بالخطر الخارجي الذي تمثل في تهلهل الخلافة العثمانية والسيطرة الاستعمارية، ولذلك تميز الخطاب القومي بمسعى وجداني لا عقلاني يأخذ من السلفية فكرة الماضي ويسميه العروبة ويأخذ من اليسار (الأحزاب الشيوعية العربية) سلاح الاشتراكية ويحولها من الأممية الى القومية، وقد انتهى هذا الاتجاه التلفيقي الى الفشل بسبب التناول العاطفي والانفعالي لقضايا الاشتراكية والوحدة عند اليسار وعند اليمين على حد سواء، فماذا تحقق من مقولة الماركسيين العرب الذين ربطوا الوحدة بانتصار الطبقة العاملة العربية كما ارتأى ياسين الحافظ وأديب ديمتري؟ وقد ارتبطت فكرة الوحدة العربية منذ بداية الخمسينات بقضية فلسطين وأصبحت الوحدة تارة شرطا للتحرير وتارة أخرى نتيجة له، وجاءت التجربة الناصرية (قبل 67) لتجعل فلسطين موضوعا للتحرير وليس طرفا فيه ولا تزال هذه المسألة تعاني من التقابل بين ما يسميه الجابري «الممكن الذهني» و«الممكن الواقعي» والممكن الذهني يعني هنا احتمال قيام الوحدة واعتبار ذلك الاحتمال (خياليا) كأنه قد وقع فعلا. وأن الذي يهدده هو إسرائيل وأما الممكن الواقعي فهو «الكيان الإسرائيلي» الذي يهدد كل بلدً على حدة ويهدد الجميع، ولذلك كان من الضروري القفز فوق هذين «الممكنين» الى ممكن ثالث موغل في المثالية وهو «تعريب» الثورة الفلسطينية وتعميمها على الأمة العربية لكي تتوحد!

4 – **الخطاب الفلسفي**: وهو محاولة لإيجاد مكان للتراث الفلسفي العربي الإسلامي في سياق الفكر الإنساني، بدأت تلك المحاولة بالرد على الخطاب الاستشراقي الذي اعتبر الفلسفة الإسلامية صورة مشوهة للفلسفة الإغريقية كما فعل مصطفى عبد الرازق وعلي سامي النشار وإبراهيم مذكور ووصلت الى اجتهادات في تطبيق المنهج وليس وضع «منهج يطبق» كما هو الشأن لدى «حسين مروة» في كتابه «النزعات المادية في الفلسفة العربية والإسلامية 1979».

هذه بعض مقولات د. الجابري، يصعب إيجازها لما فيها من تناسق منهجي وإطلاع واسع واستعمال ذكي لما طفا على السطح وما اختفى خلف الكواليس من اتجاهات وأفكار وأنماط، فهل هي الظل والشبح أم هي الواقع والحقيقة؟ إن التقاط توجهات فكر النهضة الذي يمتد على حوالي مائة عام فيه الكثير من الجرأة، والجرأة تعني قبول المغامرة، ولا تخلو أية مغامرة فكرية من الصواب والخطإ، لن أعلق على ذلك الآن، فقد علمتنا شهر زاد أن نسكت عن الكلام المباح إذا أشرق الفجر ولاح لنترك للأخ فارح مهمة اعتراضية يرد فيها بالعتاب على ما هو أقرب الى اللعنة والسباب فبينه وبين الكاتب الجزائري الذي أشرت إليه في مستهل حديثي حوار صامت أشبه بالذي يحدث في غياب الرعود – بين البرق والمطر.

فارح كمال:

يا سادة يا كرام للمهمة الاعتراضية معنيان أحدهما لغوي فنقول «جملة اعتراضية» أي مقحمة في الكلام ويمكن الاستغناء عنها، وثانيهما برلماني كأن يعترض فلان على فلان ويتفق الأثنان على تغيير جذري يحول الاعتراض الى عرض فتسقط «التاء» سبب الداء والخلاف بين الأصدقاء ويعود الود والصفاء.

مهما كان المعنى الذي تفضلانه فأنا أقبل المهمة وأشكركما على الكرم والسخاء، لقد عرفت «كاتب يا سين» بطريقة شخصية في أوائل الثمانينات وكنت قبل اللقاء أقرأ مؤلفاته فأعجب بتمرده وعصاميته، فقد كان له هدف يناضل فكريا وعمليا من أجل انتصاره، وحاولت أن أحاوره بأسلوبي الفارح ولكن جدارا لا تخترقه أشعة اللايزر حوّل الحوار الى همهمات، قرأت فيها بكثير من التسامح كلمات مثل أنتِ السلطة، البوليس! الاضطهاد! إذن أنت عندي غير موجود، وبالخطاب «الماركساوي»: البرجوازية تقمع الفكر الثوري فلأصارعها بالتجاهل ولأخاطبها بضمير الغائب حتى يبعث ستالين ويظهر الحق المبين!

تكررت هذه المسرحية الكافكاوية (نسبة الى كافكا) عدة مرات تأكدت بعدها أن هذا المفكر المتمرد على كل شيء، وعلى لا شيء أي على نفسه يتعامل مع مسؤوليتي المتواضعة ولا يرى فيها سوى عصا مشرعة للترهيب والترغيب ولسان حاله: هل تفكر العصى فيمن تضرب؟ ولم تضرب؟ وعلى أي حال يمنعني فرحي التلقائي من محاكمته غيابيا من خلال ذكرياتي الشخصية فالتفهم والاحترام يسبق عندي كل مستويات الشعور واللاشعور الأخرى.

غضبان وحيد:

عرفتما عينة من غضبي في سياق هذه المحاورة التلقائية واعترف الآن بأني لا أشعر بغضب أو سرور بعد سماع ما أورده الأخ فارح عن الممارسات اللافكرية والسادومازوخية لبعض الكتاب أني على يقين بإنهم يفعلون كل ذلك ليغضب منهم البعض ويرضى البعض الآخر، وبذلك يكونون موضوع اهتمام الجميع، فلنفوت عليهم هذه الفرصة ونقول لهم: أنتم أحرار في أن تتأبطوا أي شر تريدون فالانتحار هو أقصر طريق لتوحيد المجرم بالضحية!

نعم.. أنا لا أشعر بالغضب أو السرور ولا حتى بالخجل فمن المؤكد أن هؤلاء الكتاب لم يأتوا بجديد في مجمل ادعاءاتهم فكلها منقول مباشرة عن المدرسة الكولونيالية التي يشتمونها لذر الرماد في العيون وهم يلتقون -بالصدفة طبعا- مع آخر رأي سمعته للدوق أو مرسون عضو الأكاديمية والصحفي البارز في أسبوعية لفيغارو ويذهب عضو الأكاديمية الى أن العالم المعاصر ابتلي بثلاث مصائب هي: المسلمون والسيدا (مرض الإيدز) والإرهاب، وهذه الصدفة العجيبة تجعل الحميع حلفاء طبيعيين للتيار اليميني في المدرسة الكولونيالية وليس في التيار «الثوري» للفرانكوفونية كما يدعون وكلا التيارين يقتل الجزائريين وكل الملونين (غير الأروبيين) حتى بعد دمجهم ومنحهم الجنسية الفرنسية كما حدث للشاب الجامعي مالك أوصديق الذي يرثيه أحد الناطقين باسم الفرانكوفونية «التقدمية»!

لا أرى علاقة واضحة بين آراء د. محمد عابد الجابري وكاتب ياسين، ولذلك سأترك أمر هذه العلاقة للأخ طارق فهو مغرم بالضبط والربط بين العلاقات مهما تخفت وراء الأقنعة والشعارات. وأعود قليلا الى طبيعتي الغضبية فأزعم بأن جزءا كبيرا من الأدب الفرنسي الذي كتب في الجزائر وعن الجزائر هو تراث ينتمي للعهد الكولونيالي، وكثير مما يكتب اليوم ويتحول بسرعة مدهشة الى أفلام وتتهافت عليه دور النشر الفرنسية ليس إلا تعبيرا عن الإيديولوجية الكولونيالية التي تتخفى أحيانا باستحياء وتسفر عن وجهها أحيانا أخرى بوقاحة وكثيرا ما تبدأ بذكريات عابرة عن كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال لتصل في النهاية الى بيت القصيد، وهي أن الاحتلال الأجنبي شيء، وثقافة المحتل شيء أخر، إن ثقافته هي التقدم والتقدمية، هي العلم والتكنولوجية، هي العصرية والانفتاحية الخ...

فإذا جادلت أحد هؤلاء العصريين التقدمين التكنولوجيين هل هذا اختيار عن عمد وسبق إصرار؟ سارع بالاستدراك قائلا: تعرف أن جيلنا حكم عليه القضاء والقدر أنه ضحية فكيف له أن يعرف لغة أخرى في ظل الأوضاع الاستعمارية قبل أربعين أو خمسين عاما؟

ورأيي أن الإيمان بالقضاء والرضوخ للقدر هو عند هؤلاء إيمان ورضوخ انتقائي، فهم تقدميون في كل شيء، ثائرون على كل شيء إلا على نقائصهم عفوا ربما امتيازاتهم الاستلابية!

ورأيي أيضا أن يكتب مفكرون وفنانون بأي لغة يشاؤون ابتداء بالفرنسية بما لها من أقدمية وأولوية، حتى اليابانية وهي على وشك أن تصبح اللغة الأولى للتقدم والتكنولوجية فذلك أمر عادي ومعهود في كثير من بلاد العالم والنامية منها بوجه خاص، أما أن يصبح ذلك إيديولوجية مهيمنة تدفع بهدوء وتحت شعارات ديماغوجية تتظاهر بالتقدم والتقدمية لترسيخ التبعية الحضارية والعقائدية للإمبراطورية التي اختارت احتلال الأفئدة والعقول بدل المدافع والثكنات والحصون، فذلك مسألة فيها نظر! لا علينا.. المسامح كريم لنطوي الصفحة ولا نغلق الكتاب، حتى لا نتهم بالفرانكوفوبية وما

أسهلها من تهمة! مع أن قراءاتنا بهذه اللغة تفوق مطالعاتنا في لغة شكسبير، وتذوقنا لإبداعات مفكريها وأدبائها العظام يقارب تذوقنا للجاحظ والبياتي، على ضفاف دجلة، وتشتارلز ديكنز وسمرست موم على ضفاف التايمز، وبن هدوقة ومحمد ديب على سفوح التل والهضاب العليا.

وما دمنا لم نطو الكتاب فلابأس من أن نشير الى أن بين صفحاته عناوين فرعية تحمل أسماء لامعة في القضية الوطنية وأدب النضال السياسي ذي المستوى الرفيع لا يمنع الاختلاف معها في المسعى من احترام نزاهتها الفكرية وقدراتها الإبداعية من بين هذه الاسماء شريف ساحلي مالك حداد محمد ديب مولود فرعون ومصطفى الأشرف وغيرهم من الأحياء والأموات الذين يتميزون تماما عن مدرسة أخرى موازية أستهلها محمد ولد شيخ (ولد سنة 1906) وبلغت ذروتها على أيدي أمثال البيركامو وروبليز في نهاية الثلاثينات.

لست مختصا في هذا النوع من الأدبيات وتاريخها فليت نقادنا الكهول والشبان يشرعون منذ الآن في وضع انطولوجيات للأدب الجزائري بكل اللغات يبحثون خطابه الثقافي والسياسي واتجاهاته الفكرية وعلاقتها بالمحيط الحضاري القريب والبعيد.

طارق سعيد:

أرى في حديثكما شيئا من القسوة سببها اقترابكما الشديد من الموضوع، أليس من الأفضل أن نرى القمر من بعيد فيسبغ عليه خيالنا كل آيات الرقة والجمال والوداعة؟ فإذا ما اقتربنا منه كما فعل «أرمسترونغ» ورأينا عن قرب سطحه القاحل والمغطى بالأتربة والحفر البركانية السوداء، تأسفنا على السذاجة التي جعلت هذا القرص الأسود المشوه رفيقا للعشاق، ومصدرا لإلهام الفنانين، شعراء ورسامين، منذ أقدم العصور، وتساءلنا عن مصير الإبداعات التي أوحى بها القمر وقلنا هل هي مزيفة لأن موضوعها جرم لا جمال فيه ولا حياة؟ أم أنها صادقة لأن الأعمال بالنيات ولكل أمرىء ما نوى؟! وبالمثل فإن مواقف كاتب ياسين والمدرسة الرفضية العدمية موجودة

فينا على درجات مختلفة من المفيد أن ننظر إليها عن قرب لأغراض التشخيص والعلاج قبل أن نبتعد عنها ونصنفها في الأرشيف وهو ما ستقوم به الأجيال القادمة فيكون انطباعها عن هذه المدرسة مثل انطباعنا نحن الآن عن الآثار الرومانية في تيبازا وجميلة وسوق أهراس.

ولابد أن أنبه هنا الى أني لا أرى في الكولونيالية ومدارسها، يسارا ويمينا، تقدمية ورجعية إنسانية وشوفينية، إني أراها كولونيالية، وكولونيالية فحسب، فهل يقبل عقل عادي أن نقول: هذا الشر هو خير وأن هذا المرض هو صحة وأن هذا الكذب هو صدق؟!

لقد أوكلتما لي الكشف عن العلاقة بين الجابري وياسين وأنتما لا تريان أية علاقة بين مفكر لا ينكر انتماءه للمجال الحضاري العربي الإسلامي مع إطلاعه الكبير علي تيارات الفكر الغربي القديم والمعاصر وكاتب يبدأ بإنكار الانتماء والتنديد به بشراسة.. الواقع أن الرجلين يلتقيان في تقاطعات كثيرة، وفي الهدف، وإن اختلفت الأدوات والأسلوب أن دكتور الجابري يثبت إفلاس الفكر العربي المعاصر ووصوله الى طريق مسدود بسبب نزعته اللاعقلانية ومنهجه التلفيقي أي في الحقيقة اللامنهجية التي تلازمه الى حد الآن، وهو يضرب أمثلة محددة لذلك: إن أبا حامد الغزالي يقارن بهنري بيرجسون فلكليهما ميول حدسية تقر بعجز العقل وضرورة تجاوزه، وعبد الرحمن بدوي يمجد الاتجاه العدمي في الفلسفات الوجودية ويبحث عن مقابلاتها في الفلسفة الإسلامية ضاربا عرض الحائط بالاتجاه العقلي عند المعتزلة وابن سينا وابن رشد.. وتصل اللاعقلانية حدها الأقصى عند عثمان أمين صاحب الجوانية التي عارض بها الوضعية المنطقية أو البرانية وكلا الاتجاهين أكثر تلفيقية من الآخر، أما زكي الأرسوزي فرحمانيته تقتصر على مباحث معزولة تماما عن الواقع الذي تحدث فيه.

ولغرض الوضوح سنجمل ملاحظاتنا على أطروحات الجابري على النحو التالي:

1 – إن مؤلف كتاب «الخطاب العربي المعاصر» يحطم الجهاز المعرفي «الإبستمولوجي» لمرحلة النهضة ويكتفي بالمطالبة بتغييره من اللاعقلانية الى العقلانية ومن التلفيقية الى الإبداع، ولكنه يتوقف عند هذا الحد أي أنه يهدم ولا يبني شيئا جديدا بدل الخراب والدمار الذي ألحقه بالساحة الفكرية العربية مشرقا ومغربا!

2 – والأدهى من ذلك أن الجابري يستعمل جهازا معرفيا هو أيضا جهاز تلفيقي يتمثل في المزج بين المنهج التاريخي والبنيوية التي ثبت إفلاسها في أوروبا، ويختار نموذجا ميتافيزقيا لا هو غربي ولا هو عربي إسلامي فهو نموذج معلق تم بناؤه خارج الزمان والمكان أي لا علاقة له بالحدث الاجتماعي والاقتصادي، إنه يسحبه قسرا من التاريخ إذا تحدث عن السلفية ويقذفه تحكما الى الماضي إذا عالج المعاصرة ويكشف ذلك على خصائص نموذجه المتعالي وهو العقلانية الفاقدة لكل هوية لأنها مقطوعة العلاقة منذ البداية بامتدادها البنيوي التاريخي والمعاصر بعد إقراره بإفلاس السلفية وضياع الحداثة، إنك تشعر أن ما يسكت عنه الجابري أكثر مما يعلنه من آراء في الفكر العربي القديم والمعاصر!

3 – إن أطروحات الجابري تلتقي تماما مع الأفكار التي ضمنها عبد الله العروي في كتابه الإيديولوجية العربية ومحمد عزيز لحبابي في دراساته عن الشخصانية وعبد المجيد مزيان في مقالاته عن الأصالة والشخصية.. إنها تشرب جميعا من منبع واحد هو المدرسة الاستشراقية والفرنسية بالذات التي تستحضر الماضي الحضاري – بعد عزله عن المعطيات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي انتجته، وهي تستحضره لغرض التنكيل به وتعالج الفكر العربي المعاصر بتطبيق مقاييس منهجية نقدية صممت أساسا لمعالجة الفكر والحضارة الأوروبية، إن هؤلاء المفكرين – وبعضهم بلاشك صادقين في مسعاهم – يرون أن «العقل» العربي كتلة واحدة تقابل أخرى هي العقل الغربي على الرغم من أن ذلك العقل يعج بالاختلافات النوعية في مشرقه ومغربه وحتى في المهجر، فهل يقبل مفكر ألماني أو

فرنسي أو بريطاني أن يتحدث عن عقل غربي متناسيا الظروف الخاصة التي نشأت فيها وتطورت الفلسفة والآداب والعلوم في كل بلد على حدة؟

إن وضع الأنماط وتوزيع الفكر والحضارة الإنسانية في قوالب مغلقة هو منهج استشراقي رافق سيسيولوجية المعرفة (أو الأنثروبولوجية الثقافية عند الأنغلسكسون) أوهم بعض الباحثين العرب أن العقل (أو ألاّ عقل) ظاهرة ثابتة تسمح بالتمييز بين الأمم وتصنف على أساسها الثقافات في أنماط كلية، ألم يقل المستشرقون بأن الحضارة العربية هي حضارة الجزئيات؟

إن الجابري يقف فوق الأنقاض والدمار الذي خلفه ليقول بفخر واعتزاز: من هنا نبدأ.. من العقلانية ينبغي أن تبحر قافلتنا الفكرية فأنا الربان الذي يضمن للفكر العربي الوصول بسلامة الى شاطىء الأمان! لا اعتقد أن هناك الكثير ممن يقبلون السير في ركاب هذه القافلة التي حطمت كل الجسور في سبيل المزايدة على عقلانية ميتافيزقية ظلامية ليس لها شاطىء ولا خريطة، فهل تقبل العقلانية الإبحار في المجهول بقيادة سلاحها العقلي مستعار ونهاية مطافها هي اللامعقول؟

ألا تريان معي الآن أن كلا من الجابري وياسين ينطلقان من محطات مختلفة ولكنهما يلتقيان في الهدف (مع ضرورة التنبيه الى أن الأول أكثر تحكما في أدواته ومجاله المعرفي) وهذا الهدف هو تقويض التراث وهدمه من الداخل والتشكيك في مساهمات السلف والخلف، كل الخلف، والترويج للنزعات العدمية تارة باسم العقلانية المصابة بالتضخم (بالمعنى الاقتصادي للكلمة) وتارة أخرى باسم التقدم والتقدمية، النتيجة في النهاية واحدة، وقد عرضتما لبعض مضاعفاتها فيما سبق من الحوار.

فارح كمال:

ما كنت أعرف أن للدوق أو مرسون مريدين وأتباعا على هذه الدرجة من الإخلاص والحماس أن حالة الإغماء التي تعاني منها الأمة الإسلامية منذ عدة قرون أوصلتها في السنوات الأخيرة الى ما بعد الانهيار والهوان فهي اقتصاديا في حالة من التخلف والمديونية جعلت البعض من قادتها

يتسوّلون في عواصم العالم المتقدم، وهي من الناحية السياسية أضعف بكثير مما كانت عليه منذ حوالي ربع قرن، فقد تفتت تضامنها وشاعت فيها الحروب والفتن وأصبحت دولة إسرائيل (نعم دولة وليست دويلة) تفرض سيطرة معترف بها عمليا على شرقي البحر الأبيض المتوسط وما بين النيل والفرات، وأما من الناحية الثقافية فقد أدى تدجين الفكر واحتقاره الى نشوء تقاليد بلاطية أو ردود فعل غريزية، الأولى تتمرغ لنيل الرضى والإعجاب والثانية ترفض ما تقبل وتقبل ما ترفض بسبب الحيرة والضياع.

يقول بعض الساسة والمفكرين أن الصراع مع إسرائيل هو صراع حضاري وأن الصراع مع التخلف هو تحقيق التنمية والتقدم ولكن كيف نتعامل أفرادا وجماعات، رعية ورعاة مع الحضارة والتقدم، مع إسرائيل والتخلف؟

معذرة أيها الصديقان إذا قلت أن الإجابة على السؤالين السابقين وما يتفرع عنهما واحدة، إنها الاستهانة بالثقافة والاستهتار بالفكر أي بالحياة نفسها فما هي الحياة بعد النشاط الفيزيولوجي المتمثل في الهضم والتمثل والتوالد، إن لم تكن معرفة وشعورا، إبداعات في العلم والفن تمتزج فيها المعرفة بالفن؟ وما قيمة العلم والفن إذا لم يؤديا الى إعادة إثبات الذات والإجابة بطريقة جمالية أو علمية على تحديات الوجود؟ وما قيمة تلك الإجابات إذا لم يكن لها مرجع أخلاقي يعطي لإثبات الذات معنى وهدفا؟ إن الثقافة بالامتداد الذي أشرت إليه سابقا تساوي عندي الحياة والوجود وبالتالي فإن الشعب أو الأمة التي لا تنتج ثقافة هي غير حية، غير موجودة، ينبغي أن نتكلم عنها بضمير الغائب لأنها لا تمثل طرفا مقابلا في الحوار، ولا يصح أبدا اعتبارها طرفا في الصراع الوجودي والحضاري، فهي موضوع له، لا أكثر ولا أقل!

دعكما من المرافعات التي ترددها وسائل الإعلام وبعض الكتاب عن الزمن الرديء والعقلانية واللاعقلانية (عند الجابري على سبيل المثال) ورفض الدولة المرادفة للتسلط وتحرير المجتمع من الدين أي دين (الثورية الرفضية عند ياسين) ان تلك المرافعات أشبه بما يفعله محامون توكل

إليهم المحكمة الدفاع عن متهمين وهي مقتنعة بأنهم مدانون لا محالة، وعندئذ يحدث تواطؤ مع القاضي لاستدرار عطفه وتقديم حيثيات للتخفيف من قساوة الحكم!

قد يبدو لكما أيها الصديقان أني أناقض نفسي وأكرر بكلمات أخرى نفس الأفكار التي كنت انتقدها قبل قليل وأتبنى نتائج كنت أرفض مقدماتها عند غيري! فما هي هذه الثقافة المرادفة للحياة نفسها؟ ولماذا خمدت في ديارنا؟ ولماذا نكثر الكلام عنها ولا ننتج منها شيئا يذكر؟ وبالتالي إذا كانت الثقافة غائبة ومجتمعاتنا المسماة – تأدبا – نامية موضوعا لها وليست فاعلة فيها ومنتجة لها فكيف يمكن الحديث عما هو غير موجود؟

الجواب هو أن الخطاب الثقافي الذي تعرضنا له والاتجاهات الفكرية المتفرعة عنه تؤدي جميعها الى نفي الثقافة وإسقاط الفكر فهي دعوة صريحة لاستيرادها جاهزة من السوق الأروأمريكية مثلما تستورد البضائع الأخرى من السوق الأوروبية المشتركة بما فيها الأسلحة التي يتقاتل بها الأشقاء جدا في البلاد العربية والإسلامية.

إنها في النهاية دعوة صريحة للكف عن أي مجهود ذاتي للتفكير والثقافة بتحقير لغة هذه الثقافة وتدمير محتواها جملة وتفصيلا، والبديل المقترح واضح للعيان أنه التسول الثقافي على نواصي شوارع أوروبا وأمريكا، إن المعركة الدائرة اليوم بين «التلفيقيين» بمختلف ألوانهم و«الليبراليين» بمختلف انتماءاتهم هي في الحقيقة معركة حول في أي شارع نتسول؟ ومع أي كومبارس نغني؟

إن الذي ندعو إليه هو تأسيس مجتمع الثقافة أي المجتمع الذي يقوده الفكر، لا يهم أين يقف هذا الفكر أمام السلطة أو خلفها أو في مواجهتها.

إن المجتمع العلمي التكنولوجي الذي تسلط عليه الأضواء ويعرض علينا وكأنه الاختيار الوحيد الممكن للخروج من التخلف هو جانب فقط من مجتمع الثقافة وليس أكثر جوانبه أهمية لأن العلم والثقافة ونتائجهما

تكونان دائما محاولة مؤقتة للقبض على الكلي من خلال أجزائه وصياغته في قانون أو تطبيق نتطلع به مرة ثانية الى الكلي، ولكنه في كلتا الحالتين يبقى مشدودا الى الزمان والمكان أي ليس له أفق أبعد من التحليل والتركيب الزماني المكاني، ولهذا السبب بدأ عمالقة الفكر الإنساني علماء وانتهوا في قمة نضجهم الفكري فلاسفة وفنانين وأدباء.

ما هي الأسماء التي تعرفنا اليوم بالتراث الألماني؟ إن عشرات، بل آلاف العلماء الذين أنجبتهم ألمانيا يدخلون تحت جناح عدد من كبار الأدباء والفلاسفة والمفكرين هم عظمة الثقافة الألمانية ودليل مساهمتها الحضارية الباقية على مدى الدهور، إنهم غوته، كانط، هيغل، نيتشه، هايدغر، شوبنهاور، فيخته، غونتر غراس...

ماذا يبقى من ثقافة فرنسا إذا حصرناها في آلاف الباحثين والعلماء الذين أنجبتهم وحذفنا منها هيئات الأركان القيادية من ديكارت وفولتير وديدور وهيغو وألكسندر ديما حتى ريمون أرون وفوكو.. وقس على ذلك الثقافات الأخرى، بل ماذا يبقى من كل حضارة الغرب والشرق المعاصرة إذا سحبنا منها ماركس وفرويد وانيشتاين؟

لقد تجاوز هؤلاء العمالقة إشكالية العلاقة بالسلطة لأنهم استحقوا بإبداعاتهم أن يكونوا هم السلطة!

غضبان وحيد:

تعرفان أن التيار الكهربائي يمر خلال موصلات موجبة وأخرى سالبة لابد أن تجتمع لتنتج الطاقة سواء أكانت إضاءة أم تسخينا أم تبريدا أم حركة.

فلا يكفي الموجب وحده ولا السالب وحده، وأنا شبيه بالتيار الكهربائي، فطبيعتي الغضبية في حاجة لشيء من المزاح والهزل حتى تنتج الطاقة، وعكس ذلك هو الذي يحدث بالنسبة للأخ فارح فطبيعته الفرحة المرحة في حاجة الى لمسة جد وتجهم حتى تتوازن.

وهذه الظاهرة يسميها بعضهم التعادلية أو الاعتدالية على وزن الظرفية والانتهازية والتعقلية، فقد يهمس في أذنك أحد أعضاء حزب قديم في بلد مجاور شرط أن تكون معه على انفراد قائلا: «اسمع يا أخي أن التعادلية عندنا هي ما تسمونه أنتم والعياذ بالله الاشتراكية يعني الاشتراك وهو يرجع الى الشرك بالله أي الكفر، وهل هناك كفر أكثر من الدعوة الى الفقر بتوزيع أرزاق الناس أو تأميمها؟ والشرك (بفتح الراء) أي الفخ، أما التعادلية فهي مصطلح دقيق لغويا لأنه مشتق من عدل أي أنصف وهو حلال دينيا فالاعتدال هو الوسط، فقد جاء في الحديث الشريف أن «خير الأمور أوسطها» أما أبغضها فهو بلا شك التطرف. عندكم في تصريف فعل شرك فتقولون مثلا مشاركة وشريك ومشترك وشركة وطنية الخ...

والتعادلية مذهب جديد سياسيا لأن التعادل هو الديمقراطية وهو يشبه مباراة لكرة القدم تنتهي بالتعادل صفر لصفر، أي بدون تسجيل أهداف فلا يغضب ولا يرضى أي من الفريقين المتنافسين، فأنا اعترض وأنت توافق فإذا وافقت أنت اعترض أنا، المهم أن لا نوافق جميعا أو نعترض جميعا، هذه هي التعادلية التي يرضى عنها الإمام العادل، أمير المؤمنين به، والمعتدلين في صفه!

هذه مجرد مقدمة اعتدالية لتلطيف طبيعتي الغضبانية وهي جزئي السالب لابد أن تلتقي مع جزئي الموجب حتى أكون على حقيقتي وأتحدث معكما بكل طاقتي:

اعتقد أننا جميعا كنا في غاية القسوة على بعض مفكرينا، إن كلا من الجابري وياسين لهما على الأقل فضل الشجاعة والصراحة فقد قيم كل واحد منهما بطريقته سلبيات المجتمع العربي المعاصر واتجها مباشرة الى صميم الموضوع وهو سياسة الفكر وفكر السياسة، وعرضا علينا – صحيح بصورة مكبرة – العش الذي تتجمع فيه الجراثيم القديمة والمتوالدة وطالبا بإجراء عملية جراحية بدون تخدير لاستئصال الداء لأن كل المسكنات والمراهم مثل: «لكن... حسب الظروف.. غير أن.. التي تنتهي بخاتمة

تشبه عرس الذئب أو الصحو المؤقت في يوم شتوي داكن توهمنا – نحن العاديين من النـاس – أن الدنـيا بخـير، فـفي مختـلف ميادين التنمية، والثقافة حالـيا هي محـركها الذي لا يتحرك، توضع في كل مرة الحصيلة السنوية على النحو التالي:

«الموسم فيه مبادرات إيـجابية.. والمبادرات فيها على أية حال بعـض السلبيات ويطرح الثانية من الأولى فإن الحصيلة تكون على العموم إيجابية»!

كيف نسمح لأنفسنا باتهام كاتب ثائر على الروتين والكليشهات الفارغة والسلطة المتسلطة والتخدير الكامل لنصف المجتمع المتمثل في المرأة والتخدير الجزئي لنصفه الآخر لأنه يستعمل لغة يقاتل بها مثلما يستعمل أي مكافح بندقية للنضال من أجل غد أفضل لا يهمه مطلقا المصنع الذي أتت منه، هل هو براغ أو باريس أو لندن أو نيويورك! المهم هو الفكرة.. هي الصيحة، هل وقف ياسين مرة واحدة الى جانب الظلم والظلام؟ لقد ناضل بقلمه وقلبه من أجل جزائر جزائرية وفيتنام موحدة ومنتصرة على الإمبريالية ويستعد اليوم للانقضاض بفنه الفتاك على الغطرسة العنصرية في مسرحية عن نيلسون مانديلا؟!

لقد سخر هذا الكاتب حياته للدفاع عن الحرية فهي عنده مرادفة للوطنية، للشخصية، للوجود للحياة نفسها ويدل سلوكه ومسرحياته منذ الخمسينات الى اليوم على أنه ملتزم بأنه لا يتلزم إلا بالحرية، بها ولد ولها يعيش، وكأنه يقول لزملائه الكتاب: «أيها الناس اكتبوا عن الحرية.. ناضلوا من أجل التحرر أو اصمتوا فذلك أفضل»!.

ألا ترون معي أننا اشتبكنا مع الجابري وياسين في مواقع جانبية ولم نقاتل معهما في المعركة الحقيقية وهي معركة الحرية من أجل الإبداع، والإبداع من أجل الحرية، إن هذه المناوشات تدل على أننا نجد أنفسنا ساعة الهجوم المضاد، على نفس الجبهة، ولكن في مواقع مختلفة، فما أشد حاجة الفن قصـة ومسرحية وشعرا الى هزة «ياسينية» مؤلمة تقطع الاسترسال الرتيب الذي يجذبنا الى الحلم كلما صحونا على حقيقة، ويدفعنا الى السكون كلما هممنا بحركة.

وما أشد حاجتنا الى فاس الجابري لتهوى على جدار السد الوهمي الذي يملأنا جماعات وأفرادا بالرضى الذاتي ويدغدغ حاسة إضافية عندنا زيادة على السادسة هي حاسة تجمع بين أبي زيد الهلالي ورأس الغول وألف ليلة وليلة، أنها الحاسة التي تدفعنا للهجوم مثل الذئاب على كل من يحاول مغادرة القطيع أو تغيير اتجاهه لإنقاذه من الاختناق بفعل الغبار الكثيف الذي تثيره حوافره!

طارق سعيد:

المفكر سواء أكان عالما أم فنانا هو إنسان يشبه جميع الناس ولكنه فريد من نوعه بينهم، لأنه يصنف في فئة الفاتحين في حاجة لتحقيق فتوحات تترك خلفها بعض الضحايا على ساحة الأفكار والعادات والأذواق الجمالية فإذا توقف المفكر عن الفتح والاقتحام عجز عن الإبداع، إن الإبداع نفي وإثبات بناء وهدم، حرية تبحث عن المزيد من الانعتاق.

إن مشكلة المفكر هي صراعه الدائم مع نفسه من خلال محاولاته المتكررة لاستحضار الماضي وإعادة صياغته وفق معطيات الحاضر، وتطلعه المستمر للتحرر من إطار الحاضر وقيوده والارتفاع به نحو آفاق جديدة يكشفها بفكره أو بحسه الجمالي.. إنها الرؤية التي تجعل منه غواصا لا يكتفي بالسباحة على سطح الوجود والتنقل بين الأحداث فهو لا يرضى بغير الغوص في الأعماق واعتراض الأحداث بسرعة وبراعة يتفوق بها على نفسه ليعطي الوجود دلالة وللحياة هدفا وغاية.

كأني أرى في عينيكما أيها الصديقان علامات الاندهاش والتساؤل عن هذا الكائن الغريب الذي يشبه كل الناس ولا يشبه أحدا من الناس، أين يوجد؟ وكيف يوجد؟ أليس المفكر والفنان هو أيضا من جنس البشر يضعف ويقوى، يخاف ويتشجع، يخفق وينتصر؟ إنه ليس المهدي المنتظر، ولا ملاكا نورانيا يأتي بالخوارق والمعجزات، إنه قبل كل شيء وبعد كل شيء إنسان، ولذلك ليس من الإنصاف أن نتحدث عن الثقافة والفكر والفن من خلال صانعيه فحسب ونقرأ آثارهم من خلال اسمائهم

فنتعامل مثلا مع دراسات الجابري ومسرحيات كاتب ياسين من خلال شخصيتي الرجلين، ونتبنى المثل السائر والمنتشر خطأ بين الناس: إن الكتاب يقرأ من عنوانه.. لا.. ان الكتاب يقرأ أساسا من مضمونه ولا يكفي العنوان وحده، بل قد يكون العنوان مضللا.. وربما هذا هو المقصود من مقولة: المعاصرة حجاب!

إن نقد جانب أو مواقف اتخذها كاتب أو فنان لا يعني هدم كل هيكله الفني والإطاحة بمجمل مسعاه الفكري، إن عمالقة الفكر والفن هم الذين حظوا بأكبر قدر من النقد والتحليل والتعليق في حياتهم وبعد موتهم، ولنقتصر على أمثلة من الفكر الحديث: فقد قرر كارل ماركس أن هيغل قلب الحقائق وأجبرها على أن تمشي على رأسها والى الخلف، أما هو فقد أعادها الى وضعها الطبيعي وجعلها تتقدم الى الأمام.

وماذا يقول المفكر الإيطالي «غرامشي» عن الفكر والثقافة بالمنظور الماركسي؟ وماذا يقول «أدلر» و«يونغ» و«لاكان» عن «فرويد» مع أنهم لا ينفون أنهم من مريديه المقربين؟ وكيف عالج «أينشتاين» تراث «غاليليو» و«نيوتن» في الفيزياء، وفيزياء الأجرام «استروفيزياء»؟ لم يخل ميدان العلوم الصحيحة أيضا من التمرد والانقلابات التي كانت لها عواقب خطيرة في المستويين المعرفي والتكنولوجي، فماذا فعل أينشتاين بأسلافه العلماء؟ الجواب هو أن ذلك العالم كان ثالث ثلاثة استخدموا التكتيك الانقلابي.

الأول هو ماركس وصديقه أنغلز اللذان أنزلا العقل من عليائه وانتزعا السلطة من الأرستوقراطية والبرجوازية وسلماها الى العمال، وبذلك وضعا حدا نهائيا لما يسمى العهد القديم.

والثاني هو «فرويد» الذي هبط بالوعي الى اللاوعي وكشف عن الحرب الطاحنة التي تدور بين غرائزنا المتوحشة والمدمرة وبين كوابحها المكتسية، وبذلك ظهر الإنسان حيوانا متوحشا في حاجة الى أن تقلم مخالبه في الأسرة والمجتمع.

والثالث هو أينشتاين الذي أغار على عالم نيوتن وابتلعه فلم يعد له وجود خارج الذهن والشعور، لقد أدى اكتشاف أول جزيئي وهو «الفوتون» سنة 1901 الى إعادة النظر في التصور السابق للعالم ذي الأبعاد الثلاثة المتجاورة والخارجة تماما عن الذهن لأن لها وجودا مستقلا عنه، وهذه الأبعاد المتجاورة هي الزمان والمكان والمادة، ووفقا لنظرية أينشتاين فإن تلك الأبعاد لا تفقد استقلالها عن الذهن، فلم يعد المكان حيزا مستقلا يحوي المادة، ولم يعد الزمان وحدة قياسية مستقلة يجري فيها الحدث وتتابع أجزاؤه، ولم تعد المادة موجودة خارج البعدين السابقين، هناك إذن وحدة فيزيائية لا تقبل التجزئة هي «المادة - زمان - مكان» تخضع لقوانينها الداخلية وهي قوانين ثابتة لا تتغير إلا إذا تغير مكان ملاحظتها أو المقياس الذي يختاره الملاحظ.

لقد ساعدت النظرية النسبية على إقامة عالم جديد على أنقاض عالم غاليليو ونيوتن، ومهدت السبيل لتصميمات أخرى بديلة اقترحتها قافلة من الحائزين على جائزة نوبل في الفيزياء، أمثال: «نيلز بوهر»، «ريتشارد فينمان»، «هكدي يوكاوا»، «أينريكو فيرمي» و«موراى جيل مان» الخ...

ولكن هل كان بإمكان كل هؤلاء الانقلابيين أن يضيفوا شيئا الى المعرفة بالمادة والإنسان لولا التراكم المعرفي الذي خلفه الأسلاف؟ وهل من الممكن أن يبدأ عقل من الصفر؟ أليست كل التيارات الكبرى في الفكر والفن هي في النهاية هدم وبناء يتم في هيكل واحد هو هيكل المعرفة والفن؟ هدف الهدم هو تثبيت دعائم الهيكل وهدف البناء هو الارتفاع به كل مرة الى فوق لجعل الرؤية أبعد وأعمق.

لنترك الحديث أيها الصديقان عن الهدم والبناء فهو عملية تلقائية مثل محاورتنا هذه، إنها تحدث حتى في داخلنا، في خلايا جسمنا فتؤدي الى النمو، وتجديد الأنسجة، إذا تغلب جانب النمو، وتلقي بنا الى الشيخوخة والضعف إذا زاد الهدم وتباطأ البناء.

لنترك الحديث أيضا عن جوهر المفكر وماهية المثقف فمثل هذا الحديث ينتهي غالبا كما يبدأ بنفس السؤال من هو المثقف؟ من هو الفنان؟ فهل أن التقدم من الأثر الفكري أو الجمالي الى صانعه أقرب الى الدقة؟ وهل أن الخوض في الخصائص الذاتية للصانع تعطي إضاءة أفضل تساعدنا على تقدير القيمة الفكرية والميزات الجمالية للأثر؟ أم من الضروري أن نستعمل الجدل الصاعد والنازل – كما يقول أفلاطون – فنتردد جيئة وذهابا بين الأثر وصانعه؟.

لا اعتقد أن لمثل هذه التساؤلات جوابا واحدا مقنعا وحاسما لسبب واضح وهو: كما أن العين لا تنفصل عن النظر، والأذن لا تنفصل عن السمع فإن الأثر – فلسفة أو علما أو فنا – لا ينفصل عن مبدعه، وكما أن النظر هو وظيفة العين وليس العين في حد ذاتها، وكما أن السمع وظيفة الأذن وليس الأذن نفسها، فإن الإبداع وظيفة العقل، والحدس الجمالي، ولعل هذا ما يفسر ابتعاد بعض المفكرين سلوكيا عن أفكارهم أو تنكرهم لها واتلافها حقدا عليها، ولعل هذا أيضا ما تعنيه الحكمة الشعبية عن الوعاظ والمعلمين فهي توصي بأن «نسمع أقوالهم ونترك أفعالهم»!

فارح كمال:

على الرغم من كل ما سمعته من شطحات ذهنية تبدأ بتثبيت المتغير وتنتهي الى تغيير الثابت فإني على يقين بأن عالمنا العربي هو ثقافيا واقتصاديا أفقر الأغنياء وأغنى الفقراء، وقد جعلته هذه الوضعية موضوعا لكل صراع أو طرفا فيه منذ أقدم العصور الى اليوم نمت بين شعوب هذا العالم روابط حضارية ترجع الى عهد «دار الإسلام» فقد كان العدو تقريبا واحدا يهدد الجميع ويأتي في أغلب الأحيان من وراء البحر خلال ثلاثة عشرقرنا أو تزيد، ولكن تلك الروابط التاريخية الحضارية لم تمنع من رسوخ المشاعر الوطنية في كل إقليم من الجزيرة الى العراق والشام ومصر وإفريقيا... وإنكار هذه الحقيقة والقفز فوقها هو الذي جعل الحوار الفكري والسياسي حول قضية الوحدة يدور في حلقة مفرغة، بل هناك تقهقر من

المستوى الوطني الى الطائفية التي تبحث عن انتماء خارج إطارها الحضاري كما حدث في لبنان ومناطق أخرى قريبة منه وبعيدة عنه، أي أن البدائل المطروحة اليوم هي تفتيت الوحدة الوطنية لكل بلد لإضعاف الجميع! إن ما يحدث على الساحة الشرق. أوسطية له جذور عميقة قبل وأثناء وبعد الوجود العثماني تتصل بالجغرافية البشرية والاقتصادية للمنطقة وتنعكس على واقعها السياسي الذي جعلها موضوعا للصراع وليست طرفا فيه منذ عدة قرون.

لا أريد أن أدخل أيها الصديقان في النقاش الأكاديمي حول دور الاقتصاد والسياسة والثقافة في الصراعات الجهوية والدولية، فلست خبيرا فيها كلها، ولا مطلعا على خبايا كل واحدة منها على حدة، ولكنني اعتقد أنها إذا خلت من المرجع الأخلاقي تحولت كلها الى غش وخداع ولا يمكن أن تبنى عليها علاقات سليمة بين الأمم والشعوب، وللأخلاقية في تلك الميادين قوانين ثابتة منذ صراع قابيل وهابيل فما هو حق هو خير، وما هو باطل هو شر، ولا يكون الباطل حقا والشر خيرا أبدا، ولكن هذا التصور الذي أقره عمانويل كانط في «نقده للعقل العملي» – والمستمد أساسا من الحس السليم – لا يعني أن الحق ينتصر بطريقة عفوية وأن الخير يتحقق بالدعاء والقرابين، ولذلك فإن جزءا كبيرا من العلاقات بين الدول يقوم على الردع المتوقع من الخصم فإذا تأكد أحد الأطراف من ضعف الرد أو انعدامه، حصل العدوان، ويسري هذا القانون باتفاق ضمني منذ الحرب العالمية الثانية فلم تدخل دول أوروبا في حرب فيما بينها ولا مع المعسكر المقابل، وعلى أساس هذه المعادلة تقوم العلاقة بين قيادتي المعسكرين فالاستعداد الدائم للحرب يمنع الحرب، والحرب لا تكسب بتعداد الجيوش وقوة تسليحها؛ فحسب، بل تكسب بالقوة الاقتصادية والثقافية أيضا، وتهزم لهذين البسببين الأخيرين قبل أن تخوض الحرب! وهذا هو أحد مفاتيح اللغز الشرق أوسطي القائم منذ حوالي ثلث قرن (1948–1987) هذه أفكار قديمة جديدة رددها المفكرون والقادة منذ «أمير» ميكيافيلي حتى بسمارك، وكلوزفيتز، وكيسنغر.

لا تذهب بكما الظنون بعيدا فتفهما أني من أتباع «نيتشه» والمذهب الذي بزعم أن القوة هي الحق والحق هو القوة، كما يؤكد ذلك المفكر الألماني في كتابه «هكذا تكلم زرادشت»! والذي استمدت منه الإيديولوجيات الفاشية - بطريقة صحيحة أو تحكمية - أكثر أنظمة الحكم توحشا واحتقارا للحرية والديمقراطية، وهو بلا ريب الاحتلال الكولونيالي الاستيطاني، الذي يزيد بشاعة في رأيي على كل أشكال الفاشية الأخرى لأنه عمليا ينكر صفة «إنسان» على من يقعون في قبضته، فضلا عن السماح لهم بأية ممارسة للحرية والديمقراطية، فلكي تكون القوة الى جانب ما هو حق لابد أن يوجهها مرجع أخلاقي ثابت، وهو ما نجده في ديباجة المواثيق الدولية والجهوية وأغلب الاتفاقيات الثنائية وعلى أساس ذلك المرجع الأخلاقي تتبادل الدول والحكومات الحد الأدنى من الثقة في احترام المعاهدات والمواثيق وهو ما يفسر أيضا بقاء بعضها حتى بعد زوال الأنظمة والحكومات.

لقد عرضت لهذا الموضوع الخطير والمعقد لأصل الى بيت القصيد، وهو أن قضية فلسطين ومضاعفاتها الجهوية والدولية هي قضية حق ليس معها قوة، وأن قضية إسرائيل هي قضية باطل تؤيده قوة، والحل - النظري طبعا - إن تكتسب القضية الأولى قوة تعادل أو تتفوق على الثانية، قد يحدث ذلك يوما -ما- في فلسطين أو الصحراء الغربية، المهم هو أن نفكر جميعا لماذا يفقد الحق ما يؤيده من قوة؟ وكيف يكتسب الباطل قوة تمكنه -مؤقتا- من الإطاحة بالحق؟

ليس في النية أن أثقل عليكما أكثر من هذا فأتطرق الى الركن الثالث بعد الحق والخير، الا وهو الواجب ومدلولاته الأخلاقية والسياسية حتى لا أفقد فرحي وتلقائيتي فلا ينبغي أن نسأل عن أشياء إن تبد لنا تسؤنا، أليس الواجب صنو المسؤولية؟ وما هي المسؤولية إن لم تكن السؤال والمحاسبة عما نأتي ونذر من أقوال وأفعال من المحيط الى الخليج؟!

عقداء المعرفة الانقلابيون

غضبان وحيد:

لا أشعر بارتياح لكلمة (انقلاب) لسببين: **أولهما** أني أنفر من المعنى الاصطلاحي السياسي لهذه الكلمة، فلم تؤد أغلب الانقلابات التي حدثت حولنا في المنطقة وفي إفريقيا وأمريكا اللاتينية لأية ثورة اجتماعية تسفر عن تقدم وتجديد، ولحد الآن اقتصر التغيير على استبدال (س) بـ (ص) والرائد فلان بالنقيب أو الملازم فلتان ويتم كل ذلك في شكل مخططات خماسية للتعاقب على السلطة يحدث داخل اليمين كما يحدث داخل اليسار وفي الحالة الأولى يوصف اليمين كل مرة بالرجعية، وفي الحالة الثانية يوصف اليسار بالانتهازية وهكذا تدور العجلة في مكانها المليء بالطمي وأوحال التخلف، ويصدر عنها ضجيج كبير، ولكنها لا تتحرك قيد أنملة بطريقة الدفع الذاتي، إنها أشبه بقطار بلا قاطرة ولا سكّة!

أما السبب الثاني –وهو الأهم– لاعتراضي على استعمال كلمة انقلاب فلأن تاريخ العلوم والفنون والآداب لا يعترف بها أنه من المستحيل أن يبدأ مذهب أو تقوم نظرية انطلاقا من الصفر والتسليم بهذه المغالطة يؤدي بنا الى غلق المدارس والجامعات والمخابر والمكتبات أي أن الجهل بالتراث المعرفي يتساوى مع العلم به وهو أمر مرفوض بالبداهة، وبالمثل فإن تلك التيارات والمذاهب بما فيها من نتائج جزئية وتعميمات كلية لا تنتهي الى التلاشي والعدم، هل يمكن لباحث في الفيزياء النووية أن يجدد في مجال المفاهيم والاجراءات المتعلقة بفهم الطبيعة وهندستها في حالتيها الديناميكية والاستاتيكية إذا تجاهل نظام بطليموس وكوبيرنيك اللذين تفصل بينهما مئات السنين؟ وهل صحيح أن كوبيرنيك أحدث فعلا انقلابا في علوم الفيزياء والفلك عندما زعزع الأرض ونقلها من مركز للكون الى مجرد جرم في مدار ومدار في واحدة من منظومات الكون اللامتناهي؟

كل ما هناك أن الإضافة والتجديد على «نار هادئة» تتخللها ومضات تقفز بالمعرفة خطوات كبيرة، ولكن لا دخان بلا نار! ومادامت الفيزياء هي التي تتصدر اليوم البحث الأساسي والتطبيقي في ميدان العلوم ولا تنافسها في ذلك سوى شقيقتاها البيولوجيا والأمبريولوجية (علم الأجنة) فلنترك جانبا الإشكالية الانقلابية في الفنون والآداب ونقتصر على إثبات تهافتها في ميدان الفيزياء وعند واحد من أكبر العقول في القرن العشرين وهو أينشتاين الذي اعتبره الأخ طارق قمة الثالوث الانقلابي (ماركس فرويد اينشتاين) يؤكد أينشتاين نفسه في مذكراته وفي الحوار الذي جرى بينه وبين الشاعر الهندي رابندات طاغور سنة 1930 وفي مقالة بعنوان: الفيزياء، الفلسفة والتقدم العلمي نشرت في مجلة الجراحة بشيكاغو سنة 1950 يؤكد في هذه المواضيع وغيرها علاقته الحميمة بأسلافه الفيزيائيين من ديموقريطس الفيلسوف اليوناني الذي زعم قبل ما يزيد على ثلاثة قرون قبل الميلاد «إن الإنسان لا يستحم في النهر الواحد مرتين، أن مياها تجري حولك أبدا» هذه المقولة التي بنيت عليها فيما بعد كل فلسفات الشك والأدرية ومر بها أو عاد إليها كثير من العلماء الباحثين في مصدر المعرفة الحسية (التجريبية) والعقلية (المثالية) والروحية (الحدس العفوي) هذه المقولة هي التي كونت في ذهن اينشتاين سؤالا مركزيا متعدد الأطراف، لازمه طوال رحلته العلمية الثرية ومؤدى السؤال هو: هل أن وجود الأشياء يتوقف على إدراكها من خلال حواسنا؟ وهل أن عدم إدراكها يودي الى نفي وجودها وهل بالإمكان أن توجد معرفة فكرية محضة كما أدعى أفلاطون وكانط وهيغل، وإذا أجبنا بلا على السؤال الفرعي الأخير فما هي إذن العلاقة بين مدركاتنا السابقة وبين «الخامات» التي تزودنا بها الانطباعات الحسية؟

ما هو الموقف من أولئك العلماء والفلاسفة الذين يزعمون أن «العقل صفحة بيضاء تنقش عليها الخبرة ما تشاء» وخصومهم الذين يدعون على حد تعبير هيغل «إن العقل غني عن الواقع فهو لا يبدأ به ولكنه يسلط عليه، إن العقل يدرك المعنى الحقيقي في الحال».

وقد بدأ اينشتاين بفحص دعوى الفريق الأول في أقوى دفاع عنها عند بركلي وهيوم وتبين أن الأول يحاول المزج بين الأفكار والأحاسيس والتمييز بين «الشيء في ذاته» وبين الانطباع الحسي عنه ولكن هذا التمييز لا يعطي لأي منهما استقلالية عن الآخر، فلا تصور بدون مادة إحساسية ولا معنى لإحساس لا ينتج عنه تصور، وهي الفكرة التي احتفظ بها اينشتاين.

أما الثاني وهو هيوم فقد أوغل في الحسية التجريبية الى حد تحطيم مقولات الذهن الأولى وهي السببية والزماكانية، (ارتباط الزمان بالمكان والعكس) بمثاله المشهور عن كرة البليارد، والتشكيك في إمكانية استعمال الحواس للبرهنة على وجود علاقة بين علة ومعلول أو كما يقول علماء أصول الفقه الإسلامي: «دوران» العلة مع المعلول وهي فكرة السببية التي ناقشها أبو حامد الغزالي في «المنقذ من الضلال» وديكارت في «المقال في المنهج» وحطم بها هيوم كل يقين ووضع نظرية المعرفة كلها في دهاليز اللاأدرية أو الشك المطلق عندما قرر «أن المعرفة - مصدرها تطبيقي وهو مصدر غير يقيني».

وبالإضافة الى فكرة الإحساس والتصور فقد راجع أينشتاين ثقته المطلقة في التجريبية وقد ساعده على ذلك دراسة التراث الكانطي الذي يرتكز على فكرة المقولات القبلية أي ما يدركه الذهن بداهة قبل التجريب والانطباع الحسي، وفي مقدمتها مفاهيم السببية والزمان والمكان وهي مفاهيم لا تحتاج عند كانط الى اكتساب شرعية من خارجها، إذ هي التي تسبغ الشرعية على المدركات الحسية، عند مطابقتها لها.

أخذ أينشتاين من المدخل الطبيعي للفلسفة الكانطية فكرة المفاهيم القبلية أو البديهية التي تنتج عن أسباب خارجية، وهي المدركات الحسية، مصححا خطأ كانط في رفضه للعلاقة السببية بين الذهن والواقع، وبالتالي فإن الأحكام التركيبية الصادرة عن الواقع المصادق عليه ذهنيا، والمقبولة عقليا، عندما تنطبق على الواقع هي التي تحصل على الشرعية العلمية.

ويعترف أينشتاين في مذكراته، بأنه تأثر الى حد بعيد بالدراسات الفيزيائية لأرنست ماخ وفلاسفة الوضعية المنطقية بوجه عام، وهم أكثر المتحمسين لفكرة النسبية فقد شدد «ماخ» في دراساته للفيزياء على الدعوة لرفض «العلم المطلق» وهي نموذج من المعرفة العلمية أوهمت الباحثين بأن قوانين الميكانيكا والفيزياء كاملة ونهائية ولكن «ماخ» لفت الانتباه الى سبب هذا الوهم وهو تناسي أولئك الباحثين لحقيقة الترابط الكوني بين الظواهر. وعلى الرغم من إعجاب أينشتاين بالمنهج «الماخي» فقد أقلقته نزعته الوضعية المتطرفة وخاصة عداوته للفلسفة في شكلها الماوراء فيزيائي (الميتافيزقا) مستغلا في ذلك الخلخلة التي أحدثتها لاأدرية هيوم وجبروت العقل الكلي الذي فرضه هيغل.

وانتهى أينشتاين الى التنديد بما سماه التحيز اللاموضوعي للوضعية الجديدة وحمله مسؤولية الجمود الذي أصاب علوم الفيزياء وخاصة فيزياء الجزيئيات إن الوضعية المنطقية في رأيه لا تهدد التفكير الفلسفي فحسب إنها تقوض كل تفكير نظري وفي مقدمته التفكير الرياضي، أليست الرياضيات هي علم الأشكال الفراغية وعلاقات الكم الخالية من المحتوى؟ إنها علم مشتق من الخيال (الوعي) أكثر من استناده الى الواقع إن التعرف على تلك الفلسفات وغيرها هو الذي أوصل أينشتاين الى اكتشاف النظرية النسبية وإعادة النظر في مفاهيم ميتافيزقية قديمة قدم الإنسان نفسه، فمن قوانين النسبية المتعارفة اليوم: إن التغير في صفات الشيء المتحرك يولد تغيرا في صفاته الزما - كانية، إن كتلة الأجسام تقرر البنية الهندسية للزمان والمكأن، إن الزمان والمكان ليسا سوى شكلين لوجود المادة الخ. . .

عفوا أيها الصديقان لقد أخذتكما الى «معرض» الفلسفة والعلم، ولكن لم نتمكن جميعا من التعرف على ما تحتويه رفوفه من معروضات واكتفينا بنظرة خاطفة على دفتر العينات إن الهدف الأول من دخول «المعرض» العلمي الفلسفي محدد سلفا وهو إثبات أن التفكير العلمي هو أساسا تفكير فلسفي ويؤكد أينشتاين نفسه ضرورة التمرس بالفلسفة فيقول: «إن

الصعوبات الحالية للعلم تجبر الفيزيائي على الالتصاق بالفلاسفة من الجيل السابق» وهو ما ينبغي أن يثير انتباهنا الى ظاهرة السخرية من كل جهد ذهني تنظيري الذي يسميه بعض الديماغوجيين عندنا «بالتفلفيس» أي التلاعب بالأفكار والألفاظ ومعاداة الفلسفة – وهي الأم التي تنجب الإبداع ولاشك أن احتقار الفلسفة هو علامة لا تخطىء على التقهقر الحضاري والانهيار الثقافي الشامل فمتى يفهم البعض منا أن وراء العلم والتكنولوجيا فلسفة تجاه الإنسان والطبيعة وأن قصر التقدم على الجانب التطبيقي وحده يجعلنا أشبه بالطفل الذي يتوهم أن الشفق هو النقطة التي تنتهي فيها الدنيا وتلتصق الأرض بالسماء!.

وأما الهدف الثاني فهو التأكيد على أن الدعوة التي نسمعها هنا وهناك لأخذ المتقدم في أعلا درجات تطوره أي العلم والتكنولوجيا المعاصرة هو أيضا مغالطة أكثر ديماغوجية من سابقتها، إذ كيف يمكن بناء السقف بدون الدعائم والجدران؟ وهل يمكن أن نحط على قمة الهرم المعرفي بدون أن نتسلق قاعدته؟

معذرة يا أينشتاين فهناك في منطقتنا أناس يخلطون بين الطموح والرعونة ويتوهمون أن حل إشكالية التخلف يتوقف على نقل التكنولوجيا الأكثر تقدما وزرعها فوق الرمال، وبذلك ينتهى عصر الجمال والخيام! لماذا توغلت يا إينشتاين في تلافيف العقل الواعي وقطعت مسافات شاسعة من ديمقريطس حتى ماكس بلانك ولم تقتصر على فيزياء نيوتن؟ لقد علمتنا أن المعرفة العلمية ليست إستعراض الكرنفال وأن التقدم ليس حفلة فنطازيا!

فارح كمال:

أشعر أن مسعانا فيه من التعميم أكثر مما فيه من التحديد أن الانقلابات الفكرية ظاهرة متجددة ولا تقتصر على ماركس وفرويد وأينشتاين ومتابعة دواعيها ونتائجها تتطلب رصد انطولوجيا ضخمة أو «كشف» معرفي من نوع أنطولوجيا الوجود الاجتماعي لجورج لوكاش (1970) فقد قضى

هـذا المنظر الكبير عشر سنوات في ذلك العمل تفطن في النهـاية أنـه بعـد الألـف صفحـة التي كـتبها لـم يـزد على تحرير مقدمة للأنطولوجيا.

ولذلك يبدو لي أن الظاهرة التي تستدعي الانتباه في الفكر المعاصر هي اختفاء رواد المعرفة الكاملة (Savoir total) فلم يعد أحد يزعم القدرة على تقديم مشروع علمي فلسفي لتفسير الكون وتصميم نظرية شاملة تصدر عنها سلسلة من المفاهيم والفرضيات الطموحة لتقديم إجابات عامة عن علاقة الإنسان بنفسه وبمحيطه الاجتماعي والمادي والعلاقات القائمة بينه وبين عالمي المادة الأصغر والأكبر.

ولعل السميولوجيا هي آخر تلك النزعات التي تزعم إمكانية وضع معرفة كاملة، وقد ظهرت تلك النزعة في أوائل السبعينات وتنطلق من مسلمة (أكسيومز) مؤداها أن كل الأحداث الاجتماعية - من ضروب السلوك اليومي وما فيه من رموز لغوية وإشارات وحركات حتى الأنظمة والقوانين والتطبيقات التكنولوجية - ليست سوى شكلا من السلطة المطلقة تمارس بطريقة شعورية أولا شعورية ولذلك فان الواقع الاجتماعي ليس مشروعا قابلا للتحرير ولا حوارا أو صراعا من أجل الإبداع وتوليد الجديد من صلب القديم، إنه سلسلة من القوانين الجبرية القاهرة تتحكم في النفوس والعقول وتأخذ اسم الإيديولوجيا «السائدة» والخطاب الثقافي «المعتمد» ونحن نتعامل مع تلك القوانين كما نتعامل مع آليات اللغة التي رسخت صيغها وتراكيبها في الذهن منذ نعومة الأظفار حتى أن التغيير في آلياتها يثير الدهشة أو يؤدي الى السخرية وينتج عنه سوء التفاهم بين الناس، ويمكن القول بوجه عام أننا متفقون أو مختلفون سلفا فيما نتبادله من آراء وتقييمات وأحكام.

ويعتبر تيار السميولوجيا الذي شطب الاقتدار ووضع مكانه القدر الوجه الثاني للنزعة المغالية في قدرة العلوم والتكنولوجيا على تجاوز قدرة الإنسان وحتى إلغاء دوره الإبداعي، لقد أوهمت النجاحات التي حققها السبرنتيك بعض المتطرفين أنه بالإمكان تعويض وظائف التفكير المعرفي وحتى الجمالي عند الإنسان بالآلة السبرنيتيكية التي تستغني عن التدخل

المباشر للأشخاص الذين صنعوها لذلك بالإمكان أن نبرمج قصة أو رواية أو سيناريو فيلم أو لوحة فنية بواسطة أجهزة السبرنتيك ولا داعي أن نجهد أدمغتنا وأصابعنا بالرقن أو الكتابة، وتجري هذه المحاولات منذ بداية العقد الماضي خاصة في اليابان والولايات المتحدة ويسود بعض القيادات الفكرية في الغرب قلق شديد حول مصير العلم والأدب والفلسفة واحتمال إصابته «بالتصحر» وجفاف حقوله وقد لاحظوا وجود علامات تشير الى هذا الخطر المحدق بالفكر والثقافة، ومن بين تلك العلامات فقدان أوروبا وشمال أمريكا بالتدريج الدور القيادي في مجال الفنون والآداب فأفضل القصص المقروءة اليوم هي مترجمة من أدب أمريكا اللاتينية وأكثر ألوان الشعر جمالية وعمقا هي لشعراء من جنوب أمريكا وآسيا واحتل أدباء المنفى القادمون من المنظومة الاشتراكية مركز الصدارة في غرب أوروبا والولايات المتحدة.

غير أن العناية بأدب الاحتجاج على النظام الاشتراكي أو الأدب الفار من الصقيع - (أشاع هذا المصطلح جون لوكاري كاتب قصص الجوسسة البريطاني المعروف) - له أسباب أخرى سياسية أكثر منها ثقافية تدخل في إطار الصراع الإيديولوجي بين الشرق والغرب.

إن المأزق الذي بلغه النظام الرأسمالي وأزمته الحضارية هي التي تدفع آلته الإعلامية بما فيها المطابع ودور النشر والتوزيع الى الاهتمام بالمعارضة والتنديد «بالڤولاڤ» وقد وجدت في كتاب لا تنقصهم العبقرية أداة للهجوم واختراق ما سموه الستار الحديدي بواسطة أدباء وفنانين عاشوا خلف ذلك الستار، وهكذا حظى كتاب أمثال باسترناك وصولجنتسين وهافل وزغايافسكي وبرودسكي بعناية غير عادية ونشر إنتاجهم بعشرات الآلاف من النسخ واستعملت كمادة أولية لتصميم دعاية مضادة مجانية.

فلأمر في نفس يعقوب أغدقت دور النشر الأروأمريكية الأموال والتسهيلات على أولئك المنددين بالڤلاڤ وساعدتهم على تكوين الروابط ونشر الدوريات والمجلات المتخصصة في شؤون بلاد «الصقيع».

إن المطلوب هو أن يشهد «شاهد من أهلها» وقد جاءهم هذا الشاهد طواعية وتولى لأسباب كثيرة – لا أعرض لها هنا – مهمة الإدعاء العام.

وتواجه منطقتنا العربية وإفريقيا لأسباب مختلفة وضعية مشابهة يمثل المغرب العربي نقطة ارتكازها والهدف الأول الذي توجه إليه عملية الاستقطاب الثقافي التجاري – السياسي. إن معرض الأدب السابع الذي ينتظم في باريس خلال شهر مارس 87 يجمع كتابا من سبعة عشر بلدا عدد منهم ينتمون الى إفريقيا بإشراف وزارة الخارجية الفرنسية وبالإضافة الى الدوافع الثقافية السياسية يعمل المخططون على كسب الأسواق الاقتصادية بواسطة صناعة الطباعة والنشر التي بلغت أرقامها الاستدلالية في فرنسا سنة 1985م حوالي ستة ملايير دولار.

غضبان وحيد:

الغضب المضاد مثل الثورة المضادة، هو تنديد بالذات، وكراهية للواقع تكتفي بخلخلته وتركه في منتصف الطريق بين المشروع المقترح لتغييره والوضع الذي كان عليه في السابق.

كيف يعالج واقع اللاثقافة في ربوعنا؟ هل يكون بالدعوة للتنكيل بالإرث الحضاري والدعوة للتخلص منه؟ هل يمكن افتراض نقطة في ذلك الماضي تصلح كبداية للانتقال من مجتمع اللاثقافة الى مجتمع الثقافة، وهل أن حالة التخلف الفكري في حاجة الى تحديد هوية متهم غائب بأشخاصه حاضر بتأثيره هو التراث؟ كيف إذن نفسر أن نفس المجتمع يمكن أن ينتج التقدم والحضارة ويمكن أن يعجز عن ذلك فيتخلف؟ قد يعجبنا أن يسأل صبي صغير «من أنا»؟ «كيف ولدت»؟ و«أين المصير»؟ ونجيبه في كل مرة يكرر السؤال بما يلائم مداركه ونموه النفسجسمي لكن استمرار هذه الحالة بعد مرحلة البلوغ يعني أن الشخص يعاني من الفصام وأن وكلاء المجتمع ومؤسساته قد فشلت في تجهيزه بآليات النضج والتكيف.

تجمع خلال نصف القرن الأخير تراث ضخم يمكن أن نضع عليه عنوانا واحدا في شكل سؤال مزدوج هو من نحن؟ وفي أي طريق نسير؟ يتبادل طرحه اتجاهان هيمنا في المدة الأخيرة على الخطاب الثقافي هما الاتجاه الأصولي والاتجاه الماركسي ويتردد بين هاذين الاتجاهين الكبيرين جملة من الاجتهادات الفرعية التي تستمد أفكارها من المدارس الاستشراقية وتيارات الفكر الغربي المعاصرة وتدفعني متابعاتي التلقائية الى اعتبار الفريق الذي اختار وسط الميدان أضعفها جميعا لعدد من الأسباب، ليس هواية التطرف من بينها على أي حال، أن مسك العصا من الوسط قد يؤجل المشكلة وقد يحل نصفها، ولكن النصف الباقي يتوالد ويتضاعف ويعود بكل المسعى الى نقطة البداية، ومن المحتمل جدا أن تتقهقر تلك النقطة وتختفي تماما عن الأنظار.

إن مدارس الاستشراق قد ساهمت بلاشك في الكشف عن ذخائر التراث العربي الإسلامي من طاشقند حتى قرطبة وتومبكتو ولولاها لبقي جزء هام من الإرث الحضاري في طي النسيان وخاصة بعد الذهول الذي أصاب العقل العربي نتيجة صدمة الاتصال الأول المباشر بالحضارة الغربية في أواسط القرن 19، مما جعل قسما كبيرا من الانتليجانسيا تشعر بهول ما أصاب مجتمعاتنا من تخلف وركود، عبر عن تلك الصدمة مثلا رفاعة الطهطاوي في مشاهداته ومقارناته بين بلاد الفرنجة وبلاد العرب، ولكن مناهج الفكر الاستشراقي ونتائج البحث ليست دائما خالية من الأحكام المسبقة والتعسف المنهجي والأوروسانترية التي تتخذ من مفاهيمها الإبستمولوجية المعيار الوحيد للحقيقة، والركون إليها وتقليد معالجاتها هو الذي أوصل بعض المفكرين في لبنان ومصر والمغرب العربي الى انحرافات نظرية هلل لها أساتذتهم في مدارس الاستشراق الغربية، ولكنها فشلت في التأثير على النشاط الفكري في العالم العربي.

أما التلمذة الساذجة للتيارات الفكرية التي ظهرت في الغرب فقد أوصلت أيضا الى نفس النتيجة بسبب سرعة التطور والتغير الجاري على

الساحة الأوروأمريكية، فماذا بقي من سبينوزا وكيركغورد وهايدغر وسارتر لقد اتجهت المذاهب الوجودية من اليمين نحو اليسار قبل أن يتلقاها الفكر الماركسي عند «ألتوسير» وتصبح النظرية الماركسية - (وهي غربية بحكم المنشإ وحتى بالنظر لحجم التنظير القائم حولها الى اليوم) - هي المهيمنة على مجمل النشاط في العلوم الإنسانية، لكن هذا الاكتساح لم يدم طويلا فقد ادعت البنيوية أنها العلم الطبيعي الذي يحتكر الحقيقة العلمية ويقدم الأداة الإبستمولوجية التي تخلص المجال المعرفي من خلفياته الاعتقادية (الدوغماطيقية) وحتى هذه النظرية لم تعمر طويلا فقد اتضح منذ نهاية السبعينات أن البنيوية ليست أكثر من ضاحية صغيرة في علوم اللسان والفيلولوجيا ولم يبق اليوم منها سوى ذكريات عن ولع أتباعها بالأشكال والبنيات، ولا نعرض لتيار السيسيولوجيزم أو ما يعرف بالإمبريالية السيسيولوجية على كل مجالات المعرفة المتصلة بالإنسان، فقد أصبح «الآنا» أو الذات منافسا خطيرا لا يعترف بأن الغوص في الموضوع يحدث من خارجه.

وهكذا فان أتباع تلك التيارات في عالمنا العربي ما يكادون يعتنقون واحدا منها حتى يطويه التطور السريع للفكر الغربي ويجعله نسيا منسيا أي جزءا من التراث المعرفي وليس أحدث ما فيه.

وأصدقكما القول بأن هذا الطرح التلقائي السريع لبعض خصائص الخطاب الثقافي وتوجهاته لا يستهدف أبدا تصنيف الناس في خانات التقدمية والرجعية والعصرية والتراثية والماركسية والليبرالية، فأنا شخصيا لا أرى الانتماء الى ملة أو مذهب فكري عن اقتناع يؤدي الى إبداع مأخذا أو سببا للعداوة والنفور فهل يمنع إعجابنا بتولستوي تذوقنا لتشيخوف وغوركي وغوغول؟

وهل أن ميلنا لفيكتور هيغو وموبسان يفرض علينا معاداة مالرو؟ وهل أن إعجابنا بتشارلز دكنز وبرنارد شو يدعونا لمعاداة شكسبير؟

فمن الظواهر المؤسفة الرائجة بين فئات من المثقفين البحث عن جملة أو مرجع أو اسم يردده مفكر للاسراع بتصنيفه إيديولوجيا والتنويه به، أو التهجم عليه سياسيا وهذه الممارسة للإرهاب البارد أو الاغراء المغلف لا تساعد على ازدهار الثقافة وتحرر الفكر من ضغوط الرقابة الذاتية وشيوع الضحالة والإسفاف والإمّعية حتى يغلب على الساحة الثقافية شعار «مات الملك عاش الملك» فلا يحق لتيار فكري أن يزعم لنفسه احتكار معيار الحقيقة وتقديمه كسراط مستقيم وحيد، فقد أدت وتؤدي مثل هذه المزاعم الى قهر فكري واحتقار للإبداع، تدفع الأمة ثمنه الباهظ ويستفيد منه الطفيليون والمزايدون ومن أطلق عليهم اسم حاشية التشريفات الثقافية أو ذباب الثقافة.

قد يحاكم النقاد مفكرا أو فنانا على جزء من إبداعاته ويصدرون عليه حكما ينبغي أن يبقى معلقا حتى يوضع ذلك الجزء في إطار إبداعاته الأخرى وتفيد الأحكام المعلقة في التعرف على المنحنى الإبداعي وما يطرأ عليه من صعود أو نزول، من تغير أو ثبات من قناعات فكرية أو خصائص جمالية.

إن الدعوة لفتح باب الاجتهاد في القضايا الدينية سواء أكانت معاملات أم تعبديات من غير أصول العقيدة الخمسة التي لا اجتهاد فيها لا تعني شيئا إذا لم يسبقها تسامح المفكرين وتقبلهم لاختلاف الرأي وتباين النتائج الناجمة عن ذلك، وعلى أي حال فان الاجتهاد ليس دعوة تعلن ولا بابا يفتح أنها حركة ثقافية اجتماعية ينتهي مسارها الى التقدم، ونقد التقدم بغية الإضافة إليه وتسريعه وتقبل الكثرة في إطار الوحدة والتمايز بغية الإثراء والتكامل.

الانفتاح.. تبادل حر للأفكار.. نحو الفعل الحضاري

طارق سعيد:

إذا كان التعصب ضربا من الاستلاب فان العدمية موقف انهزامي عاجز أمام التراث والحداثة معا، ولذلك لا ينبغي أن يفهم نقدنا للواقع العربي الإسلامي وبعض مظاهره السلبية كما تبدو في عدد من المعالجات المنهجيّة للإرث الحضاري على أنه دعوة لشطبه وسحبه من دائرة الاهتمام العلمي والتأثير السياسي والاجتماعي، فلا يمكن لباحث منصف أن ينكر الإضافات الجديدة والجريئة التي تمت في العقود الثلاثة الأخيرة على وجه الخصوص، وساهم فيها مفكرون مثل أدونيس، وحسن حنفي، والطيب تيزيني، وحسين مروة، والجابري، ومحمد أركون الخ...

ولكي تزداد رؤيتنا وضوحا ونحن نعالج التراكم المعرفي الذي حدث في السنوات الأخيرة حول قضية الحداثة والتراث فقد يكون من المفيد رصدها ومتابعتها بواسطة حوار دائم يدور بين المختصين والأقل اختصاصا، ويعني الحوار فيما يعنيه جملة من الأفكار الأولية من أهمها:

1- ضرورة نقد النقد وفحص أدواته المنهجية في ضوء النتائج التي توصل إليها، فالنقد والتقييم هو جزء من المجال المعرفي الذي يحدث فيه، وكما يخضع التراث للفحص وإعادة القراءة ينبغي أن يخضع النقد نفسه لتلك العملية، ويفيد مثل هذا المسعى في فضح الإدعاء والتطاول والاستكبار الذي يدفع البعض منا الى الإقدام على الحسم في إشكاليات ضخمة بوسائل بدائية وأحيانا مستعارة، فقد قرأت مرة في إحدى مجلاتنا الأسبوعية الصادرة في بلد شقيق من بلدان الخليج موضوعا لا يتجاوز صفحة من الحجم المتوسط يقول فيه صاحبه بتطاول وغرور ما معناه: تاريخنا الحضاري لا يقبل أن يشوه بواسطة منهج المادية التاريخية

وجدليتها المؤدية للالحاد، وهو لا يقبل الاقتصار على البعد القومي الذي يهمل العقيدة محور الزخم التراثي الى اليوم وهو يرفض التناول التقليدي الذي يكتفي بسرد الأمجاد والتأسف عليها.

ماذا يقبل إذن؟ هذا ما يسكت عنه صاحب الموضوع متناسيا أن العنوان الذي أختاره - ربما لأسباب الإشهار من نوع «شوبيز» - هو: الموقف الصحيح من التراث وتاريخه، وأنا شخصيا أرى في هذه الطفلية النقدية علامة لا تخطىء على تخلف بنيوي لا تخفيه تكنولوجيا الطباعة وزخرفة الموضوع الذي عرضته المجلة بكثير من الجاذبية.

2 - العثور على إجابات ثقافية لمحنة الفكر العربي المعاصر، وتأخذ المحنة في هذا السياق نفس المعنى الذي يعنيه «لوكاش» من المفيد أن تتعدد الإجابات وأن يتقبل المتحاورون تعدديتها، فمن مظاهر المحنة بالمعنى «اللوكاشي» التردد الفكري بين ثقافة الأزمة وأزمة الثقافة، الدعوة لنقد الثقافة التقليدية وحتى الى رفضها واعتبارها في نفس الوقت الركن الوحيد المتبقي في وحدتنا الحضارية أي أننا لا نشعر بروابط الوحدة والتضامن إلا عند الرجوع للمضمون التاريخي المشترك بين شعوب الأمة العربية الإسلامية، أما الحاضر فإنه يعرض من التناحر والتمزق ما يقيم الدليل في كل يوم على مدى تغلغل التخلف في الهياكل والبنيات المؤسسية ولعل هذه المظاهر التأزمية من بين الأسباب التي تجعل بعض مفكرينا يبدأون بالتهجم على النزعة التراثية وأشكالها الأصولية الراهنة وينتهون بالتوبة والاعتذار فيضعون الحداثة في قفص الاتهام، بحجة أنها بدلة مستعارة لم نساهم في نسجها وحياكتها.

3 - متابعة التغيرات السريعة التي حدثت في الفكر العربي الحديث فقد انتقل مركز جذبه من الجامعة الإسلامية التي تعتبر العقيدة والإصلاح الديني هو العروة الوثقى وطريق النجاة من التخلف والتسلط الاستعماري قبل موجة المد القومي - التي جعلت من قضية الوحدة والحرية والاشتراكية من الحركة الناصرية الى طروحات حزب البعث والاتجاهات الماركسية العربية - المشروع الفكري السياسي للنهضة والتقدم.

والانتقال من مركز ثقل الى آخر لا يعني انتهاء الأول وانسحابه من الميدان فما زالت أصداء الجامعة الإسلامية والنزعة القومية واليسار العربي تتردد في فكرنا المعاصر بين كتّاب القصة والشعر والرواية والدراسات الإنسانية غير أن فشلها في ميدان التطبيق وعجزها عن اقتراح مشروع المجتمع الجديد وخاصة فيما يتعلق بمفهوم السلطة هيأت لبعض المفكرين أنه بالإمكان الخروج منها جميعا واقتراح صيغ أخرى للمصالحة والوفاق بين الفكر وإنتاجاته وتوضيح طرق التبادل والأخذ والعطاء ومجمل علاقاته مع الفكر العالمي.

4 – كثيرا ما توضع إشكالية الديمقراطية الثقافية في إطار الديمقراطية السياسية وحسب هذا الطرح فان الازدهار الثقافي مرهون بممارسات نظام الحكم وتعامله مع الإنتليجانسيا ويبدو لي أنه طرح مقلوب فالديمقراطية والحرية «المسؤولة» هي أولا قناعات فردية تنعكس على المؤسسات الاجتماعية وبتعبير أوضح فإن الأب الذي يطلب تنفيذ أوامره بدون مناقشة والأستاذ الذي يسحب من تلاميذه حق الاستفسار والاعتراض والمدير الذي يستعمل الختم والإمضاء لمجرد الاستمتاع بالسلطة وقس على ذلك مجموع الأفراد كل حسب موقعه، إن جَمْعَ كل أولئك الناس في أي شكل كان لا يمكن أن ينتج ديمقراطية وحرية مسؤولة، مهما كانت المواثيق والدساتير والتوصيات التي يجتمعون تحت لوائها، وتأسيسا على ما سبق، فإن الديمقراطية تبدأ من الثقافة وليس العكس، لقد جربت بعض بلداننا أشكالا من ديمقراطية «المنابر» والجمعيات والأحزاب فشل أغلبها لسبب بديهي هو أن المؤسسة السياسية ليست كيانا منفصلا يمكن إلصاقه على قمة الهرم الاجتماعي للدولة، إنه حصيلة المفاهيم الثقافية المتداولة بين الأفراد إن تفسير الركود الثقافي وندرة الإبداع في ميادين الفكر والفنون الجميلة باختزاله في العوائق التي تضعها السلطة هو نصف الحقيقة أما نصفها الآخر والأكثر أهمية فهو الأفراد والمثقفون منهم بوجه خاص.

5 – لقد اعترف بعض القادة السياسيين بمسؤولياتهم الشخصية في المحنة الحضارية التي يجتازها الفكر والسياسة معا (عبد الناصر عشية الكارثة سنة 1967 على سبيل المثال) ولكنني لم أقرأ لحد الآن نقدا ذاتيا صادقا وصريحا لمفكر أو فنان من أهل اليمين أو أهل اليسار – (وربما فاتني ذلك سهوا وهو واحد من نقائص التلقائية) – يوضح مسؤولية المثقف فيما حدث وما يحدث إن المسؤول هو الآخر، هو الإمبريالية، هو الاستعمار، هو الصهيونية، هو الحاكم فلان أو المارشال فلتان!.. أما المثقف فيده دائما نظيفة فهل هذا صحيح؟ ماذا يقول مفكر محترم مثل توفيق الحكيم قبل عام 1970 وبعده أين توجد طلائع الفكر التقدمي المناضل؟ إنها لحيثيات كثيرة مستقرة في نفس العواصم التي اعتبرتها لمدة طويلة مركز المد الإمبريالي العدواني على الأمة العربية أنها في لندن وباريس تناضل من أجل الحرية والديمقراطية!!

ليس المهم في هذا المجال تحديد مدى مسؤولية كل من السياسي والمثقف فهما يتبادلان الأدوار وسواء ابدع المثقف داخل «مدار» الحكم أم خارجه فهو في كلتا الحالتين يتعامل مع سلطة ونظام إما بالتأييد وإما بالاعتراض فما هي قيمة الموقفين من الوجهة الإبداعية؟ وما هو تأثيرها في الإشكالية الثقافية والسياسية؟ لقد خرج بعض المثقفين من السلطة فنقموا عليها بسبب الخروج، ودخل آخرون الى السلطة فنوهوا بها بسبب الدخول ألم تسمعا بأن الأستاذ أو الدكتور فلان الذي حمل لواء الديمقراطية وأوقد شعلة الحرية الفكرية أصبح وزيرا في حكومة هذا البلد أو ذاك ولم يلبث أن تنكر «بحكم الممارسة الميدانية» للطوباوية والمبادىء الرنانة وتحول الى طاغية صغير يبالغ في احتقار المفكرين والفنانين ليحصل أولا على الرضى ولأنه ثانيا واحد منهم «وأهل مكة أدرى بشعابها»!

فارح كمال:

أخشى أن يؤدي حوارنا التلقائي حول قضايا كبيرة الى أجوبة صغيرة وتعميمات ساذجة أو متسرعة من نوع التعميمات الطوطولوجية (تحصيل الحاصل) كأن تقول مثلا كل حيوان ينتهي وجهه بخرطوم هو فيل، وبالتالي فأن وراء كل خرطوم فيل! كيف يمكن محاكمة المثقف مع أن السياسي هو الذي يصنع الواقع المباشر ويؤثر قطعا على صياغته وتشكيله؟ قد تقولان أنه يفعل ذلك من خلال إطار مرجعي (تبريري - توجيهي) - أي مجموعة من الأفكار يضعها المثقف مفكرا أو عالما أو أديبا أو صحفيا..

ولكن كل ذلك يبقى مجرد تنظير إذا لم يتبناه الساسة الذين قد يكونون هم أنفسهم من المنظرين.

ويقودنا مثل هذا التساؤل الى إشكالية العلاقة بين الفكر والواقع أيهما يخطط للثاني ويحدد مساره وأيهما يسبق في تحديد توجه الآخر؟

أم أن القضية هي تزاوج يمزج بينهما؟ كيف نصنف كتابا وفنانين مثل ماكسيم غوركي، وغوغول ولوركا وبابلو نيرودا وبيكاسو وأراغون إذا اقتصرنا على توزيع إبداعاتهم بين المدرسة الواقعية الاجتماعية ومدرسة الفن للفن؟

إن الانغلاق المذهبي هو الذي جعل بعض كبار النقاد والفلاسفة يقعون ضحية التوزيع الإحصائي والأحكام القطعية على الآثار الفكرية والفنية التي عالجوها، فقد فهم البعض الواقعية الاجتماعية وكأنها تسجيل فوتوغرافي للواقع وتثبيت لخصائصه واعتبار اللحظة الراهنة للواقع هي أفضل حالة يوجد عليها ذلك الواقع، وهذا الموقف هو موقف إيديولوجي مذهبي وليس سياسيا أو ثقافيا أدى ببعض الأنظمة الى مطاردة الإبداع وتحريمه ودفع الكتاب والفنانين الى الهجرة واللجوء الفكري الذي يتحول الى لجوء سياسي معادي لتلك الأنظمة نفسها، ونجد مثل هذه الظاهرة في عدد من البلدان الاشتراكية والنامية حيث يطالب المفكرون والفنانون بالانخراط في أجهزة «الأجيت بروب» والانشغال باليومي والاقتصار على المرافعات ضد الأعداء الوهميين والحقيقيين، فقد زعم «جورج لوكاش» مثلا أن فن

الرواية هو أساسا إنتاج بورجوازي يمنع الفرد من تحقيق ذاته ويوحي بتهميشه وإخراجه من دائرة البطولة ومركز الاهتمام كما زعم آخرون – لدوافع إيديولوجية – أن الفنون التشكيلية، والتكعيبية بوجه خاص هي تعبير عن الانحطاط الرأسمالي وأزمة الطبقة البرجوازية كما عبر عنها بيكاسو ومدرسته!

وبالمقابل ذهب أنصار اتجاه «الفن للفن» الى تطرف ومغالاة تسحب المبدع من مجتمعه وعصره، وتسجنه في ذاته المتعالية عن الواقع والمترفعة على كل التزام، ومثل هذه الانسحابية أو الرومانسية المتسترة بحرية الفكر والفن تحدث أحيانا نتيجة «صدمة الواقع» أي أنها في النهاية تتحاور مع الواقع عن طريق رفضه وتتعامل معه خفية كما يفعل المهربون في السوق السوداء، ولعل هذا التستر والتخفي من بين الأسباب الرئيسية لشيوع الرمزية والإرتداد على الذات مما يجعل النقاد مضطرين الى تفسير «الشفرة» وتأويل الرموز بمفاتيح مختلفة لفهمها في ضوء واقع اجتماعي معين أو عصر من العصور.

إن إحدى إشكاليات فكرنا المعاصر هي التسرع في احتضان بعض الحتميات الجبرية وتعميم الاتجاه السياسي على الموقف الفكري فقد ذهب بعض الماركسيين العرب الى أن المادية التاريخية يمكن أن تطبق منهجيا بأثر رجعي على التراث العربي الإسلامي وعلى العقيدة نفسها فما خرج من مقولات ذلك المنهج وجب حذفه وما دخل فيها تعين الاعتراف به ولو أدى الأمر الى إنكار التراث جملة وتفصيلا واسقاطه من ناحية الماصدق والمفهوم من مجال الواقع، وكأن القضية تحتاج فقط الى قرار ذهني ويتناسى هؤلاء الماركسيون بأن إسقاط أفكار مسبقة يفقد البحث موضوعيته وما هو غير موضوعي هو غير علمي، وبالتالي لاماركسي أي أن مقدمات بعض الباحثين الماركسيين العرب تناقض نتائجهم فهم يبدأون عادة بطرح مقولات المادية التاريخية بكثير من الدقة والوضوح المنهجي، ولكنهم يصلون في النهاية الى تطبيقات تحكمية تفترض أن التراث

موجود خارج الواقع وأن بإمكاننا التعامل معه من خلال المفاهيم فقط، ومن الواضح أن مثل هذه الادعاءات مرفوضة تماما في كل النظريات الماركسية الناضجة.

اعتقد شخصيا أن الحتميات الجبرية تؤدي الى مذاهب اعتقادية متعصبة وتزرع حقل المعرفة بسلسلة من «الطابوات» أو المحرمات، ومن أشهرها الماكارثية القمعية في الولايات المتحدة الأمريكية (منتصف القرن العشرين) والستالينية المتعسفة في الاتحاد السوفياتي وبعض دول المنظومة الاشتراكية (في الفترة ما بين الحربين ونهاية الأربعينيات) «الثورة» الثقافية وكتابها الأحمر في الصين الشعبية (بداية السبعينيات) لقد انتهت كل تلك الحتميات الجبرية الى كوارث فكرية كبدت الإبداع خسائر باهظة أدت الى الإطاحة بها هي نفسها من الناحية التاريخية على الأقل، واستغرقت عملية الإطاحة سنوات طويلة ومازالت قائمة الى الآن في بعض بلدان العالم الثالث وتتخذ الحتمية الجبرية مظاهر كثيرة وعناوين براقة مثل «الفرد أولا» أي الانفتاح الثقافي والاقتصادي «والجماعة أولا» أي المراهقة اليسارية التي تلغي الفرد وتعتبره مجرد زرّ لا أهمية له في مكنة ضخمة تحكمها آلية قاهرة تجعلها تتحرك ذاتيا في اتجاه رياح الشفق الأحمر.

وتتخذ الحتميات الجبرية مظاهر أخرى تبدأ من «الإنسان العالم» (Homo- Sapiens) حتى «الإنسان الاقتصادي» (Homo- Economucus) وكلها يختزل الإنسان ومحيطه في عامل واحد مركزي تفسر كل شيء من خلاله وتمضي في تعميم تفسيراتها الى الحد الذي يسقطها على المستقبل المفتوح، والماضي المتراجع الى مالا نهاية، ونجد ملامح هذه الحتمية الجبرية أحيانا في صورة كاريكاتورية في نماذج عديدة من خطابنا الفكري والسياسي، لقد أطلعت مؤخرا على كتيب تحت عنوان «مسائل راهنة» يزعم مؤلفه المحترم «كامل الخطيب» - بأسلوب تقريري يشبه محاضر كتاب الضبط في المحاكم الجنائية - إن الطريق الوحيد للنهضة

العربية هو إلغاء التراث فلا فائدة على الإطلاق من بحثه بأدوات من داخله أو من خارجه أن «الفكر الكوني الأوروبي» هو طريقنا الى المعرفة والى التقدم. فهل التطرف من علامات التقدمية؟ وماذا كان الفكر الأوروبي من عصر التنوير الى اليوم؟ هل بدأ من الصفر؟ ألم ينطلق من واقع تاريخي مجتمعي، بل وطني قبل كل شيء؟ إن الدعوة «لأخذ المتقدم في أعلا درجات تطوره» لتحقيق النهضة العربية والإسراع بها هو ضرب من التجاهل لأولويات الحراك الاجتماعي والتغير الثقافي وكيفية ولادة الجديد من القديم في نسيج واحد تتحرك بنياته التحتية والفوقية بسرعات واتجاهات متباينة ومتفاعلة في نفس الوقت.

ولا أريد أن أطيل عليكما بسرد الأمثلة للخطاب الثقافي المبني على الحتمية الجبرية كأن يزعم البعض أنه بالإمكان حل إشكالية التخلف بتحقيق التنمية الاقتصادية ورفع الإنتاج والمرودودية متناسين أن بلدانا في منطقتنا يقترب دخلها من دخل بعض الدول الأوروبية المصنعة، مكنها ذلك من شراء منتجات الصناعة واللوكس التي لا تنتج منها شيئا.

إن اختزال التنمية والتقدم في بعد واحد هو ضرب من الحتمية الاقتصادية المبنية على خليط هجين من التحليل المادي للتطور الاجتماعي والنفعية (البراغماطية) القصيرة النظر لم تبرهن الى حد الآن في أي مكان من العالم الثالث عن صدق دعواها، إن التنمية والتقدم يحدث أولا في الإنسان قبل أن ينتشر في محيطه ويرتد إليه ثانية ليحدث تقدما أكثر، وما أكثر العوامل التي تتدخل في تلك العملية وكم هي ذات طابع نوعي يجعل نقل تجربة بلد وتطبيقها في بلد آخر أشبه بتركيب الأعضاء الاصطناعية في جسم مصاب بالشلل أو فاقد لبعض الأطراف: إن الاقتصاد عامل هام يمكن أن يتصدر مؤقتا قائمة الأولويات ولكنه لا يكون الأولوية الوحيدة التي تبدأ بها القائمة وتنتهي.

مجمل القول هو أني أرى في موقف الكاتب الجزائري مالك حداد الصورة الصحيحة للقلق الإبداعي الذي لا يركن أبدا لأوهام تتخذ شكل قناعات مزيفة، لقد كان من السهل على حداد أن يرضى بمنفاه الذهني وينكر واقعه التراثي ويرتمي في أحضان الفرانكوفونية كأداة للتقدم أو كمذهب في التقدمية، لقد أدرك حداد بحدسه الوطني أن الإبداع في المنفى هو إبداع بين قوسين!.

وقد لخص الأستاذ ميشومورشيما أحد كبار علماء الاقتصاد والرياضيات في اليابان والمحاضر في كلية لندن للعلوم الاقتصادية (London School of Economics) في كتابه الرأسمالية والكونفشيوسية 1980 سر النهضة في اليابان وبعض شعوب آسيا الأخرى «إن الاكترونيك المتطورة في اليابان هي الابن الشرعي لكونفشيوس، إن فلسفته حاضرة في المجتمع: الولاء الوطني، وفي الجامعة: روح التركيب (Synthese) وفي المؤسسة: الطاعة والنظام لقد أخطأ عالم الاجتماع الشهير ماكس فيبر عندما اعتبر الكونفشيوسية هي العقبة التي تمنع تقدم الشعوب الأسيوية – (وخاصة اليابان والصين) – من تحقيق التقدم الاقتصادي والتنمية الرأسمالية».

يقول الأستاذ مورشيما: لقد التقت في اليابان والكونفشيوسية والطاوية (تحت اسم الشنتوية) والبوذية وهذه الديانات الثلاث هي من أقدم ما عرفه البشر من تصورات عن الإنسان والكون إن «الأمير» يقود وفق المبادىء الأخلاقية ويراقب بواسطة الشعائر فعلى كل فرد أن يحترم قيم الأسرة ليكون «إنسانا جيدا» ويختم موريشيما كتابه بهذه الجملة الرائعة: «لا يمكن أبدا لأي بلد أن يتقدم إذا احتقر ماضيه» عفوا أيها الصديقان لقد أطلت عليكما وليس لي عذر سوى أني أكره الجبرية والحتمية وأراها في المستوى الذهني ممارسة للتعصب ومعبرا للإرهاب الفكري، واحملها في المستوى الاجتماعي كل أشكال التسلط والاستبداد.

غضبان وحيد:

بجانب الأفكار والمبادىء التي تنادي بالعدل والمساواة والشورى هناك أفكار أخرى في تراثنا تتغزل بالاستبداد والتسلط مثل «إنما العاجز من لا يستبد» و«من لا يظلم الناس يظلم» ألم ير المصلح الكبير محمد عبده أن خلاص العالم الإسلامي لا يكون إلا على يد المستبد المستنير؟ فلا تحزن أيها الصديق فارح إن مسافة الألف ميل تبدأ بخطوة ولكن هل من الممكن تحديد المسافة بألف ميل إذا كانت سرعة الخطوات تشبه سرعة السلحفاة؟ لنتوقف عن متابعة المعركة الدائرة بيننا وبين ماضينا وتراثنا أي اشتباك بعض مفكرينا وقادتنا بالأيدي والأرجل رفسا وملاكمة مع أنفسهم، إنه لمشهد يثير الدهشة عفوا الشفقة! فمن المرات القليلة التي تحول فيها عجبي الى إعجاب هو إطلاعي على دراسة قديمة للأستاذ حسين مروة تحت عنوان «أنا وعمامتي» يتحدث فيه بأسلوب نقدي عن دراسته في جامعة النجف الشيعية ويقدم فيها الخطوط العريضة للمنهج والمضمون التراثي الذي كان يلقن في العشرينيات من هذا القرن، وقد أحسست بتعاطف شديد مع هذا المفكر الناقد الذي يتحدث عن التراث من داخله متطلعا الى استخدام منهج من خارجه، فهو يدخل التراث بقدر ما يخرج منه، وقد وجدت فيه شبها كبيرا بالمفكر الإيطالي غرامشي الذي قرأ التاريخ والتراث الإيطالي في ضوء التحليل الماركسي بعد تكييفه للعبقرية الإيطالية المتميزة، ولعل هذا أحد الأسباب التي جعلت الحزب الشيوعي الإيطالي من أكثر الأحزاب الشيوعية الأوروبية مرونة وديناميكية.

لقد أصبح للثقافة مدفعية بعيدة المدى، تقصف من الأرض ومن الجو ولا تخطىء الهدف، وهذه المدفعية هي وسائل البث المتطورة للمكتوب والمسموع والمشاهد، ففي القريب ستصبح مناطق كثيرة في مقدمتها حوض البحر الأبيض المتوسط معرضا دائما للأفكار والاتجاهات الثقافية السياسية التي تنقلها الأقمار الاصطناعية مباشرة وتدخل بها الأدمغة والنفوس بدون استئذان وعندئذ سيجد العالم العربي نفسه سوقا حرة

للمضاربة على أكبر تشكيلة ممكنة من العملات الصعبة والمغشوشة والشهية والكريهة.

إن الذي يقلق بعض القيادات الفكرية والإعلامية في المنطقة العربية ليس هو طوفان المادة الثقافية الذي سيغمر الساحة لأنه يغمر الآن فعلا جزءا كبيرا منها ويهيمن على الأذواق والأفكار الى درجة الإدمان ويستورد بأغلى الأثمان (تغطي المادة الثقافية الناطقة بالأنكليزية والفرنسية في التلفزيون وقنوات الإذاعة والصحافة التي تستعمل إحدى اللغتين السابقتين ما بين 50 و70٪ من مجموع البرامج المقدمة) ان الذي يقلق أولئك المشرفين هو الانعكاسات السياسية للإعلام الثقافي والإعلام الإعلامي الموجه لجماهير فقدت منذ زمن بعيد ثقتها فيما تسمع وما ترى من خلال منظوماتها الداخلية، لأن فيها من اللاإعلام أكثر مما فيها من الإعلام وفيها من الوعظ والإرشاد اللفظي أكثر مما فيها من المصداقية.

وإذا كنا من الناحية التايخية سوف ننسب الى هامش هذا العصر فأننا من الناحية الجغرافية نتواجد على شواطىء البحر الأبيض المتوسط (المغرب العربي ومصر وبلاد الشام أي أكثر من ثلثي سكان العالم العربي) وتجري على الضفة الثانية من هذا البحر تحولات هامة من المحتمل أن تسفر في المدى البعيد عن صيغة أقرب الى الدول المتحدة الأوروبية التي يرى فيها قادتها السياسيون والمثقفون بوجه عام صيغة الإنقاذ الوحيدة التي ستمكن أوروبا الغربية من الصمود أمام العملاقين الحاليين: روسيا الكبرى والولايات المتحدة الأمريكية والعملاقين المرشحين: الصين الشعبية واليابان.

إن هذا المخاض الذي يحدث بالقرب منا من المشروع جدا أن يحظى باهتمام الساسة والمثقفين فلا أحد يختار جيرانه والملاحظ أن المسألة الثقافية هي التي توجه المسألة السياسية والاقتصادية وخاصة بين الخماسي القيادي بريطانيا – فرنسا – ألمانيا الاتحادية – إيطاليا – إسبانيا.

ونحن أيضا جزء من العالم الثالث، ومن إفريقيا بوجه خاص (حوالي مائة وخمسة عشر مليونا من أبناء العالم العربي أي حوالي الثلثين يسكنون

إفريقيا) وهي القارة الأكثر تخلفا في هذا العالم الحديث وتحتل المسألة الثقافية في القارة السمراء المرتبة الأولى في اهتمام الدول الاستعمارية السابقة، فالتنافس بين الأنغلوفونية والفرانكوفونية على أشده داخل مؤسسات القارة وفي المحافل الدولية وتطغى على المسألة الاقتصادية التي وصلت في السنوات الأخيرة في بلدان الساحل: تشاد مالي النيجر بوركينافاصو... الى أقصى حالاتها المهينة للكائن البشري، وهي المجاعة ولكن الاكتساح الثقافي (الأنغلو أمريكي - فرنسي) يظهر الغيرة على المواقع اللغوية، والتبعية والإيديولوجية تسبق كل الاعتبارات الأخرى وتنشأ لها الروابط والجمعيات التي تحضرها أعلى المستويات القيادية للتنسيق مثلا في البرامج التلفزيونية، اقترح عليكما إذن أن نترك مؤقتا المعارك الحقيقية والمفتعلة الدائرة داخل منزلنا على طول الساحة العربية فكيف يتصرف زوج وقع ضحية صراع زوجاته الضرائر المتخاصمات حول الاستيلاء عليه كله، وهو عاجز عن التخلص منهن ولا تقبل أية امرأة منهن أن يهملها أو يجافيها.

إن الصراع والغمز واللمز يتحول في هذه الأسرة المتعددة الزوجات الى جزء من الحياة العادية والتسلية اليومية للمتساكنين أجسادا والمتنافرين أفئدة وقلوبا. لنترك كل ذلك ونقوم بجولة خاطفة مثل تلك التي يتعجلها مسافر «الترانزيت» بين مطارين.

إن عالمية الثقافة وكونية الفكر (Mondialisation de la culture et Universalite de lintelect) تجعل العالم العربي جزءا من العالم الحديث، وفي هذا العالم الحديث استقرت مجموعة من الأفكار والمفاهيم التي يتعامل معها الجميع بأساليب مختلفة ولكنهم على أية حال مضطرين للتعامل معها: من هو المثقف الذي يستغنى عن الفهم الفيزيائي والانشتايني للكون؟ من هو المفكر الذي يزعم أن حادثة الانشطار النووي لا تعنيه لأنها تحدث غالبا في صحراء نيفادا وأوزباكستان؟ من السياسي الذي يدعي أن إطلاق كواكب اصطناعية في الفضاء الخارجي لأغراض

علمية أو عسكرية (وهما في الحقيقة شيء واحد) بمعدل يتزايد باستمرار - مما سوف يحدث ازدحاما في المدارات الفضائية في نهاية القرن ويضطر محكمة العدل الدولية الى وضع قوانين للمرور في الفضاء الخارجي - أقول من هو السياسي الذي يصنفها في باب المتفرقات أو يحذفها من انشغالاته؟.

من هو الباحث أو الطبيب أو رجل الدين - في عالمنا العربي - الذي يسمع عن «مشتلة» الخلية والحمل الاصطناعي وحفظ النطفة بالتبريد وزرعها عن طريق «بنك النطف» (أي يمكن للشخص أن ينجب بعد مضي مائة سنة أو أكثر على وفاته فيكون للحفيد عم أو خال من جدّه الثاني يصغره سنا» الخ... من الذي يسمع عن كل ذلك ولا يؤرقه مآل الجنس البشري وما استقر من عقائد ونظم وقوانين؟!

من هو الاقتصادي أو المخطط أو عالم الاجتماع في منطقتنا العربية الذي يشارك في تصميم أو تنفيذ مشاريع التنمية في بلاده أو على المستوى الجهوي أو القاري وينسى في نفس الوقت أن الوجه الآخر للتخلف الثقافي والتكنولوجي هو التبعية الغذائية حيث تستورد البلدان العربية حوالي 70 الى 80٪ من غذائها اليومي من الخارج وتدفع مقابل ذلك ما يزيد على 140 مليار دولار منذ نهاية السبعينات، في الوقت الذي تضطر فيه أوروبا الصناعية لإتلاف فائض إنتاجها الغذائي للمحافظة على الأسعار ولا تكاد تحرك ساكنا أمام الحالة القصوى للبؤس والمجاعة، ويرى بعض قادتها أن صندوق الدعم للدول الأقل نموا وأغلبها في إفريقيا جنوب الصحراء حيث تنتشر الأوبئة والحروب الأهلية والمجاعة والانقلابات العسكرية الكاريكاتورية؟!

إن التعاون والتضامن الإنساني والسلام العالمي والأمن الدولي مفاهيم فضفاضة تحتاج الى اختبار بالممارسة في المستوى الثنائي والمتعدد الأطراف والى أخلاقية ذات مرجع حضاري هو تراث الإنسانية المشترك.

طارق سعيد:

إن العالم العربي الذي تحول ثقله الديموغرافي منذ زمن طويل الى إفريقيا (من السودان الى المغرب الأقصى) ويجد نفسه في علاقات تاريخية حضارية مع دول حوض البحر الأبيض المتوسط في جنوب وغرب أوروبا يمكن أن يلعب دور المحرر الثقافي كما لعب دورا طليعيا في التحرير السياسي للقارة الإفريقية منذ بداية الخمسينات.

وترشيح المجموعة العربية الإسلامية المتواجدة على الجزء الشمالي الغربي من إفريقيا للمساهمة في التحرير الثقافي لإفريقيا تؤيده معطيات تاريخية وراهنة أذكر منها بوجه خاص:

- دخلت العقيدة الإسلامية الى إفريقيا بوسائل سلمية.
- شكلت أغلب البلاد الإسلامية الإفريقية دولا أو ممالك مستقلة خارج الوصاية السياسية للدول العربية الإسلامية في إفريقيا وتمكنت الممالك الإفريقية من إنشاء مراكز إشعاع ثقافي في حوض السينغال ومالي والنيجر وتشاد وموريطانيا أمتد تأثيرها الى شرق وجنوب إفريقيا.
- تكيفت الحضارة الإسلامية للثقافات الإفريقية وأنتج ذلك التكيف مزيجا جديدا إفريقيا - إسلاميا - عربيا يحمل الطابع المحلي ويتجاوب مع خصائص البيئة الإفريقية، عرفت نماذج منه في ممالك سنغاي وكانو ونجح في إقامة سلسلة من المراكز الثقافية تبدأ من سمارا الى تومبكتو وتصل الى أعالي النيل الأزرق وما جاوره من جزر على المحيطين الهندي والأطلسي.
- إن العلاقة بين الحضارة العربية الإسلامية في شمال إفريقيا وبين الحضارات الإفريقية كانت باستمرار علاقة تكامل وتعاطف وتبادل ولم تكن إلا في النادر علاقة صراع وهيمنة وتسلط، ولاشك أن مبادىء المساواة والتسامح والعدالة التي تحملها العقيدة الإسلامية قد ساهمت الى أبعد حد في إقامة هذا النسيج من العلاقات التاريخية والراهنة.

- إن الهجوم الاستعماري على إفريقيا بدأ أولا على شمالها منذ القرن الخامس عشر وينبغي أن يخرج اليوم من بابها الجنوبي بتحطيم آخر قلعة للتواجد الأجنبي العنصري الاستيطاني، وهو عمل مشترك بين كل شعوب القارة التي عرفت بدرجات مختلفة نفس الوباء.

إن هذه المعطيات الجغرافية التاريخية هي التي تجعلنا نحن سكان إفريقيا أينما كنا نناضل قلبا وقالبا من أجل إفريقيا للإفريقيين، ولن يثمر نضالنا إذا انحصر في بعده السياسي ولم يمتد الى أفقه الحضاري فعلى المغرب العربي (والجزائر قلبه النابض وطليعته الكفاحية منذ أقدم العصور) أن يتحمل مسؤولياته ويساهم في التحرير الثقافي للقارة كما أيد وعجل - باستقلالها السياسي في العقدين الخامس والسادس من القرن العشرين، أنا شخصيا أومن على الرغم من كل الاحصاءات المرعبة عن الفقر والمجاعة ومظاهر التخلف المصاحبة لها في عموم القارة، بأن المستقبل لإفريقيا فكما استطاعت شقيقتها آسيا بثقلها الديموغرافي الرهيب - (يتجاوز سكان منطقة واحدة في آسيا هي شبه القارة الهندية ضعف سكان القارة الإفريقية) - إن تحقق بعض النجاح النسبي في ميادين اقتصادية وثقافية وتكنولوجية بقيت طوال القرون الثلاثة الماضية من احتكار أوروبا وأمريكا الشمالية، فإن لإفريقيا مؤهلات النمو والتقدم إذا استكملت استقلالها السياسي باستعادة سيادتها الثقافية.

ويبدو أن التراخي وأحيانا التواطؤ مع القوى الاستعمارية السابقة يصلح جزئيا كتفسير لكثير من الأزمات التي تجتازها قارتنا «البكر» الممددة فوق ثروات طائلة تغتصب على مرأى ومسمع من الجميع، بينما يموت مئات الآلاف من الجوع والأوبئة المستوطنة ويخيم على مناطق شاسعة منها ظلام الجهل والأمية وما يأتي في سياقهما من صراع وتناحر وفتن تحوكها وتغذيها في الغالب أيادي طويلة من خارج القارة.

إن ازدهار الثقافات الإفريقية وتطورها لا يتم إلا خارج الوصاية الأجنبية الأوروأمريكية، ورفض الوصاية لا يعني القطيعة والعزلة عن مراكز الحضارة

في الغرب والشرق فهذا أمر غير ممكن حتى ولو أردناه، إن المطلوب هو الحوار المتكافىء بين الشعوب والتبادل الحر في ظل احترام الشخصية الحضارية للأمم الإفريقية، إن تصحيح النظام الاقتصادي الجائر يمر أولا بإعادة النظر في النظام الثقافي المكون حاليا على شكل دائرة مركزها في شمال العالم وأطرافها المهمشة هي العالم الثالث وإفريقيا بوجه خاص، وليكون الحوار متكافئا ينبغي أن يكون مبنيا على قواعد أخلاقية تلزم القوي بمساعدة الضعيف أو على الأقل احترامه وعدم استغلال ضعفه لمنعه من حرية الاختيار، ولا توجد مع الأسف لحد الآن أخلاقية معترف بها دوليا في مجال التبادل الثقافي؛ فالقوى المسيطرة على إفريقيا مازالت تفرض سيطرتها الثقافية بأشكال مختلفة ويحدث أن تمول السيطرة وكسب المواقع من طرف البلدان الإفريقية نفسها وتقدم دول إفريقية أخرى خدمات مجانية لتعزيز تلك المواقع في إطار التعاون القائم مع المستعمر السابق في الميادين الإدارية والثقافية والإعلامية، فباستثناء بلدان قليلة في إفريقيا جنوب الصحراء مثل طانزانيا (السواحلية) وأثيوبيا (الأمهرية) فإن البقية مضطرة الى اعتماد لغة المستعمر السابق داخل حدودها لحل مشكلة تعدد اللهجات وضعف اللغات المحلية كما تستعمل نفس اللغات الأجنبية للتخاطب والتعامل مع جيرانها من الدول الأخرى الإفريقية.

ولا تقلل الملاحظات التي أشرت إليها سابقا من أهمية الحوار مع الثقافات العالمية المتطورة وخاصة منها المطلة على حوض البحر الأبيض المتوسط، فمن المستحيل على أية ثقافة مهما كانت درجة تطورها أن تتجاهل ما يحدث حولها من تغير وتجديد في الأفكار والأذواق والقيم، ومن العبث ومضيعة الوقت والجهد أن تزعم أنها قادرة على تحقيق تقدم بدون التعامل مع محيطها الحضاري القريب والبعيد فلا ثقافة تبدأ من الصفر ولا ثقافة تعود الى نقطة الصفر وتتلاشى تماما من ذاكرة الشعب.

جيل اليتامى السعداء في الغرب وثقافة الصحافة

فارح كمال:

أظن أنكما توافقان على أن المراسيم والقوانين لا تكفي وحدها لإحداث التقدم وتسريع التطور في كل المجتمعات فقد صدرت قوانين لتحرير المرأة من سلطة التقاليد وتخلف الرجل – أبا وأخا وزوجا – وكأن التقاليد والتخلف كائنات شريرة يمكن اتهامها ومعاقبتها بناء على الجرم المشهود، إنها موجودة فينا، في جهازنا الفعلي، وآلياتنا السلوكية، ولذلك نجد بعض المتحمسين للتحرر ممن ساهموا في صياغة قوانين ملزمة، يمانعون أو على الأقل يترددون في «تحرير» ذويهم – أخوات وزوجات – ويطربون لانتصار حماسهم التحرري لدى الآخرين!.

المهم أن التقدم والحداثة التي نصف سلبياتها وإيجابياتها من بعيد هي قائمة فعلا على قدم وساق ولا تحتاج الى إصدار قوانين وأمريات ويحدث ذلك على مقربة منا (غرب أوروبا) طبعا لا يمكن جرد ذلك في قوائم أي تقديره بالعد والوزن لأن التقدم هو أساسا عملية كيفية وليست كمية وسوف استعمل عبارة الأخ غضبان فأعبر على طريقة «الترانزيت» المتعجلة بعض شوارع غرب أوروبا وأسجل ملاحظاتي السياحية على شكل انطباعات وأتخيل نفسي مجرد كاميرا تنقل أجزاء صغيرة من مشهد تتلاحق فيه الأحداث بلا انقطاع في صورة سيل هائل من الأفكار والآراء والمخترعات والأبحاث الجادة التي تهيء لنشوء تيارات، بل فلسفات جديدة تتطلع الى تفسير العالم الأكبر (كوزموس) والعالم الأصغر (جزئيات الخلية والذرة) وأبحاث أخرى أقل جدية لا تعمر طويلا لأنه سرعان ما تبتلعها الأفكار الكبيرة. ولا أضيف جديدا إذا قلت إن هذا الوجه لا يراه 99٪ من المسافرين والسواح من بلداننا الذين يقتصر اهتمامهم على «البطنيات» والڤاد جيت وخردة «البارباس»!

انسحبت خلال السنوات العشر الأخيرة أكبر القيادات الفكرية وأعمقها تأثيرا في الفكر والسياسة من برتراند راسل الى ميشيل فوكو ويبدو الرعيل الجديد من المفكرين أو «اليتامى السعداء» الذين لا تهمهم ذكرى العمالقة الموتى ولا تركتهم الفكرية وكأنهم يعانون آلام المخاض وينتظرون بفارغ الصبر إعلان ولادات جديدة لا تقبل التسجيل على هوامش الدفتر العائلي.

لقد كانت القضايا الكبرى في العالم الثالث (ثورة الجزائر حرب فيتنام) تهيمن على الفنون والآداب ومجالات الإبداع في مجموع العلوم الإنسانية وتعطي لمفكري ما بعد الحرب العالمية الثانية مادة خصبة للنضال السياسي الإبداعي جعلت المفكرين -أدباء وعلماء- ينزلون الى الشارع ويحركون الجماهير ويقودون المظاهرات باسم الحرية والعدالة والإنسانية، وحق تقرير المصير.

إن خلفاءهم في مستهل الثمانينات قد علقوا معطف النضال ولم تعد تلك القضايا تحركهم وتجنّدهم ضد التسلط والعدوان ما هي ردود الفعل التي سجلت خلال السنوات الخمس الأخيرة ضد الممارسات العنصرية في الغرب والتقتيل الجماعي لأهالي البوسنة والشيشان وجنوب لبنان وتجويع الشعب الفلسطيني وتقتيله داخل الأرض المحتلة وخارجها؟

كيف يرى المفكرون والكتاب مأساة المجاعة في إفريقيا؟ الجواب هو: صمت وراءه لا مبالاة وأمامه لذة أنانية أنتجها مجتمع الوفرة في غرب أوروبا! كيف تكون القضية بلا فكر؟ وهل ينشأ فكر بلا قضية؟

هناك علامات لا تخطىء على أن عهدا جديدا بدأت تلوّح تباشيره على الساحة في غرب أوروبا يعطي الأولية المطلقة لحياة أحسن (le Bien - Etre) أو «الرفاهية» على حساب تفكير أعمق وفن أجمل هل تخلت طلائع الانتليجانسيا الأوروبية عن مسؤولياتها النضالية وحررت استقالتها لتقدمها في بداية العقد الأخير من القرن العشرين؟

نعم هناك علامات كثيرة تبعث على الشك والريبة في أن حدثا – ما – على وشك الوقوع، لا تسمح إمكانياتي المتواضعة من إحضار كل شهود الإثبات، ولكني لا أسمع صوتا ينادي على شهود النفي فلنستمع الى بعض شهود الإثبات من مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية وهم جيراني الأقربين: الأول هو تقلص التفكير الماركسي وفقده تدريجيا السيطرة على مجمل العلوم الإنسانية والاجتماعية فلم تعد تلك الفلسفة إطارا مرجعيا تتصارع حوله الاتجاهات والمذاهب وتقترب منه أو تبتعد وأحيانا تندمج (كما حدث للوجودية المناقضة في مبادئها ونشأتها للماركسية).

لقد شيعت جنازة ماركس ببرود كبير في الذكرى المائوية لوفاته (1982) وفي نفس الأماكن التي حرر فيها «رأسماله» و«المانفستو» ولم تشعر العواصم الكبرى للفكر الماركسي (لندن – باريس – برلين الغربية) بحرارة الذكرى (الفكرية طبعا) بعد أن فتر حماسها السياسي للنظرية الماركسية (تقلص تأثير الأحزاب الشيوعية الغربية باستثناء الإيطالي) ألم يصبح «الخضر» أو حماة الطبيعة والمدافعون عن البيئة أكثر قدرة على تجنيد الرأي العام وتعبئته في مظاهرات تجمع عشرات الآلاف يرفعون شعارات ليس من بينها كرامة الإنسان وحق الشعوب في الحرية وتقرير المصير لقد هبت تلك الرياح الباردة من جزيرة «مانهاتن» حيث يطاطيء تمثال الحرية رأسه خجلا، وعمت حدائق «هايد بارك» وشوارع الحي اللاتيني التي أغلقت فيها كثير من المعارض وتناثرت على نواصيها القبعات الحمراء وقد تراكم عليها الغبار.

وإذا كان الكسوف المؤقت للماركسية يعم اليوم أرجاء أوروبا فإن بعض منطلقاتها الفكرية قد تغلغلت في العلوم الإنسانية – مناهج وموضوعات – فلا يجادل أحد في المقولة الماركسية المعروفة «جوهر الإنسان هو العمل» وهي مقولة ينسبها ماركس نفسه الى سلفه هيغل ويشيد عليها كل بنائه الفلسفي. كما أن تفسير المؤسسة الاجتماعية (المدرسة، الأسرة الثقافية،

المدينة، الدولة) عن طريق آثارها الماكرو-اجتماعية قد استقر في شتى فروع المعرفة الإنسانية، إن البناء المفاهيمي للماركسية، أصبح جزءا من المعرفة الكلاسيكية الكونية.

إن النظرة «الماكروية» المكبرة والسؤال المنهجي عن جدوى المؤسسة الاجتماعية قد تحولا الى مدخل علمي من الممكن أن يدور حوله نقاش ميتودولوجي ينتهي به الى النظرة الميكروية (المصغرة) أو يقترح سؤالا آخر بدل الجدوى والوظيفية، ولكنه يبقى أحد الجسور الرئيسية لفهم الظواهر وتفسيرها.

أما الشاهد الثاني فهو التراجع باستحياء (أو على رؤوس الأصابع) كما يقول «ت تود وروف» للبنيوية في الإبداع الأدبي بوجه عام، وفي البحث التاريخي واللغوي والاجتماعي والسيكولوجي بوجه خاص، لقد اكتشف المفكرون والكتاب في غرب أوروبا أن منهج البنيوية اللسانية (أو اللغوية) مجرد باب جانبي في قلعة المعرفة الضخمة وأن أضعف ما فيه هو مزاعم «العلمية» (Scientificite) التي ظلل بها الباحثين والكتاب خاصة في فرنسا التي بقيت آخر المتشبثين في أوروبا بالأشكال البنيوية حتى وفاة ميرلوبونتي (1961).

لا أريد أن أطيل عليكما وقد وعدت أن يكون توقفي من نوع الترانزيت بين مطارين ولكني أرى من بعيد دلائل تشير الى أن تيار العودة الى الذات والتخدير المؤقت للموضوع هو الأقوى في كثير من مجالات الإبداع الفني والأدبي، إن بدايات القرن تنذر بالعودة الى الذات التي تحقق وعيها بالتحرر من الالتزام أي التزام، بالتمرد على البرمجة التكنولوجية للحياة والتفكير بواسطة المخبر البيولوجي الكمياوي وعلى شاشات الكمبيوتر ووسائل الإعلام والاتصال التي أفقدت الموضوع موضوعيته لأن طرحه ومعالجته يدخل الى الذات من خارجها ويكاد يحولها هي أيضا الى موضوع.

غضبان وحيد:

لعل هذا التيار هو الذي أوحي للناقد المصري المعروف د. لويس عوض في إحدى ملاحق الأهرام الأدبية أن يتمنى (والعبارة إذا لم تخني الذاكرة هي للدكتور الناقد) – سيادة الاتجاه الرومانسي وانهزام الواقعية الاجتماعية والجديدة، وكل ما يشتق من الواقعية، والوقوع في أي درك كان، إن التيار التحتي الذي أشار إليه الأخ فارح قد صعد فعلا الى السطح وأصبح مذهبا له دعاة اقتحموا الحرم الجامعي من جامعة وارتون الأمريكية الى معهد الحرف والفنون في لندن حتى كلية الآداب في جامعة السوربون وهي كلها معاقل الثقافة المحافظة الى وقت قريب.

– ما هي الثقافة التي ينشدها التيار الجديد في الغرب؟

– كيف يكون محتواها؟

أي هدف أو وظيفة بقيت للثقافة في مجتمع ما بعد التصنيع والتكنولوجية المتقدمة؟

نجد جزءا من الإجابة على هذه التساؤلات في كتاب «حساء الثقافة» للأستاذ «ب. لوساتو» أستاذ الفنون بجامعة وارتون الأمريكية الذي صدر في نهاية السنة الماضية وآثارضجة مازالت قائمة الى اليوم.

يرى الكاتب أن الثقافة هي الشرط الأول لبقاء المجتمع وازدهاره الاقتصادي وحيويته السياسية، من هو البلد القوي؟ إنه ذلك الذي يملك أكبر عدد من العلماء والباحثين والمخترعين وكل أولئك الذين يصلون في الميدان الاقتصادي الى منبع الإعلام، ما هي الثقافة إن لم تكن الإعلام العلمي الاقتصادي الحضاري في أعلا درجات الجودة؟ إنها المادة الأساسية للفتوحات العلمية والتكنولوجية، إنها تسمح بالتركيب المعقد للفكر الإنساني (Complexification) والتمييز بين مختلف الأشياء الناقلة للثقافة من ألوان، وأصوات وأشكال، تبدو لأول وهلة متماثلة، وتساعد على ادماجها وتنظيمها في صورة بنيات ذهنية أكثر تعقيدا، وترتيب كل ذلك في سلم متجدد للقيم.

إن الثقافة الجماهيرية لا ينبغي أن تتحول الى ديماغوجية ثقافية تجعل التبسيط والإشهار مرادفا للنشر الأفقي للأدب والفنون والعلوم ولذلك وجب التمييز بين الثقافة الأرقى والثقافة الأدنى، وهذه الأخيرة كثيرا ما تكون مصدر مغالطة توحي للعاديين من الناس بأن التثقف لا يتطلب أي مجهود، والحقيقة أنها تتطلب من الجمهور رغبة ذاتية تشجعها وتنميها إرادة سياسية ترى في المواطن المثقف ضمانه ضد النزعات التسلطية والانحرافات الاستلابية التي ينذر بها مجتمع ما بعد التصنيع والتكنولوجية المتقدمة، وتكتسب الثقافة بتشجيع القابلية للتعلم والتعطش للاطلاع لدى الجمهور ورفع تلك القابلية بوضع الإنتاج الثقافي الجيد في العلوم والفنون والآداب، بين يديه منذ سنوات الطفولة الأولى وحماية الناس من منعكسات الأتوماتيزم الذهنية والسلوكية التي تنشر «الروبوية» وهي المضاد الحيوي (Anti- Biotic) الذي يقتل الثقافة.

ويرى (ف. غوسن) في دراسة له تحت عنوان «ثمن التصحيح» (العالم جانفي 87) أن التدهور الثقافي يجد دائما جذوره في منظومة التربية والتكوين ويمكن اعتبار الجامعة مرصدا مصغرا للكشف عن الحالة «الصحية» للثقافة فإذا جاز للمؤسسات الأخرى أن ترفع شعار المحافظة على المستوى، فإن الجامعات ومراكز البحث مطالبة بالارتفاع بالمستوى الثقافي للأمة.

ويذهب الباحث الى أن علامات التدهور في أي بلد هو تهميش منظومة التربية والتكوين والبحث وتناقص الإنفاق العام عليها وهو يقدم لوحة إحصائية مقارنة لنسب الإنفاق على التعليم العالي والتأطير الجامعي في عدد من البلدان المتقدمة تأتي فرنسا في مؤخرتها:

البلـد	النسبة المئوية من الدخل الوطني الخام
الولايات المتحدة	1,17
هولندة	1,75
بريطانيا	1,13
الاتحاد السوفياتي	1,11
ألمانيا الغربية	0,8
فرنسا	0,6

وأما نفقات التكوين سنة 1992 فهي موزعة على النحو التالي:

البلـد	نفقات التكوين بالدولار
الولايات المتحدة	5900 دولار للطالب الواحد
هولندة	6400 دولار للطالب الواحد
بريطانيا	11600 دولار للطالب الواحد
السويد	3300 دولار للطالب الواحد
فرنسا	2600 دولار للطالب الواحد

وبلغت نسبة التأطير الجامعي (عدد الأساتذة بالنسبة لعدد الطلاب) في نفس السنة:

- مدرس لكل 8,7 طالب في ألمانيا الغربية.
- مدرس لكل 10,5 طالبا في بريطانيا.
- مدرس لكل 11 طالبا في اليابان.
- مدرس لكل 21 طالبا في فرنسا.

وتصل نسبة شريحة الحشد المدرسي - (عدد التلاميذ الذين يدخلون السنة الأولى من المدرسة الابتدائية) - التي تحصل فعلا على تعليم عال في الولايات المتحدة 42٪ وفي اليابان 37٪ وفي فرنسا 28٪.

إن الهدف من تقديم هذه النسب الإحصائية هو التنبيه على أن التدهور الثقافي الذي نلمس آثاره في قاعدة الهرم الاجتماعي ليس سوى انعكاسا للخلل المادي والمعنوي الذي يصيب قمته وهي الجامعة التي تختزن كل عوامل الضعف والتخلف وتعطينا وهما مغلوطا بأننا نتقدم، ولم أعثر لحد الآن على متابعة علمية نزيهة لدور الجامعة والبحث العلمي في النهضة الثقافية لمنطقتنا العربية ونوع الخبرة والنشاط الإبداعي الناتج عنهما في الثلث الأخير من القرن العشرين، فالي حد الآن تكتفي الوزارات المعنية بالتعليم العالي والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بإصدار النشرات الاحصائية الدورية وتنظيم الملتقيات «الإعلامية» التي تشيد بالكم وتنوه بالانجازات دون أن تفحص فعاليتها وجدواها.

إن توفر الاحصاءات عن المنتوج الثقافي مدخل ضروري للتقييم ولكنه يبقى مدخلا فقط وأداة لتجميع المعلومات تمهيدا لتفسيرها ولا أرى أفضل من الجامعة نفسها ومراكز البحث المنتشرة حولها لرصد التراكم الثقافي والمعرفي بوجه عام ومتابعة تطوره الكيفي ويسمى هذا المسعى ببحث البحث وهو مالم يشرع فيه أي بلد عربي بطريقة جادة ونسقية الى حد الآن.

معذرة أيها الصديقان عن هذا الاقتحام الاحصائي الذي لا تتحمله محاورتنا التلقائية فمازال قطاع واسع من الجمهور يرتاح أكثر الى التقديرات التقريبية للأحجام والأوزان والأطوال وهو ما يسمى بعقلية «أبوبري» أي بالتقريب ومازال الناس في قرانا ينفرون من العد والحصر والحساب فيطلق على قطعان الغنم وما فيها من «رؤوس» اسم «العصا» ويفضلون تحديد مساحات الحقول والمزارع «بالرسم» ويسمونها «بالحوش»... خشية الحسد أو «العين» وقدرتها التدميرية المرعبة!.

إن الكيف مستوى أعلى من الكم ولكن أحدهما لا يلغي الثاني فإذا كان من المفيد أن نحصي ما لدينا فمن الأكثر فائدة أن نعرف في مرحلة لاحقة نوع ما نحصيه.

طارق سعيد:

أوشك لقاؤنا التلقائي على الانتهاء وقبل تحية الختام فأني أجيب على سؤال أراه يتردد على الشفاه مؤداه: هل أن الذي يكتب للصحافة هو صحفي؟ وهل أن ما دار بيننا من حوار هو من باب نثريات الصحافة؟

أرى شخصيا أني لا استحق هذا التشريف الذي لازم كبار المبدعين في الفكر المعاصر الذين اتخذوا من الصحافة منابر لتكوين رأي عام ثقافي سياسي وارتقوا بالإعلام المكتوب الى مستوى الفن الراقي، أليست القصص والمقالات والروايات والأشعار إعلاما يبلغ أفكارا أو يعرض قضية؟

هل ننسي أن قمم الفكر الغربي في هذا القرن نشأت وترعرعت على صفحات المجلات والجرائد أذكر منهم بوجه خاص أرنست همنغواي، فرنسوا موریاك، أندريه جيد، غراهام غرين ماركيوز، شتاينبك برنارد شو، ريمون أرون الخ. . .؟ أين خاض طه حسين والعقاد والمازني وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم وجماعة «أبولّو».. أكبر المعارك على الساحة الفكرية والأدبية؟ لقد كان ذلك على صفحات الجرائد التي يعلق الناس على ما تنشر من قصائد ومقالات بقدر ما يعلقون على الأحداث السياسية الساخنة داخل بلادهم وخارجها.

إن السرعة في عصر السرعة تعطي المجلة والجريدة اليوم دورا قياديا في الحركة الفنية والفكرية أكثر مما كان لها في الماضي إذا تسامحت الأفئدة واتسعت الصدور ويبدو لي أن انعدام العلاقة الحميمة بين الكاتب والجمهور هو تخلي الصحافة عن احتضان المبدعين وتردد المبدعين أنفسهم في اقتحام الصحافة لأسباب بعضها مفهوم وبضعها الآخر يدخل في باب سيكولوجية «الطفل. المدلل» الذي يطالب أبويه بقطعة «شوكلات» قبل تناول وجبة الغداء!

النتيجة واضحة: قلّب صحفنا ومجلاتنا ستجد أن الرياضة البدنية تحظى بركن دائم وأحيانا صفحة أو أكثر يوميا، وأما الثقافة فهي تتقهقر يوما بعد يوم وتنزل الى باب النثريات لسد الفراغات في يوم إعلامي شحيح بالأحداث!.

قلما رأيت -واعترف بأنه ليست لدي القدرة على رؤية كل شيء- أقول قلما رأيت مقالا أو دراسة أساسية في العلوم والفنون والآداب تتصدر صدر الصفحات الأولى من الجرائد والمجلات غير المتخصصة ما هو السبب؟

هل هو الاعتقاد بأن الإعلان عن كتاب أو التعريف به أو العناية بدراسة ولفت انتباه القارىء لها هو من باب الحشو الإعلامي؟ هل مازلنا نفهم الإعلام على أنه نشرة الأخبار؟ متى نفهم أن الثقافة هي الإعلام في أجود صورة ممكنة؟ أليس ذلك هو السبب في التسمية التي أخذها قطاع الإعلام وأجهزته حاليا في العالم المتقدم وهي: التبليغ أو الاتصال (Communication) للتمييز بين الأداة ومحتواها والتنبيه على أنه لا فائدة لإحداهما بدون الثاني؟

وأخيرا... هل يمكن لملاحظ مثلي يستعمل العين المجردة لمتابعة النسيج المعقد للثقافة والتدفق المعرفي القائم خارج حدودنا أن يستغنى عن المجهر والتلسكوب لتصحيح الفكرة وضبط مسارها وسط مراكز الجاذبية القوية التي تفقد الأجسام الخفيفة وزنها وكثافتها؟ وهل هناك خارج العلم والثقافة والفن كثافة لفرد أو وزن لشعب، مهما كانت قوة الجاذبية وتضاؤل الوزن والكثافة، فقد أخترت عن اقتناع أن أكون من فئة الأنصار أنصار فكرنا وثقافتنا الذين قد يبتهجون أحيانا لحسن أداء فريقهم فيرقصون جذلا واعتزازا، وقد يسخطون أحيانا أخرى على ضعف أداء فريقهم فيصيحون حنقا وغضبا وقد يصل بهم السخط الى تحطيم الكراسي وكسر بعض الواجهات، ولكن كلتا الحالتين عندي أفضل من هجرة الروح وسفر القلم وراء الحدود ولو كانت التذاكر مدفوعة الأجر بسخاء، فهل يلام شخص على حبه لأبيه (الوطن) حبا لا يمنع من احترام الجيران (كل الأشقاء والأصدقاء)؟!

الحكم والقيادة

غضبان وحيد:

أصبح من السنن المتبعة أن تقيم الثورة حصيلتها بطريقة دورية وفي أعقاب كل مرحلة (من الصومام الى طرابلس) وتجري نقداً ذاتيا يستهدف الأفعال قبل الأشخاص، والنتائج قبل النوايا، ولاشك أن هذا المسعى يستلزم شجاعة لا تقبل التواطؤ، وصدقا قد يغضب البعض، وقد يستعمله البعض الآخر لتحريف الكلم عن مواضعه، وبين أولئك الذين لا يرون إلا النقص والخلل والأخطاء، وأولئك الذين يزينون الباطل ويزيفون الحقائق ويبرّرون العجز والانحراف، بين أولئك وهؤلاء أناس يرون في تقييم الثورة لمسيرتها وفحصها للمراحل التي قطعتها ومقارنتها مع التجارب المماثلة وغير المماثلة في البلاد الأخرى تقليدا ثوريا وممارسة ديمقراطية، ومساهمة مباشرة في البناء الوطني انطلاقا من تصميماته الهندسية وأثناء إنجازه.

وتدفعني أية مقارنة مع تجارب أخرى في العالم الثالث الى الشعور بمزيج من الزهو والتواضع، يدفع الى الزهو ما بلغته الجزائر من هيبة ومكانة بعد انتصارها الرائع في 1962 بحيث أصبح يحسب لها حساب في معدلات «الجيوبولتيك» الجهوية والدولية، وعندي أكثر من حدس بأن الجزائر تتوفر على المقومات التي تهيئها لأن تكون أكثر قوة وعظمة في المدى المتوسط، ولا ينبني هذا الحدس على مجرد تمنيات أو ما يسمى الخيال السياسي، بل ينطلق من معطيات تاريخية ومؤهلات ينبغي أن تجعل من الجزائر طرفا رئيسيا في عالم يتجه بسرعة نحو أكثر الطرق نفعية (براغماتية) وأن التنمية الشاملة والتحديث التكنولوجي ورفع مستوى معيشة الفرد لابد أن يعتبر في بلادنا غاية في حد ذاته ولا يحتاج لأي تبرير نظري، لقد فقدت بعض التجارب مصداقيتها عندما استهواها الجدل اللفظي والنزعة المهرجانية فآل مصيرها الى الفشل وخيبة أمل المناضلين قبل المواطنين فيما أعلنته من مبادىء وما قدمته من وعود.

هذا واحد من الانطباعات الأولية عن جانب من تلك الحوارات المتلاحقة، ومن الواضح أن التنوع في الآراء والحماس في الدفاع عنها يشير الى ظاهرة صحية تؤكد وجود ما يقترب من الإجماع الوطني حول المبادىء الكبرى للثورة الجزائرية، فهي في الغالب الأعم تأكيد لتلك المبادىء ونقد صريح للممارسات التي لا تتفق معها وطموح للأفضل يدفع إليه اعتقاد راسخ بأنه من الممكن تحقيق أداءات أفضل في الميادين الاقتصادية والثقافية والاجتماعية إذا رفعنا درجة التنظيم والانضباط والبرمجة والتنسيق ووظفنا بأكثر الطرق عقلانية ما لدينا من إمكانيات بشرية وهيكلية واستطاعت المؤسسات المعنية القيام بدورها الكامل في التربية والتوعية والتجنيد.

فارح كمال:

من المهم أن يحتفظ الشخص بأرجله مشدودة الى الأرض، وإن كان من الضروري أن يحلق بين الحين والحين ويعلو في الفضاء لتكون نظرته أشمل وأعمق، فالالتصاق بالأرض يمنعنا من ربط الجزئيات في صيغ كلية ويعوق فهم عللها وأسبابها، وبالتالي التحكم فيها وتوجيه مسارها.

ومنذ أمد طويل والإنسان يحاول التحكم في الزمان والحركة والمسافة كحالات نفسية تنعكس على مشاعرنا واحساساتنا، وكفرضيات علمية وتطبيقات تكنولوجية يتسابق فيها الخيال العلمي الذي نشاهده على شاشات التلفزيون مع المخترعات الفعلية التي تغزو المجتمعات المتقدمة وتجيب عن كثير من علامات الاستفهام في العالم الكبير (كوزموس) والعالم الصغير (الذرة والخلية) مما جعل عالم الخرافة والأسطورة يتقلص بسرعة، ولا يجتذب الشبيبة حتى في عالمنا النامي، وموضوع الشبيبة هو بيت القصيد، كما سأوضح وجهة نظري بعد قليل.

لقد شاهدت مرة أحد أفلام الخيال العلمي ترتكز فكرته على ابتكار آلة لاستحضار التاريخ على مسرحه الطبيعي حيث يقوم الأشخاص بنفس الأدوار ويواجهون نفس الأحداث، وكأن التاريخ يعيد نفسه حقا، وتبين خلاصة هذا الفيلم أن الإنسان لا يكون أبدا نسخة طبق الأصل لأسلافه،

وأن الأحداث التاريخية حتى إذا تكررت فإنها لا تقع أبدا في نفس الظروف ولا تنتهي بالضرورة الى نفس النتائج، وبالنسبة لنا فإن استحضار التاريخ ومحاكمة الماضي لا تعني محاكاته الحرفية أو التخوف منه، لأن لنا في الماضي رصيد ضخم يدفع في معظمه الى الفخر والاعتزاز، من بين آثاره الحاضرة والملموسة الدرجة العالية من الوعي والتسيس بين أفراد هذا الجيل من المتعلمين والأميين والحس الوطني النقدي الذي نجده في الأحاديث العفوية والتعليقات العادية لجمهور المواطنين على كل صغيرة أو كبيرة في ساحتنا السياسية حتى ليمكن القول بأن شعبنا هو من بين أكثر شعوب العالم تسيسا ووطنية، طبعا هناك حالات نادرة تخرج عن هذا السياق العام رأينا نماذج عنها في بعض الكتابات التي صدرت في السنوات الأخيرة حول الثورة حاضرا وماضيا، فقد توهم أحدهم – على سبيل المثال – بأنه كان بالإمكان التعايش مع النظام الاستعماري البائد، وإبقاء العمال والفلاحين المسحوقين في أكواخهم وقراهم لأنهم أميون ولا يمتون لحضارة العصر بصلة، وتشجيع التحالف بين نخبة من الجزائريين المتعلمين وذوي الأحذية السوداء لتحقيق تقدم سريع لا يمكن الوصول إليه بدون تواجد «الكولون» في وضعية نصف كولونيالية، أقول أن هذه الحالات النادرة هي من باب الشاذ الذي لا يقاس عليه، وهو في رأيي خيال سياسي مريض مازال يعاني منه بعض المخضرمين الذين لم يمنع الاختلاف معهم في الرأي من محاورتهم واحترام أشخاصهم.

والواقع أن الإشكالية الإيديولوجية وخلفيتها التاريخية والثقافية كما أشار إليها سي طارق لا تأخذ أهميتها الحقيقية إلا إذا نظرنا إليها في ضوء التغير الديموغرافي الكبير الذي توضحت آثاره للعيان منذ بداية الثمانينات، إن هذه الحشود الضخمة من الشباب الذين يمثلون قاعدة هرمنا السكاني بنسبة تتجاوز الستين في المائة لم يعرفوا من حرب التحرير وآلام شعبهم طيلة ليل الاستعمار الطويل سوى ظلال باهتة يرويها الآباء والأجداد، وحسب معلوماتي –وأرجو أن تكون خاطئة– فإن هذه المراحل

الحساسة من تاريخنا لا تحظى بالعناية الكافية في المدرسة والجامعة، ولا وجود لها على الإطلاق في الامتحانات الرئيسية لمعاهدنا، ومن النادر أن تهتم بها وسائل الإعلام إلا في بعض المناسبات الوطنية.

إن الاتصال المباشر بالشباب في نطاق الأسرة وخارجها والاستماع الى مشاغلهم واهتماماتهم يؤكد أننا في خضم تحول ثقافي واجتماعي سريع يطرح مطالب في غاية الأهمية لم تكن تخطر على بال الأجيال السابقة وخاصة فيما يتعلق بالتثقيف والترفيه والتعامل مع رموز السلطة والقيم التي تمثلها، وقد يتساءل المرء كيف يتلقى الشباب الخطاب السياسي والثقافي؟ وكيف يستجيبون لمعانيه ودلالاته؟ وما هي أفضل الطرق لتبليغ الرسالة وضمان الاستمرارية بمعناها الحضاري السياسي؟ والملفت للانتباه أن حالات الحيرة والقلق والبحث عن الذاتية المتوازنة في مرحلة العمر التي تزدهر فيها النزعات المثالية والرومانسية لم تدفع الأغلبية الساحقة من شبيبتنا الى الحلول الهروبية المتطرفة والجنوح، كما يحدث اليوم في العالم من حولنا.

بحكم التجربة التاريخية ومتطلبات الجغرافيا السياسية فإن على الجزائر أن تكون شريكا في كل ما يحدث على ضفتي البحر الأبيض المتوسط، وعامل استقرار وازدهار لغرب إفريقيا وشمالها، وداعية لا يفتر لتضامن الوطن العربي ونهضته الحضارية، ونصيرا حقيقيا لقضاياه العادلة، عليها أن تنهض بهذا الدور اليوم وغدا بجدية لا تقبل التهريج وبقناعة لا تنساق وراء المزايدات والأمزجة الفردية والآنية وأشكال الابتزاز السياسي والاقتصادي المستعملة على نطاق واسع.

وفي هذا المجال تجدر الإشارة الى حقيقة أخرى يغفلها المعلقون السياسيون عن قصد أو غير قصد، ألا وهي أن الجزائر من البلدان القليلة في العالم النامي والأكثر نموا التي لم يحدث أبدا أن اعتدت على جيرانها من العرب والأفارقة ولم تتواجد قواتها العسكرية خارج حدودها لأغراض عدوانية وفرض هيمنة ووصاية بواسطة القوة. وقد رأينا ما أدت إليه هذه

الأساليب في السنوات الماضية من فتن وقلاقل وأزمات تجاوزت آثارها الأنظمة المعنية وسمحت لأطراف أخرى بالحصول على أرباح ونفوذ في مناطق كانت تنعم بالهدوء والسلام، وهذا الخط المتصل في سياسة الجزائر منذ أن استعادت استقلالها وسيادتها الوطنية مبني على إرادة حقيقية لزرع الثقة والأمن المتبادل بين الأشقاء والجيران على الرغم مما يضمره البعض من نوايا وما ينصبه من فخاخ ومكائد، فلا عدو لشعوبنا سوى التخلف ولا أمل لنا في الازدهار والتقدم في ظل التوتر والعدوان والتحطيم المتبادل.

ولهذا السبب يسود أدبيات الثورة الجزائرية اعتقاد مبدئي راسخ بأنه لا يمكن لشعب أن يقوم بالثورة نيابة عن شعب آخر أو يصدر له هذه الثورة جاهزة ليستعمل مفاتيحها ويدخل الجنة من بابها العريض، فلم يعد بالإمكان أن تفرض الأنظمة بواسطة الغزو العسكري والتسلل الإيديولوجي، ومهما كانت القوة التي تقف وراءها فأن أيامها معدودة، إذا لم تخترها الشعوب، ولم تتبناها القيادات الوطنية الحقيقية.

هذا بعض ما يدفع الى الزهو أما ما يدعو الى التواضع فهو كامن في طبيعة الثورة التي ترفض الرضى الذاتي وعبادة الأشخاص، وتعطي للمسؤولية مفهوما صارما يجعل الأفراد في خدمة الثورة، وليس الثورة في خدمة الأفراد، وترسم أهدافا طموحة تعمل على تجاوزها كلما أدركتها، وتعتبرها دائما أقل من المطلوب إنجازه كلما استحضرت التضحيات التي قدمتها أجيال متعاقبة والآمال التي علقها الأفراد والجماعات ممن عانوا من الاضطهاد والاستغلال الثقافي والاقتصادي، وما تنتظره كثير من الشعوب من التجربة الجزائرية في بناء مجتمع العدالة والتقدم.

والواقع أن الثورة الجزائرية، ترى في السلطة أداة للقيادة وليس مطية للحكم، ويأخذ هذا التمييز بين القيادة والحكم أهمية كبرى في تحديد هوية الأنظمة السياسية، لأن القيادة تعني اعتبار السلطة مجرد أداة لتحقيق مشروع حضاري متكامل بواسطة التربية والتوعية والتوجيه

والتجنيد حول مهام وطنية تستقطب اهتمام الجماهير وتحظى بمشاركتهم التلقائية والحماسية، وهي تتخذ من الحوار والممارسة الديمقراطية منهجا للعمل الجماعي داخل القيادة نفسها وفي نسيج العلاقات التي تبنيها مع المواطنين.

ولاشك أن النظام الذي يختار استراتيجية القيادة كفلسفة لسياسته في الحكم وكمنهجية لممارسة السلطة، هو نظام متطور لا تعنيه الأبهة والمظاهر الاستعراضية والامتيازات المفتعلة، لأنه نابع من صلب الشعب وتعبير صحيح عن شؤونه وشجونه، وهذا النمط من النظام لا يمكن أن يكون في تقابل أو تصارع مع الجماهير لأنه يقف معها في صف واحد وتتوزع فيه الأعباء والمسؤوليات حسب الاستحقاق وهو في رأيي معيار أخلاقي سياسي يضمن مصداقية الدولة ويحميها من أشكال الضعف والترهل التي تعرض للأنظمة بعد طول الممارسة.

وتتطلب القياة مهما كان المجال الذي تعمل فيه ابتداء من الإشراف على فريق رياضي حتى توجيه وتسيير هياكل الدولة المختلفة صفات وخصائص في الأشخاص تلتقي في كلمتين هما الإخلاص للوطن والكفاءة في خدمته، وتقتضي أسلوبا في العمل التنظيمي يبعث على الثقة في المستقبل والإقبال طواعية على إنجاز مهام الحاضر.

وهذا النوع من القيادة يجعل الناس يؤدون أصعب المهام وأشقها بسعادة غامرة وآمال واعدة فلا خير في ثورة تنشر البؤس واليأس والتشاؤم ولا مخرج لنظام حكم ترتكز علاقته بالناس على الخوف أو الطمع حيث ينتشر النفاق الاجتماعي والتحالفات المصلحية كما يحدث الآن في كل بلداننا وفي مستثمرات الكولونيالية الجديدة التي تحول السلطة الى رقابة بوليسية أو كابوس يرزح الناس تحت وطأته ولا يتجاسرون على قراءته وفك رموزه، ويتوقف بقاؤهم في السلطة على القمع والترهيب وتحطيم البنية الاجتماعية وتشتيت الوحدة والتضامن الوطني.

طارق سعيد:

شدتنا الجاذبية طوال هذه الرحلة - بمختلف محطاتها - الى الوطن وهو يشق طريقه في أقيانوس متلاطم الأمواج، فبعد أكثر من ثلاثين عاما من انطلاق ثورة التحرير والشروع في بناء الدولة والمؤسسات التي تقوم عليها كان من الطبيعي أن تطرأ مشاكل من نوع جديد وأن تتغير أساليب معالجتها فلم تكن مثلا قضايا الهوية والعقيدة والثقافة والترفيه والتربية والتشغيل والهجرة أو النزوح السكاني تطرح بنفس الحدة ولا الحجم الذي نراه اليوم، فهل كان من اللازم أن يتنبأ المخططون الاقتصاديون والمسؤولون عن القرار السياسي بما سوف تنتهي إليه الأمور بعد عشرين أو ثلاثين عاما؟ لقد أعلن حزب في إحدى الدول العظمى أنه يطرح للمناقشة مشروعا للنهضة المتعددة الأوجه تشمل قرنا بأكمله، فهل من المشروع أن يحدد جيل واحد مصير أربعة أجيال لاحقة؟ إذا عرفنا أن قمة النضج الذهني تستغرق خمسة وعشرين عاما من عمر الإنسان أي يمكن أن يتواجد في قرن واحد أربعة أجيال، وهل تقع علينا نحن مسؤولية التنبؤ والتوقع الدقيق بما ستكون عليه تلك القطاعات خلال قرن بأكمله؟

الواقع أني لا أبحث عن جواب بقدر ما أحاول الاستبطان أو كما يقول رجال القانون أتخيل الأثر الرجعي لمعالجاتنا السابقة والراهنة لبعض القضايا التي تواجهنا اليوم ومضاعفاتها في المستقبل.

وأقصد بوجه خاص قضايا الثقافة والشباب.

إن نظرة سريعة لقائمة المشاكل المطروحة في هذين القطاعين لتدعونا لإعادة ترتيب الأولويات وتركيز الجهد لتدارك ما فات، صحيح أن مثل هذا الكلام قيل وتكرر عدة مرات، ولكن هل فحصنا مثلا إنتاجنا الثقافي في ضوء المردود الكيفي لجامعاتنا، وهي المؤسسات الأولى لصنع المعرفة ونشر الإشعاع الثقافي؟ وهل استطاعت مؤسسات الإنتاج الثقافي ووسائل الإبداع الفني وهياكل الإسناد الأخرى الخروج من دوامة الوسائل والإمكانيات ومشاكل التجهيز والتمويل والتسويق؟ وهل يرضي الإنتاج

الثقافي الوطني جمهوره المتعطش؟ وهل هناك إنتاج ثقافي إبداعي أصلا؟ فباستثناء بعض المحاولات الجريئة لفئة من الشباب ونخبة من الكبار الذين صمدوا وسط تلك الدوامة وواصلوا العطاء في ميادين الفن والأدب والبحث، فإننا نشاهد، بدون أن نحرك ساكنا، هجرة متزايدة وراء البحر وفراغا ثقافيا لا يخفيه استيراد المنتجات الثقافية الجاهزة وأشكال الترفيه والتنشيط الثقافي ذي الصبغة التجارية البحتة والتي تنتهي بمجرد أن يسدل عليها الستار، أدت هذه الوضعية الى ظهور لون ثقافي جديد تجده في الشعر والقصة والمسرح والفنون التشكيلية، يمكن أن نسميه بالثقافة الساخطة واسترعى انتباهي في مستهل هذه السنة دراسة لأحد ممثلي هذا التيار صدرت في باريس ويعرض فيه صورة قاتمة للوضعية الثقافية من خلال نقده للتوجه العلمي والتكنولوجي، كما فهمه في الخطاب السياسي للمؤسسات المعنية وينتهي الى حكم قاطع بعقم هذا المسعى وفشله في هذا التوجه بالذات.

ليس المهم في هذا المقام الرد على هذه الآراء بالرفض أو القبول إنما المهم في رأيي هو تحليل ظاهرة السخط بين أعداد متزايدة من الشباب وتشخيص أسبابها والمناخ الذي تحدث فيه واعتقد أنه من التسرع أن نعتبرها نزوة عابرة أو شطحات المراهقة الفكرية التي تستهدف تأكيد الذات.

لقد نمت الثقافة الجزائرية الحديثة وترعرعت في أحضان معركة التحرير وعبرت بواقعية مستمدة أساسا من النضال ضد الوضعية الكولونيالية والتبشير بفجر الحرية والعدالة والازدهار، ولعبت هذه الثقافة بمختلف أشكالها التعبيرية دور التعبئة والتوعية والتجنيد وساهمت في كسب التعاطف والتأييد للثورة في الشرق والغرب، وكانت في بعض الأحيان أشبه بالمرافعات البليغة التي تقدمها تشكيلة من المحامين دفاعا عن شعب بأكمله يتعرض لأبشع أنواع الاضطهاد والاستغلال.

وكان من الطبيعي أن تتغير أشكال ومضامين التبليغ الثقافي بعد أن كسبت الثورة معركتها الأولى الحاسمة بالقضاء على الاستعمار الاستيطاني

المباشر، وأن يتحول الاهتمام الفكري والفني الى قضايا لم تبرز أهميتها في واقعية محمد ديب، ومولود فرعون، ومعمري، ومالك حداد، وغيرهم، إذا اقتصرنا على مجال الرواية، والقصة، والأقصوصة، وتبقى الثقافة الجزائرية في كلتا الحالتين، ثقافة مناضلة في اتجاهها العام، بغض النظر عن التفاوت الملحوظ في الإبداع والجمال كما يقيسه نقاد الفن المختصون، وليتنا نشهد في السنوات القادمة دراسات تحليلية نقدية كاملة وجماعية لأشكال ومضامين التعبير الفني في الجزائر خلال الثلاثين عاما الماضية.

يرى البعض أن شبابنا يبحث عن طريقه في حركة دائرية يدعوه قوم الى التأصيل والاقتصار على الأصول والغوص في التراث العربي الإسلامي لاستخراج أحجاره الثمينة التي تصلح كوصفات مجربة للشفاء من أمراض الحيرة والقلق وهو القطار الوحيد الذي يسير في خط مستقيم ويوصل الجميع الى محطة واحدة فيها كل ما لذّ وطاب، ويستدرجه آخرون الى «الاندماج» في العصر والاقتباس بلا تردد أو التباس من ألوان الحضارة المعاصرة لأنها عالمية وحق مشترك لكل الإنسانية، وهي المركبة الوحيدة التي تحررهم من الجاذبية وتخرج بهم في أسرع وقت من الكهوف المظلمة للتخلف والتقاليد البالية.

ويشعر الشباب بأنه في حركة دائرية لأن كلتا الدعوتين لا تقدم حلولا عملية لمشاكلهم اليومية، ولا تشدهم الى مطامح وأهداف تستقطب اهتمامهم. وتشحذ عزيمتهم، وتكفي لتعبئتهم وتجنيدهم، فهي في الحقيقة دعوة للخمول الذهني والاتكال على الماضي بدون نقد وتصفية وتكييف والتقاط الفتات من موائد الغير واجترار شعارات جوفاء، تختفي تارة وراء قناع التراث، وهو منها براء، وتزين تارة أخرى الردة الليبرالية وما تحمله في ركابها من تهتك وانحلال وتسلط الأغنياء وازديادهم ثروة وغناء، وانسحاق الفقراء وتهميشهم في المدن والقرى.

وسواء استفتينا شباب المعاهد والجامعات، أم أصغينا الى الأفكار العامة البسيطة لتلاميذ المدارس، أم حاورنا أولئك الذين يبدأون حياتهم المهنية،

في المصانع والمزارع والمؤسسات، فإن الجواب في الغالب الأعم واحد، وهو اعتزاز بتراث الثورة الجزائرية، واختيار لا تردد فيه لميراثها المتجدد وللمثل والأهداف التي تسعى لبلوغها والمنهجية التي ينبغي أن تعرضها في كل مرة للنقاش والحوار لغرض نقدها ورصد أخطائها وتحسين أدائها.

وفي هذا الاقتناع لا تختلط على الشباب الأفكار العظيمة بالأشخاص، والمبادىء الموجهة بهياكل التطبيق، وإن كان يعرف كما اتضح في الحوار الأخير حول المحنة الراهنة ما للأشخاص والهياكل من أهمية إذا تعلق الأمر بالدفاع عن المبادىء الكبرى، وإنجاز المهام المطلوبة، بطريقة تتجاوز حدود الأداء البيروقراطي المحدود الأفق، والتنفيذ التكنوقراطي المحايد.

وأقول أن المجتمع الذي يتخذ شبابه موقفا حياديا تجاه قضاياهم الوطنية، هو مجتمع لا يعاني «أزمة وجودية» فحسب، بل هو مجتمع على وشك الانهيار والهلاك.

هذه مجموعة من الانطباعات والآراء تعمدت أن لا أضعها في صياغات منطقية مرتبة وأن لا أمهد لها بالمسوغات والمبررات وأن لا أرفقها بالحجج والبراهين، وهي في الواقع كثيرة، متفقا في ذلك مع سي غضبان الذي يذهب الى أن من علامات الصدق والجمال: العفوية والبساطة وهذا ما يجعلنا نطرب ونحنو على أطفالنا الصغار وهم يشرعون في تمريناتهم الأولى على النطق بالكلمات ويتدربون على اكتساب آليات اللغة والتعبير.

اسمحوا لي أيها الرفاق إذا استعملت طريقة المصور الحربي الذي تتحرك الكاميرا في يده على وقع كل انفجار، وعند سماع الدوي الصاعق يحلف بأغلظ الأيمان بأن يغادر الجبهة إذا نجا ولم تصبه أية شظية قاتلة، ولكنه يعيد الكرة بمجرد أن يستعيد وعيه، ولا يرى في الحقيقة أي معنى للحياة إذا لم تكن على حدود الموت وصراع دائم ضد الخوف، ألم يقل أبطالنا الذين صنعوا مجد الحضارة الإسلامية: «أطلب الموت توهب لك الحياة»!

الثورة الجزائرية والمسألة الإيديولوجية

غضبان وحيد:

جمعت هذه الأرض المترامية الأطراف والزاخرة بالخصب والجمال بين حاضر يتشكل في الأفق وماض يدعو في معظمه للفخر والاعتزاز، ولعلكما تتفقان معي على أن الحاضر ليس مجرد حصيلة حسابية للوقائع التي مرت في حياة شعب من الشعوب، لأن التجارب التي خاضتها الأجيال المتعاقبة بما فيها من انتصارات وهزائم تبقى نشيطة في الذاكرة الجمعية، وتشكل جزءا من الإرث الحضاري للأمة، نلمسه فيما يعرف بالحكمة الشعبية والحس السليم الذي يكتسبه العاديون من الناس.

إن الماضي بحسناته وسيئاته هو خلفيتنا المرجعية وذاكرتنا المشتركة، ولكنه ليس سجنا لنا ولأحفادنا، فالمطلوب منا هو استخلاص العبرة من تاريخنا وإثراؤه بتجربتنا الذاتية، فأمام كل جيل أهداف أخرى ينبغي أن يبلغها، وتحديات جديدة لا مناص له من الرد عليها.

وإذا كان جيل الخمسينات قد كسب الرهان وحقق حلما طالما راود الملايين من المستضعفين فإن من واجبه أيضا أن يهيء أفضل الظروف لتبقى الشعلة مرفوعة ولا تحدث قطيعة بين الأجيال نتيجة فراغ ثقافي أو تذبذب حول مضامين الماضي يشكك الشبيبة في رصيدها النضالي العريق وسندها الحضاري الذي ساهم أسلافهم على هذه الأرض في إرساء دعائمه وتبليغ إشعاعه.

وهذا يعني أن الثورة نضال يومي في سبيل قناعات مبدئية ولكنها لا تمنع من الاجتهاد في الوسائل والأساليب، ونعبر عن ذلك بمقولة دخلت مصطلحنا السياسي ألا وهي المبادىء فوق المناصب والألقاب، وهذا المفهوم يعطي أهمية للأشخاص بقدر تمسكهم بالمبادىء وقدرتهم على

تطبيقها على أرض الواقع المتغير، وفي نفس الوقت لا يخلع عليهم صفة القداسة ولا يمنحهم الحصانة مهما كانت الهالة التي أحاطت بهم.

صحيح أن كل ثورة تحتاج الى رموز ومشخصات تتكثف فيها معانيها وطموحاتها لأن التجريد المطلق لم يستعمل كمنهج حتى في العقائد السماوية والمذاهب المثالية، ولكن ثورتنا تميزت بخاصية نوعية قلما شاركتها فيها ثورات أخرى، إن الشعب هو لحمتها وسداها وبطلها الأول ومنه خرجت أغلب طلائعه القيادية، وقد أثبت التاريخ القريب والبعيد، أن نجاح تلك القيادات كان على الدوام، مرتبطا بالالتصاق بالشعب والاحساس بمتطلباته، فإذا ابتعدت عنه فقدت سندها، وبالتالي مشروعيتها وألغاها الشعب من ذاكرته بشيء من المرارة والأسى، ولكن بكثير من الحزم والصرامة.

لقد جالت بذهني هذه الأفكار أنا أتأمل من نافذة الطائرة، ما وهب الله أرضنا الطيبة من خصب وجمال متنوع يجعل من الصعب على أبنائها أن يفارقوها ولو لسفر قصير، وقد أنتج هذا الوله الشديد بربوع الوطن تراثا مشتركا بمختلف اللهجات وحول موضوع واحد وهو التعلق بالوطن، غابات وجبال، وسهول، وصحراء، وتقاليد، وعادات، ويتمثل هذا التراث بوجه خاص في الشعر الملحون – وأنا من هواته – الذي بلغ قمة الإبداع الجمالي بما تضمنه من صدق وبساطة في التعبير عن الحنين الى الأهل والوطن، ويستغل هذا التراث اليوم من طرف بعض المضللين والوسطاء لأغراض لا علاقة لها بالفن والثقافة، ولا تخضع لأي وازع أخلاقي هدفها الثقافي مشبوه، ونشاطها التجاري لا يتجاوز استغلال العواطف، والكسب من وراء الديسكو والفيديو.

طارق سعيد:

حقا أن التعامل مع الماضي سواء أكان تراثا سياسيا أم ثقافيا يعدّ من بين أكثر الإشكاليات تعقيدا في بلادنا العربية والنامية فهناك من جهة هذا الماضي الموجود في داخلنا كأفكار ورموز ومفاهيم، وهناك

من جهة أخرى إرادة التغيير والتجديد التي تلازم الحراك الاجتماعي والتحول السياسي والثقافي.

ولاشك أن الاقتناع بالماضي وقبوله على علاته بما فيه من حسنات وسيئات يؤدي الى الركود والجمود، الذي يولد بدوره ردود فعل أخطر ما فيها هو القطيعة مع الأجيال الصاعدة التي يدفعها اليأس والكبت الى البحث عن بديل، ونعرف ما يعج به عالمنا المعاصر من نشاط لتصدير النماذج الإيديولوجية والثقافية البديلة بكثير من الذكاء والاغراء.

كما أن إرادة التغيير والتجديد لابد أن تستند الى مشروعية راسخة الجذور في الماضي، لأنه من المستحيل على أي مجتمع أن يبدأ تاريخه من نقطة لم تسبق بشيء من قبل، وقد باءت محاولات من هذا القبيل بالفشل، ودفعت مجتمعات بأكملها الى الانسحاب الى الماضي والشك في الحاضر والعجز عن تصور المستقبل.

وإذا كان الاتجاهان السابقان يؤديان الى طريق مسدود، فإن الحل هو اكتشاف صيغة ثورية لتوظيف مكاسب الماضي باعتبارها خبرات اندمجت في رصيد الأمة وأصبحت جزءا من تراثها، وليس باعتبارها مخلفات مشخصة أو مسيرات ذاتية للأفراد. وتتمثل تلك الصيغة في اقتراح منظور متكامل لبناء مجتمع جديد تتبناه كل القوى الحية في الأمة ويكون دليلها الكفيل بتحقيق إنجاز حضاري لا يقل عظمة عما قامت به الأجيال السابقة، ولاشك أن أصول هذا المشروع موجودة في السيرة الذاتية لشعبنا كما عبر عنها بيان الأول من نوفمبر 1954.

وبالرجوع لتجربة الثورة الجزائرية خلال مسيرتها الشّاقة فإننا نلاحظ أنها نجحت باستمرار في التغلب على الهزات وابتكرت الصيغ الجزيئة لمواجهة ما يطرحه الواقع الداخلي والجهوي من إشكالات وقد أدى الكثير من تلك الهزات والإشكالات الى صقل جوهرها وإنضاج توجهاتها القائمة على مبادىء الحرية والعدالة والتقدم، لأن تلك المبادىء والاختيارات الكبرى كانت قبل كل شيء خلاصة تجربتها الذاتية، وليس نتيجة تحليلات نظرية

للمذاهب السائدة في العالم منتصف القرن العشرين فقد كافحت من أجلها أجيال متعاقبة منذ عشرات السنين، وقدمت في سبيلها قوافل من الشهداء وهذا هو الفرق بين الثورة الشاملة وانقلابات القصور التي قد تغير الأشخاص وقد تنجح في طلاء البيت بألوان خلابة ولكنها حسبما نشاهد حولنا تتغلب عليها النزعة الاستعراضية وما يصحبها من طوفان الأدبيات والشعارات التي تقدم كأهازيج تطرب الجماهير وترفع على اللافتات في مناسبات معلومة، ولكن ليس لها أي مقابل على أرض الواقع.

ولذلك ليس من باب العاطفة أن يرى الكثيرون من النزهاء في الجزائر ثورة ومشروعا حضارياً أحد أكثر بلدان العالم العربي والعالم الثالث المؤهّلة لتحقيق ذلك الإنجاز الحضاري العظيم والطرق على باب القرن الواحد والعشرين بنموذجها المتميز في البناء الوطني بمعناه الشامل وتراثها النضالي المتصل والمتجدد.

فارح كمال:

أجد في حديثكما تطابقا كبيرا في المقدمات والنتائج، ولعل السر في ذلك أنكما تنتميان الى مدرسة واحدة داخل مذهب «أهل السنة والجماعة» وقد شربتما من منبع واحد يمكن أن أسميه «الوطنية» وأقول مدرسة لأن مذهب أهل السنة والجماعة يتضمن شحنات بعضها موجب وبعضها الآخر سالب، ويتساكن فيه ثوريون أتقياء، ومحترفون أذكياء وأغبياء، وطبعا كما هو الشأن في كل مذهب عتيد هناك منافقون ومتطرفون تطرفوا نحو اليمين أو نحو اليسار، إما عن قناعة وإما لضرورات ظرفية، وعلى أي حال هذه خريطة جوية تنقل الخطوط العريضة للتضاريس، وكما يقال: أهل مكة أدرى بشعابها، غير أن ذرية أبي لهب وأبي سفيان تعرف «موناكو» و«لاس فيقاس» أكثر من مكة وشعابها (!).

إن اختلاف المدارس وتعدد الاجتهادات هو في رأيي علامة على الحيوية والمرونة والتسامح المذهبي، وفي عالمنا الثالث تبدو مثل هذه الممارسة وكأنها مغامرة محفوفة بالمخاطر. ويعلل البعض ذلك بأن البلدان

النامية تسير ببطء من عهد القبيلة وتقاليدها في الحكم والتسيير الى مرحلة الأمة وما يلزمها من هياكل ومؤسسات.

وبحكم ما عرفته تلك البلدان من تخلف واستعمار فإنها مازالت في حاجة الى بناء «الأمة الدولة» وترسيخ الوحدة الوطنية التي عمل الاستعمار على عرقلتها وتخريبها سرا وعلانية.

ومثل هذه الوضعية تم تجاوزها في البلدان الغربية منذ أمد طويل، فعلى الرغم من تعدد الاتجاهات والمذاهب والانتماءات الحزبية، فإن ذلك التعدد والتباين محصور في إطار قانون غير مكتوب والدليل على ذلك أن الجميع يتفقون على القضايا الوطنية الكبرى ويصبحون كتلة واحدة متضامنة في السراء والضراء إذا تعرض الوطن لأخطار خارجية.

ويذكرني الحديث عن الوحدة الوطنية بمقال أطلعت عليه منذ مدة يحمل توقيع شخصية ديغولية معروفة بتطوعها لإعطاء الرأي وتفسير الأحداث في المنطقة العربية وجناحها المغربي بوجه خاص هو ميشيل جوبير، ينطلق ذلك المقال من المسلمات المغلوطة لمعهد الدراسات الكولونيالية (ما وراء البحار) لينتهي الى نتائج طالما رددتها فئة من النوستالجيين قبل وبعد الاستقلال مثل الزعم بأن الجزائر قطعة كبيرة من الفسيفساء المتلاصقة بطريقة اصطناعية لم تعرف نظام الدولة، بل لم يكن لها أي كيان متميز في التاريخ القديم والحديث، ولذلك فهي تفتقد لتقاليد الحكم كما هي معروفة في جهات أخرى في المنطقة وخارجها.

قرأت هذا المقال وغيره مما يسير في سياقه بحكم المهنة «التدريس والبحث العلمي» والهواية وليس في نيتي الدخول في جدل مع كاتبه وهو سياسي مرموق على الساحة الأوروبية، ولا يخامرني شك في أن عددا كبيرا من تلك الأقلام المغرضة والمأجورة تلتقي في حلف مقدس يخدم سياسة حاقدة على التجربة الجزائرية، وهذا ليس بجديد ولكن المحير هو صمت شريحة، كبيرة من كتابنا ومفكرينا وكأن الأمر لا يعنيهم. ومن المعروف أنه حتى إذا اعترض بعضهم على اجتهاد داخلي أو فضل السكوت فأنهم

لا يشعرون مطلقا بالحياد تجاه القضايا الوطنية الكبرى وثوابت الثورة الجزائرية التي هي قناعاتهم الذاتية ولا أقول التزاماتهم لما في مصطلح الالتزام من معاني تقترب أحيانا من «الخماسة» والاستغفال.

طارق سعيد:

من الخطإ الزعم بأن ثورة بحجم الثورة الجزائرية تخلو من الأعداء المتربصين والأصدقاء المزيفين، فذلك في الحقيقة علامة على ما آثاره نضالها السياسي والمسلح وتضحياتها الكبيرة من اهتمام يدفع الى التقدير والاحترام عند البعض وقد يتحول عند البعض الآخر الى تخوف، ويقول المختصون في علم النفس أن حالات الهستيريا والفوبيا وأشكال العصاب الأخرى مصدرها هو الخوف من الآخر والعجز عن مصارحة الذات والتفوق على المنافس.

وإذا كان من الخطإ أن نتصور الثورة الجزائرية وكأنها عروس في حفل زفافها لا تسمع إلا التهاني والثناء فإن الخطأ الأفدح هو أن نهدر جهدنا ووقتنا في المهاترة والجدل العقيم، ويعرف كل من شارك في صفوف القافلة، أنها لا تسير دوما على بساط من حرير، فمن السذاجة أن يحبس المرء نفسه في مثالية لا علاقة لها بما يحدث حوله فينتهي به الأمر الى أحلام اليقظة واليأس والتشاؤم، ومن المغالطة أيضا أن يستغرق المرء في جزئيات الواقع اليومي وما يظهر فيها من نقائص ناتجة عن الانحرافات في التطبيق أو الاسراف في التلفيق والتهافت على الامتيازات والضمانات، فيفلت هذا الواقع من بين يديه وتنسيه الحشائش الصغيرة الضارة ما تزخر به الغابة من أشجار تضرب بجذورها في أعماق التربة وتحتاج الى التعهد والرعاية لكي تصمد أمام العواصف وتنتج الثمار.

هناك بين الاتجاه المثالي الجامد والواقعية الفجة طريق ثالث وهو الصدق والطموح الذي يحاور الواقع ويفحص معطياته ليرقى به الى الأصلح والأفضل ونحن على يقين بأن الطموح الوثاب يجعل الأفضل بعد كل مرحلة زمنية شيئا عاديا من المطلوب تجاوزه بالمبادرة الخلاقة والانضباط

والمشاركة الجماعية والتضحية في الوقت المناسب بالمصالح الشخصية التي لا تخلو منها الطبيعة الإنسانية بمعنى أنه ينبغي أن نتنازل عن المسائل الثانوية لندعم المكاسب الأساسية حتى يكون للصراع دواعيه ومشروعيته وللنجاح لذته وآفاقه الواعدة.

لست في الواقع من هواة التنظير الفلسفي ولا من أتباع المتخصصين في جعل السهل البسيط صعبا ممتنعا وتشغلهم قطرة ماء ملوث عما يزخر به المحيط من صفاء ونقاء وثراء.

الوطنية هي المدرسة التي تعلمنا فيها - على حد تعبير رفيقنا فارح كمال، ومازلنا نواظب على دروسها ونزداد إيمانا بتعاليمها، قد لقنتنا منذ السنوات الأولى للحركة الوطنية حتى الفصول النهائية لثورة التحرير الكبرى، أن من العلامات التي لا تخطىء للمناضل هي: الصدق والإخلاص والبساطة والتواضع وبعض العفوية التي تلازم كل مؤمن غير محترف.

ومهما تعددت الاجتهادات واختلفت الآراء فأنها تبقى كما رأينا في كل المناقشات الجماهيرية تعبيرا يقترب من الإجماع عن الاختيارات والثوابت الكبرى للثورة الجزائرية التي تلخصها أربعة كلمات هي:

الهوية الوطنية والحرية والعدالة والتقدم.

قد يخطىء المسعى وقد يصيب ومن الضروري أن يقول الشعب وقواه الحية بوجه خاص رأيهم في أفعال الأشخاص ويزيل الصدأ الذي يعلق بدواليب الثورة وتتأكد قيادته من مؤشرات المستقبل في بلد أكثر من ثلثيه لا يتجاوزون الخامسة والعشرين من العمر.

فمن يرجع الى الإسلام، إنما ينظر إليه في ضوء تلك المبادىء ويعتبره بعدا أساسيا للثورة، لعب الدور الأول في حماية مقوماتنا وشخصيتنا الوطنية، وأمد أجيالا متعاقبة بالنفس الطويل والمقاومة المتواصلة والقدرة على مواجهة أكبر محنة تعرضت لها البلاد، وهي الاستعمار الاستيطاني الصليبي، وهذا يعني أن الإسلام عندنا هو عقيدة ذات تقاليد كفاحية وليس تجمعات اكليريكية تطالب بالاستيلاء على الدنيا باسم الآخرة.

طبعا هذا الفهم النضالي للاسلام هو توجه الأغلبية الساحقة، وأما المزايدات الأخرى عن «دين» السياسة و«سياسة» الدين ومضاعفاتها الأخرى فهي أشبه بالارتجاج الذي ينتج عن ملامسة الرياح لجناحي هذه الطائرة التي تخترق الأنواء والأجواء في ثقة وإصرار.

وأما من يتخوف على القطاع العام فهو يتعلق بمبدإ العدالة الاجتماعية وتساوي الفرص بين المواطنين ويندد عن اقتناع برأس المال المستغل ويحذر من أخطار الثروة الناجمة عن المضاربة والنشاطات الطفيلية، وهو بالتأكيد ثراء غير مشروع ينبغي محاربته والقضاء عليه، لأنه لا يقل خطورة على أشكال الانحراف الأخرى مثل تبذير أموال الدولة واستعمالها لأغراض شخصية والعبث بالممتلكات العامة واستغلال النفوذ الخ....

وينطلق أغلب من يدافع عن العدالة الاجتماعية منهجا واختيارا من معاناة جماهير العمال والفلاحين الجزائريين الذين واجهوا أقسى ألوان الظلم والاستعباد وأنكر الاستعمار وجودهم وأنسانيتهم واعتبرهم أقل درجة من الحيوان وسوف تبقى تلك المعاناة منقوشة في الذاكرة الى الأبد. ومن البديهي أن التوجه السابق لا يعني المساواة البدائية بين الناس بغض النظر عن الجهد والكفاءة فهذا ضرب من الديماغوجية مرفوض جملة وتفصيلا إلا إذا توهمنا أن السماء تمطر ذهبا وأن الأرض تدفع بخيراتها بدون عناء الإنسان وكده.

وأما المزايدون من أقصى اليمين وأقصى اليسار فحجتهم واهية ونواياهم مشبوهة وكما يقول المثل الشعبي «لا يبقى في الوادي إلا أحجاره» وكم جرف السيل من أعشاب ضارة ورغوة ملوثة، ليس لها جذور في تربة الوادي! وهذه بعض دروس الماضي القريب وسوف تكون من حقائق الحاضر والمستقبل الدامغة، فلا مجال للشك والارتياب، ولا داعي للتأسف والاكتئاب!

لا أريد أن استرسل الآن في هذا السياق أو الحديث الطائر لسببين أولهما أني عرضت لهذه القضايا وغيرها في العديد من المواقف وجادلت الملاحدة والأرثوذوكس وإخوان الصفاء وما بينهم من الملل والنحل، وثانيهما لأن الأخ فارح يهم بالكلام ومن لا يحسن الاصغاء لا يحسن الحديث.

فارح كمال:

من الجائز، بل من المفيد، أن يختلف الناس في تفسير أحداث الماضي، وتأويل أبعادها، ومسؤولية الأفراد والجماعات فيها لأن التاريخ ملك للأمة، وإن بقي محتفظا بخصائص الأفراد الذين ساهموا في صنعه وهذا «التأميم» للتاريخ لا يمنع الأجيال الحالية والقادمة من الخوض فيه وإعادة دراسته وتقييمه للاستفادة من دروسه في ضوء ما يستجد من ظروف.

ويبدو هذا الأمر بديهيا لأول وهلة غير أن حالات «التذايت» والتعسف قد تحجب الرؤيا النزيهة وتدفع الى شطب أجزاء أو تحرير مقاطع حسب الأهواء والأمزجة، ومع ذلك يبقى التاريخ هو ذاكرة الأمة وبطانتها الوجدانية المشتركة التي تجعلها تشعر تلقائيا بالوحدة والتجانس.

ولا تقبل أمة تعتز بماضيها، أن تفقد الذاكرة أو تتخلى عما وصلت إليه من وحدة وتجانس عبر مئات السنين، لأنها في هذه الحالة تدخل في أزمة مع ذاتها وتنهار مع أول هزة تتعرض لها وتسقط فريسة للطامعين فيها. فلو افترضنا أنه لم يكن لأمة تاريخ – وهو افتراض نظري بحت – لكان عليها أن تصنعه من نسج الخيال وتملأه بالأبطال الأسطوريين والخوارق والمعجزات، أما إذا كان هؤلاء الأبطال موجودين فعلا فأن التقييم المستمر لأثارهم لا يمنع من إعلاء صورهم سواء أكان اسمهم يوغرطا أم ماسينيسا، أم عقبة بن نافع، أم الأمير عبد القادر أم شهداء ثورة التحرير الكبرى.

إن الالحاح على البعد الاستراتيجي للتاريخ، وأثره في توجيه ديناميكية الأمة لا يعني الدعوة الى تضخيمه أو العيش عالة عليه، أو البحث عن الفتاوي للتصالح معه، كل ما في الأمر أنه لاغناء عنه في فهم معطيات الحاضر وإشكالياته، وتكشف المناقشات الواسعة التي استقطبت اهتمام الجمهور من الشباب والكهول نساء ورجالا سنة 1976 (مناقشات الميثاق) على نوعية تلك المعطيات والإشكاليات الجديدة وما نجم عن ذلك من تحولات في الخطاب الثقافي والسياسي.

ولسبب – ما – لم تول الأنتليجانسيا وأغلبها من الشباب عناية بالثورة الوثائقية الكبيرة من 1976 الى اليوم ولم تستخلص منها النتائج السياسية وبرامج العمل وبقيت مسجلة على الأشرطة أو محفوظة في الأرشيف فلم أر فيما قرأت سوى القليل جدا من الدراسات المتخصصة للمثقفين والباحثين داخل الجامعة أو خارجها عن تلك الإشكاليات الكبرى حول الثقافة والإعلام والأسرة والشباب والعنف والأمية والتعليم والعلاقات الدولية واقتصاد السوق والسوق بلا اقتصاد، وفي هذا السياق يأخذ تساؤل الأخ غضبان عن دور المثقف ووظيفته في الدولة والمجتمع كل معانيه.

ويسمح الاستحضار السريع لما علق بالذاكرة من تلك الحوارات الشعبية، باستخلاص بعض النتائج الأولية يأتي في مقدمتها المسألة الإيديولوجية أي فلسفة الثورة الجزائرية ومنهجيتها في تشييد مجتمع الحرية والعدالة والتقدم، وفي هذا المجال يمكن إحصاء ثلاث إجابات.

يرى أصحاب الإجابة الأولى أن المسألة الإيديولوجية لا تطرح إشكالية خاصة في الوقت الحالي على الأقل لأن الثورة الجزائرية في جوهرها ثورة شعبية منذ انطلاقتها وسيبقى هذا التوجه هو علامتها المميزة، وهي أيضا ثورة متكاملة في المحتوى الاجتماعي والسياسي هدفها الدائم هو التحرير والتحرر، ساهمت فيها كل فئات الشعب وتحمل عبئها الأكبر الفقراء والمضطهدون من العمال والفلاحين، مما جعل أغلب مقولاتها تمتد في حركة المقاومة الشعبية للاحتلال الاستيطاني الأجنبي وبقيت كبذور في صلب الحركة الوطنية منذ مستهل هذا القرن، تم صقلها أثناء مرحلة الكفاح المسلح وأخذت تنضج بالتدريج في مرحلة ما بعد الاستقلال.

وهذا يعني أن تجربة حرب التحرير تعتبر بكل المقاييس الموضوعية ثورة شعبية وتقدمية متكاملة، وليست انتفاضة طبقة أو نضال جماعة تعتنق أحد المذاهب السياسية التي تتقاسم العالم.

ويرى أصحاب الإجابة الثانية، أن المسألة الإيديولوجية تمثل أخطر إشكالية في كل الأنظمة لأنها بنية فوقية شديدة الحساسية ومعرضة لتقلبات الطقس

الاجتماعي والثقافي القريب والبعيد، وهي لا تقبل الأوضاع الاستاتيكية الخاملة والحلول التوفيقية المؤقتة وأنصاف الإجابات للقضايا الساخنة، ونجد بوادر ذلك كلما جرى حديث حول الإسلام أو اللائكية أو الثقافة أو مفهوم الديمقراطية.. وهل هناك تجربة ثورية في تاريخ الإنسانية خلت من الصراع والتجاذب بين قوى تريد التوغل بها نحو شطحات اليسار وأخرى تدفع بها نحو غياهب اليمين؟ والتجربة الثورية الأصيلة هي التي تستطيع السير بثبات على متوازي الإيديولوجية وابتكار أكثر الصيغ جدية وجرأة وفعالية.

ولا يعير أصحاب الإجابة الثالثة أي اهتمام خاص بالمسألة الإيديولوجية، فالأفكار المجردة لا جدوى منها إذا لم تتجسد في الواقع الملموس، والدليل على ذلك الأنظمة الكبرى ويدل ذلك على أن هناك حدا أدنى من التعايش «السلمي» بين الأجيال، وهو تعايش يكون هشا ومعرضا للانهيار كلما بعدت الشقة وظهرت بوادر القطيعة بين الأجيال، وقد لاحظت أن كثيرا من آراء ومقترحات الشباب تدور حول هذه النقطة عند مناقشة قضايا السياسة الثقافية والأسرة والتكوين والهجرة والشبيبة وتاريخنا بوجه عام وتاريخ الثورة بوجه خاص، ويشير ذلك الحماس الى حرص الأجيال الصاعدة على انتمائها الوطني والثقافي في أكثر صوره تقدما ومعاصرة وبأصلح ما فيه من التراث العربي ألإسلامي وتنديدها الشديد بحصر الثورة والنفوذ بين أيدي فئات صغيرة تتحول بالتدريج الى قوى ضغط وجذب، وببعض مظاهر النفاق الاجتماعي والاستعلاء على العدالة وتجاوز القوانين ومجموع الانحرافات الاجتماعية التي تستفحل عند غياب المراقبة والجزاء، ومن الخطإ أن نزعم أن هذا التوجه الغالب يشمل كل الشبيبة وخاصة إذا تعلق الأمر بالعصرنة والتراثية، والحدود بين التفتح والاستلاب والدين والسياسة والتعامل مع المنتجات الثقافية محلية كانت أو أجنبية، ومفهوم العدالة الاجتماعية ومداها وحصيلة تطبيقها كما تبدو في الحياة اليومية للعاديين من الناس، هذا فضلا عن الشرائح الصغيرة التي تعيش في أبراج ذهبية ولا تعير أدنى اهتمام لما يدور حولها من أحداث.

القسم الثاني

الثورة الجزائرية: مطلب المواطنة والحرية كفاح شعب وعدالة قضية

1 – الثورة في ذكراها الأربعين، مكاسب النصر ومسؤوليات النخب القيادية.

2 – الدولة والمجتمع: قراءة أولية في أبجدية المفاهيم السياسية.

3 – من وصايا الأمير عبد القادر في عيد النصر (35) ألدّ أعدائكم التخلف والفرقة والخيانة.

4 – مشاهد من الإجرام الكولونيالي وشواهد من صمود شعبنا ومعاناته.

5 – المرأة الجزائرية: مشتلة الثورة وحاضنة الوطنية.

6 – أطفالنا موعد مع التاريخ.. والمستقبل.

7– مؤسسة الزاوية خزّان المقاومة وحصن العقيدة والتراث، زاوية الهامل نموذجا.

الثورة في ذكراها الأربعين
مكاسب النصر ومسؤوليات النخب القيادية

تقتصر هذه المقاربة على توصيف أولي لعناصر من حصيلة الثورة وهي تشعل الشمعة الأربعين لميلادها، في مرحلة من التحولات المتسارعة في الهياكل والتوجهات، عن طريق ما نسميه الاستحضار – الاستشراف – Rétrospéetion prospéction أي تفسير جوانب من الواقع الراهن في ضوء مقدماته التاريخية الاجتماعية، ونخصص جزءا من تلك المقاربة لملاحظات حول دور النخب، فإذا كان الحديث النبوي الشريف يقول بأنه: «كما تكونوا يولّى عليكم» فإنه يبدو لنا أن الشعب الجزائري مبتلي في تاريخه القديم والحديث بنخبه وقياداته.

نورد مجموع تلك الملاحظات على النحو التالي:

أولا: تحولت حرب التحرير بسرعة الى ثورة شعبية ذات أهداف وطنية اجتماعية وتطلعات حضارية إنسانية، ابتكرت تلك الثورة وسائل العمل السياسي وآليات التنظيم عن طريق استقراء نقدي جرىء لما بقي في الذاكرة من تضحيات واخفاقات تكبدها الشعب الجزائري في انتفاضاته المتتالية ما بين (1830 و1916)، وما آل إليه النضال السياسي لمجمل الفصائل المكونة للحركة الوطنية، وفي مقدمتها نجم شمال إفريقيا ثم حزب الشعب، وصورته الثالثة حركة الانتصار (PPA-MTLD) نجح ذلك الحزب الى حد كبير في توحيد النضال السياسي للمجتمع الجزائري، وتمكن من وضع قاموس للغته السياسية يتحدث بها معظم الجزائريين وتدور كلها حول الاستقلال والسيادة والهوية الوطنية، أي خطة عامة لإعادة بناء الدولة الجزائرية ذات السيادة والفاعلة في محيطها العربي الإسلامي.والدولي، وينبغي أن تكون مناهضة للهيمنة الأجنبية.

من الإنصاف أن نضيف الى تلك الخلاصة السياسية المتقدمة بمقاييس الفترة الواقعة ما بين الحربين (1918–1945) وبالمقارنة بالفكر السياسي الشائع في المنطقة المغاربية، من الإنصاف أن نضيف جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائرين التي اتجهت الى نفس الهدف ولكن بوسائل مغايرة تمثلت على الخصوص في تجديد البناء الروحي للشعب وتحريك الصحوة الثقافية وتخليص الإسلام عقيدة وحضارة من التدجين الكولونيالي، وتدخل في هذا السياق صيحة عبد الحميد بن باديس المشهورة «لو طلبت مني فرنسا أن أقول لا إله إلا الله ما قلتها».

ثانيا: كانت النخبة الثورية تراقب عن كثب التقنيات الجديدة لحركة التحرر العالمي وخاصة في فيتنام والريف المغربي وتونس والمشرق العربي، وتطلع على نشاط التنظيمات العمالية في أوروبا وأمريكا اللاتينية.

يمكن القول إذن بأن ثورة نوفمبر 1954 هي إعادة تركيب للفكر الوطني التحرري من مخزون موجود أصلا في تراثنا النضالي بوجه عام وأدبيات الحركة الوطنية بوجه خاص، وليس انطلاقا من العدم نحو المجهول، كما يدعي منظرو الكولونيالية وكما يجادل بعض مريدها الى اليوم، لإثبات أن «الثورة» (وهم يضعون كلمة الثورة بين قوسين) هي حركة أو مغامرة بلا مشروع، ومن الملفت للانتباه أنه بالإضافة الى العملاء المعروفين من ابن لونيس الى الباش أغا بوعلام، فإن اليمين الرديف واليسار الببغائي استمروا في تثبيط الهمم والترويج لمقولة: التمرد على فرنسا مغامرة أو تشويش لصالح هتلر أو عبد الناصر.

وبعد ثلاثة عقود ينقل المؤرخ. بونو (R. Bonnaud) ما سماه انتقام الأعيان في جملة واحدة أسر له بها أحدهم وهي: «لن نترك هؤلاء الرعيان (Bergers) يحكمون الجزائر الى أجل غير محدود.. وينقل المؤرخ أن محدثه بعد أن نوه بفرحات عباس أكد له بأن الجزائر الرسمية جزائر الغد ستنشأ بعد الإطاحة بالوطنية الراديكالية والشعبوية الاشتراكية، إنها جزائر الحداثة والليبرالية»

R. Bnnaud: (L'Algerie Miroire du monde: p. 79, N. ob dossier N° 9 Paris 1992).

ثالثا: ثورة التحرير هي أول توحيد سياسي اجتماعي واسع النطاق للشعب الجزائري ونخبه ومعظمها من القيادات الشابة استخلصت من تجربة الأمير عبد القادر وخلفائه في المقاومة كلمة السر الأولى وهي الوحدة، فقد أضاع الأمير كثيرا من الجهد والوقت في تأديب المنشقين والعملاء واستفادت جيوش الاحتلال من تشتت الجزائريين وتقاتلهم فاطبقت على زمالة الأمير نتيجة الخيانة وضعف الإدراك السياسي لرؤساء قبائل كانوا في الحقيقة ضحايا الغرور والتغرير، وقد حدث نفس الشيء في كل الانتفاضات المتتالية عبر التراب الوطني.

تجميع معظم الشعب الجزائري كان له هدف واحد له أسبقية مطلقة هو الإطاحة بالسلطة الكولونيالية ونظامها الاجرامي، وكما كان الشأن في عهد الأمير ومن جاء بعده من رجال المقاومة، فقد كان لذلك النظام الكولونيالي حلفاء من الخونة المراهنين على الاختلال الفظيع في ميزان القوة، لاشك أن للمراهنة أسبابا أخرى مثل الاستدراج من طرف يعض الأعيان المتواطئين وبقايا العصبيات البدائية، كما أن هناك جماعات من السذج لم تبلغهم الرسالة.. رسالة الحركة الوطنية وأعمى أبصارهم الفقر وأفقدهم الطغيان الكولونيالي كل أمل في الخلاص من مخالب الوحش الكولونيالي الرهيب، حتى أنهم ليشكرون فضله إذا تركهم على قيد الحياة.

نقول سذج، لأن عددا كبيرا من الجزائريين المؤطرين في تنظيمات الحركة الوطنية كانوا على درجة عالية من التسيس تمكنهم بسهولة من التمييز بين خيط النجاة الأبيض الذي طال انتظارهم له وهو الثورة الحاسمة، وبين الخيط الأسود وهو حالة الانسحاق المادي والمعنوي التي فرضتها قوة الاحتلال الغاشم.

إذا جاز أن نعتبر الخطيئة درجات، فان مسؤولية الأعيان أثقل، ووزرهم أعظم، فإذا كان الانتقام المشروع قد مس بالدرجة الأولى أولئك السذج الذين كانوا جزءا من آلة القمع الفرنسية فأن كبار القياد وأعيان المخازنية قد افلتوا وعادوا للتسرب بجلود مزركشة، وفي هذا السياق يؤكد الباحث

والسياسي محمد حربي[1] في دراسة تحمل السؤال التالي: «هل تعرضت الثورة للخيانة»؟ يؤكد ما يلي: «بعد فترة قصيرة من التخفي والكمون عاد أبناء الأعيان من الحركة والمخازنية الى ارتقاء أعلى الدرجات في مصالح الدولة الإدارية والدبلوماسية والمدنية والعسكرية وساهموا في خلق طبقة النمونكلاتورا «التي عاث الكثير من أفرادها فسادا في الجزائر واسسوا نموذجا للعلاقات النفعية لا تعير أدنى اهتمام للإخلاص الوطني والكفاءة»»، وأدخلت في جهاز الدولة ما نسميه نحن المعاملات المخازنية.

رابعا: نجحت الثورة من الناحية المعنوية في تأسيس سلطة توحيدية، أي تجميع للقوى الحية للأمة وليس أحادية بالمعنى الشائع اليوم، إذ أن قبول الخطة والأهداف التي حددها بيان أول نوفمبر كان كافيا للانضمام كعضو فاعل في إطار مشروع الأمة الثوري للتحرير، وبغض النظر على الانتماءات السابقة في هيئات أو أحزاب، مع العلم أن النواة الصلبة للثورة تكونت أساسا من القوى المناهضة للوجود الكولونيالي في الجزائر وليس تلك التي بحثت عن صيغ تكتيكية للتعايش معه أو التقليل من غلوائه، فقد كانت الثورة في مفهوم تلك النواة قطيعة جذرية حقيقية مع هيمنة واستبداد لم يشك الشعب الجزائري لحظة أن يوم الإطاحة به آت لا محالة، إن عاجلا أو آجلا، يؤكد أحد المفكرين الفرنسيين عدة سنوات بعد الثورة «أن الحرب في الجزائر لم تدهش إلا أولئك الذين لم يقبلوا أبدا أن الجزائر كانت منذ البداية وعلى الدوام أرض التمرد: لا للمعتدين[2].

من تلك القوة التوحيدية خرج جيش التحرير الوطني وتتكون الأغلبية الساحقة من أفراده من ريفيين وفقراء مهمشين سحقتهم الغربة في عقر دارهم وأدمى قلوبهم طغيان الاحتلال وما يقوم به من تنكيل يومي برموزهم الحضارية وشرفهم الجماعي، بموازاة تلك القوة المنظمة أو على الأصح من نسيجها التقاضي والاجتماعي نشأت جبهة التحرير الوطني باعتبارها

(1) M. Harbi: La révolution a-t-elle été trabie, op.cit. p: 62.
(2) P. BALTA: 23 siècles de rebellion, op.cit. p. 27.

تنظيما سياسيا يعمل على تغيير الواقع البائس بواسطة التعبئة وتوحيد الصفوف وتصعيد السخط والغضب على الكولونيالية وطوابيرها العميلة وفق مرجعية امتزج فيها الإسلام بالوطنية امتزاج الشمس بضوئها والشجرة بجذورها، يتضمن هذا المزيج إرادة جماعية للتحرر والتقدم وحرصا شديدا على العدالة الاجتماعية ذات الأسس العريقة في المجتمع الجزائري، هذا التركيب (Synthese) المتوازن للمنظور السياسي سماه المناضلون الشباب «النظام»، وهو مصطلح يعني اليقظة والتجنيد الدائم والطاعة شبه العسكرية بموجب حالة الحرب الشاملة أكثر مما يعني المفهوم الكلاسيكي: نظام سياسي Régime Politique .

من المهم التأكيد هنا على أن ذلك المنظور المرتكز على الاستمرارية التاريخية للمجتمع الجزائري في خصوصياته الممتدة في أعماق التاريخ وانتمائه الحضاري العربي الإسلامي لم يستعمل المزايدة على أي عنصر من تلك العناصر ولا التقليل من أحدها أو ضرب بعضها ببعض، فقد كان من السهل استنساخ النظريات المهيمنة في مطلع الخمسينات، مثل الماركسية اللينينية وفروعها الببغائية أو تجميل بعض إيديولوجيات اليمين الاشتراكي أو الليبرالي الشائعة في أوروبا، فقد تبينت الحركة الثورية بحدسها الصائب أن الجزء المقبول من تلك الإيديولوجيات مخصص فقط للتصدير، فإذا تعلق الأمر بالشعوب المقهورة تحولت الى عكسها تماما، كما حدث لشعبنا سنة 1945 عندما أقامت الجماهير الحجة للمرة الألف أو تزيد على دعاة المحاجة والانتظار، وكشفت عن الوجه البشع للامبريالية الدولية التي هي ملة واحدة تطبق حق القوة ولا تعترف بقوة الحق.

خامسا: في غمرة الشك والعدمية ونظرية الفراغ السياسي والتاريخي التي تروج لها تيارات في الداخل وتوعز بها جهات في الخارج لشطب الثورة وتراثها والتمهيد لعودة الطغيان الكولونيالي بقفازات وأقنعة تزيل الطابوات (Tabous) أي تنتهك المقدسات وتحرق روح الجزائر على نار باردة انتقاما من ماضيها الثوري ولاعادتها الى طابور التطبيع المتكون من

عملاء بالأقدمية ترشحهم دوائر النظام الدولي الجديد لمهام «تاريخية» كلما تنازلوا عن حقوق شعوبهم وأمعنوا في قمعها وتفقيرها لحساب رأس المال الدولي وخدمات «الخماسة» الثقافية – السياسية.

الشعب هو مشتلة الثورة:

في غمرة كل ذلك لابد من التذكير بالمكاسب الحاسمة لثورة التحرير بكلمات موجزة.

1 – تحقيق وحدة وطنية ترابية لا يشك فيها أحد من العشرة ملايين من الجزائريين الذين بقوا على قيد الحياة ودفعوا خلال الحرب فلذات أكبادهم وفقدوا كل أو معظم متاعهم البائس في سبيل حق المواطنة والحرية بأوسع معانيها.

2 – دافع أولئك المواطنون البسطاء على وحدة الشعب وترابه الوطني قبل الدولة التي كانت سنة 1962 كيانا في طور إعادة التأسيس على أنقاض الكولونيالية وكلابها المسعورة المتمثلة في الجالية الفرعونية المعروفة باسم الأقدام السوداء، التي قامت بتواطىء مع قوات الاحتلال بتطبيق محكم لسياسة الأرض المحروقة، وقبل الحكومة المؤقتة التي كان عدد من أعضائها مشغولا في تلك الأيام بصراعات على الحكم.

3 – انقذ الشعب –الشعب وحده– بلادنا من حرب أهلية مدمرة بين فصائل كانت في طريقها الى التحول الى ميلشيات جهوية لم يكن من اهتماماتها الأولى مع الأسف وحدة الأمة المثخنة بالجراح وسلامة التراب الوطني، على الرغم من أن الكثير من القيادات كان على علم بما يبيته «المتروبول» وبعض الجيران من نوايا الشر والغدر لاقتسام الغنيمة واستخلاف المعلم (Le Patron) بسرعة كما حدث سنة 63، وكما طالب آخرون بلا حياء بقسم من الجزائر يتجاوز حجمهم المتواضع، ليس هذا بالضرورة رأي الشعوب الشقيقة ولكنه بلا ريب موقف قياداتها الهجينة التي لا تستأسد إلا بتحريش وتحريض من ذلك «الباترون».

4 – اعتزاز شعبي بالانجاز العظيم لثورة التحرير، وإعادة تأسيس الدولة الجزائرية التي وعد بها الأمير وقادة المقاومة في خطاب الاستسلام الذي وجهوه الى الجنرال «لامورسيير» سنة 1947 يقولون فيه: «ستزحف فرنسا الى الأمام ولكنها ستجبر على التقهقر وسوف نعود، هل ترى الموجة التي يثيرها جناح عصفور يحلق أنها الصورة التي يمثلها مروركم بإفريقيا»[1].

ظهر ذلك الاعتزاز في افتخار الشباب في طول البلاد وعرضها بجزائريتهم التي أفتكوها بالأظافر والأسنان بدون أن تقبل ثورتهم أية حضانة إيديولوجية أو تبعية سياسية للقوى العظمى أو المتوسطة، لقد كان معظم أولئك الشباب والكهول في حالة يرثى لها من الفقر والغبن إلا أنهم أحسوا بأن المكسب المعنوي هو انتصار فردي لكل واحد منهم لا يقدر بثمن.

5 – لقد اعتبرت كثير من الشعوب في إفريقيا جنوب الصحراء وعلى امتداد العالم المقهور نضال الشعب الجزائري نموذجا كاملا للاعتماد على النفس والثقة في الشعب والصبر حتى النصر بأسلوب يقرن بين المواقف المبدئية والمرونة البراغماتية والكفاح النظيف من أجل الحرية والكرامة الوطنية.

6 – لابد من التأكيد بأن أكبر صدى أحدثته الثورة الجزائرية كان في المنطقة العربية والإسلامية، فقد أحست تلك الشعوب التي تكالبت عليها القوى الغربية المتعجرفة ومسلسل انقلابات القصور، أن مولودا جديدا وبعيدا عن الشبهات قد ظهر ليبشر بفجر جديد لمجموع الأمة العربية والإسلامية، أما الدولة المعتدية والمهزومة فقد فقدت على الأقل 50٪ من عقدة الاستعلاء والتجبر تجاه من كانت تسميهم الأنديجينا، كل رجالهم «محمد» الخادم أو الخماس، وكل نسائهم «فاطمة» الملحقة بمرافق الخدمات القذرة.

---

(1) نقلها الأستاذ محفوظ قداش في الجزء الأول من كتابه تاريخ الوطنية الجزائرية.

لقد استعاد العرب والمسلمون بثورة الجزائر ما فقدوه منذ زمن طويل.. إنه شيء من العزة وبعض الثقة في النفس.

7 – كان الشعب الجزائري غداة الثورة على درجة عالية من التعبئة والتجنيد لا تقل عما كان عليه أثناء الحرب، بل أن الشباب والشابات الذين لم يسمح سنهم بالاشتراك مباشرة في اقتلاع الكولونيالية كانوا يتلهفون للتطوع بالمجان وعمل أي شيء يفيد الجزائر، ولعل أهم مظهر ينبغي الوقوف عنده هو ذلك التجسيد العاطفي والموضوعي للوحدة الوطنية.

وتذكرنا مشاهد من العناق الحار بين وحدات من جيش التحرير ومناضلين أبعدتهم ضرورات السرية عن بعضهم البعض، مما يثير الدهشة أنه بعد العناق يسأل الواحد منهم الآخر عن اسمه وبلدته، أي أن العلاقة ارتقت الى المستوى العالي للمواطنة وتجاوزت الاعتبارات الاركائكية للعصبية الجهوية والقبلية.. أين نحن الآن مما كنا عليه قبل 40 عاما؟!

8 – كان شعبنا البطل والمنتصر الحقيقي على الكولونيالية على استعداد لمنح ثقته لأية قيادة تحمي وتنمي ذلك الانتصار، تحس بآلامه وتعبر عن طموحاته، لا يسأل عن ملة ولا نحلة من هذا المذهب أو ذلك، أم من هذه الجهة أو تلك، لم يمض سوى وقت قصير حتى تحولت الوحدة الى أحادية تجمع تآلفا يقوده التقنوبيروقراط والمؤلفة قلوبهم، يلبس شاش الجبهة ويتغطى ببرنوس الثورة حسب المناسبات.

9 – وبما أن الرئيس يعني في الهرم المعكوس للسلطة الشخص قبل المؤسسة، فإن الصلاحيات التي يتمتع بها الشخص وما تخلعه عليه الحاشية والإعلام التضليلي تجعله في منزلة بين الآلهة والبشر، وفي غياب مؤسسات ديمقراطية وفعالة فإن الحاشية

والأقارب والأصدقاء يصبحون شبه مؤسسات موازية لتوصيل المعلومات والحكم على الرجال والأفعال.

بينما كانت كل النصوص الثورية والأدبيات التشريعية تشير الى أن الشعب هو مصدر السلطة كانت الممارسة الحقيقية للحكم تتجه الى التركيز على الأشخاص وكأنهم معصومون عن الأخطاء وفوق المؤسسات، فأي رئيس في الجزائر بالأمس واليوم أعظم من مصطفى بن بولعيد وديدوش مراد وبن مهيدي ولطفي وعميروش و.. و.. و.. عشرات آخرين قدموا كل شيء ولم يأخذوا شيئا ولكنهم فازوا بالشهادة والخلود في ذاكرة الشعب.

10 – نتج عن هذه النظرة الخاطئة أنه كلما تغير مسؤول أو انتقل الى الرفيق الأعلى حدثت حالة من الهلع والخوف على مستقبل الجزائر، لقد اختطفت فرنسا عددا من كبار القياديين في الثورة الجزائرية وهي أول ممارسة علنية للاختطاف واحتجاز الرهائن في النصف الثاني من هذا القرن بعد أقل من سنتين من اندلاع الثورة، فبعد الارتباك الأولي والحزن الممزوج بالغضب على الغدر والتجبر التقطت الثورة بسرعة أنفاسها وأثبتت لمن يحتاج الى دليل أن الشعب الجزائري هو الثورة، وهذا بالضبط ما حدث في الولايات الست أثناء حرب التحرير فقد فقدت قياداتها عدة مرات وتمكنت بالاعتماد على الشعب من تصعيد المقاومة ومواصلة المواجهة مع العدو.

بعد أربعين عاما من ذلك اليوم المشهود، ماذا فعلنا برصيد الثورة، أين القيادات من الشعب؟ وأين الشعب من القيادات؟..

كيف يتراجع التضامن الطبيعي وتفسده التحربات والنعرات القصيرة النظر؟ كيف يمجد البعض الكولونيالية ويطلب «العون» من مراكزها الإعلامية وأدواتها الاختراقية على مقربة من مراقد الشهداء وعلى مرأى من أراملهم وأبنائهم وعلى مسمع من شعب لا يدري هل يصدق ما يرى؟ أم لا يرى لكي لا يصدق؟ من أين جاء النبات الخبيث الذي غطى على وردة

الثورة حتى طغت عليها الأشواك؟ هل هي ذلك الغرس المشبوه للكولونيالية؟ أم هي إفراط وتفريط اقترفته قيادات وليدة الثورة، في غياب الرؤية الإجمالية لاستمراريتنا التاريخية وانعدام الاستراتيجية؟ وبكلمات بسيطة، هل أن الانفراط والانكفاء كان نتيجة لفهم جزئي ومتسرع لمعطيات الواقع وتقدير تقريبي لطبيعة القوى الظاهرة والكامنة ونوعية الأخطار المحدقة بشعبنا في الميادين الثقافية والاقتصادية، والتي تركزت منذ البداية على الشبيبة بوجه خاص، لا ينبغي التردد لحظة واحدة في اعتبار شرائح من النخب السياسية والثقافية المدنية والعسكرية مسؤولة عما حدث وضحية له في نفس الوقت، فقد انساق الكثير من القياديين الذين ولدتهم الثورة، ولولاها لما كانوا شيئا يذكر، انساقوا وراء ما تعرضه النموكلاتورا الأولى التي نشأت تحت أقدام الاحتلال وحول مكاتب الخدمة الكولونيالية وإذلال الجزائريين (Bureaux Arabes) بنفس الطريقة التي أشار إليها غرامشي (GRAMCI) في توصيف للثورات التي تقضي على الأمراء ثم يخرج منها أمراء جدد يأكلون الثورة بتضييق دائرتها أولا لتقتصر على جماعات محدودة تضطر للتحالف في مراحل لاحقة مع أعدائها السابقين بشرط أن لا يشككوا في الامتيازات التي تخلعها الفئة الأولى على نفسها ويدور معظم تلك الامتيازات حول أدوات السلطة وفي مقدمتها المال والجاه.

وجدت النبتة الكولونيالية في الإدارة الجزائرية الفتية مواقع كثيرة للسيطرة والتكاثر وإيهام أصحاب الحل والعقد بأن ربح الوقت والتحديث والتقدم تتطلب كلها مواصلة التفكير والعمل وفق تراث الكولونيالية ونموذجها القهري واللاوطني.

لاخفاء تلك السقطة الرهيبة فام تلاميذ مكاتب الشؤون الأهلية المدربون بتحويرات شكلية تحذف العلامات المفضوحة للتسيير والتدبير والمعاملات والتنظيم السابق على 1962 وتعويضه بكلمة الجمهورية الجزائرية الد... الش... ولاشك أن البطر وتقليد الغطرسة الكولونيالية كان يثير سخطهم على الصفتين الآخيرتين (ديمقراطية – شعبية).

لم تتمكن الجزائر بعد انتصار ثورتها من اكتشاف «الحمية» التي هي رأس الدواء. ولذلك سرعان ما تحول «الجهاز الموروث» الى «بيت الداء» أو على الأصح واحد من بؤره الخطيرة.

لا ينفي التوصيف السابق وجود العديد من الجنود المجهولين الذين تكونوا في مدرسة الثورة، وكانوا على قطيعة حقيقية مع النموذج الكولونيالي، ولكنهم سقطوا في الغالب الأعم في بداية الطريق أو حاصرتهم الضغوط والاغراءات المفسدة وتحالفات المخازنية التي أشرنا إليها فيما سبق تحت اسم «الخبرة» في التملق والاغواء.

لقد زينت النفس الأمارة بالسوء لبعض القياديين من النخبة التفريط في أخلاقيات الثورة المستمدة أساسا من قيم الشعب الجزائري، فمالوا بسرعة الى «التبرجز» (Embourgeoisement) ومحاكاة السلوكات الاستعلائية والمستهترة على رؤوس الملإ وهي سلوكات قشرية لا تطور القيم الإيجابية في مجتمعنا ولا تخلق قيما جديدة.

طالما جالت بالذّهن خواطر عن الكيفية التي تعايش عدد من الصحابة الأجلاء رضوان الله عليهم مثل عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب من جهة وعثمان ومعاوية من جهة أخرى، قبل وبعد وفاة خاتم الأنبياء محمد (ﷺ) وحتى بداية الملك والسلطنة، وفي مستوى أدنى مقارنة برسالة الوحي الإلهي، كثيرا ما ارتسمت أمامي علامة استفهام كبيرة عن سر الهزيمة المبكرة لتروتسكي أمام الجهاز الستاليني وانتكاس فكرة الثورة المستمرة، وانهيار المنهج الغيفاري (نسبة لتشي غيفارا) في أمريكا اللاتينية وشعوبها المقهورة الى اليوم تحت قبضة المركب الصناعي المالي العسكري.

وإصرار ماوتسي تونغ في أواخر عمره على شن ثورة ثقافية تهز الجذوع النخرة «للجهاز» في بداية الستينات أي بعد أقل من ربع قرن على ميلاد الصين الحمراء، ولماذا تستهدف القوى الدولية ثورة الجزائر التي لا علاقة لها بالأحمر والأسود وفروعهما الماركسية والليبرالية المشبوهة ولم تحاول أبدا تصدير الثورة لأغراض التوسع والنفوذ؟

تعاون أم تهاون؟

خواطر وتأملات تصل أحيانا الى أجوبة مؤقتة سرعان ما تتحول بدورها الى تساؤلات عن العلاقة بين النخبة والشعب وأهمية القيادة وخصائص رجل الدولة الخ...

واستحضارا لما اعتبره ابن خلدون وكثير من الباحثين في ظواهر الحضارة والعمران بعده، علامة لا تخطيء على بداية الانحلال والترهل في الدولة وانفراط المجتمع.

فبدل الاستمرار في قلع جذور الكولونيالية وتطهير القلوب والعقول من جراثيمها المستوطنة، تحدث البعض في زمن مبكر عن قلب الصفحات والاهتمام بغنيمة الحرب أي تلك السلوكات الطفيلية والقشرية وأدمج الاقتصاد والبحث العلمي وجزء كبير من التأطير الجامعي والإداري بالمجان وبكثير من اللهفة في البالوعة الفرنسية.

- من الناحية الاقتصادية المالية التهمت فرنسا قسطا لا بأس به من مداخيل المحروقات التي بلغت ما بين (1963 و1978) 31.5 مليار دولار بالإضافة الى مديونية تقدر بحوالي 9 مليار دولار، كما استولت على مقدار كبير من مداخيل الفترة ما بين 79-90 (135) مليار دولار بالإضافة الى مديونية تصل الى 26 مليار دولار تحظى فيها باريس بنصيب الثعلب.

- من الناحية الثقافية يجمع كل المعنيين بالدراسات الاستراتيجية على أن فرنسا قد حققت هيمنة كاملة جعلت الجزائر البلد الثاني للفرانكفونية بعد فرنسا نفسها وهو شيء لم يحققه الاحتلال خلال قرن وثلث، وقد دفعت الجزائر تكلفة باهظة لخدمة الفرانكفونية بدل أن تتقاضى مقابلا كما هو الشأن في بلدان أخرى اعتمدت سياسة ثقافية ذكية في ميدان اللغات الأجنبية والمقايضة مقابل التبعية!

لا يمكن اعتبار هذه الوضعية الشاذة غنيمة حرب فالأصح أننا نحن الغنيمة السهلة في مواجهة ربحنا أصعب فصولها أثناء الثورة وخسرنا فصولا أخرى لا تقل صعوبة بعد التحرير بسبب الضعف والغفلة وانعدام

الاستراتيجية فاندفع البعض منا الى الافتخار والتباهي بأملاك الغير والسقوط في فخ الاستقطاب الإيديولوجي إذ لا وجود لثقافة محايدة ولا انفصام بين الثقافة وأداتها للتبليغ.

أصدرت الأسبوعية اليمينية نوفيل ابسرفاتور سنة 92 عددا خاصا عن الجزائر بعد ثلاثة عقود من الاستقلال شارك فيه أربعون من كبار المفكرين والكتاب المختصين في الشؤون الجزائرية مع زملائهم الجزائريين، ومن المثير للانتباه أن عددا من المؤرخين وعلماء الاجتماع والسياسة الفرنسيين أبدوا سرورهم وتفسيراتهم لازدهار العلاقة بين الجزائريين والفرنسة التي أصبحت جزءا من تكوينهم (la francité qui les constitue) بينما ذهب البعض من زملائهم الجزائريين الى أبعد من ذلك وأكدوا عن طريق نصف الحقيقة وعكسها أن الراديكالية والشعبوية هي التي منعت الشعب من الاتحاد مع فرنسا وتجاوز التناقض الشكلي بين أمتين تلتقيان في شخص القديس أوغسطين وحضارة روما [1].

وبالنسبة للتعليم العالي والبحث العلمي فإن فرنسا تنفرد بالقطاع وتسيطر على كثير من مداخله ومخارجه، فعدد الأساتذة من ذلك البلد من المشرفين عن بعد، والمقيمين بلغ في العشرية (82–92) 1034 أي 31.3٪ من مجموع التأطير الأجنبي في الجامعات الجزائرية، ومن بين 841 منحة للتكوين في الخارج توجه الى فرنسا 450 من الطلاب والباحثين أي أكثر من 53٪ من مجموع الطلبة الذين حصلوا على منح للسنة الجامعية (92–93)، وخلال العقد المشار إليه سابقا توجه الى فرنسا 1528 من طلاب الدراسات العليا أي 60٪ من مجموع المنح في مقابل 6٪ نحو كندا (الكيبك) بوجه خاص و2٪ الى أمريكا و1.2٪ الى ألمانيا و0.2٪ الى اليابان و4.8٪ الى مجموع الدول العربية. كما اختصت فرنسا بحصة تساوي 76.9٪ من فترات إعادة التكوين والتدريب في الخارج لـ 2100 من الإطارات في شتى الميادين والتخصصات في الفترة نفسها كما دفعت ميزانية الدولة الجزائرية

(1) A. Koulakssis: Les deçus de la France, op. cit, p: 29.

لسنة 1992 مبلغ 526.825 مليون دينار ذهب منها الى ميزانية التعليم والتكوين في فرنسا 466.44 مليون دينار أي 88.5٪، وتضاعف عدد المهاجرين الى أكثر من أربعة أضعاف ما كان عليه قبل 1962، ويذكر الأستاذ الطيب باللولة أن عدد الجزائريين في فرنسا بلغ في 30 جوان 1963 (328.710) من بينهم 100.000 ممن تقل أعمارهم عن 16 سنة حسب احصائيات البلد المضيف (انظر: T. Belloula: Les Algeriens en France :ENA, Alger 1965 ،p :47)[1]

أما اليوم ففي فرنسا وحدها أكثر من مليون يعيش جزء منهم في ڤيطوات معزولة وعلى مقربة من مناطق القمامة والمزابل.

وفي ميدان البحث العلمي نحن على علم من كاتالوڤات المواضيع المنشورة والتي هي بصدد الاعداد أن نسبة عالية من البحوث موجهة الى الدراسات الإثنوغرافية وما قبل التاريخ ومناطق محددة مثل التكوينات الأثنية في الجنوب والخصائص السكانية للتوارڤ والقبائل والفروق الجهوية بوجه عام.

هل نستغرب بعد كل ذلك أن تحتقر بعض النخب وطنها وتتنكر لماضيه وتيأس من مستقبله، وأن تتحدث بعض الاجتهادات عن الكانتونية على الطريقة اليوغسلافية؟ ينبغي التنبيه الى أن الإشارات السابقة لا تستهدف الدعوة الى العزلة والانطواء فذلك أمر غير ممكن ولو اردناه، ففي زمن تم فيه تدويل الاقتصاد وتمكن النظام الدولي الراهن (وهو الاسم الجديد للامبريالية) من فرض التبعية المتبادلة (Interdependance) والتحكم في أسعار المواد الأولية والسوق النقدية عن طريق مؤسسات بريتن وودز التي تحدد عدد السعرات الحرارية الخاصة بكل شعب، وبعد السياسات العشوائية وغير الوطنية التي انتهجتها معظم بلدان المنطقة وأوصلت الى تبديد الثروة (وبالنسبة لنا نحن تقزيم الثورة أيضا) على ضوء كل ذلك فإن التعاون يعني اليد السفلى، التي تتعرض لا محالة: للابتزاز أو الإذلال.

(1) T. Belloula: Les Algérienes en France, p: 47, ENA, Alger, 1965.

لم تبن سياسة التعاون على منظور صحيح ومتوازن لتبادل المصالح، مما سمح لبلد لم يتخل أبدا عن أحقاده ومطامعه بممارسة سياسة الالحاق والتبعية والانتقام، ليس من اهتمامنا في هذه الملاحظات الأولية فتح هذا الملف الثقيل فعسى أن تقوم مؤسسات في المستقبل بفعل ذلك، وقد دعونا إليه في كتابات ومواقع مختلفة قبل اليوم.

مسؤليات النخبة:

أشرنا فيما سبق الى دور بعض النخب في الالتفاف على القطيعة مع الكولونيالية والاتكال على بقايا المتروبول وسلوكاته الهمجية تجاه شعبنا مما أفقد الثورة نفسها وقلل من حماس الجماهير لمثلها ومكاسبها العظيمة.

ولرفع بعض الالتباسات التي تدور حول هذا المفهوم وخاصة بعد ظهور مصطلحات عن المجتمع المدني، والمجتمع المفيد، والنموكلاتورا و«الغاشي» قد يكون من المفيد أن نساهم بتواضع يقتضيه المقام المخصص لذكرى انتصار الشعب بتوضيحات موجزة حول تطور مفهوم النخبة.

بدأ استعمال كلمة نخبة (Elite) لأول مرة على يد العالم الإيطالي باريتو (V. Pareto) في أوائل هذا القرن ليعني بها أولا الأشخاص الموهوبين Douées في أي مجتمع ثم خصصه بعد ذلك للفئات القيادية التي تمارس السلطة، أو السلطة المضادة أي المعارضة (Contre pouvoir)، وقد قام باحث إيطالي آخر من طراز عالي، ومغمور نسبيا هو خيتانو موسكا (G. Mosca) بتأسيس حقيقي لمفهوم النخبة في كتابه عن مبادىء العلم السياسي élementi di scienza politica سنة 1920 للرد على مجمل النظرية الماركسية التي ترى أن النخبة هي طبقة استولت على السلطة بسبب امتيازاتها المادية المتمثلة في السيطرة على وسائل الإنتاج وبالتالي فإن الماركسية التي تعتبر الطبقات حالة مؤقتة وزائلة لا محالة، ترى في مفهوم النخبة مجرد اختراع بورجوازي لا قيمة له، ففي مجتمع لا طبقي يمكن لأي شخص أن يقوم بمهام القيادة للحياة الجماعية. غير أن (موسكا» الذي يتعاطف الى حد ما مع المدخل الماركسي يرى أن النخبة ببساطة هي

الطبقة الحاكمة والفئات الأخرى المتحالفة معها في أي مرحلة من التطور الاجتماعي والتاريخي، تحالف تحكمه المصالح وليس المنطلقات الإيديولوجية، وعلى هذا الأساس فإن النخبة باعتبارها أقلية قوية لا تحتاج الى الشعب إلا لتمارس تلك القوة بواسطة التنظيم وإعادة التنظيم، والجذب والاقصاء، لكن تلك العمليات تصل الى حالاتها الدنيا (دون أن تزول نهائيا) في حالات الثورة الشعبية والممارسة الديمقراطية داخل النخبة نفسها بسبب الحاجة الى الاعتماد على قاعدة واسعة (الجماهير) تؤدي الى التعددية النخبوية أو ما سماه «آرون» (R. Aron) التنوع النخبوي pluralité d'élites.

أما في العلم الاجتماعي الألماني فإن ماكس ڤيبر (M. Weber) لا يرى للنخبة سوى وظيفة فرض السيطرة (Herrschaft) والعثور على جماعات تقبل الطاعة والانضباط (disziplin)، وبدون هاذين الشرطين لا يكون هناك أي تنظيم له معنى اجتماعي ولا حتى عائلي، وبالتالي فإن النخبة التي تستولي على القيادة تتردد في رأيه بين ثلاثة أنماط هي:

– الشرعية الجذابة الكاريزماتية charismatique.
– الشرعية العقلانية Rationnelle.
– اللاشرعية المقننة Illigitimité légalisée.

ولكن هذا التصنيف مثل كل التبولوجيا(Typologies) التعميمية يتحدث عن المجتمع ونخبه وكأنها خالية من الحراك، وأن أسباب قوة فئة وطرق اكتساب تلك القوة (MACHT) ثابتة الى الأبد وهذه بالضبط هي العقبة التي حاول كارل مانهايم (K. mannheim) تجاوزها في بحثه القيم عن الإيديولوجيا والطوباوية (Ideology and utopy) باعتبار النخب نتاجا للمجتمع وتسمح لها مواقعها بحظوة لا تتوفر للشرائح الأخرى، ولذلك فهي جزء من المجتمع وخارجة عن المجتمع في آن واحد، وتقترب هذه الفكرة من الهرم الأفلاطوني المعروف والذي يوجد في قمته حكماء أو أشخاص ملهمون يسميهم شيخ الفلاسفة بكلمة عسيرة على الترجمة في كل اللغات (OI SOPHISTAI).

غير أن أهم الدراسات العلمية والمتابعات التوصيفية لمفهوم النخبة حدثت في الولايات المتحدة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية والى اليوم، وتحصر معظم تلك الدراسات مفهوم النخبة فيما نسميه في الجزائر الإطارات السامية (Top executives) والطبقة العليا (upper class) غير المغلقة حسب ما تزعمه تلك الأبحاث، لأن الحراك الاجتماعي في بلاد العم سام مفتوح للجميع اعتمادا على مبدإ البناء الذاتي للثروة والشخصية (Self made men).

وفي هذا السياق يتميز «ر. ميلز» (W. Milles) وسوروكين (P. A. Sorokin)، فقد استنتج الأول (ميلز) في بحثه الممتاز عن النخبة والقوة أن أهم أسباب التخلخل في المجتمع الأمريكي هو البطء الشديد في توسيع الانخراط في النخب وأن الشريحة التي يتم منها الانتقاء هي في الأغلب ثابتة، وأن الجزء السياسي منها يسيطر بالرموز والإشارات (Sgns and symbols) أكثر من الكفاءة والاستحقاق[1]. أما الثاني (سوروكين) فقد استخدم مصطلح التغير الاجتماعي (Social change) والحراك (Mobility) لاكتشاف المصدر الحقيقي للنخبة في المجتمعات المصنعة وبعض بلدان الجنوب مثل الهند ومناطق من إفريقيا وأمريكا اللاتينية هذا المصدر هو الطبقة المتوسطة الجديدة (New middle class) من الناجحين في ميدان الأعمال وكبار العسكريين والجامعيين ونجوم الفن والإعلام.. وجميعهم لا يحتاج الى خلفية نضالية في حزب أو جمعية لكي يصعد الى النخبة، بل إن تلك الهيئات هي التي تحتاج إليهم لاكتساب المصداقية أو التأثير على الرأي العام.

وفيما يخص الجزائر فإن تحليل الروسي الأبيض سوروكين - (هرب من الاتحاد السوفياتي والتجأ الى أمريكا بعد الثورة البولشيفية) - للتغير والحراك والطبقة المتوسطة الجديدة وكذلك آراء غرامشي (GRAMCI) في الثورات التي تقضي على الأمراء ثم يخرج منها أمراء جدد يأكلون الثورة بتضييق دائرتها أولا لتقتصر على جماعات محدودة

(1) W. Milles: The power, elite, N.Y. 1956.

نسبيا داخل النخبة نفسها، ثم توسيع تلك الدائرة في مراحل لاحقة لتشمل حلفاء اجتماعيين لا يشككون في الامتياز المطلق للجماعات الأولى. ولعل التنبيه الى «خطورة أكل الثورة» هو أهم إضافة قدمها تروتسكي وتشي غيفارا الى الماركسية في صورتها اللينينية، ذلك التوصيف والتحليل يصدق جزئيا على التجربة الجزائرية في التعاقب النخبوي على السلطة.

وعلى أي حال ينبغي التنبيه في هذا السياق الى أن الثورة الجزائرية لم تلد أمراء فقط، بل إن كثيرا من نخبها بقيت وفية لأصولها الشعبية على المستوى التنظيري والإجرائي:

فعلى المستوى التنظيري نجد أن الصيغ الثلاثة للدستور الجزائري (63—89) تقر صراحة أو ضمنيا بأن الجزائر دولة شعبية وديمقراطية (من حيث الاسم على الأقل) ولا حق لأية شريحة اجتماعية في السيطرة وحدها على مصادر الثروة والجاه والسياسة والثقافة وتنص إحدى المواد التي وردت بصيغ متشابهة في دساتير (1963، 1976، 1989) بأن «وظائف الدولة ليست امتيازا، بل هي تكليف وعلى أعوان الدولة أن يأخذوا بعين الاعتبار مصالح الشعب والمنفعة العامة ليس غير، ولا يمكن بحال من الأحوال أن تصبح ممارسة الوظائف العمومية مصدرا للثراء غير المشروع، ولا وسيلة لخدمة المصالح الخاصة – (ص: 24 من دستور 1976).

إعلان النوايا الدستورية يستمد مصادره من ميثاق الجزائر (1964) والميثاق الوطني (1976) وكذلك صورتهما المعدلة (1985) وكلها تعتبر الشعب هو مصدر السلطة ولا تعطي لأية فئة مما يسمى القوى الحية امتيازات قانونية مثل العمال والفلاحين والمثقفين غير أن النص على أن الجيش الوطني هو «أداة الثورة» سرعان ما يتم توسيعه في فقرة أخرى تنص على أن «العنصر الشعبي عامل حاسم في الدفاع الوطني» والخدمة الوطنية هي «تلبية لمتطلبات الدفاع الوطني وتأمين الترقية الاجتماعية والثقافية لأكبر عدد ممكن».

نقول النوايا الدستورية لأنه على الرغم من كل المآخذ فإن إعلان المبادىء المتضمن في مجمل النصوص الأساسية مستمد من رؤية ثورية وفية بوجه عام لثورة أول نوفمبر 1954 ولا نجد فيها روائح «ثورات» الانقلاب العسكري وتمردات القصور والبلاطات الملكية المعروفة في جهات مختلفة من المنطقة العربية والإفريقية وأجزاء من أمريكا اللاتينية.

أما على المستوى الإجرائي فإن التوزيع الانتحاري لريع المحروقات والإهدار الواسع النطاق للقوة البشرية والاقتصادية والمهزلة الفضيعة في ميدان الفلاحة التي أدت الى تفقير الجزائر في العمق وظهور الأباطرة الطفيليين من أثرياء الحرب في ظل رأسمال الدولة وبتواطؤ منه، كل ذلك يوازيه في الطرف الآخر إنجاز عظيم هو ديمقراطية التعليم أساس كل ترقية اجتماعية، ففي أقل من ربع قرن تكونت مئات الآلاف، بل الملايين من الشبان، أغلبيتهم الساحقة من أبناء الأسر الفقيرة جدا، ولولا هذه الاندفاعة الجبارة لما تجاوز أغلبهم سوراً قليلة من القرآن الكريم في كتاتيب القرى والأحياء الشعبية كما كان الحال في العهد الكولونيالي الإجرامي.

توجد نسبة عالية من خريجي المدارس والمعاهد المنحدرين من أصول شعبية ذاقت عائلاتهم مرارة الفقر قبل 1962 ولا يمكن تصنيفها بعد 1962 فيما يسميه (سوروكين) البرجوازية الجديدة، نقول توجد نسبة عالية من أولئك الرجال والنساء والشبان والأقل شبابا في مراكز مرموقة ضمن النخب الجزائرية.

وعلى الرغم من ضعف وسائل البحث والاستقصاء المسحي (Survey) التي بين أيدينا فإننا نرجح فرضية عامة مؤداها: أن الجزائر هي البلد الوحيد في المنطقة العربية والإفريقية التي لها نسبة عالية من النخب ذوي الأصول الشعبية لا تعترف للأعيان باستحقاقات بموجب الثراء العائلي أو شجرة النسب (باشا، آغا، شيخ قبيلة، ابن المسؤول فلان أو صهر القائد علان...) غير أن هناك انذارات بالانتكاس بعضها متخفي وبعضها ظاهر للعيان، تُعطى للأعيان الجدد امتيازات في مدارس وثانويات ومعاهد بغض النظر عن الاستحقاق وخارج الامتحانات والمسابقات، وقد تزايدت في العقد الأخير.

ويبدو أن من بين أسباب الهجوم على النظام التعليمي في الجزائر والطرح المنحرف لقضية الكم والكيف وخاصة في التعليم العالي هو تصفية هذا المكسب وغلق دائرة النخبة وتضييقها ما أمكن للتحضير لمجتمع الأعيان أو الأشراف بما يشبه التقرير المرير الذي توصل إليه (ميلز) عن الأرستقراطية الجديدة أو ما سماه بالقمة المسيرة للمال والأعمال (Top managers) وهم يتميزون بأن آباءهم من الأثرياء المسيطرين على الشركات ولهم أكثر من يد في السلطة والإدارة، ولابد أن يكونوا من البروتستانت البيض ومن سكان المدن.

هناك طبعا أسباب أخرى تدعو لتحسين أداء المنظومة التعليمية ولكن أكبر عقوق للثورة الجزائرية وتضحيات الشعب هو تعطيل مبدأ ديمقراطية التعليم وتكافؤ الفرص، فلا يمكن أن يكون عجز الأجهزة الإدارية وعشوائية التوقعات ونزوات فئات هامشية تستمد مصادر الحداثة والتقدم من دفاتر الكولونيالية والتقارير القمعية لمكاتب الأنديجينا أن تفرض على مجتمعنا تحضير حلقات الأعيان والباشوات والقياد.

وفي هذا الإطار فأن التوجه السياسي للمدرسة الأساسية وجزأرة الجامعة والحرص على توجهها الوطني في مجالات البحث العلمي والتكوين العالي هي أقرب تعبير (من الناحية السياسية دائما) عن طموح الشعب الجزائري التواق للعدالة الاجتماعية والتقدم الحضاري.

الدولة والمجتمع
قراءة أولية في أبجدية المفاهيم السياسية

إذا كانت العلاقة بين التنظيم الكلي للثورة وبين العدو على درجة كبيرة من الوضوح لأنها كانت علاقة مجابهة بكل الأسلحة وعلى جميع الجبهات عبرت عنها مقولة أساسية في السنة الأولى للثورة وهي النصر أو الاستشهاد، فإن العلاقة بين جيش وجبهة التحرير الوطني لم تكن على نفس الدرجة من الوضوح؛ فمجمل الآراء والتوضيحات و«الشهادات» تبدأ من أحدهما لتصل الى الآخر ثم تعود الى الأول حسب الموقع والتجربة الشخصية والموقع الراهن ولا يوجد لحد الآن تحليل تاريخي اجتماعي سياسي للوظائف والأدوار ونشأة المفاهيم والتوجهات الكبرى وما حدث من إثراء وتعديل من بيان أول نوفمبر مرورا بمؤتمر الصومام واجتماعات المجلس الوطني للثورة (CNRA) الى مؤتمر طرابلس وعلاقة كل ذلك بالتطورات اللاحقة على مدار الثلاثين عاما الماضية.

توجد بلاشك توضيحات من نوع «شاهد» على الثورة، وأخرى تجمع بين الشهادات والتوثيق العلمي، وثالثة من موقع مختلف لباحثين غير جزائريين يمثل مجموع تلك الأدبيات إضاءات من زوايا متعددة لمفاهيم الثورة والدولة والسلطة والمرجعية الإيديولوجية وتصورا عاما لما كانت عليه الثورة وسلطتها المضادة للكولونيالية وما ينبغي أن تكون عليه بعد الانتصار.

من كل تلك القضايا ستقتصر هذه المقاربة المتواضعة على تحليل أولي لبعض المفاهيم وتوضيح التغير الذي حدث فيها أثناء الممارسة بالرجوع دائما لخصائص المجتمع الجزائري وتراث الثورة التحريرية وذلك على النحو التالي:

1 - السلطة والسلطة المضادة.
2 - سلطة المجتمع أم مجتمع السلطة؟
3 - إشكالية التسيّس في المجتمع الجديد.
4 - المعارضة والتوزيع الاجتماعي للسلطة.
5 - الثورة ودولتها الوطنية. التحالف والتآلف.
6 - الشباب والديناصورات.
7 - خلاصة.

أولا: السلطة والسلطة المضادة:

من المعروف أن النظام الثوري (جيش وجبهة التحرير الوطني) قاما طيلة سنوات الحرب بدور السلطة المضادة (Contrepouvoir) وعملا بكل الوسائل لإحداث قطيعة جذرية مع الكولونيالية وزعزعة هيبة الدولة العظيمة ذات الجيوش التي لا تقهر، وقد نجحت السلطة المضادة منذ السنوات الأولى في زرع بذور عصيان مدني واسع النطاق وتسديد ضربات موجعة لما سمي في ذلك الوقت جيش الإمبراطورية العتيد، ولم تتردد أغلبية الشعب في احتضان النظام الجديد وإعطائه شرعية تلقائية، فقد استقر في وجدان الجزائريين جيلا بعد جيل أن «الرومي» أو «القاوري» أو «الفرانسيس» لن يحصل أبدا على وجود شرعي في هذه الديار وأن ما فرضه من استبداد وهيمنة سيسقط لا محالة إن عاجلا أو آجلا.

مثّل موقف القطيعة الجذرية أهم خلاصة وصلت إليها الحركة الوطنية واقتنعت بها في النهاية حتى أطرافها الأقرب الى التصالح والحلول الوسطى مثل حزب المرحوم فرحات عباس (UDMA) (إنظم الى الجبهة في 1956) أو تلك التي كانت تتعامل بمرونة مع التسلط الكولونيالي ولكنها تخلخل جذوره في العمق بغرس وتجديد الانتماء الإسلامي العربي للجزائر والتنديد بمرتزقته في الطرق والزوايا، (جمعية العلماء المسلمين).

إذن كانت هناك سلطتان في الجزائر إحداهما قهرية ولا شرعية، وثانيتهما ثورية تتمتع بشرعية شعبية يسميها الاحتلال تمردا وعصيانا أو تعديا على القانون (Hors-laloi) ولكن أي قانون؟ إنه بكل بساطة القانون الكولونيالي الذي يحمي (984000) أوروبي وينكر وجود ثمانية ملايين ونصف من الأهالي حسب إحصاءات أجرون (C.R. Ageron) لسنة 1954.

هذه هي الملامح العامة لنشأة مفهوم السلطة أثناء مرحلة الكفاح المسلح تحتاج بلا ريب الى تحليل أعمق لآلياتها والطرق التي سارت بها مؤسساتها في الداخل والخارج مثل الولايات الست ومراكز القيادة على الحدود الشرقية والغربية وهيئة الأركان العامة ومجالس الشعب المنتخبة على مستوى القرية والمشتة والحي والتنظيمات المهنية والعمالية والطلابية والرياضية والفنية وفيدرالية الجبهة في المهجر والمجلس الوطني للثورة (CNRA) ولجنته للتنسيق والتنفيذ (CEE) والحكومة المؤقتة للجمهورية الخ...

أمّا بعد الكفاح المسلح فإن السلطة التي وصلت الى الحكم خلال ربع القرن الماضي تميزت بعدة خصائص نذكر منها:

1- التردد بين الشرعية الثورية (وتشخيصها أحيانا) والشرعية الشعبية على الرغم من أنه في الحالة الجزائرية لا تقوم إحداهما بدون الأخرى حسب تقاليد سيسيولوجية (الجماعة) وحتى ممارسات سياسية قبل حرب التحرير وأثناءها حيث كانت هناك مقاييس معترف بها بوجه عام تلزم الجميع بأن يأخذ بعين الاعتبار رأي الناس في المسؤولين كما كانت هناك وسائل لتقييم عملهم ومحاسبتهم بلا هوادة، وبالقدر الذي تسمح به الظروف القاسية للاحتلال والكفاح المسلح، طبعا توجد استثناءات معزولة، وتصرفات لم ترق الى هذا المستوى، ولكنها لا تلغي القاعدة العامة التي أقرّها بيان أول نوفمبر 1954 وهي: «أنتم الذين ستصدرون حكمكم علينا نعني الشعب بصفة عامة والمناضلين بصفة خاصة...».

هذه الكلمات لم تحتفظ بوزنها الثوري ودلالاتها السياسية عند كثير من الجماعات التي تعاقبت على السلطة بعد 1962.

يظهر التردد بين الشرعيتين (الثورية والشعبية) في التناقض الواضح بين الأهمية القصوى التي تعطيها كل النصوص والأدبيات القانونية والتشريعية والحزبية للشعب باعتباره مصدر السلطة ولا مصدر غيره. وبين الممارسة الميدانية للحكم واختلاطه التشخيصي بالقيادة (أو الرئاسة) وكأن الشخص نفسه معصوم عن الأخطاء وحي لا يموت، كما توهم أوائل الصحابة بأن موت الرسول الأعظم محمد (ﷺ) هو النهاية. فأرجعهم أبو بكر الصّديق الى رشدهم بمقولته المشهورة من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت.

لقد زينت الحاشية الضّالة لبعضهم أن السلطة هي اسماؤهم وأن اسماؤهم هي السلطة فأخذ منهم الغرور كل مأخذ وكفروا بالنعمة، نعمة الثورة وتضحيات الشعب!

ثانيا: سلطة المجتمع أو مجتمع السلطة؟

لم يكن لهذا التحول في مفهوم السلطة أن ينشأ أو يستمر لولا التفريغ والشطب التدريجي للمدلول الاجتماعي للثورة وزحزحة الشعب (إلا في المهرجان ومناسبات التأييد) عن موقعه الطبيعي في ثورة تشرف عليها المؤسسات وليس الأشخاص والتحالفات المصلحية. وهكذا بدأت معالم الطريق تضيع وسط إشكاليات مصطنعة كانت قد وجدت طريقها الى الحل أثناء حرب التحرير.

1 – الثقافة الجزائرية العريقة في منابعها الشعبية وجذورها العربية الإسلامية كانت أثناء الثورة إحدى الجبهات الرئيسية للثورة، أخذت تتقهقر الى الصفوف الخلفية في مشاكسات عميقة عن اللغة أو اللغات الرسمية وغير الرسمية، عن التراث المشترك أي تراث؟ ومشترك بين من ومن؟ عن العالمية والحداثة وما بينهما؟.

2 – المرأة قلب الأسرة الجزائرية وعماد الاقتصاد الريفي والشريك مع الرجل في كفاح التحرر من التدجين الكولونيالي عادت برفقة الرجل أبا وأخا وزوجا وزميلا موضوعا للمزايدات، عادت نحو الهاوية تحت شعارات مضللة عن الحقوق والمباح والممنوع والحرام والحلال وكأن ترقية المرأة (Emancipation) حدثت في أي مجتمع في العالم بمعزل عن المجموعة الوطنية المتكونة من نساء ورجال ينتجون تلك الترقية المعنوية والمادية، وهكذا نجحت البرجوازية الجديدة بالتحالف مع تجار التدين في قطع الصلة بالمرأة الثورية التي تحرر نفسها بترقية محيطها والنضال خارج الصالونات المخملية.

3 – بدأ المدلول الاجتماعي للثورة والسلطة يزداد غموضا ويخف وزنه وجاذبيته نتيجة انتهاك أخلاقيات الثورة وهي ليست مثلما يزعم البعض نوعا من اليوتوبيا أو الدعاية اللفظية. إنها بلا ريب مستمدة من تقاليد شعبنا وسلوكاته التي تجمع بين البساطة والحسّ السليم من جهة وبين الصلابة والأنفة من جهة أخرى.

تمّ انتهاك تلك الأخلاقيات في مختلف المستويات وأصبحت الإدارة وهي الوجه الأقرب للجماهير رمزا للممارسات المتعجرفة والمتعالية عن المواطن تتفنن في إهانته والتقليل من شأنه وحرمانه حتى من الشكوى والاحتجاج.

وبعد أن علّمت الثورة رجالها ونساءها ما معنى الأمانة والتواضع والخدمة العامة (في ذلك الوقت كانت تقريبا بلا مقابل مادي) شاع بين الناس أن الدّولة لا تنصف مظلوما ولا تعاقب ظالما وأن الحل هو الرشوة والحمل على الاكتاف (Piston) والخداع والغش، وأما النجاح فهو في متناول أهل «الهف» و«القفازة» وكل الذين يجمعون الثروات الطائلة بالتحايل، وبأسرع وقت، وبدون مجهود.

4 – تلقت هيبة الدولة ومصداقية رجالها ضربة أشد من الأولى تمثلت في المبالغة في إظهار البذخ والزينة بعد أقل من عشرية واحدة من انهيار الغطرسة الفرعونية لجبابرة مثل جاك شوفالييه (J. Chevalier) وجورج

بلاشيت (G. Blachette) ولاكوست وسوستيل... بينما استمر نفس أولئك الناس يدعون شعبهم الى فضائل التقشف وشد الحزام ويزعمون بلا حياء أن الدولة ليست بقرة تقدم الحليب بالمجان، لم يكن ذلك البذخ والاستهتار ليخفي على أعين الشعب فتناقلت الألسن حكايات فيها الحقيقة وفيها الخيال عن الاستهتار بأملاك الدولة والعبث بمقدرات الأمة والتشبه بالبارونات والباشوات في عصر المماليك والمافيا في الغرب الأمريكي.

بالتأكيد أن هذه الصورة لا تنطبق على الجميع فهناك من تمسكوا بالسلوك الطبيعي للثورة وأخلاقيات شعبنا التي تنفر تلقائيا من الإهدار والإسراف والتبذير «إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين» ولكن الصورة العامة كانت كافية لتوجيه أصابع الاتهام والشك إلى جميع رموز الدولة.

ثالثا: إشكالية التسييس في المجتمع الجديد

نجحت الحركة الوطنية في نشر تسييس (Politisation) جماهيري واسع النطاق، وظفته الثورة التحريرية واستخدمته في تكوين المناضلين وإطلاعهم على أهم القضايا الدولية وانعكاساتها على مجريات الأحداث في الجزائر، أي أنه بدأت في ذلك الوقت المبكر وفي ظروف الضغط والسرية نظرة صحيحة لإشراك المواطن في الشؤون السياسية الداخلية والخارجية والاتجاه الى أخذ رأيه أو على الأقل الاستماع الى ما يقوله والإجابة عن تساؤلاته، ومن أسباب هذا التوجه الإيجابي أن الثورة كانت في حاجة الى الشعب وأن الشعب هو الذي ولد الثورة.

استمر ذلك التسييس ولكنه كان في أغلب الأحيان في اتجاه واحد أي من فوق الى أسفل، وإذا استثنينا المسائل المتعلقة بالسيادة الوطنية وبعض قضايا السياسة الخارجية المتعلقة بها، فإن المفاهيم المتداولة لم تكن على درجة كافية من الوضوح فأغلبها ينتهي بكلمة و«لكن» مثل الاشتراكية ولكن.. الإسلام ولكن.. التقدمية ولكن.. اللغة الوطنية ولكن.. الشعب ولكن.. الديمقراطية ولكن.. الخ...

بدأت تلك الإشكالات السياسية الإيديولوجية تأخذ طريقها الى الأذهان بوضوح أثناء حرب التحرير في صورة الوطنية المتطورة بحيث أن كلمة «الجزائر» تعني في آن واحد الإسلام بتراثه الأكثر إيجابية وتعني كذلك العدالة بمعنييها وهما عدم الاستعلاء على الضعيف، بل التضامن معه وتأييد حقه في الحياة الكريمة أولا واحترام القانون وتطبيقه على الجميع ثانيا، والثقافة الوطنية تجمع تراثنا الوطني وهويتنا الحضارية بأبعادها التاريخية والتحررية.

حقا لم تكن فلسفة المفاهيم من الاهتمامات الأولى للثورة لأن ذلك سيؤدي الى وضع الحصان أمام العربة، ولكن مجال انتشار تلك المفاهيم كان واضح المعالم لدى الشعب والأغلبية من نخبه، فلم تتميز أية فئة بوطنيتها الخاصة واشتراكيتها الخاصة وإسلامها الخاص وأمازيغيتها الخاصة لأن الثورة كانت تجميعا لكل العناصر الإيجابية التي تكوّن مفهوم الوطنية وفي نفس الوقت مثلت طموحاتها لتحقيق نقلة حضارية من داخل المجتمع وليس بالاستيراد إنها البيداغوجية الحقيقية للتحرر والتغيير.

رابعا: المعارضة والتوزيع الاجتماعي للسلطة

لم تنج بلادنا على الرغم من ثورتها العظيمة من ظاهرة أصابت أغلب بلدان العالم الثالث وهي قمع المعارضة وإجبارها على العمل من الخارج.

وعلى الرغم من أن الثورة كانت منذ أيامها الأولى سلطة معارضة فإن الحكم فيما بعد اتصف بوحدانية في الظاهر لا تقبل الرأي المخالف وتجعله أقرب الى التآمر والخيانة.

ويبدو لنا بنظرة تراجعية أن عمل المعارضة من الداخل كان من المحتمل جدا أن يفيد الثورة والجزائر والسلطة نفسها، لأن بعض المواقف والآراء كانت موجودة أساسا قبل 1962 وأن أغلب (وربما كل) الفصائل المعارضة تشترك مع السلطة في منطلق واحد هو الوطنية. واليوم لا يصدّق أحد أن كل القياديين في المعارضات من 1962 الى اليوم هم عملاء لقوات أجنبية تحاول أن تندس في الصفوف لتخريب الجزائر.

نقول إن السلطة كانت وحدانية في الظاهر لأنها في الواقع سلطة مكونة من قوى متآلفة أو متحالفة Coalisées لم يتخلّ أي منها عن مواقفه الخلفية وارتباطاته، ويرتكز ذلك التحالف على نقطة حصل فيها إجماع نهائي هي الاحتفاظ بالسلطة وعند الضرورة إعادة تشكيل التآلف لأنه كما يقال في المثل الشعبي «تبديل السروج فيه راحة» وفي هذا السياق ينبغي أن نلاحظ أن أطول فترة «استقرار» عرفتها الجزائر في مستوى الإطارات السياسية وحتى التكنوبيروقراطية هو ما بين (1965 و1976)، وأن أقصر الفترات كانت ما بين (1988 و1992)، وفي كلتا الحالتين عمل التآلف والتحالف على تكوين الجماعات المترابطة على المستوى الوطني وللإنصاف فأن الترابط لم يكن دائما على أساس العشائرية والمصلحة الأنانية، بل كانت له أسباب أخرى مثل التقارب الثقافي والفكري والسياسي والعمل في سلك واحد الخ...

خامسا: الثورة ودولتها الوطنية: التحالف والتآلف.

نعتقد أن أعظم ثمار الثورة هو ميلاد الدولة الوطنية، هو أعظم إنجاز لأن الجزائر هي البلد الوحيد مع فلسطين التي وصلت في نهاية القرن الماضي الى حالة تشبه ما آلت إليه حالة الهنود الحمر في أمريكا، وذلك حسب خطة إجرامية لعزل السكان أولا وتجريدهم من مصادر رزقهم الشحيحة ثانيا ليموتوا في صمت، فإذا احتجوا وتمردوا وذلك ما تنتظره قوات الإبادة العرقية جاءت المرحلة الثالثة وهي الإبادة السريعة، لأن فرنسا كانت تحتاج الأرض وليس العرب والمسلمين كما كانت تسميهم في السنوات الأولى للاحتلال وهذا ما تعنيه شعارات مثل «الجزائر فرنسية».

وفي هذا السياق تشير الاحصائيات الديموغرافية الى أن التطور العددي للسكان من «الأهالي» كان على النحو التالي (فاتان ولوكا):

1861 : (2733000) مليونان وسبعمائة وثلاثة وثلاثون ألف نسمة.

1891 : (3577000) أي بزيادة أكثر من مليون نسمة.

1921 : (4923000) بزيادة مليون وثلاثمائة وستة وأربعين ألف نسمة.

وعلى وجه العموم فأن الزيادة كانت تدور حول نسبة 14٪ أما الأوروبيون في الجزائر فأن تزايدهم كان على النحو التالي:

1847 : 109000.

1872 : 272000.

1896 : 578000.

1921 : 829000.

ونلاحظ في هذه التواريخ أن هناك تزامنا بين القمع الكولونيالي وبين موجات الاستيطان، وأن التزايد كان دائما يتجاوز الضعف، وفي انتظار نتائج الإبادة بوسائلها المختلفة فإن الكولون كانوا في حاجة الى الخدم والعبيد.

وعلى هذا الأساس فإن المسألة الديموغرافية لم تكن من الناحية التاريخية والسياسية مسألة عددية بحتة فكلمة (نقوي جيش المسلمين) تعني الكثير في مجتمع كان أمامه حتميتان وليس خياران، الحتمية الأولى هي مواجهة الفناء الماثل في الأفق القريب أو الصمود ولو بالتكاثر (Accroissement) وهي الحتمية الثانية التي إلتجأ إليها وهذا هو نفس الوضع في الأراضي الفلسطينية المحتلة، وقد يكون من بين الحلول وأساليب المواجهة ضد التصفية العرقية في البوسنة والهرسك.

نقول إن الدولة الجزائرية هي أعظم إنجازات الثورة بلا منازع ولكن هذا الإنجاز تعرض الى نوعين من التهديد:

التهديد الأول: أشرنا الى بعض جوانبه عند الحديث عن صورة المؤسسات الوطنية ونضيف الى ذلك أمرا آخر لا يقل خطورة هو استيلاء السلطة على الدولة أو على الأصح تشخيص الدولة التي هي هياكل ومؤسسات ومجتمع تشخيصها في السلطة التنفيذية. وهذه السلطة مهما كانت حالتها التمثيلية ليست كل الدولة، ولا الدولة دائما وأبدا، فقد تتغير تلك السلطة أو تفشل في بعض المهام وتنجح في أخرى فلا يؤدي فشلها الى الهجوم على الدولة نفسها واسقاطها، بل الذي يذهب هو تلك السلطة فقط.

كما أن النجاح الحقيقي أو الوهمي لا يعتبر رخصة لشخص أو هيئة تنفيذية لوضع الدولة كلها تحت وصايتها الانفرادية.

التهديد الثاني: ويتمثل في العلاقة المعكوسة بين الدولة والمجتمع، فبدل أن تكون الدولة الوطنية منتوج المجتمع وأكبر الهياكل تمثيلا له، أصبحت الدولة تبث صورة عن المجتمع وتحاول إنتاجها بشكل اصطناعي بعيدا عن الحقائق اليومية لأكثر من ثلثي الأمة.

وعلى الرغم من التوسيع النسبي لقاعدة الدولة والسلطة بإشراك نخب جديدة من 1977 فإن المسافة بين السلطة والدولة من جهة وشرائح كبيرة من الشعب من جهة أخرى ازدادت بعدا، لأن العملية لم تؤسس على قاعدة اجتماعية سياسية للدولة، فلم يعد رفع شعار الوطنية ووصف الهياكل والمؤسسات بالوطنية مقنعا لجماهير لا تجد سبيلا لممارسة الوطنية والإحساس بأن السلطة هي تمثيل حقيقي لها، ولم تنجح الحملات المتكررة ضد الفساد والرشوة والعصيان واللامبالاة والعشائرية في تغيير ذلك الإحساس العام، ولعل البعض يتذكر سيارات الشرطة التي كانت تجوب شوارع العاصمة في الساعات الأولى من الصباح وتأخذ الجالسين في المقاهي والأماكن العامة الأخرى للبحث عن المتغيبين عن أماكن الشغل وتوبيخهم على تخلّيهم عن واجباتهم المهنية تجاه المواطنين ولكن تلك السلطات لم تجد وسيلة أخرى لعلاج المعضلة الحقيقية وهي انخفاض الحس المدني والتردي الكبير الذي وصلت إليه العلاقة بما يسمى بالعامية (البايلك) أي الدولة: ممتلكاتها وقوانينها وهياكلها ورموزها الأخرى.

ساد الاعتقاد في أدبياتنا بأن التقسيم الثلاثي للسلطة (تشريعية، تنفيذية، قضائية) كما وضعه مونتسكيو هو الصورة الكاملة للديمقراطية، ولكن هذا التقسيم الكلاسيكي هو في الحقيقة تنظيمي ومؤسساتي (Constitutionelle) وليس سوسيولوجي على الإطلاق، ففي كل الأنظمة التي اعتمدته يلقى السياسي بظلّة على المؤسسات الثلاثة وينجح أحيانا في تسخيرها لخدمة السلطة، والدولة كما تراها السلطة.

ولمراقبة ذلك الظل لابد من وجود معارضة تخفف من ضغط السلطة على الدولة وتقوم بدور الحراسة، وهذا بالتأكيد أمر محرج للمعارضة نفسها عندما تصل الى السلطة، ومزعج للحكومة أثناء توليها مقاليد الأمور، ولهذا السبب فإن التقيد بالممارسة الديمقراطية يظهر في المكانة التي تحتلها الهيئة التشريعية في مؤسسات الدولة، وفي الأخلاقيات التي تتميز بها السلطة القضائية فلا معنى لدولة القانون خارج القضاء، وهو في الحقيقة هيئة ليست تحت المؤسسات الأخرى ولا فوقها وإنما هي موازية لها ومستقلة عنها من الناحية النظرية ولكن في الواقع العملي فإن الاستقلالية هي مسألة نسبية جدا، ولذلك يحتاج المواطن متهما أو متهوما، ظالما أو مظلوما الى دفاع يتكفل به جهاز آخر يتكون من المحاماة والصحافة والجمعيات والرابطات المختلفة.

وهذا بالضبط ما نعنيه عند التأكيد على أهمية التمثيل الاجتماعي للدولة واعتبار السلطة التنفيذية وجها من وجوهها الكثيرة. ولابد من التنبيه الى أن أشكال السلطة المتواجدة في الهيئات الثلاث السالفة الذكر ليست كتلة صمّاء وأحادية الفكر، والتوجه في الجزائر بالذات، فعلى العكس مما تروّج له بعض التعليقات السياسية المبسّطة عن الحزب الواحد، والتفكير الأحادي والشمولية الاستبدادية (Totalitarisme)، فإن هناك تنوعا كبيرا يجعل بلادنا في نقطة ما من الخريطة العالمية لأنظمة الحكم، فلا هي تستوفي شروط النظام الديمقراطي وسمته الغالبة (الليبرالية والتعددية) ولا هي نظام فاشي تفرض تحت زعامة تتدعي العبقرية وتنظيم شبه عسكري للمجتمع يقوم على الضبط والقمع Discipline-Répresion ولا هي عسكرتيارية كما هو الشأن في جمهوريات الموز التي تقتصر فيها السلطة على الثكنات والعصابات الموالية لها.

ليست السلطة عندنا كتلة صمّاء لأن في داخلها مراكز متعددة لتحضير التوجه والقرار وصياغته ومتابعته وتنفيذه، وتستطيع واحدة من الحلقات أو عدة حلقات تعديل القرار أو تأجيل تنفيذه أو إلغاءه، وفي حالات

معروفة تنويمه أو تحريف غاياته (الثورة الزراعية - قانون تعميم اللغة الوطنية - السكن الاجتماعي - المنح للتكوين في الخارج المستعملة لأغراض السياحة والترفيه، التمثيل في الخارج وما يتعرض له من ضغط اللوبيات الخ...).

وبوجه عام يمكن القول بأن القوى المؤثرة داخل السلطة التآلفية هي:

1 - القوة المالية (وليس الاقتصادية) وتتكون من البرجوازية الجديدة ومن أغنياء الحرب والمضاربة وهي تنتمي اسما فقط للبرجوازية لأن قيمها وسلوكاتها استهلاكية محضة وتأثيرها على محيطها الاجتماعي والثقافي ضعيف جدا. أما مواقفها السياسية فأهم ما ظهر منها هو التحمس للانفتاح والليبرالية المتوحشة والتنديد (بالغاشي) والتحايل للاستيلاء في هدوء وبسرعة على ما بقي من «البايلك».

2 - القوة الإدارية وتسمى اصطلاحا الجهاز (Appareil) وهي تستمد قوتها من الأهمية المرحلية التي أعطيت لها بعد 1965 فيما سمي في ذلك الوقت اجتماعات أو ملتقيات إطارات الدولة كما ساعد الخطاب السياسي في تلك الظروف على الإيحاء بأن الإطارات هم نوع من التمثيل الاجتماعي السياسي للأمة كلها، ولكي يؤدوا مهامهم على الوجه الأكمل لابد أن يحصلوا على امتيازات مشروعة، وبالتالي فإن مرتبة إطار تخلع على صاحبها حظوة لا علاقة لها بالكفاءة وجودة الآداء، ولذلك تداركت السلطة آنذاك هذه الثغرة وعدلت المفهوم بإضافة شعار ثلاثي هو الكفاءة والنزاهة والالتزام الأخلاقي والوطني، وللسلطة طبعا.

ولكن الإدارة ليست الإطارات فقط، بل هي الجهاز كله، فأصغر موظف في البلدية أو البريد أو الولاية أو قباضات الكهرباء والضرائب الخ... يعامل المواطن من موقع السلطة وليس من موقع الخدمة العامة.

3 - قوة النخبة (Elite) وتتكون من التكنوقراط.في مختلف المجالات من الذين يشرفون عمليا على تسيير شؤون الدولة ومرافقها الصغيرة والكبيرة من خبراء وتقنيين ومديرين ونوابهم وموظفين كبار في دواوين

الوزارات والإدارات والشركات على المستوى الوطني والجهوي والمحلي، وقد اتسعت مسؤوليات بعضهم (المدير العام، الرئيس المدير العام) الى ما يساوي جهاز دولة بأكملها في بعض بلدان إفريقيا مثل سوناتراك وإس. إن. إس (SNS) ود.ن.س (DNC) الخ... ويصل نفوذ بعض الرؤساء المديرين الى ما يشبه نفوذ زملائهم في الولايات المتحدة في شركات ماك دوغلاس وبوينغ وجنرال داينمكس... ومن الناحية الاجتماعية لم يكن أغلبهم في حاجة لمن يخلع عليهم المكافآت والامتيازات وينبغي أن نستثني من النخبة شقّها المتخصص في التكوين في المعاهد والجامعات وأغلبية المثقفين كتابا وشعراء وفنانين وصحافيين وعاملين في مراكز البحث.. الذين عاشوا ومازالوا يعيشون تحت السلطة المباشرة للقوتين الثانية والثالثة. ويحدث أن «يصعد» بعضهم الى الإدارة أو يحصل على مقعد في نادي التكنوقراط وعندئذ يفرض عليه «الجوّ» أن يتبنّى نفس العقلية والسلوكات السائدة في محيطه الجديد.

سادسا: الشباب والديناصورات

ولابد من الإشارة هنا الى أن القوتين الآخريتين تتكونان من أغلبية من الشباب طيلة الثلاثين سنة الماضية، وفي العشر سنوات الأولى بعد 1962 تولى مراكز حساسة وقيادية رجال لا يتجاوز سنّهم الثلاثين من المدنيين والعسكريين وحتى خلال الثمانينات، فإن موجات القفز على الكرسي وما يعرف بالحركة الموسمية للنقل والتغيير بواسطة الكمبيوتر جعلت أغلب الإطارات العليا والمتوسطة تتجمّع في هضبة العمر (Plateau d'âge) الأقل من خمسين سنة ممن تكونوا داخل البلاد وخارجها بعد الثورة، وخاصة في فترة الستينات وما بعدها.

أما الديناصورات أو ما يسمى البارون والكاسيك (Cacique) (رؤساء القبائل الهندية بالمعنى الأصلي للكلمة) فأن نسبتهم ضئيلة في مجموع الأجهزة التنفيذية المباشرة حقيقة للسلطة، فقد أدت صراعات في القمة

الى إزاحة تدريجية لعدد كبير ممن تجاوزوا الثلاثين من العمر في 1962 وبعضهم يوجد على حدود الفئة الأولى من رجال المال والأعمال، وتقدر بعض الأرقام التي لم يتم نفيها ولا إثباتها رسميا لحد الآن، أن التصفيات المتوالية أسفرت عن تجميد ما يزيد عن 60 ألف (60000) من الإطارات العليا والمتوسطة في مختلف قطاعات الدولة دون سنّ التقاعد.

إن الاعتماد على السنّ لتحليل طبيعة السلطة وفهم آلياتها لا يقدّم من الناحية الاجتماعية السياسية تفسيرات صحيحة للوظائف والأدوار، لأن السن عامل مساعد وليس كاشفا لدرجة الاقتران Corrélation بين توجهات أي نظام، والأشخاص القائمين عليه، إلا في المجتمعات البدائية التي يقوم تنظيمها على توزيع الصلاحيات على أساس هذا المقياس وحده مثلما هو الشأن بين قبائل الدنكا والبوشمان في جنوب السودان، والميلانيزيين والأباش، في أستراليا وشمال أمريكا، وقد قدم الباحث الانكليزي رادكليف براون (Radecliffe Brown) توصيفا مفصّلا ودقيقا لمجتمع طبقات العمر في بحث بعنوان: الوظيفة والبناء في المجتمع البدائي (Structure and function in primitive society 1952).

وإذا اعتبرنا أن نسبة 75٪ من المجتمع الجزائري تتكون من الشباب الذين تقل أعمارهم عن ثلاثين عاما فإن ذلك يعني أن من كانت أعمارهم في حدود 30—40 سنة في بداية الستينات يمثلون شريحة العمر الباقية أي 25٪ من السكان، وأعمارهم بلاشك تتجاوز اليوم الستين سنة وأغلبهم إما في حالة تقاعد إداري أو أحيل على الإيداع بسبب تغيير الحكومات وما يتبعه من حملات النقل والتبديل في الجهاز الوسيط (الدواوين الوزارية والولائية والشركات، وتصل أحيانا الى مستوى المتصرف الإداري (Administrateur).

يبدو لنا إذن أن سيولة السلطة أي تغيير إطارها البشري في الثلاثين عاما الماضية قد خرجت تماما عن عامل السنّ، وباستثناء حالات شاذة في قطاعات محدودة في الجيش والجهاز الدبلوماسي والإداري فإن التركيبة البشرية للسلطة هي على وجه العموم تتكون من الجيل الذي كان عمره في نهاية حرب التحرير أقل من عشرين سنة. بذلك تكون الجزائر واحدة

من البلدان القليلة التي يتولى فيها أشخاص يقل سنهم عن الأربعين مسؤوليات وطنية لأسباب أشرنا الى بعضها فيما سبق.

وفي غياب طبقة وسطى عريضة ومستقرة وقديمة العهد، فإن إقحام قضية العمر في الدعوة للقطيعة والتجديد والحداثة إنما هو مغالطة في خطاب سياسي - ثقافي ليس له بدائل فضلا عن مشروع اجتماعي يتجاوب مع طموحات الشرائح التي يتكلم بالنيابة عنها.

سابعا: خلاصة

يبدو في نهاية المطاف أنه لتجديد بناء الدولة الجزائرية فإن النموذج لا يوجد خارج الحدود. لأن الاقتباس من االتجارب المتقدمة والأقل تقدما لن يفيد شيئا إذا لم يرجع الساسة والمفكرون أولا الى منابع ثورة التحرير التي انبثقت من كيان المجتمع كله، وكانت صورة صادقة لتركيبته الحقيقية في الأرياف والمدن وفي المهجر، ولم تمنعها ضرورات الاكتشاف اليومي للحلول الصحيحة لمعضلات تستوجب الاجتهاد، والخطأ والصواب، لم يمنعها كل ذلك من التقيد بأخلاقيات وتقاليد الشعب الجزائري.

إن السلطة الديمقراطية هي السلطة المستمدة من الشعب، وفي خدمة المجتمع كله، وليست تلك التي تنزل عليه من فوق، وتنادي من وراء القلاع: أين الشعب(!).

من وصايا الأمير عبد القادر في عيد النصر « 35 »
ألدّ أعدائكم التخلف والفرقة والخيانة

اقترن الاحتفاء بعيد النصر هذه السنة بعقد ندوة حول مآثر الأمير عبد القادر، ودوره في قيادة المقاومة الشعبية ضد العدوان الفرنسي الغادر على بلادنا، وذلك استنادا الى مصنفات الأمير المتنوعة، وما كتبه آخرون من معاصرين ولاحقين، أعداء مغرضين، أو نزهاء منصفين، عن المقاومة الوطنية بوجه عام، وشخصية الأمير بوجه خاص.

من الواضح أنه من الصعب الإلمام بمختلف جوانب المقاومة الوطنية، وأشكالها المنظمة والتلقائية في بداياتها الأولى بمحاذاة الشاطىء وامتداده في سهول المتيجة ما بين سيدي فرج ومداخل القصبة وأعالي العاصمة، فلا تكفي ندوة واحدة وأيام معدودات للتعرف على أساليب التعبئة الشعبية والرد الفوري على الغزو الوحشي لبلادنا، فنحن في حاجة الى جهود علمية منظمة ومتواصلة لتصحيح كثير من المغالطات المدسوسة عن الفترة ما بين (1830 و1832)، والتنقيب عن وقائع المقاومة الوطنية التي دامت حوالي قرن، وتطهيرها عن طريق البحث والتوثيق من الدس والتشويه.

لا تنقص الملاحظة السابقة من أهمية المساهمات التي قدمها باحثون من مختلف الجامعات الجزائرية، ومن خارجها في مجال اختصاصاتهم المتصلة بالعلوم الاجتماعية والآداب، ولا يقلل أيضا من الجهود التي بذلتها ولاية معسكر، ومؤسسة الأمير، وهيئات البحث والتوثيق التابعة لوزارة المجاهدين ومنظمتهم الوطنية، فقد سمحت الندوة بأخذ لقطات سريعة عن شخصية الأمير، وتوجيه الاهتمام الى السياق الاجتماعي الثقافي السياسي السائد في بداية القرن الماضي، وبعض خصائص وعلاقاتها بالمحيط الجهوي والدولي.

نقدم هذه السطور تعقيبا قبيل الاختتام، ويقتصر على قضايا عامة وأخرى منهجية، نعرضها في صورة ملاحظات، وذلك على النحو التالي:

1- بين وقائع المقاومة البطولية لشعبنا ويوم النصر الذي توّج ثورة التحرير الكبرى علاقة قربى ونسب تؤكد أن إرادة شعبنا أقوى من جبروت أعدائه، وأن سر تلك القوة هو الامتزاج بين الإرادة والأمل، إرادة تجسدت في ميادين الكفاح والمقاومة وحمل لواءها الأجداد والأحفاد، سلسلة مترابطة الحلقات من سلالة واحدة نبتت على هذه الأرض، وتمتد جذورها في تراث المقاومة على الأقل منذ سقوط غرناطة سنة 1492، عندما تصدى أسطولنا للدفاع عن الحوض الجنوبي الغربي للمتوسط ضد هجمات التكتل الصليبي العدواني الذي شاركت فيه أوروبا بأكملها والولايات المتحدة فيما يمكن أن نسميه حرب الثلاثمائة عام، وعلى الرغم من التنافس الشرس بين أعضاء ذلك التحالف، فإن أهدافه الكبرى المتمثلة في السلب والنهب والسيطرة على مناطق النفوذ مازالت هي نفسها الى اليوم، وتأخذ في نهاية هذا القرن اسم النظام العالمي الجديد والأحادية القطبية وعولمة دول المركز لآليات الاقتصاد الليبرالي وفخ المديونية وحق التدخل والسيادة المحدودة...

قامت الجزائر طيلة تلك المدة بمهمة تاريخية، هي الدفاع الردعي (dissuasive) المشروع، لحماية الجناح الغربي من دار الإسلام، والرد على التحرش وانتهاك مجالها الحيوي والحضاري، وفّرت تلك المجابهات الطويلة والمريرة ذخيرة معنوية هائلة استخدمها شعبنا بعد ذلك اليوم المشؤوم من جويلية 1830 ومكنته من الصمود والمقاومة ومواجهة إمبراطورية الشر الكولونيالية، وهو يعلم بأن ميزان القوة ليس لصالحه بعد إن دمرت الآلة العسكرية الفرنسية دولته المهيبة وشرعت في استئصال مؤسساته.

إذن ينبغي أن نضيف الى 300 سنة من التصدي للعدوان على بلادنا ما يزيد على قرن من الانتفاضات المسلحة للرد على ممارسات القمع والابتلاع والتوحيش (ensauvagement) والانتهاك لمقدسات الشعب المتمثلة في هويته الوطنية ومرجعيته الروحية ورموزه وشرفه الجماعي.

توالت تلك الانتفاضات في الوسط والغرب والشرق والجنوب، وانتهت كلها في برك من الدماء والدمار، وأعقبها مزيد من التنكيل والإذلال لإفشال المقاومة وتخريب الروح المعنوية أو ما سماه المؤرخ أجرون (CH.R. Ageron) تجريد الأهالي من سلاحهم المعنوي: (Désarmément moral des indigènes)، ولكن الفتيل الذي كان ينطفىء في جهة سرعان ما كان يشتعل في جهة أخرى، ليذكر الاحتلال الفرنسي الإجرامي، بأن أيامه في الجزائر معدودة طال الزمان أم قصرا

2 – ينبغي أن نؤكد في كل مرة أن تاريخ الجزائر المكافحة هو سجل شعبها ونخبه الوفية لمثل الحرية والكرامة الوطنية الفردية والجماعية بالأمس واليوم – (تسمى الآن الديمقراطية وحقوق الإنسان) – ولا علاقة لذلك التاريخ بدواوين الملوك والسلاطين، فهي من البلدان القليلة التي لم تتقبل النظام الملكي الوراثي، وتبنت صيغة قريبة جدا من النظام الجمهوري قبل أن يعرف في أوروبا، ما بعد عصر النهضة، ويشهد انتكاسات عديدة مثل العودة الى الملكية والفاشية، والانتقال منهما نحو أنظمة معادية للإنسانية، مثل الاستعمار والإمبريالية، والميز العنصري (أبارتايد) والإبادة العرقية.

ولذلك فإن ثورة نوفمبر الكبرى ليست بداية من الصفر، وهي لا تنتهي بيوم النصر، إنها خلاصة متطورة لتجربة تاريخية عريقة تمتد على مدى قرون متتالية، وجدت بين يديها خزانا عظيما أعادت النخبة الثورية قراءته، ورصدت بموضوعية مواطن القوة وأسباب النكسات والخيبات، واستخرجت من ذلك الرصد النقدي الجرىء نظريتها – (أو على الأصح فلسفتها) – في التحرير الوطني والمنهج العملي لتحقيق الهدف الأول والدائم لشعبنا، وهو تخليص الجزائر من براثن الوحش الكولونيالي الفرنسي وإعادة بناء الدولة الوطنية.

كما أن الثورة لم تبدأ من الصفر، فإنها أيضا مشروع متجدد لا يتوقف في يوم النصر من مارس 1962، لقد ربح شعبنا الجولة الأولى ضد أعدائه المباشرين وحلفائهم من لفيف الخونة والمنافقين بعد معاناة مأساوية، ولكن التحديات السابقة تعود في كل مرة لتهدد مكاسب الانتصار العظيم

الذي حققه جزائريون بسطاء لم يتخرجوا من أكاديميات عسكرية أو دبلوماسية، بل كان معظمهم في حالة قصوى من البؤس والعزلة الإجبارية.

ولذلك فإنه لا سبيل للمحافظة على مكسب الانتصار إلا بتدعيمه وتوطيد أركانه، وإعداد أجيالنا الصاعدة لمواجهة تحديات لا تقل خطورة عما عرفته بلادنا في منتصف هذا القرن بسبب التشرذم والأنانية وصمت المحيط الدولي أو تواطئه مع القوة الغاشمة التي وضعت شعبا بأكمله في زنزانة مظلمة في انتظار خضوعه أو انقراضه، ينبغي أن يتعرف شبابنا على تاريخه النضالي، ويعايش بعقله وقلبه التضحيات الجسيمة التي قدمتها أجيال متعاقبة في سبيل الحرية والكرامة الوطنية.

نحن في حاجة الى ابتكار بداغوجية علمية وفنية تتجاوز التضخيم العاطفي غير المقنع والسرد الجاف المنفر لوقائع المقاومة والثورة وتقديم الأحداث والشخصيات والرموز في سياق جذاب ومستوى رفيع يتوجه الى عامة الناس والى الناشئة بوجه خاص، لا تنقصنا الكفاءات والنصوص والتقنيات السمعية البصرية، إن الذي يعطل وأحيانا يثبّط هو الارتجال والسطحية وسوء التنظيم والتنسيق.

بدأت منذ مدة قصيرة جهود لإنقاذ ما تبقى من تراث المقاومة والعناية بمآثر ثورة التحرير، بواسطة الحفظ أو الأرشفة (Archivisation) لكل إنواع الوثائق المتوفرة والشهادات الحية، وهي خطوة أولى وضرورية تسبق البحث العلمي، ولا يختلف اثنان في أن التاريخ بمعناه العلمي والأكاديمي ينبغي أن يتصدر ولمدة طويلة كل مجالات البحث في التراث الوطني قبل الاحتلال وبعده، ولكن تلك الأولوية لا تمنع من الاهتمام بفروع المعرفة الأخرى الاجتماعية والفنية والجمالية.

3 – ينبغي أن نستبشر خيرا بمثل هذه الندوات والملتقيات التي تخرج تدريجيا من الاستعجالية والمناسباتية، وتسمح بتعدد الآراء والاجتهادات العلمية، وتلفت الانتباه الى أهمية تدوين وقائع تاريخنا بعيدا عن الانفعالية العابرة والخوصصة الشخصية أو المحلية لأبطال الثورة والمقاومة، لا يحول

ذلك بطبيعة الحال عن الاهتمام بالمجال الجغرافي الاجتماعي الذي نشأ فيه أولئك الرجال وانطلقت منه شرارات المقاومة أو الثورة، فالتاريخ المحلي ورموزه القيادية هو فصل من سجل واحد يحمل اسم ملحمة الجزائر من بداية المقاومة الى انتصار ثورة التحرير الكبرى.

يمهد هذا المدخل – إذا تواصل وتنظم داخل الجامعات ومراكز البحث المتخصصة، أقول يمهد لرؤية إجمالية تضع الوقائع في سياقها العام وتبرز عبقرية شعبنا وتضحياته من أجل الحرية والهوية الوطنية وتحقيق التقدم والعدالة الاجتماعية، وتصحح الكثير من الثنائيات المتنافرة والتبسيطية (dichotomie) من الميراث الفاسد للكولونيالية، وما عشش في الأذهان من أحكام قطعية لا أساس لها في قيمنا الدينية والأخلاقية وعاداتنا الاجتماعية، والتي لا ترى في الجزائر سوى السواد الحالك والشر المهلك، أو البياض الناصع والخير المطلق.

يساعد المدخل الإجمالي والبيداغوجية التي أشرنا إليها فيما سبق في تحرير السلوك والعقليات من تلك الثنائيات المصطنعة والمتصارعة على مستوى الفرد والجماعة كما تظهر في الخطاب العام المتداول حول قضايا السياسة والاقتصاد والثقافة والتراث التاريخي، الذي زرعت فيه فراغات مفتعلة تجعل كل مرحلة بداية مناقضة، لا علاقة لها بما قبلها ولا أثر لها فيما بعدها، وقد انعكس ذلك مع الأسف على حياتنا العملية وتصورات بعضنا للمسؤولية فكثيرا ما نسمع أن العمل الفلاني أو الموقف الفلاني يحدث لأول مرة في تاريخ كذا... وكأن القطاع المعني أو الجزائر كلها ولدت في تلك اللحظة!

تتطلب الرؤية الإجمالية تكثيف الجهود وتنسيقها ضمن هياكل متخصصة تابعة للدولة ولا تخضع لتقلبات «الطقس» الاجتماعي والسياسي، وعلى وعي بأهمية الرهان الحقيقي، وهو الوصول في المدى المتوسط الى وضع الخطوط العريضة لتاريخ الجزائر العام، يكون من بين محاوره الأساسية معاينة موثقة للاستمرارية التاريخية للدولة والمجتمع في

الجزائر القديمة والحديثة، لكي نتخلص من تهمة مزيفة وتدفع العديد من نخبنا عن حسن نية الى مرافعات حماسية لتأكيد أقدمية الدولة، بينما يجد أعداء الجزائر بالأمس واليوم وكل المخدوعين بأطروحاتهم المغشوشة في ذلك الموقف «الدفاعي» فرصة لضرب ماضينا بما نسميه أسلحة الدمار الشامل المعنوي وتكرار مقولتهم الكولونيالية بأن الجزائر كانت مجرد معبر للغزاة وأنها أرض بلا شعب ولا دولة.

على الرغم من الفضائع الشنيعة التي ارتكبها الاحتلال الفرنسي الإجرامي ضد شعبنا وسياسة الرعب والأرض المحروقة، فإن الأغلبية الساحقة من الجزائريين لم تعترف أبدا بشرعية السلطة الكولونيالية، وكانت ترى فيما تبقى من مؤسساتها المدمرة بعد 1830 مثل الزوايا والكتاتيب ومجامع القرى والأعراش والنوادي ممثلها الحقيقي، من ذلك النسيج المتين خرجت كثير من الانتفاضات المسلحة والنخب التي أطرت الحركة الوطنية في نهاية الثلث الأول من هذا القرن، وأصبح بعضها يحظى بتمثيل وطني، وتمثل قواعده ما يشبه السلطة الموازية والمضادة لسلطة الإدارة الكولونيالية.

4 – أما المحور الثاني – (من منظور المدى المتوسط دائما) – فيتمثل في الشروع في وضع الخلاصات الباقية لتاريخنا العام، وهي المرحلة التي تعقب التوصيف والتحليل، وتجاوز مرحلة الانطباعات الجزئية وضغوط المعاصرة، والضياع في الجزئيات الملازمة لما يسمى التاريخ المباشر والمذكرات الشخصية، والتمييز بين التاريخ الداخلي للمقاومة والثورة الذي يعرض الأحداث في حالتها الخام أو النقدية والتفاصيل الجزئية المقترنة بالأشخاص والمواقع وبين التاريخ العام الذي يركز على الخلاصات أو التفسير المنهجي المعمق، ويجمع بين النزعة الوطنية (Patriotisme) والصرامة العلمية، فإذا تعلق الأمر بتاريخ الجزائر فإنه لا تعارض مطلقا بين الموضوعية والوطنية، فقد تعرض ماضينا القريب والبعيد الى عدوان منظم هدفه زرع اليأس والشك في الحاضر، وإلغاء المستقبل أو ربطه بقاطرة هجينة وراء البحر.

من بين تلك الخلاصات التي ينبغي إبرازها باعتبارها حقيقة موضوعية ما أسميه بمسلكية شعبنا التاريخية (Vocation historique) وتتمثل في الاقتران بين الحرية والعدالة والتقدم، والاستماتة في الدفاع عن الهوية الحضارية وجوهرها بلا ريب هو الإسلام، فقد كافح الجزائريون قرونا طويلة إما لحماية حريتهم وكرامتهم الوطنية، وإما لاستعادتها من مخالب المعتدين الذين جاءت حجافلهم الوحشية من الضفة الأخرى للمتوسط لمدة تزيد على عشرين قرنا، ولا نكاد نعثر على عدوان جاء من الجنوب، ولم يبادر الجزائريون بالعدوان على أحد من الجيران أو شمال المتوسط، فقد كانوا على الدوام في حالة دفاع مشروع عن النفس وأنصارا للمستضعفين ضحايا العدوان من فيتنام الى جنوب إفريقيا ومن فلسطين الى كوبا، فالحرية هي طبيعتهم الثانية وهي عندهم المرادف للحياة نفسها.

يعتبر الأمير عبد القادر من القادة القلائل على مستوى المنطقة العربية والإسلامية الذين جمعوا بين السيف والقلم، واستطاعوا التوفيق بين أعباء القيادة في مرحلة عصيبة ومؤسسات البلاد تتعرض للتدمير الشامل، وبين الاهتمام بالثقافة وتسجيل تأملات فكرية وجمالية على درجة عالية من الأهمية التاريخية والمعرفية، فلم يكن الأمير من فئة الأعيان الخاملين والغارقين في التفاهة والمجون أو أولئك الذين ينقضون على الحكم والمسؤولية ولا يهمهم سوى الجانب التشريفاتي بما يغدقه عليهم من امتيازات وحظوة تعفيهم من التكاليف والواجبات.

لقد طرح الأمير مشروعه للمقاومة مرتين في البيعة الأولى طلب الثقة من أهالي القيطنة وفي البيعة الثانية طلبها من كل القبائل في سهول غريس وبني شقران، ولو توفرت وسائل الاتصال والتبليغ كما هو الشأن اليوم لقلنا إن الأمير طلب الاستفتاء الشعبي العام والانتخاب الحر المباشر من كل المواطنين الجزائريين، ويمثل هذا النوع من الاستشارة تطبيقا متطورا للديمقراطية في بلد في حالة حرب طاحنة ومصيرية، لا نجد له مثيلا في

بلدان أخرى تتدعي تتدعي السبق وتعطي الدروس للغير، وتفرض الوصاية على حقوق الإنسان والحريات العامة [1].

5- ستبقى كتابات الأمير من بين المصادر الأساسية للباحثين في خصائص المقاومة الوطنية للاحتلال الإجرامي، ورسم خريطة القوى المتواجدة على ساحة المواجهة العسكرية والسياسية، وهي في نظرنا ثلاث:

أولها: أغلبية المجتمع الجزائري بقيادة نخبه الوطنية المفكرة والسياسية التي تنظمت بسرعة للرد على العدوان ورفضت الخضوع والهوان وتقبلت التضحية دفاعا عن الوطن عن قناعة وإيمان بالنصر إن آجلا أو عاجلا، وقد تشبعت تلك النخب على العموم بالتراث الشعبي الأصيل، وشربت من المنابع الصافية لحضارتنا العربية الإسلامية، ولذلك بادر العدو منذ بداية الاحتلال الى شن حملات الإبادة لاستئصال النخب المثقفة وحرمان القرى والمدن من علمائها المتواجدين في الزوايا والمدارس أو على رأس المجالس الشعبية، بعد أن أدرك ما يحظون به في مجتمعنا من تأثير وتقدير، ثم عمد في مرحلة تالية الى تلويث ما تبقى من تلك الفئات عن طريق التدجين والاستقطاب ليحولهم الى وكلاء ووسطاء يستخدمهم كالأحذية لتوطيد سلطته اللاشرعية وكسر شوكة المقاومة.

ويمثل الأمير عبد القادر نموذجا رائعا للنخبة الوطنية القريبة من الشعب والتي استحقت الاحترام ليس بسبب المال والسطوة، ولكن بفضل ما عرفت به من تقوى واستقامة وشهامة، فقد تقبل شيوخ الأعراش والقبائل تولية عبد القادر زمام الأمور وهو شاب لا يزيد عمره على أربعة وعشرين سنة [2]، وفيهم بلاشك من يزيد عليه تجربة وخبرة، وهذا ما حدث أيضا أثناء ثورة التحرير، فقد أسندت مهام قيادية سامية الى شباب في مثل سن

---

(1) د. محمد العربي الزبيري: الكفاح المسلح في عهد الأمير عبد القادر، ص: 11-37، سنيد والمؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر 1982.

وكذلك: إسماعيل العربي: المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر ص: 19-24، ط2، سنيد الجزائر، 1982.

(2) ج. المرابط التصوف والأمير عبد القادر، دار النقطة، ص: 14-16، بيروت، 1966.

الأمير، بل أن معظم قيادات الولايات التاريخية كانت أعمارهم أقل من ثلاثين سنة، والكثير منهم استشهد في ميدان الشرف قبل أن يبلغ تلك السن، فليس في مجتمعنا طبقات جامدة من الأعمار يكون فيها السن هو المعيار الوحيد للتقييم، أو صراعات مفتعلة بين الأجيال من النساء والرجال، إن المكانة والمجد ليسا من المنح والتبرعات الخيرية، بل هي نتيجة للكدّ. . . والجد والاستحقاق، ولعل هذه المسألة واحدة من الدروس التي تركها السلف القريب الى الخلف من أجيال الجزائر وهي تتعرض لامتحان عسير من جراء أزمة مفروضة عليها من الداخل والخارج، وفي حاجة الى تعبئة قواها الوطنية الطاهرة وفي مقدمتها الشباب.

ثانيهما: أما القوة الثانية في المواجهة فهي العدو الكولونيالي وإيديولوجيته الحاقدة والانتقامية ومخططها الرهيب الذي بدأ في تنفيذه تحت فوهات المدافع في 14 جوان 1830، وشرع منذ تلك اللحظة في ممارسة سياسة الإبادة الجماعية واستئصال مؤسسات الدولة لخلق فراغ ينشر الفوضى واليأس بين المواطنين الجزائريين، ثم نقض كل الاتفاقيات والتعهدات، ومن بينها معاهدة تسليم دار السلطان في القصبة يوم 1830/7/15 والتي تنص على عدم المساس بمقدسات الشعب ومؤسساته الأخرى.

على الرغم من الاختلال الواضح في ميزان القوة، وعوامل أخرى سياسية وتنظيمية على مستوى القيادة العليا العسكرية والمدنية، ليس هذا مجال الحديث عنها فإن العدو بقي حوالي شهر يواجه مقاومة متكونة أساسا من المتطوعين قبل أن يقطع مسافة تقل عن 25 ميلومتر ما بين سطاوالي والقصبة كما تواصلت المقاومة حول العاصمة وعلى امتداد سهل المتيجة.

من المؤسف حقا أن تبقى المقاومة الشعبية التلقائية ما بين (1830 و1832) مجهولة ولا تعرف عن وقائعها شيئا يذكر، وهي على أي حال تؤكد الحقيقة التاريخية التي أشرنا إليها فيما سبق عن مسلكية شعبنا الدائمة عبر العصور والمتمثلة في التعلق بالحرية واستعداده للدفاع عن الكرامة الوطنية حتى في حالة غياب الدولة وانهيار قيادتها المركزية.

نقول نأسف لأن سحابا كثيفا من الأكاذيب غطى على تلك الأيام العصيبة والبطولية، وعمد معظم الكتاب الذين رافقوا الحملة ومن جاء بعدهم لتوجيه الاهتمام الى شخصية الداي لتشويهها وتقديمها في صورة خرافية لتبرير الاحتلال، وإثارة الشكوك حول «كنز» القصبة بيت المال أو ما يسمى الآن الخزانة العامة للدولة التي تعرضت للسلب والنهب، والصمت حول واحدة من أكبر عمليات التدمير التي تعرضت لها الجزائر العاصمة، فقد خربت كل المعالم والشواهد التي ترمز للدولة أو نقلت الى فرنسا باعتبارها غنائم حرب، وتم تحويل كل الأبراج والقلاع الى مرافق لجيش الاحتلال خلال بضعة شهور، ولم تسلم البواخر المتبقية في الميناء من المصادرة، فضلا عن عمليات الإبادة والتنكيل التي دوّن جزءا منها قادة الاحتلال في تقاريرهم الى مسؤولين في حكومة باريس بكثير من التبجح والحقد العنصري.

أما ثالث هذه القوى فيتمثل في تلك الأقلية المتواطئة مع العدو بسبب الطمع وضعف الهمة وقصر النظر، أوكل إليها العدو مهمة مشينة هي الخيانة ونشر الفرقة والخذلان وخدمة سياسة الهيمنة والابتلاع.

واجه الأمير هذا اللفيف ومواقفه المخزية وكانت خياناته من بين الأسباب التي أفشلت المقاومة وخاصة في سنواتها الأخيرة، فقد بذل الأمير من الجهد في تأديب المرتزقة أعوان الاحتلال ما يساوي أو يزيد على ما بذله من جهد في معارك مباشرة مع العدو الاستعماري، فقد تعرض أكثر من مرة لهجومات غادرة من المغرر بهم وكانت الغارة المأساوية على زمالته الشهيرة نتيجة لخيانة سافرة من طرف أعوان الاحتلال كانت بلاشك أشد وطأ على الأمير ومساعديه، فليس هناك ما يدمي القلب أكثر من الطعنة في الظهر والتآمر من الداخل لصالح عدو هو في نهاية الأمر عدو الجميع.

6 – وقد واجهت الثورة منذ سنواتها الأولى نفس الظاهرة الانحرافية السابقة، حيث انحازت الى جانب العدو أقلية من الأعوان والأعيان وساعدوا جحافل الجيش الفرنسي على خنق الثورة والتنكيل بالمجاهدين وإرهاب الشعب في القرى والمدن للبرهنة على ولائهم للجلادين.

قام أولئك المرتزقة من «الحركة» و«القوم» بمجازر رهيبة ضد شعبهم تحت قيادة ضباط فرنسيين خططوا في هيئات الأركان العامة في باريس والجزائر لتحويل الثورة التحريرية الى حرب أهلية بين جزائريين يتقابل فيها طابور من الرعايا (Sujets) الموالين لفرنسا مع عصاة أو متمردين أو فلاقة معادين للوجود الفرنسي وما يدعيه من جهود لتمدين الأهالي!

أفشلت قيادات الثورة هذا السيناريو التضليلي وتمكنت الأغلبية من الجزائريين من التمييز بين الخبيث والطيب، فعزلت المرتزقة وأحاطتهم بالخزي واللعنة وتحينت كل فرصة لإنزال أشد أنواع العقاب بهم، بل أن أهاليهم أنفسهم نبذوهم وتبرأوا منهم نسبا وقرابة.

لم يحظ ذلك الرديف العديم الذمة والهمة بأي احترام من طرف أسياده الكولونياليين على الرغم من المناكر الشنيعة التي ارتكبها أفراده لإذلال شعبهم، فهم يعيشون (وأي عيش في المذلة والهوان) على هامش مجتمع لا يقبلهم، بل يحتقرهم ويضعهم في ڤيطوهات (Ghetos) ويعاملهم النوستالجيون من الأقدام السوداء، وقدماء ما يسمى «حرب الجزائر» وكأنهم ذباب كريه ضرره أكثر من نفعه.

7 – إن الاحتلال العدواني لبلادنا والتواجد القهري واللاشرعي لأقليته العنصرية من المستوطنين، كان بالنسبة لشعبنا شرا كله وأن كل سياساته الميكيافيلية، تستهدف في الحقيقة الوصول الى جزائر بلا جزائريين، عملت فرنسا الكولونيالية على تحقيق هذا الهدف الى آخر لحظة، ولم تتورع طيلة 132 سنة من استعمال التكنولوجيا المتطورة لأغراض الإبادة الجماعية والتخريب الثقافي والبسيكولوجي لا يمكن أن ينتج الشرّ الأصلي خيرا على الإطلاق، فمن يستحضر حالة الشعب الجزائري بعد سنوات قليلة من الاحتلال، وما وصل إليه من بؤسٍ وقمع وتنكيل، ويتذكر الخسائر الفادحة التي تكبدها أثناء حرب التحرير، لن يتردد في تعيين المتهم الوحيد المتلبس بالجرم المشهود وهو الكولونيالية، فباستثناء الأعوان المغرر بهم وقلة من الأعيان الذين خانوا وطنهم قبل الثورة وأثناءها، لا

يوجد جزائري واحد رضي بالاحتلال والاذلال أو تأسف على هزيمته سنة 1962، فضلا عن التباهي بالحصول على أية غنيمة من بقاياه المتعفنة.

لقد قدمت الكولونيالية الفرنسية من خلال ممارساتها الإجرامية في الجزائر واحدا من الأشكال الأكثر توحشا وانحطاطا في تاريخ الإنسانية، وعملت على تثبيت بلادنا في حالة دنيا من التخلف واختلاق الفرقة والتشتت لاجبارنا على الخضوع والتبعية.

ولابد أن نشير كذلك الى أن القليلين من الكتاب والمفكرين الفرنسيين اجتهد في إنصاف المقاومة والثورة واحترم المنهج وأخلاقيات البحث العلمي وسجل الوقائع طلبا للحقيقة التاريخية، أما الأكثرية فقد أعمتها إيديولوجيتها الحاقدة والعنصرية، فتكالبت على تشويه ماضي الجزائر وإلغاء مآثره وتصغير رجالاته - (ترجم بعضهم اسم عبد القادر الى عبد الخديعة "ésclave de la ruse") - وعلى أي حال فإن تلك الكتابات المدغولة هي واحدة من جبهات العدوان على شعبنا تختلف في الشكل عن الدبابة والمدفع، ولكنها تؤدي نفس المهمة التدميرية، ولا قيمة علمية لتلك الكتابات إلا في حالة مقاضاة أصحابها عن شهادات الزور والتزوير أمام محكمة الضمير العالمي والإنساني.

بعد جمع ما يمكن جمعه من ذلك التراث العظيم والكشف عن وقائعه قبل أن يطويها النسيان والاهمال، ينبغي تسخير الوسائل والهياكل المتخصصة لبحثه وتنظيره (Theorisation) واستخدام بيداغوجية متطورة لنشره وتبليغه، بيداغوجية مشوقة وجدابة تتجاوز «الأرتيزانا» البالية مثل «الحكي» والروايات الشفهية التي ترجع الى عهد المداح في أريافنا وقرانا قبل عشرات السنين.

ينبغي تعريف شبابنا، فتيانا وفتيات، بملحمة المقاومة الشعبية ومآثر ثورة التحرير الكبرى ومنجزاتها التاريخية التي توجت معاناة قاسية لابد أن تبقى في الأذهان، لكي لا يتعرض شعبنا لمثل تلك المعاناة أبدا. فلا تكفي المواعظ اللفظية والأوصاف الضخمة، المطلوب هو بديل مشرف وحقيقي

يزخر به ماضينا القريب والبعيد يقاوم وينافس «الأبطال» – الصعاليك في حانات «الوسترن» ومغامرات العنف الأهوج الحربي البوليسي والمتاجرة بالجنس المدنس لقيمة المرأة في المجتمعات المفككة والمنحطة بالمعيار الأخلاقي المتحضر، مثل تلك التفاهات لا تدافع عن أية قضية إنسانية ولكنها تسيطر على المشاهدين شبابا وكهولا بواسطة الخداع وتكنولوجيا الاستقطاب الهوليودية.

نحن على يقين بأن شبابنا على العموم «خامة» نظيفة يمكن أن تجد في مرجعيتها الحقيقية من تراث المقاومة الوطنية الى الثورة الكبرى طريق الخلاص، إنه العودة الى النبع الصافي والمتجدد، إنها عبقرية شعبنا العاشق المتيم بالحرية والعدالة والديمقراطية، وهو قادر على التمييز بين الحمل الكاذب والاستنساخ (clonage) وأفكار الأنابيب (Invetro) وبين مشروعه الأصلي والأصيل الذي وضع بيان أول نوفمبر حجره الأساسي، وأصبح منذ ذلك اليوم البوصلة التي تدلنا على الطريق الصحيح.

إذا انساقت الجزائر وراء الميراث الفاسد والمشبوه للكولونيالية انفرط عقدها وصغر حجمها، وإذا تمسكت «بالبوصلة» واسترشدت بها بحرص ووفاء التأم جرحها وكبر حجمها وتمكنت من حماية نفسها بنفسها ويعود الأمير في كل مرة ليحضر عيد النصر في موكب الشهداء الأبرار فخورا بالأحفاد الأوفياء.

مشاهد من الإجرام الكولونيالي
وشواهد من صمود شعبنا ومعاناته

شرعت الهيئات المعنية والجمعيات المختصة منذ مدة في عقد ملتقيات عامة وحلقات دراسية متخصصة، تخرج عن روتين المناسبات المهرجانية، وتولي عناية كبيرة للتعريف والتعرف على تراث المقاومة الوطنية وثورة التحرير الكبرى.

يمهد هذا المجهود، إذا تواصل داخل الجامعات ومراكز البحث بصورة منظمة، لدراسة شاملة لتاريخ بلادنا، باعتباره كلا متماسكا أشبه بحلقات يشد بعضها بعضا، واستعمال المناهج والأدوات العلمية الكفيلة بتدوين وقائعه وتصنيفها وتفسيرها بعين نقدية تمهد لما يعرف بالتاريخ العام وفلسفته التي تربطنا بحركة التحرير الوطني في العالم ونضالات الأمة العربية الإسلامية والإفريقية ومجالها الحضاري الواسع.

ينبغي أن نشجع ونرحب بكل توجه يستهدف إبراز عبقرية شعبنا، والتوصيف الدقيق لمعاناته وتضحياته طيلة ليل الاستعمار الأسود، والاهتمام بإشراك شهود العيان من القياديين والناس العاديين، جنبا الى جنب مع العلماء والباحثين الشباب والكهول الذين ساهم الكثير منهم من مواقع مختلفة في حرب التحرير، وقد تحمل الكثير منهم مسؤوليات نضالية في مرحلة الكفاح المسلح وبعد الانتصار.

من المهم جدا الجمع بين التجربة النضالية لرجال ونساء عايشوا وأثّروا أو تأثروا بآلام وآمال الحمل والمخاض الثوري في مرحلة استثنائية من تاريخنا، وبين باحثينا الشبان بوجه خاص، فالعديد منهم يبحث عن الحقيقة التاريخية بشغف كبير، ولا يتخلى في نفس الوقت عن ضرورات المنهج العلمي وما يتطلبه من تمحيص واستقراء ونقد وتنقيب.

في البحث التاريخي بالذات يلتقي الحس الوطني (Patriotique) بالصرامة العلمية، فليس بين العلم والوطنية أي تعارض إلا عند أدعياء التعلمن (scientisme) والمشعوذين، فالتاريخ جزء من ذاتنا الجماعية، وذاتنا المفكرة، هو عقلنا الباطن (Cogito ergosum)، والأمة التي تكره أو تعاف تاريخها هي مجرد جغرافيا بلا محتوى ولا وجدان، لأن الوطن تاريخ أولا وجغرافيا ثانيا بهما معا يتحقق الانتماء المشترك وتتحدد الحقوق والواجبات.

لا يمكن أن ننقذ تاريخنا من الدس والتشويه والتقطيع المفتعل إذا استهوتنا المهرجانية وتبادلنا التأسف والرثاء على تقاعسنا وتفريطنا في كنزنا المشترك، وهو ذاكرة الأمة وأمجادها الباقية، فكما أن الطبيعة تنفر من الفراغ، فإن الذاكرة الفارغة يمكن أن تصبح حقلا للتجارب يزرع فيها من يشاء الأكاذيب والمغالطات، عندما لا يجد الكبار والصغار صورة واضحة عن ماضيهم القريب والبعيد، أو جاءتهم تلك الصور عن طريق التضخيم والتهويل الخرافي، أو التقزيم المغرض للوقائع بهدف تصغير ماضي الأمة وتشكيك المجتمع في حاضره ومستقبله.

الإنقاذ العلمي – الوطني لتاريخنا مهمة عاجلة مطلوبة، أساسا من النخب السياسية والثقافية التي ترى طوفانا مما نسميه شبه التاريخ (Pseudo - Histoire) يعرض على شبابنا ذاكرة مزيفة ومدغولة، يأتي أكثرها من وراء البحر، تتحدث عما يسمى الإمارة البربرية Réjence-Barbaresque وحرب الجزائر.

نعتقد أن الجمع بين «شهود العيان» والعلماء هو الطريق الصحيح لتحليل الوقائع وتوصيفها وتفسير حركيتها الداخلية ومقارنتها بغيرها في الزمان والمكان، والسياق المحلي والإقليمي تمهيدا لتنظيرها Théorisation أي وضعها في صورة بناءات نظرية حسب الاختصاص وفرضيات البحث بطريقة تنصف تاريخنا الوطني وتضع ثورتنا في مكانها المتميز باعتبارها تحولا استراتيجيا على مستوى المنطقة الأفرو – عربية، وعلى مستوى العالم أجمع.

نصف هذه المبادرات بالشجاعة، نظرا لما تتعرض له بلادنا من اضطراب، ومحاولات التفكيك من الداخل، مصحوب بموجة عارمة من

التشاؤم، والإحساس بالانحدار Déclin وترويج الكارثية (Catastrophisme) وشيوع النزعة العدمية (Nihiliste) التي تدعي أن جزائر ما بعد ثورة نوفمبر 1954 هي لا شيء أو أسوأ شيء، وكأن بلادنا كانت قبل 1962 في خير ونعيم!

وكأن القهر والعبودية يتساويان، بل يفضلان الكرامة والحرية!

تعمل هذه الادعاءات الباطلة -عن وعي أو غير وعي- على تبييض (Blanchissement) الوجه البشع وجرائم الهلوكست التي اقترفتها فرنسا الكولونيالية ضد شعبنا الأعزل إلا من سلاح الإيمان بقضيته العادلة، والمعزول عن العالم الخارجي في معتقل كبير هو وطنه الذي تحول الى محتشدات ومراكز للتجميع وأخرى للقصف المباح والعقاب الجماعي للسكان الأبرياء يحيط بكل ذلك سياج من الحديد والنار هو الخطوط التي أقامها مجرمو الحرب من الساسة والضباط الفرنسيين، ومن بينهم السفاحان شال وموريس.

ينبغي أن تبقى أجزاء من الأسلاك الشائكة، وتوضع لوحات تذكارية على حقول الألغام المزروعة على طول حدودنا البرية لتكون علامة مادية وشاهدا على تقنيات الإبادة والقهر الذي تعرض له الآباء والأجداد تزورها الأجيال الصاعدة من التلاميذ والطلاب، والشباب بوجه عام، وتكون معلما تاريخيا أشبه بمتحف في الهواء الطلق يطلع عليه الزائرون من مختلف الجنسيات، فقد شاهدنا في بلاد أخرى شواهد صغيرة مقارنة بما عانته الجزائر قبل الثورة وأثناءها، تحاط تلك الشواهد بهالة من الاهتمام والعناية وتوضع في برنامج زيارة الوفود الأجنبية.

محاولات التفكيك من الداخل تتزامن (وليس ذلك صدفة طبعا) مع هجمات من الخارج بأسلحة جديدة للنظام الدولي الظالم، أسلحة غير مرئية، تستهدف زعزعة الجزائر، وطمس تضحيات شعبها، وإطفاء شعلة ثورتها، والتشكيك في منجزاتها وتقزيم مكانتها على المستويين الإقليمي والدولي، واستدراجها للاندماج في المخططات الكونية (Planétaires) الجيوسياسية

للتسلط والهيمنة، تحمل اليوم أسماء مزيفة ظاهرها الرحمة والتعاون وباطنها الاحتواء والتدجين.

نحن على يقين بأن تلك المحاولات لن يكتب لها النجاح أبدا على الرغم من مظاهر الاضطراب والانكفاء المؤقت، فالجزائر هي واحدة من البلدان القليلة، إن لم تكن الوحيدة التي تتوفر على ثوابت القوة المادية والمعنوية (Constantes de puissance) التي لا نظير لها في بلدان الجوار المغاربي والقارة الإفريقية، إذا استثنينا جنوب إفريقيا (بريتوريا) التي تتوفر على الثروة والخبرة، ولكن تنقصها موارد الطاقة من الغاز والبترول، وهما شريان الصناعة الى عقود أخرى قادمة.

تجتاز ثوابت القوة الجزائرية مرحلة كمون (Latence) لأسباب كثيرة لا تتسع لذكرها هذه المناسبة، وهي تتعرض بلاشك للحصار والتعطيل (Neutralisation) ولذلك يبدو لبعض محترفي البكاء والملاحظين السطحيين أو المغرضين أن الجزائر بلد هامشي لا وزن له ولا تأثير في الرهانات (Les enjeux) الجهوية والدولية القائمة على علاقات القوة (Rapports de force) لحماية المصالح واكتساب مناطق النفوذ، وليس على العواطف والذكريات.

لا نشاطر المذهب الانهزامي (Défaitiste) في هذا الرأي، لأن الحقيقة غير ذلك، فللجزائر إمكانات دائمة (Potentiel) تجعلها قوة لا يستهان بها، إذا تم توظيف تلك الإمكانات في منظور استراتيجي بعيد المدى، وتعبأ شعبها لتحقيق أهداف كبرى لم تخرج طيلة تاريخه الطويل عن الدفاع عن الحرية والعدل والتقدم والهوية، بل إننا نذهب أبعد من ذلك، ونرى أن للجزائر مسؤوليات تتجاوز حدودها الجغرافية تتمثل في حماية مجالها الجيو-سياسي الأفرو-عربي ونصرة المظلومين وتحقيق السلام والتضامن الحقيقي في المنطقة كلها، إن الانحياز للحق والحرية والسلام ليس تدخلا أو طلبا للهيمنة، فتجربتنا المريرة خلال الاحتلال الغاشم تجعل من شعبنا نصيرا طبيعيا لمن يستجير به، ولا يقبل أبدا ممارسة الظلم على غيره أيا كانت الذرائع والأسباب.

كما ينبغي أن لا نسى أن محاولات التعطيل والحصار ليست جديدة على بلادنا، فقد بدأت بسقوط غرناطة سنة 1492، وتواصلت على طول الساحل الجزائري حتى سقوط قلعة بني مزغنة (العاصمة الجزائر) سنة 1830(*)، وبلغت حدّ الاختناق خلال مرحلة الاحتلال والمقاومة (1832–1916) وأخذت صورة إبادة جماعية (Pogrome) أثناء ثورة التحرير حتى سنة 1962، أي أن السحق والحصار استمر 470 عاما بلا انقطاع حتى انتصار الثورة الكبرى مفخرة شعبنا وحجته الدامغة على أن الحصار والإبادة وآلة القمع الجهنمية لا يمكن أن تعوق إرادته وتصميمه على استرجاع حقوقه المشروعة وكرامته المسلوبة، إنه يولد في كل مرة أقوى مما كان عليه. كلما وجد قيادة في مستوى طموحاته وتنظيما نابعا من خصائصه التاريخية يعبىء قواه ويثمّن مؤهلاته وخصاله.

قبل النظر في عينة صغيرة من الممارسات الشنيعة للكولونيالية الفرنسية في الجزائر لا تمثل سوى سطوراً قليلة من السجل الأسود والثقيل، يحمل في المصطلح الفرنسي المزور اسم سياسة التهدئة (Pacification) وتمدين الأهالي، قبل ذلك ينبغي أن نؤكد على قضيتين: أولا هما: أثبتت التجربة التاريخية عندنا وعند غيرنا أن الروح المعنوية للأمة هي سلاحها الأقوى وحصنها الذي لا يقهر، وقد تمتع شعبنا في أحلك الظروف، وعندما وجد نفسه وحيدا وجها لوجه ضد أوروبا وامبراطورياتها الصليبية الحاقدة، وحتى في لحظات اليأس القصوى، بروح معنوية عالية، هي مزيج من الإرادة والأمل، لنتأمل

(*) هناك دراسات وشهادات عن الإبادة الجماعية في السنتين الأوليتين للاحتلال (1830–1932) تضمنتها تقارير الضباط العسكريين والقناصل الأجانب ما زالت مخفية على الباحثين، وتوجد دراسات قليلة عن هذه الفترة نذكر منها دراسة د. يحيى بوعزيز عن الأمير ط. تونس 1983، ومذكرات الكولونيل البريطاني «سكوت Scott» في 1841 التي نقلها الأستاذ إسماعيل العربي إلى العربية ونشرتها سنيد سنة 1981.

كلمات هذه الرسالة التي وجهتها هيئة قيادة المقاومة بعد أسر الأمير عبد القادر سنة 1847، وبينما كانت جيوش الاحتلال تندفع لتطبق على الجزائر من الشرق والغرب والجنوب، تقول هذه الرسالة الموجهة الى السفاح «لا مورسيير» (Lamorcière): «ستزحف فرنسا الى الأمام، ولكنها ستجبر على التقهقر، وسوف نعود، هل ترى الموجة التي يثيرها جناح عصفور يحلّق؟ إنها الصورة التي يمثلها مروركم بإفريقيا!» (9).

أما القضية الثانية: فهي تثير الدهشة والعجب، إذ لم نقم نحن الجزائريون أفرادا أو هيئات بجرد أولي أي مجرد إحصاء لجرائم فرنسا الكولونيالية في بلادنا، وذلك بعد مرور 166 عاما (1830–1996) على بداية الهلوكست الإجرامي لا نجد لذلك أي تفسير أو تبرير مقنع، هل هو الكبرياء الوطني الذي يجعل الجزائري يكتم آلامه ولا يجاهر بمآسيه وأحزانه؟

لا نميل الى هذا التفسير الذي أورده الأستاذ مصطفى الأشرف، إذ أن الأمر لا يتعلق بمزاج الأشخاص، وحتى إذا افترضنا ذلك فأن الطبع لشعبنا يؤكد عكس المقولة السابقة، فليس من سيرة شعبنا وأخلاقياته (Ethique et Valeurs) أن يتستر أو يتقبل الظلم والقهر، والسكوت على المعتدين والرضا بما يلحقه من حيف وهوان.

هل هي سياسات طوي الصفحة وعدم نبش الجروح والعمل على بناء علاقات عادية (Normalisation) بين دولتين؟ وهذا المسعى في رأينا تبرير غير مقنع، لأن الطرف الآخر (ونقصد على الخصوص نوستالجيي الكولونيالية الفرنسية من اليمين واليسار والوسط)، لم يكفوا عن النبش، بل إدعاء الوصاية وما هو أكثر من ذلك من قديم والى يومنا هذا.

إن أكثر ما يكتب ويقال من طرف رسميين وشبه رسميين عن فترة الاحتلال وما يسمونه «أحداث الجزائر» (Evènement d'Algérie) وأحيانا بأقلام السفاحين أنفسهم هو افتخار بجرائم الحرب وتمجيد لعمليات الإبادة والانتهاكات الصارخة لقوانين الحرب وحقوق المدنيين، فهل تستحي

الضحية من ذكر ما لحقها من إبادة ودمار، ويتفاخر المجرم بخطاياه وذنوبه؟ أي منطق هذا؟ إنه بلا ريب اللامنطق وقانون الغاب!

الاحتمال المرجح في نظرنا هو التأثير الخارجي بغرض مسح الذاكرة الوطنية، واستقطاب شرائح من النخب الجزائرية عن طريق إظهار وجه فرنسا الجمهورية التي أعلنت حقوق الإنسان والمواطن، وإخفاء وجهها الآخر المشوه وأياديها الملطخة بدماء العزل والأبرياء.

يعرف من يتابع النشاط السياسي الثقافي في فرنسا أن كثيرا من ساساتها ومفكريها يشعرون بعقدة ذنب Complexe de Culpabilité تجاه ما اقترفته بلادهم في الجزائر، ويستعملون كثيرا من الحيل والنفاق الدبلوماسي لإخفائها، وهم على أي حال أقل شجاعة من نظرائهم في الولايات المتحدة الأمريكية الذين سموا حربهم الأمبريالية في فيتنام وهزيمتهم في سايغون حربنا «القذرة» (OUR dirty war)، كما أشار الرئيس الأسبق جيمي كارتر الى أعراض فيتنام ومرضها في المجتمع الأمريكي (Vietnaneese syndrome and desease) ليس من السهل اختيار نماذج من الهلوكست المادي والمعنوي الذي تعرض له رجال ونساء وأطفال الجزائر منذ بداية الحملة العدوانية حتى مذابح المنظمة الإرهابية (O A S) (لا ندري لماذا توصف بالسرية، وقد كان في قيادتها ضباط سامون من هيئة الأركان لجيوش الاحتلال في الجزائر؟!) - فذلك لا يغني بأي حال من الأحوال عن الجرد العام لخسائر شعبنا الذي أشرنا إليه فيما سبق، والذي ينبغي أن تتبناه هيئات وجمعيات تضم بين صفوفها متطوعين لا علاقة لهم بالحكومة والأجهزة التنفيذية إلا من ناحية التجهيزات والمرافق والإسناد كما تفعل إسرائيل منذ 1948 الى اليوم لأغراض الابتزاز والسيطرة على الرأي العام الدولي، ونحن على علم بالضجة التي يتعرض لها الفيلسوف الفرنسي المسلم «غارودي» بعد أن حاول التحقيق في رقم 6 مليون من الضحايا اليهود في أوروبا وحكاية المحارق(*)،

(*) وقد تعرض الأب بيير (L. Abbe Pièrre) الذي يتمتع بشعبية واسعة في فرنسا إلى الضغط والإبعاد عن بلده لمجرد تصريح فيه تأييد للفيلسوف غارودي، أين حرية التعبير؟ أم هي ديمقراطية الواجهة وسطوة اللوبي الصهيوني؟

بينما العكس هو الذي يحدث عندنا، أحتج رسميون فرنسيون على تصريحات لوزير جزائري حول التفجيرات النووية في رڤان وانعكاساتها على المناخ والبشر الذين يعيشون فيه، يا لها من مفارقة!

سوف نقتبس عددا من تلك النماذج من دراسة نشرناها في مجلة الجيش أعداد أكتوبر نوفمبر ديسمبر 1968 وجانفي 1969 (رقم 67 حتى 70)(10).

يسجل الجنرال روفيقو (Rovigot) في تقرير أرسله الى القيادة بتاريخ 16 أفريل 1832 ما يلي: «لقد فاجأنا قبائل في سهل المتيجة وهي نائمة، وفي العودة كان جنودنا الفرسان (Cavaliers) يحملون الرؤوس البشرية على سيوفهم، أما حيواناتهم فقد بيعت للقنصلية الدانماركية، أما أجزاء الجسم الملطخة بالدماء فقد وضعت في معرض في باب عزون، وكان الناس يتفرجون على حلي النساء وهي في سواعدهن المقطوعة وآذانهن المبتورة!!

معارض الدماء والأشلاء هدفها الحقيقي هو بث الرعب بين السكان وكسر إرادة المقاومة بأشد الوسائل قسوة وفضاعة، إن الهجوم الغادر تحت جنح الظلام على أناس نيام ليسوا جيشا نظاميا يقدمه هذا القائد الجبان في صورة بطولات، وهي حسب تقريره نفسه عمليات سطو وقرصنة (Brigandage) يمكن أن يقوم بها صعاليك من قطاع الطرق الذين ليست لهم دولة ولا يحكمهم قانون!.

ويجيب أحد العقداء هو الكولونيل مونتنياك (Montaniaque) على سؤال وجهه له أحد مرافقيه ماذا تفعلون بأسراكم من النساء، يقول مجرم الحرب مونتنياك سنة 1945 ما يلي:

«تسألوني ماذا نفعل بالنساء اللائي نأسرهن(...) إننا نحتفظ ببعضهن كرهائن ونبادل بعضهن بالخيول ثم نبيع الأخريات في المزاد العلني مثل المواشي، وهذه هي الطريقة التي يجب أن نحارب بها العرب(...) قتل جميع الرجال الذين تزيد أعمارهم عن 15 عاما، الاستيلاء على جميع النساء والأطفال وإرسالهم الى جزر (ماركيز) أو أي مكان آخر.. وباختصار

(*) د. محفوظ قداش: ن م م 1.

القضاء على كل من لا ينحني كالكلب تحت أقدامنا» هذا نموذج من رسالة الحضارة التي حملتها فرنسا لتمدين الجزائريين الذين أتهمتهم بالوحشية وممارسة القرصنة.

بعد أكثر من قرن ونصف يحق لنا أن نتساءل ما سبب هذه الشراسة والحقد؟ هل هي رواسب الحروب الصليبية؟ وقد كان البادىء بالعدوان هو أوروبا المسيحية، لأن كل المعارك دارت على الضفة الجنوبية للمتوسط، وليس في أوروبا حتى قيام الدولة العثمانية أم هو الانتقام من الجزائريين الذين هبوا لنجدة إخوانهم في الأندلس، ودحر حملات إعادة الفتح (Reconquista) بالنيابة على كل الغرب الإسلامي؟ أم هو اعتقاد فرنسا بأن إخضاع الجزائر سوف يفتح لها الباب على مصراعيه لاحتلال بقية المغرب العربي والتوغل في إفريقيا جنوب الصحراء بدون أية مقاومة تذكر؟

على الرغم من وجود عوامل من الاحتمال الأول (رواسب الحقد الصليبي) ومضاعفات من الاحتمال الثاني (سطوة لأسطول الجزائري من 1516 حتى 1827) فإن الاحتمال الثالث (كسر الحاجز الأقوى أمام المد الامبريالي) يبدو على ضوء ما حدث في النصف الأخير من القرن التاسع عشر هو التفسير المقبول لتكالب الآلة العسكرية والسياسية الفرنسية على سحق الجزائريين وإفراغ البلاد من السكان وتدمير كل ما لا يخضع لجبروتها، أو ما لا تحتاجه، لقد تأكد ذلك بالنسبة لكل جيراننا في المغرب وجنوب الصحراء: لقد أكلوا جميعا يوم أكل الثور الأبيض، ولم يتطلب الأكل سوى بعض الإنذارات وعمليات لاستعراض القوة في البر والبحر، أما الثور الأبيض -الجزائر- فقد واصل صموده ومقاومته لتحرير نفسه أولا، والمساهمة في تحرير الجيران عن طريق إضعاف الخصم المشترك عدو الجميع، وهو الهيمنة الكولونيالية.

التاريخ	مكان الانتفاضة
سنة 1847	– انتفاضة الصومام
سنة 1849	– انتفاضة الزعاطشة
سنة 1852	– انتفاضة الأغواط
سنة 1854	– الانتفاضة التي عمت منطقة القبائل بقيادة لالا فاطمة نسومر وتجنّد فيها حوالي 12000 مجاهد
سنة 1857	– انتفاضة جبال البابور
سنة 1857	– انتفاضة جرجرة
سنة 1861	– انتفاضة منطقة ميزاب
سنة 1864	– انتفاضة أولاد سيدي الشيخ
سنة 1869	– انتفاضة الجنوب الوهراني
سنة 1871	– انتفاضة المقراني والشيخ ابن الحداد
سنة 1871	– انتفاضة أهالي مسيلة بوسعادة
سنة 1879	– انتفاضة الأوراس وكذلك 1916
سنة 1899	– انتفاضة أهالي عين صالح وتيدكالت وتوات وغرارة

جدول لعدد من الانتفاضات بعد توقف مقاومة الأمير عبد القادر –15– انتفاضة عارمة في نصف قرن (1847–1899).

يظهر من الدراسة الآنفة الذكر ومن مقارنة أخرى أوسع ظهرت سنة 1978(2) أن حصيلة عمليات القمع والإبادة التي أعقبت الانتفاضات التالية قد أودت على الأقل بنصف السكان الجزائريين، (انظر: الجدول).

إذا تمسكنا بالحد الأدنى من التقديرات التي تقول أن عدد الجزائريين أو ما يسمى في ذلك العهد السكان الأصليين (autochtones) هو حوالي خمسة ملايين فإن (فاتان ولوكا) (Lucas et vatim) يذكران الإحصائيات السكانية التالية:(8).

السنة	عدد السكان	ملاحظات
1861	2.733.000	إبادة ما لا يقل عن مليون ونصف(*)
1891	3.577.000	زيادة تقدر بـ: 844.000 خلال ثلاثين عاما
1921	4.923.000	قرن (1832–1921) إلى ما كان عليه سنة 1830

جدول يبين جانبا من الإبادة الوحشية للسكان الجزائريين من (1861 إلى 1921)

وفي المقابل فقد تضاعف عدد المغتصبين من الفرنسيين وأجناس أخرى من الأوروبيين ثماني مرات في نفس الفترة فقد، كان عدد السكان الأوروبيين حسب الباحثين السابقين 109000 سنة 1947 ووصل الى 829000 سنة 1921 أي نفس المدة التي استغرقتها عمليات التطهير العرقي في ظل صمت مطبق من كبار العالم، ومن نصبوا أنفسهم حراس الضمير الأخلاقي وحماة الإنسانية، «اصمتوا تفرجوا من بعيد، إن المذبحة قائمة على قدم وساق، إن القتل الجماعي هو مهمة مستعجلة في الجزائر!».

لن نتعرض في هذه الورقة المختصرة للإبادة المبرمجة عن طريق التهجيز والتفقير وحشد السكان في الأراضي القاحلة والصحاري وسفوح الجبال، والمساعدة على نشر الأوبئة بين السكان مثل الطاعون والكوليرا والتيفوئيد التي تعرض لوصف جانب منها كل من الكاتب ألبير كامو (A. Camus) في إحدى قصصه التي تحمل اسم «الطاعون» (لقد عاش هذا الكاتب في الجزائر وأظهر لأهلها الحقد والعداء) ومحمد ديب الذي وصف كوارث الوباء في ثلاثيته الرائعة وخاصة «البيت الكبير» 1952.

وقد وصف عدد من الرحالة أوضاع الجزائر المأساوية في النصف الثاني من القرن الماضي ومن بينهم الرحالة الألماني «هاينريش فون مالتسان» الذي مر بالجزائر سنة 1863 وسجل مشاهداته في كتاب بعنوان «ثلاث سنوات في شمال غرب إفريقيا» يذكر فيه أنه رأى في كل النواحي التي زارها

(*) ملاحظات لكاتب هذه السطور.

« خرائب من الطين يسكنها أناس يلبسون ثيابا بالية معظمهم في حالة جوع دائم وعلى حافة الهلاك »(*) .

وتحضرنا في هذا السياق الصور المروعة التي يقدمها الباحث الفرنسي (Y. Bonot) في كتاب صدر قبل عامين أي سنة 1994 يحمل اسم المذابح الكولونيالية (1944–1950) يصف فيه استباحة أرياف ومدن الجزائر بعد المظاهرات السلمية في ماي 1945 لمدة ستة أشهر، ويقارنها بما قامت به فرنسا في كل من مدغشقر وفيتنام، وعلى الرغم من أنه لا يحدد عدد الشهداء الجزائريين بـ 45000، فإنه يذكر بأن الأوروبيين كانوا يتنافسون في طريقة قتل الجزائريين وحصيلة كل واحد منهم من القتلى مثلما يفعلون عند الخروج الى الصيد.

يمكن القول بأنه من بداية الاحتلال حتى أوائل الستينات من هذا القرن حافظت فرنسا الكولونيالية على استراتيجية ثابتة، قامت تلك الاستراتيجية على ثلاثة أهداف، قد تركّز على واحد منها أكثر في مرحلة ما، ولكن سياسة المدفع (La canonniére) كانت هي الغالبة، وهذه الأهداف هي:

أ- الإبادة والتشريد للاستيلاء على الأراضي والتقليل من عدد السكان وإرهاب من بقي منهم على قيد الحياة، الغرض المعلن هو تأسيس مستثمرة استيطانية (colinie de peuplement) على غرار ما حدث للهنود الحمر في شمال أمريكا والسكان الأصليين في استراليا.

ب- تحطيم البنية الاجتماعية والثقافية وتحقير الجنس والعقيدة تمهيدا للتمسيح، فقد أورد « أجرون » (ch.r. Ageron) في دراسة نشرها سنة 1992 بمناسبة الذكرى الثلاثين للجزائر المستقلة، أورد نصا أشبه بمرسوم للتنفيذ حرره الأب فويو (L. Veuillot) وسانده لا فجيري (Mgr. Lavigerie) يقول النص: امسحوا القشرة السطحية للإسلام فسيظهر لكم جوهر الجزائر المسيحية.

(*) ترجم هذا الكتاب القيّم الذي ظهر في ثلاثة أجزاء الدكتور أبو العيد دودو، والاقتباس المشار إليه ورد في الجزء الثالث من طبعة 1980 للشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

gratter la couche d'Islam superficielle pour mettre à nu l'antique substatum chrétien de l'Algérie).

وبناء عليه فقد تنبأ الكادينال لا فجيري في إحدى هلوسات الحقد والتعصب بأن منطقة القبائل ستكون خلال أقل من جيلين قد تغيرت وأصبحت فرنسية (la Kabylie serait en moins de deux générations transformée et française)

ج – اقتلاع إرادة المقاومة عند الجزائريين وترويضهم بالاستقطاب والتخويف من عظمة فرنسا وجيشها الامبراطوري الجبار، يسمي أجرون هذه الحرب النفسية: تحطيم المعنويات D) (Désarmement moral des indigènes .

غير أن الباحث السيسيولوجي جاك بيرك (J. Berque) لاحظ في هذه الفترة بالذات، أي أوائل الخمسينات أن الجزائر العميقة كانت تغلي كالبركان، يقول في كتابه الجزائر بين حربين (يقصد الحربين العالميتين الأولى والثانية): «إن وجوه الناس في الشوارع تنقل حالة المناخ السياسي المضطرب، أفضل من تقارير البوليس (Le visage de la rue traduit mieux que les rapports de police, le climat politique)[2].

كانت الجزائر في مستهل الخمسينات تئن وتتحفز تحت الرقابة المشددة لآلة القمع الجهنمية وتسلط ضباط مكاتب الشؤون الأهلية (bureaux arabes) وأعوانهم المحليين من القياد والمخازنية (suppletifs) فقد استخلص شباب الحركة الوطنية دروس كل الانتفاضات السابقة ومآسي المجزرة الأخيرة في الثامن من ماي 1945، فالوضع في الجزائر كان أدنى بكثير من حالة جنوب إفريقيا التي يحكمها قانون الميز العنصري المعلن والمعروف في العالم بأسره (Group AREAS ACT)، أما الجزائر فيحكمها نفس القانون بالإضافة الى الحقد الأسود، ولكن بطريقة سرية يغطيها نفاق الإدارة الكولونيالية وخداع حكومات باريس المتعاقبة.

عند الحديث عن ضحايا القمع والإبادة ينبغي أن نحاكم فرنسا من واقع مخططها الأصلي ذي المراحل الثلاث التي أشرنا إليها فيما سبق، (إبادة جماعية – تحطيم البنية الثقافية والاجتماعية – تخريب معنويات الشعب)، والتصريح علانية بهدفها النهائي وهو أن فرنسا أرادت جزائر بدون جزائريين.

لقد عبر الأستاذ باتريك إيفونو (P. Eveno) سنة 1992 عن هذا الهدف النهائي المرعب بلغة مهذبة وسماه التناقض الأساسي يقول: «ظهر التناقض الأساسي في جزائر العهد الكولونيالي في النصف الثاني من القرن العشرين: لابد من وجود مواطنين فرنسيين في الجزائر لأن الجزائر ينبغي أن تكون فرنسا، وإبقاء الجزائريين تحت الوصاية، لأنهم إذا حصلوا على حق المواطنة فهناك خطر من أن يسيطروا سياسيا على بلد هو موطنهم».[(6)]

"la contradiction fondamentale de l'Algérie coloniale se développe dans la première moitié du 20ème siècle: il faut trouver des citoyens français car l'Algérie doit devenir la France, et de mointenir les algériens en tutelle, qui risquent en devenant citoyents de dominerpolitiquement leur propre pays"

ما يسميه الأستاذ «إيفونو من جامعة باريس[(11)] التناقض الأساسي نعتبره نحن الحل النهائي بالمعنى النازي لهذه الجملة (solution finale) أي القتل المبرمج والاذلال والتعذيب وخاصة أثناء ثورة التحرير الكبرى. وليس هفوات (bavures) كما يدعي قسم كبير من أجهزة الإعلام والتيارات المتواطئة معها من الطبقة السياسية والمجتمع المدني وامتداداتها داخل اللوبيات والكارتل الصناعي العسكري في فرنسا وحلفائها في الحلف الأطلسي.

لن تستهوينا مغالطات مثل كلمات هفوات وأخطاء نادرة ومعزولة والشعارات الأخرى التي استعملتها أجهزة القمع والتخريب الكولونيالي المعروفة باسم (La S.A.S)، فمن يعوض الجزائر عن مليون ونصف من الشهداء الأبرار؟ وهل لهؤلاء الرجال والنساء ثمن؟ ومن يعوض الأمهات الثكالي والنساء الأرامل والأبناء الأيتام في مراحل الطفولة الأولى؟

هل ينسى عشرات الآلاف من الرجال والنساء ما عانوه في السجون والمعتقلات ومراكز التعذيب ومشاهد الجلاد وهو يقود رفاقهم الى المقصلة؟ كيف يمكن أن نقدر الثمن الذي دفعه شعبنا إذا عرفنا أنه خلال خمس سنوات (55–59) تم تهجير وتجميع حوالي ثلاثة ملايين من الجزائريين أي ما يقارب ثلث مجموع السكان بالإضافة الى مئات الآلاف

الذين فروا تحت وطأة القصف وغازات النابالم السامة الى خارج الحدود في ظروف قاسية وفي حالة من التعاسة القصوى.

هذه لقطات جزئية لما تسميه فرنسا الرسمية هفوات (Bavures)، لقد اطلعنا في أواخر الستينات ونحن نشتغل بإعداد دراسة جامعية عن معطوبي حرب التحرير على دراسة للسيد ميشيل كورناتون (M. Cornaton) بعنوان(Les regrouments de la décolonisation en Algérie) يقدم هذا الباحث الذي شارك في الحرب القذرة لمدة 14 شهرا ابتداء من سنة 1959 وعاد الى الجزائر ليعمل كمتعاون منذ 1962، أقول يقدم هذا الباحث مشاهد حية عن الحالة النفسية والاجتماعية والأعراض الباتولوجية (السيكوسوماتية) (Psycho Somatiques) لما يسميه عصابات الأسر(psychoses de captivité) في مراكز التجميع والمعتقلات والمناطق المحرمة (Zone interdites) نقتطف من ذلك الوصف الفقرة التالية:

تعطي للسكان ساعات قليلة للنزوح من تلك المناطق والالتحاق بأماكن محددة، في بعض الحالات لا يتلقى الناس أي إنذار مسبق، فعلى حين غرّة يشاهدون شاحنات الجيش تحاصر القرية (...) بعد مدة قصيرة كل ما يتبقى في تلك القرية يعتبر متمردا ويتعرض الى قصف المدفعية والطيران، من بعيد نتابع إتساع المنطقة المحرمة بواسطة سحب الدخان القادمة من المشاتي المحروقة ونشاهد قوافل من الفقراء تدفع أمامها بعض الحمير والأنعام القليلة التي أمكن إنقاذها من المذبحة.. لا شيء أعد لإسكان هؤلاء الناس فهم يتكدسون بمعدل(12) شخصا في غرفة من عشرة أمتار مربعة.. إنهم في حالة قصوى من البؤس الشامل، وقد قدرت إحصاءات سنة 1961 الوفيات بين أطفال المحتشدات بالنسبة الرهيبة التالية: أكثر من 600 في 1000، ويختم الباحث دراسته الشبيهة بالشهادة (temoignage) بتقديم نماذج من تصرفات ضباط التوجيه البسيكولوجي (S.A.S) والمرتزقة (legion étrangère) وأساليبها في القتل وانتهاك الأعراض وإذلال المعتقلين في المحتشدات.

إذا كنّا نحمل فرنسا قيادة وأجهزة أمنية وسياسية وعسكرية مسؤولية جرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية التي لا يمكن أن تطوى صفحتها أبدا بحكم القانون الدولي، إذا كنا نفعل ذلك فإننا لا نزعم بأن الفرنسيين كلهم أشرار، فلا يكن الجزائريون للشعب الفرنسي أي حقد عنصري أو ديني. فإذا كانوا لا يغفرون للعملاء (Collabo) خياناتهم لشعبهم، فإنهم لا يقبلون أن يقوموا بدور الضحية الصامتة، ومن حقهم أن يشهدوا يوما ما، القيادة السياسية الفرنسية على أعلى مستوى تأتي الى الجزائر وتركع على هذه الأرض طالبة الغفران عن المذابح التي أودت بالملايين من الأبرياء وكل الدمار الذي حاق ببلادنا خلال 132 عاما، لقد أعلنت علينا فرنسا الحرب من جانب واحد وحطمت دولتنا وعاثت في أرضنا فسادا، فهل يشعر مواطن جزائري عادي بأنه مدين لفرنسا بشيء؟ العكس هو الصحيح، إن لشعبنا على فرنسا دين ثقيل لن تستطيع الإيفاء به، وعليها أن تطلب من دولتنا إعادة الجدولة فيما بقي من هذا القرن والقرن القادم.

في فرنسا رجال ونساء لم يخذلوا الحق، ولم تنقصهم الشجاعة الأخلاقية: يقول الأستاذ جاك بيرك في الطبعة (3) الثالثة من كتابه الجزائر بين حربين ما يلي:

«لا ينتفض الجزائريون (يقصد على الاحتلال) لأنهم فقراء، بل إنهم يثورون لأنهم يريدون أن يكونوا جزائريين، وقد دافعت شخصيا على هذه الفكرة في أواخر سنة 1955، وذلك على العكس مما روج له اليسار الفرنسي من أن سبب القلاقل (troubles) في الجزائر هو الفروق بين المستوطنين الأوروبيين والسكان الأصليين، لقد رفض اليسار بالإجماع (الأحزاب والمنظمات الاشتراكية والشيوعية) فكرة الهوية الثقافية للشعوب».

كما جاهر الفيلسوف سارتر (J.P Sartre) في منشور ناري سماه عارنا في الجزائر بما يلي: «إن العنف الكولونيالي لا يكتفي بإخضاع هؤلاء البشر المستعبدين، وإنما هو يحاول تجريدهم من إنسانيتهم، إنه لا يدخر جهدا للقضاء على تقاليدهم وإحلال لغتنا محل لغتهم ليهدم ثقافتهم، دون أن يعطيهم ثقافتنا، لسوف يسحقهم تعبا».

لا ننسى رجالا ونساءا آخرين مثل الزوجين شوليه، وخاصة د، شوليبه (Dr. Cholet) نائب رئيس المرصد الوطني لحقوق الإنسان حاليا، وكذلك التنظيم المعروف باسم حملة الحقائب وعلى رأسهم السيد جونسون (Francis Jeanson) وحتى من بين الساسة والنقابيين وحملة جائزة نوبل للسلام الذين دعوا بوسائل مختلفة لرفض التجنيد وإرسال شبان الخدمة العسكرية الى الجزائر وقاموا بمظاهرات واحتجاجات كثيرة للتنديد بما سماه فرنتز فانون في كتابه المعذبون في الأرض «بحر الدماء والدموع»: «الجزائر».

إن شعبنا الكريم المسامح في السراء والضراء.. يحتفظ بالتقدير والعرفان لكل أولئك الرجال والنساء وقد ضع اسماءهم على ساحات العاصمة مثل «ساحة موريس أودان» (M. Audin) في قلب العاصمة، إنه لا ينسى المتعاطفين معه في محنته وأصدقاءه، لقد كان على الدوام أعظم من جلاديه، (وبالمقابل لا توجد أية لوحة أو تذكار عرفانا بتضحيات آلاف الجزائريين الذين شاركوا في حروب فرنسا وساهموا في تحريرها من الاحتلال النازي)، ثلاثة وعشرون قرنا من الانتفاضات عبر عنها بول بالطا (P. Balta) بعد مقام طويل في الجزائر بجملة واحدة «ثلاثة وعشرون، قرنا من التمرد.. لا للمحتلين (23 siècle de rébéllion... non à l'envahisseur).

هذه هي الجزائر التاريخية جزائر المحنة والصمود.. جزائر الحاضر والمستقبل قوتها في وحدة جبهتها الداخلية وضعفها في الفرقة والتناحر، ثوابت للقوة تثير الحسد وشغف دائم بالحرية والتقدم والعدالة الاجتماعية، إعتزاز بالهوية الوطنية وخصوصياتها الأمازيغية التي امتزجت بعمقها الإسلامي وثقافتها العربية، وحد ذلك المزيج شعبنا وأثرى مخزونه النضالي، وجعل من جزائر الصمود والثورة جوهرة على رأس حركة التحرر الوطني في المنطقة العربية الإسلامية والقارة الإفريقية.

مصـــادر

(1) Ageron (Ch. r): l'échec d'une nouvelle France in nov. ob, dossier no, Paris 1992.

(2) Berque (J): le Maghreb entre deux guerres, 3ème ed. espri ed. esprit seuil, Paris 1978.

(3) Balta (P): Vingt trois siècle de rebéllion Nov. ob.cit.

(4) Bonôt (Y): les massacres coloniaux 1944-1950 ed. découverte, Paris 1994.

(5) Cornaton (M): les regroupements de la décolonisation en Algérie, ed ouvrières, Paris 1967.

(6) Eveno (P): la trace coloniale in Nov. ob. op. cit.

(7) Lachref (M): in revue santé Militaire, T.22 Alger 1993.

(8) Vatin (J.C.) et Lucas: l'Algérie des anthropologues Maspero Paris 1982.

(9) محمد العربي ولد خليفة: الثورة الجزائرية معطيات وتحديات مؤسسة النشر والتوزيع، 1991.

(10) محمد العربي ولد خليفة دراسة مقارنة هن الحرب الثورية والحرب التقليدية مجلة الجيش: الأعداد من 67 الى 70 لسنة (1968–1969).

المرأة الجزائرية
مشتلة الثورة وحاضنة الوطنية

يتزامن انعقاد هذا الملتقى عن المرأة الجزائرية ودورها في الثورة مع إحياء الذكرى الرابعة والثلاثين لميلاد الجزائر الجديدة وإعادة تأسيس دولتها الفتية، بعد تغييب قهري لمدة تزيد على قرن وثلث، استحلت أثناءها فرنسا الإمبريالية أرضنا وعاثت فيها فسادا.

آلة عسكرية جهنمية تثأر لهزائمها على الجبهات الأوروبية والهند الصينية، تطبق في بلادنا سياسة الأرض المحروقة والإبادة الجماعية génocide ضد شعب أعزل ووحيد يرفض بطبعه الذل والخنوع، وينتفض على جلاديه مرة على الأقل في كل عشر سنوات طوال تلك الحقبة الحالكة والمأساوية من تاريخه (1830-1954) المليء بالمحن والامتحانات، حتى المجابهة الفاصلة في الأول من نوفمبر 1954.

على العكس من كل الادعاءات الخادعة عن مهمة فرنسا التمدينية في الجزائر ولافتات الإشهار البراقة عن الإنسان وحقوقه التي تضمنها إعلان 1793، فقد أعلنت بلادنا بعد أقل من أربعة عقود من هذا الإعلان (1793—1830) منطقة للقتل المباح والدمار الشامل، واستمرت تلك المهمة القذرة بلا انقطاع الى غاية عام 1962.

الى جانب الآلة العسكرية المتخصصة في القتل المبرمج، جندت فرنسا الكولونيالية جهازا آخر تكلف بمهمة التدمير من الداخل يتكون ذلك الجهاز من خبراء في الحرب النفسية يعملون جنبا الى جنب مع الآلة الحربية لإخضاع الأهالي indigènes واقتلاع جذور المقاومة وتحطيم معنويات الشعب، اطلقوا على تلك المهمة اسم تجريد الأهالي من سلاحهم المعنوي (désarmement moral des indigènes)[1].

(1) Ch. Ageron: l'echec d'une nouvelle France N. Observateur N°9, pp: 20-21, Paris 1992.

وبالتالي فإن الذي يفلت من الموت بحد السيف أو بالمجاعات والأوبئة، يتعرض لتشويه من الداخل يوحي إليه بأنه تافه بسبب الجنس (Race) الذي ينتمي إليه وصغير جدا مقابل جبروت الرومي وتفوقه.

قبل أن نعرض الى جوانب من هذه الحرب المزدوجة (العسكرية والنفسية) وآثارها على شعبنا وخاصة على شريحة النساء سند الثورة وعمقها البشري الذي جمع بين الصبر والصمود وخوض الكفاح والتحريض على المقاومة قبل ذلك نشير الى الملاحظات الست التالية بإيجاز:

1 – يحق للجزائريين نساءا ورجالا، ومن كل الأجيال أن يفخروا بانتصارٍ شعبنا وأن يستلهموا من تضحيات شهدائه العظام ومجاهديه الأوفياء عبرة ومنهاجا.

نجد في العبرة – (ولا فائدة من الذكرى بلا عبرة) – أن قوة شعبنا في وحدة صفوفه وتضامن أبنائه وبناته، تكاد تكون هذه المعاينة التاريخية (constat Historique) قانونا أثبتته الوقائع بالأمس ويصدق اليوم وغدا.

2 – نجد في العبرة أيضا أو وراء الثورة والانتصار عاملاً معنويًا لا يخضع للعد والاحصاء إنه الإرادة والتصميم على الكفاح مهما كان الثمن المطلوب لبلوغ النصر وتحرير الجزائر من كابوس السيطرة والتسلط الأجنبي، عوّض ذلك العامل المعنوي الى حد كبير الاختلال الواضح في ميزان القوة الذي كان لصالح العدو في جميع الميادين، فلا ينبغي أن ننسى أن كمشة من الناس اعتبروا الثورة مغامرة أو نرفزة مؤقتة ستنطفي بسرعة تحت وطأة القمع والتفوق الهائل للعدو، أما الانتصار فإنه أمر لا يخطر على البال، بل إنه كان يثير في ذلك العهد التعجب والسخرية.

3 – نجد في المنهاج أن الثورة ليست مجرد شعارات وجدليات، بل هي تنظيم وانضباط وأخلاقية تقترب أحيانا من المثالية، هي مزيج من قيم ديننا الإسلامي الحنيف وتراثنا الشعبي الذي بحث على الشهامة والتضامن والإحساس بالمسؤولية تجاه المجموعة المحلية والوطنية ولا يرضى ولا يطيع إلا المسؤول الذي يتفانى في أداء الواجب ويضرب المثل بسلوكه

الشخصي وليس بالكلام والخطب «البلاغية»، وعلى هذا الأساس فإن المسؤولية في منظور الثورة كانت قدوة ولم تكن حظوة تعطي لصاحبها الامتيازات وتعفيه من الواجبات وتسمح له بالتجاوزات.

4 – إذا حدثت أخطاء بين رفاق الجهاد – (وقد حدثت بالفعل فهم بشر وليسوا ملائكة) – فإن تلك الأخطاء هي الاستثناء وليس القاعدة إذا قارناها بثورة المقصلة في فرنسا، والثورة البولشفية التي هي في الأساس حرب أهلية بين الطبقات، أو ما يسمى الروس البيض والروس الحمر، والثورة الإسبانية التي نقلت إسبانيا من وهم الجمهورية الى حكم عسكريتاري (soldatesque) لا هو ملكي ولا هو جمهوري، لن نشير الى ثورة الصين وقصة الشفق الأحمر فتلك ثورة لم تحقق وحدة الصين الترابية والبشرية الى يومنا هذا، على الرغم من طول نفسها وعظمة إنجازها الراهن.

5 – لا تتسع هذه الكلمة المتواضعة لمقارنة تفصيلية بين ثورة نوفمبر 1954 وثورات أخرى عبر العالم في تاريخه الحديث، ومع أنني أتمنى أن يحدث ذلك يوما – ما – فإنه من الضروري التأكيد على أن لكل ثورة سياقها التاريخي، وأرضيتها الثقافية الاجتماعية وإشكالياتها النوعية، فلا نقصد بالمقارنة المفاضلة أو الانتقاص من أية تجربة فيما كان يسمى الشرق الاشتراكي أو الغرب الليبرالي، ولكننا لا نرى أية موضوعية عند أولئك الذين يبحثون بشغف مشبوه عن المآخذ – (الثورة في رأيهم سلسلة من المؤامرات والصراعات والاغتيالات) – والنقائص، ولا يرون في الكأس سوى جزئه الفارغ ويتعامون عن جزئه الآخر الأكثر امتلاء بما حققته ثورة شعبنا من مكاسب، أولها النصر المؤزر، وإعادة تأسيس الجمهورية، وما تحقق بعد ذلك من منجزات، من الطبيعي أن تتعرض بين الحين والحين للنقد والتقييم بنظرة منصفة تتجنب الانتصارية (Triomphalisme) التي تدعى أن كل شيء قد بلغ الكمال والإتقان، وأن الأمس خير على الإطلاق من اليوم والغد، وتتجنب أكثر الانهزامية والكارثية (Nihilisme - catastrophisme) المؤدية الى اليأس وتحقير الذات الوطنية (Autodévalorisation)، بل توحي

لشبابنا الذي هو أمل الأمة ورصيدها المستقبلي بأن ما قبل 1954، هو أفضل من كل ما أنجزته الجزائر بعد الاستقلال، وهذه مغالطة تزيف حقائق التاريخ وتتعارض مع بديهيات العقل السليم فالاستعمار أو الكولونيالية شر كله وليس فيه مقدار يوطا من الخير، أما التحرر والحرية فهي مشروع مستمر في حاجة الى التحوير والتصحيح والتكيف والإثراء، وكما يقول ألبير ميمي في كتابه عن الإنسان المغلوب (l'homme dominé) [1]: «إن الحرية هي أفضل على الإطلاق من العبودية، ولا ينبغي أن يأسف فرد أو شعب على مقدار ما يضحي من أجلها».

6 – نجد في المنهاج كلمة السر الأولى في حرب التحرير وهي الاعتماد على النفس والثقة في الشعب، أعلنها البيان البرنامج للثورة في الأول من نوفمبر 1954، وطبقها المناضلون والمجاهدون في الميدان، بالاعتماد على النفس أولا، تمكن المجاهدون من التغلب على التردد والنقص الفادح في وسائل الكفاح، ومواجهة العدو وجها لوجه وإجباره على حشد أرمادا لم يسبق لها نظير في القارة الإفريقية، وعلى مستوى العالم الثالث باستثناء فيتنام، وبذلك اعترف ضمنيا أنه يواجه حقيقية لم تمنعها عمليات التمشيط والقصف الجهنمي ليلا ونهارا بالأسلحة القوّة التقليدية والمحرمة (قنابل النابالم والفسفور) والحواجز المكهربة والملغمة على الحدود والتمثيل بالجثث الطاهرة للشهداء وعرضها في أسواق المداشر وأمام الكاميرات، لم يمنع كل ذلك المجاهدين والفدائيين والمسبلين من ضرب العدو في مفاصله الحساسة وإشعاره في كل لحظة بأنه يعيش في جحيم لا مخرج له منه إلا بالتسليم بحق الشعب في تقرير مصيره وانسحاب الغزاة المعتدين بلا شرط ولا قيد.

الثقة في الشعب كانت في الحقيقة مفتاح النصر، فقد كانت أغلبية الجزائريين في البوادي والقرى والأحياء الهامشية في المدن «أكسجين» الثورة تبنّى أولئك الناس البسطاء الثورة وتقبلوا عن اختيار ضريبتها

(1) A. Memmi: L'homme domine, p: 11, Paris 1968.

القاسية، واعتبروها قضيتهم الأولى، لا تسبقها أية أولوية أخرى فقدموا ممتلكاتهم الشحيحة بسخاء، وحثوا فلذات أكبادهم على التضحية والفداء، هذا هو شعبنا عندما يتجند ويتعبأ للدفاع عن قضاياه المصيرية، إنه قادر على التفوق على نفسه والارتفاع فوق جروحه وآلامه، إنه يعرف بحسه السليم أين الحق وأين الباطل، هذا الأمر صحيح بالأمس القريب وهو أكثر صحة اليوم فهل نستلهم العبرة؟ ونكرر القول بأنه لا خير في ذكرى بلا عبرة!

بعد هذه الملاحظات الأولية المتعجلة، نعرض كما أشرنا في بداية هذه الورقة الى جانب صغير من الكفاح التاريخي للمرأة الجزائرية ومعاناتها القاسية خلال حرب التحرير ومضاعفات المعاناة على وضعيتها النفسية الاجتماعية والنظر بعين منصفة الى ما تحقق لها من مكاسب وما تواجهه من مصاعب لا يختلف بعض تلك المصاعب عما يعانيه قرينها الرجل لسببين.

أولهما: إن الجزائر بلد عاش عشرات إن لم نقل مئات السنين إما في حالة استنفار وتعبئة لرد العدوان، وإما في حالة حرب تدميرية، لا يميز فيها العدو بين رجاله ونسائه، ووصل قبيل الثورة الى حالة قصوى من الانهاك والخراب المادي والمعنوي، حتى تشكك البعض في وجوده أصلا وأرتأى البعض الآخر أن مجرد محافظته على البقاء (Survivre) هو في حد ذاته أمر شبيه بالمعجزة، إذ كيف يتواصل بقاء المجتمع الجزائري بلا دولة لمدة تزيد على القرن إنها لظاهرة تستحق الدراسة والتأمل.

ثانيهما: ينبغي أن نخرج من التجريد والتعميم ونتساءل عن المرأة التي نتحدث عنها؟ الجواب إنها الأم أو الزوجة إنها الأخت أو الابنة ومن هو الرجل الذي نحاسبه؟ الجواب إنه الأب أو الأخ، الابن أو الزوج، وفق هذا المنظور فإن المجتمع يبدأ من وحدته القاعدية وهي الأسرة وليس من جزئيات ذرية، إنه يقف أو يمشي على رجلين ولا يمكن أن يحفظ توازنه إذ عطل نفسه بالمشي على رجل واحدة وهل ذلك ممكن بعد تجربته الثورية الأصيلة؟!

المدخل الصراعي لا يحل الإشكالية، ويبدو لنا وكأنه فخ يتخبط فيه البعض عن حسن نية والبعض الآخر لأغراض أخرى من بينها تفكيك المجتمع وتشتيت قواه الحية في معارك جانبية بين الأجيال من الشباب والكهول وبين قطبي المجتمع وهما الرجل والمرأة، نحن نرى أن مشكلتنا الحقيقية هي التخلف، واضطراب الرؤية لماضينا في استمراريته التاريخية، والاستقطاب الخارجي الذي يشوش وأحيانا يمنع من وضع استراتيجية وطنية متكاملة للتقدم، ومواصلة مشروع الثورة فهل يتقدم مجتمع إذا كان رجاله متخلفين عن عصرهم؟ هل تحرر المرأة؟ ومم تتحرر؟ إذا كان الرجال ذهنيا في عصر الكهوف، إن التقدم عملية كلية يشارك فيها النساء والرجال ابتداء من الوحدة الحقيقية للمجتمع ومدرسته الأولى وهي الأسرة حتى قمة الهرم في الدولة ومؤسساتها السياسية الاجتماعية، في هذه الحالة تكون القوانين والمراسيم نتيجة طبيعية لتقدم يحدث من داخلنا وضمن قيمنا الحضارية التي يحق لنا أن نعتبرها عالمية (universelles), إن التطور في نهاية الأمر عملية تربوية بالمعنى الواسع لهذه الكلمة، تتولد عنها بالتدريج ثقافة اجتماعية هي حصيلة التراكم (Accumulation) الحضاري فيما يسمى تراث الأمة (leg de la nation)، ولا يحدث التراكم بالأمر وطريقة كن فيكون!.

نعرض بعد هذا التوضيح الى جانب من كفاح المرأة ومعاناتها على النحو التالي:

1 – كانت المرأة في بلادنا ومازالت قلعة الصمود والمقاومة عماد الأسرة وخزان الوطنية، حافظت على الانتماء الحضاري للأمة عقيدة وسلوكا، وبلّغت ذلك الانتماء للأبناء والأحفاد عن طريق التربية وبواسطة الأحاجي والأساطير الملحمية والقصص الشعبية عن بطولات الأجداد للإبقاء على جذوة المقاومة.

في احضانها نشأ وترعرع الأبطال من الشهداء والمجاهدين أبطال الحرية والمدافعون عن الكرامة والهوية.

المساهمة الفعالة للمرأة في الثورة لا تنسينا امتدادها التاريخي على الأقل منذ الهجوم الغادر على الجزائر وبداية الاحتلال الإجرامي، فعلى الرغم من قلّة الوثائق والدراسات التي أفردت لهذا الجانب، فإننا نعرف اليوم أن المرأة كانت هدفا رئيسيا لقوات العدو وعلى رأس القائمة في مخططه الشيطاني لإخضاع شعبنا وتدمير بنيته الاجتماعية، وتفكيك النواة الصلبة للمجتمع المتمثلة في الأسرة التقليدية الممتدة (Exetended Family) لنتأمل هذه الفقرة التي تصف سقوط زمالة الأمير عبد القادر في 16 ماي 1943:

«كانت جموع الجنود والضباط تحوم صامتة وكأنها أشباح الأبطال وليسوا الأبطال أنفسهم، يلفها شعور واحد من الحزن والألم... لقد كانوا بالأمس يجاهدون بتشجيع واستنفار من نسائهم وأمهاتهم لتحرير الوطن... أما اليوم فهم يفكرون في أن عليهم أن يعملوا لتحرير نسائهم وأبنائهم من ذل الأسر والعبودية!»[1].

لقد استولى الجيش الفرنسي بقيادة «دومال» في هذا الهجوم الغادر على المدنيين على أكثر من ثلاثة آلاف أسير 75٪ منهم من النساء والأطفال ومنحت الدولة الفرنسية المعتدية رتبة ماريشال للجنرال بيجو مكافأة له على هجوم جبان في غياب الجيش الجزائري، واختطافه للنساء.

إن ابتهاج الفرنسيين بأسر النساء يؤكد أنهم كانوا على يقين بأن المرأة التي تربي الأبطال هي أيضا بطلة وعلى استعداد للتضحية بأعز ما تملك فداء للشرف والوطن.

ويذكر الكولونيل سكوت (Scott) في مذكراته وقد عاش هذا العسكري البريطاني رفقة الأمير عبد القادر سنة 1841 يقول[2]:

---

(1) إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، ص: 242، ط2 (سنيد 1982).

(2) سكوت: مذكراته عن إقامته في زمالة الأمير عبد القادر، ترجمة إسماعيل العربي، ص: 128، طبع سنيد، 1981.

«قد لا يعرف القارىء ما يسميه الفرنسيون الغزوة (RAZZIA) ولذلك سأخبره بأن هذه الكلمة تعني حملة عسكرية على قبيلة معينة، مدفوعة بتلك الروح «المسيحية السامية» لتقتل جميع الذكور، وتدمر كل ما لا يمكن نقله، ثم تعود بالنساء والأطفال أسرى، ولضمان نجاح هذه العملية يجري تخطيطها بسرعة كاملة، وتتخذ الاجراءات الصارمة للإحاطة بالقبيلة المنوي تدميرها بقوات كبيرة بحيث يكون الهرب مستحيلا لأي مخلوق، والسكان الآمنون لا يدركون الخطر المحدق بهم إلا عندما يسمعون قرع الطبول التي تضرب نغمة مؤذية للسمع، وبعد ذلك تقع المفاجأة التي لا نجد لها مثيلا إلا فيما نعرفه من قصص إبادة الهنود الحمر»، انتهى النص.

لا تحتاج هذه النصوص التوصيفية الى أي تعليق أنها تؤكد فقط وقائع تاريخية وتثبت مقولتنا السابقة وهي أن المرأة كانت على الدوام هدفا مباشراً لقوات العدو التي استباحت أرضنا واعتدت على حرمات شعبنا ومقدساته ومن بينها حرمة الأسرة ورمزها القوي وهو المرأة.

2 – عرفت شعوب كثيرة – وخاصة في أوروبا – أهوال الحروب وتعرضت عقب ذلك لهزات عنيفة أثرت على بنيتها الاجتماعية وأوضاعها الاقتصادية، ولكن هذه الحروب كانت توكل أساسا لجيوش نظامية، الدافع لتلك الحروب هو التنافس والصراع على مناطق النفوذ واقتسام الغنائم على الساحة الواسعة للعالم الثالث.

لذلك لا يمكن مقارنة تلك الحروب الكلاسيكية وآثارها على المحاربين أنفسهم وعلى المجتمع بالحرب الثورية التي لا علاقة لها بالاحتراف، وبالنسبة للجزائر فإن الشعب في معظمه كان في حالة حرب سافرة (الانتفاضات ثم الثورة) أو إما في حالة حرب مقنعة (المقاومة بالرفض والاحتماء بالآليات الدفاعية)، من الفصول المأساوية التي بقيت مجهولة وتحت ستار الكتمان ما يسميه الدكتور جيلالي صاري «الكارثة الديمغرافية» (1)

(1) Dj. Sari l'Algérie à la ville de l'insurrection de 1871 in Majallot et Tarikh n°9, pp: 12-45, Alger 1980.

التي وصلت إليها الجزائر بعد 1860، نتيجة مخطط إجرامي للإبادة والتجويع والتفقير والمساعدة على نشر الأوبئة بين السكان الأصليين (Autochtones) وتشير التقارير القليلة المتوفرة الى أن نسبة عالية من الضحايا من النساء والأطفال كما يشير الى ذلك الجدول التالي:

المناطق	عدد الضحايا	٪ من سكان كل منطقة
الوسط	200.000	%26,9
الشرق	220.000	%20
الغرب	400.000	%50
المجموع من كل سكان الجزائر	820.000	%32,3

جدول رقم:1 عدد الضحايا الجزائريين في كل منطقة ونسبتهم لمجموع السكان.

إن الذي يثير الانتباه عند تأمل الأرقام المرعبة السابقة هو أن القتل المبرمج والإبادة الجماعية لم تثن من عزيمة شعبنا على المقاومة والصمود، بل كانت من حوافز انتفاضاته المتتالية.

مع صعوبة المقارنة يمكن أن نشير الى الدراسة التي قام بها خبراء الحرب النفسية الأمريكان تحت عنوان «أثر الإلقاء الاستراتيجي للقنابل على المدنيين الألمان»[1] أثناء الحرب العالمية الثانية، وفي نهاية 1944 بالتحديد، توصلت الدراسة الى نتائج من بينها:

أ – ان هناك تدرجا في انخفاض الروح المعنوية كلما تعرض المدنيون الى إصابات قاتلة أو مشوهة.

ب – إن الألمان المعروفين بالنظام والانضباط ظهرت عليهم بعد اشتداد القصف أعراض البلادة والفوضى والجمود الذهني.

ج – إن الكثير منهم يتحدث خفية أو علنا عن استحالة بذل مجهود أكبر واستمرار المقاومة، بل إن أولياء المجندين في جبهات القتال يقولون

(1) T.V. Andrews: Methods of Psychology T.2, p: 272, NY, 1948.

بأن هزيمة كاملة على وشك الوقوع وأن من الخير لألمانيا أن تستسلم بسرعة وبلا شروط.

هذه هي حالة الشعب الألماني بعد خمس سنوات من الحرب الكونية، ولا أحد يجهل عظمة جيشها وآلتها الحربية التي سحقّت فرنسا في أقل من أسبوع، أما حالة شعبنا الذي قاوم بلا جيش ولا دولة فإن الروح المعنوية لنسائه ورجاله قد تواصلت ولم تنخفض طيلة قرن وثلث، قد تتستر على العدو، وقد تنفجر ولكنها لا تعرف الاستسلام.

3 - لم يتوقف كفاح المرأة الجزائرية عند دور الإسناد والتحريض على المقاومة، بل إنها تصدرت صفوفها وقادتها، كما فعلت البطلة لالا فاطمة نسومر بطلة الجزائر العظيمة ومفخرة جرجرة الشماء التي جمعت بين شرف النسب واستحقاق ذلك الشرف بشجاعتها وهمتها العالية.

لقد قادت سنة 1948 اثنيْ عشر ألف رجل وواجهت قوات الاحتلال وشظف الحياة في الشعاب والوديان وقمم الجبال وهي في ريعان الشباب.

لم يعترض أحد من الرجال وبينهم علية القوم (إمرابضن) على أن تقوده امرأة وفوق ذلك صغيرة السن، فعلى العكس من ذلك كان شعارهم هو هل تتقدم شابة في عمر الزهور الى ساحة الحرب ويتخلف الرجال؟! ولعل ذلك هو السر في الضخامة النسبية لقواتها المقاتلة فضلا عن شخصيتها الفذة التي ميزتها عن غيرها بسبب ما اتصفت به من شجاعة وحكمة وتقوى وإصرار على طرد الكافر المتجبر.

لقد ساءنا أن نقرأ في إحدى صحفنا العنوان التالي: «فاطمة نسومر جان دارك الجزائر»، لا نرى وجه الشبه بين بطلتنا المغوارة وهذه المرأة التي عملت لصالح الملك شارل السابع بعد أن أقنعته بأنها تلقت أمرا إلهيًا برفع الحصار الإنجليزي عن أرليان (Orleans) وأعلنتها الكنيسة قديسة، بعد أن حاكمتها نفس الكنيسة الكاثوليكية وقضت بإعدامها حرقا سنة 1431 [1]

أما فاطمة نسومر فلم تعمل لصالح أي ملك أو دوق لقد ناضلت وسط

(1) Encyclopedie La Rousse, p: 1004 Ed Omnis, Paris 1977.

شعبها ولم تدع القداسة ووقعت في الأسر حتى ماتت غما وكمدا على وطنها المكبل بالأغلال، إنها المجاهدة فاطمة، فهل هناك ما يفوق الجهاد والاستشهاد في سبيل الله وحق الشعب في الحرية والكرامة؟ وهل تصح المقارنة بين المغامرة المدفوعة الأجر عند جان دارك وبين النبل والطهارة والتضحية بلا حساب سوى حب الوطن والغيرة على مقدساته؟ وبينما تبقى لالا فاطمة مفخرة لشباب الجزائر فتيانا وفتيات، باعتبارها الرمز والقدوة، دخلت جان دارك قائمة قديسي الكنيسة، وأصبحت ساحتها المعروفة في باريس ميدانا للمسيرات والتظاهرات العنصرية في السنوات الأخيرة تنادي بمزيد من الكراهية للفقراء والضعفاء والملونين، في هذه الساحة وأمام تمثال جان دارك تنظم مهرجانات الحقد والتعصب والتطرف محرضة على العدوان ومطالبة بطرد الأفارقة والعرب والمسلمين لا يهمنا اسم الزعيم والتيار، إنه جزء من المؤسسة السياسية الفرنسية (Establishment).

4 ـ لأهداف اغتصاب الأراضي التي تخضع للملكية الجماعية (أراضي العرش) وتسريع الاستيطان، عمل خبراء الاحتلال على تفكيك الأسرة الممتدة أو العائلة الكبيرة المعروفة في الريف والبادية الجزائرية.

يقوم نمط العائلة الممتدة (Extended Family) على عاملين هما رابطة القرابة والعلاقة بالأرض أي الدورة الفلاحية المتمثلة في نوعية الزراعة والفصول الأربعة.

بدون الدخول في تفاصيل هذه العملية الإجرامية التي سماها بورديو[1] (P. Bourdieu) الاقتلاع (Deracinement) فإن الغرض منها بالإضافة الى توسيع الاستيطان الأوروبي هو إضعاف التضامن في المجتمع الجزائري وتفتيته من الداخل ابتداء من وحداته الطبيعية وهي العائلة والعشيرة (clan) والقبيلة (Tribue) وخلق نزاعات وخيمة العواقب بين أفراد العائلة والعشيرة حول اقتسام المساحات الزراعية القليلة المتبقية وإشغال الجزائريين الفقراء بعضهم ببعض، ودفعهم مضطرين الى الاحتكام الى سلطة المحتل

(1) P. Bourdieu: Le déracinement, ed. de mincuit, Paris 1964.

اللاشرعية، نتج عن هذا التشتيت والتجزئة تفقير في العمق للمجتمع الجزائري أعقبه انفجار (Eclatement) في بنياته الأساسية ظهرت آثاره على الخصوص في فترة ما بين الحربين [1].

لقد تعاون الفقر والقمع على تزايد الهجرة الى المدينة والى فرنسا، كما أدى التجنيد الإجباري للجزائريين الى ظاهرة غير معهودة في مجتمعنا وهي وجود عائلات كثيرة فاقدة لمن يعولها ويسهر على شؤونها من الرجال المجندين أو المهاجرين الى فرنسا، وهنا يظهر دور المرأة الجزائرية التي تستحق أن توصف بـ «لا لا» عن جدارة، فقد قامت بدور الأم والأب معا وتكفلت بإعالة أسرتها بكدها وجدها، وظهرت في بلادنا لأول مرة الأسرة القائمة على مسؤولية الأم وحدها، وقد تنبه الأستاذ محفوظ بنون الى هذه الظاهرة وسماها في أطروحته التي قدمها في جامعة ميتشغان سنة 1976 [2] (تمحور التوجه الاجتماعي حول المرأة) (Gynocentricity) غير أننا نرى أن الأستاذ بنون يتسرع في استنتاجاته عندما يعلن انتهاء النسق القديم الى الأبد وانهيار الأساس التقليدي للعائلة الأبوية (patriarcale) في مجتمعنا في المستقبل القريب، فقد لاحظنا في بحث أجريناه سنة 1978 في إحدى قرى ولاية بومرداس الحالية أن عائلات، المهاجرين التي تشرف عليها الأم تطلب من أحد أقاربها من المحارم مساعدتها من بعيد والقيام بنوع من الحراسة أو الضمانة الاجتماعية والأخلاقية.

يصل التسرع الى حد المبالغات واختلاق الأنماط حسب الكاتالوق الغربي عند الأستاذ بورديو (P. Bourdieu)[3] ومدرسته المؤثرة الى حد كبير عند طلابه في الجامعات الجزائرية، وحسب هذا الباحث، فإن انهيار العائلة الأبوية (المزعوم) وتصاعد دور الأم، مهد لظهور مجتمع الحداثة

(1) T. R. Bugeaud: Par Lépée et la charrue P.U.F. Paris 1948.
(2) M. Bennoune: Impact of colonialism and Migration on an Algérien peasant community, Microfilm international Michigan Univ 1976
(3) P. Bourdieu Logique interne de la société Algérienne IN études du S. Social d'Alger, pp: 48-51 Alger 1959.

والعقلانية (rationalité) في مقابل مجتمع تقليدي جامد (Statique) ولا عقلاني، هذا تصنيف لا أساس له من الصحة، ففي كل مجتمع حركية Mobilité تختلف في الشدة والسرعة، وكما أن لمجتمع الحداثة عقلانيته فإن للمجتمع التقليدي أيضا عقلانيته تسمى الحس السليم (le bon sens)، وعلى أي حال لا نطيل في مناقشة هذه المسألة لأنها تتعلق بالإطار المرجعي وما يتضمنه من قيم ومعايير.

5 – أشرنا في بداية هذه الورقة الى أن فرنسا الاستعمارية استخدمت لتدمير الجزائر جهازين أولهما آلتها العسكرية وثانيهما آلة التخريب من الداخل أي جهاز الحرب النفسية الذي جندت له الكثير من العلماء والخبراء الأكثر حقدا وتعصبا، ومن المعروف أن الكثير منهم كانوا من الضباط السامين، سنورد فيما يلي وصفهم أو على الأصح ادعاءاتهم عن سمات الشخصية عند الأهالي من الرجال والنساء، ننقلها بالنص كما وردت في حوليات الطب العقلي: يتميز السكان الأصليون بما يلي [1]:

أولا: من الناحية النفسية:

أ – إنهم سريعو الاستهواء متقبلون للإيحاء فهم على استعداد لإثبات ما نفوه منذ حين، وأكثر اتسعدادا لنفي وإنكار ما أثبتوه.

ب – تبدو على السكان الأصليين ضحالة انفعالية وسطحية وجدانية حتى ليمكن القول أنه ليس لهم انفعال أصلا (Emotion).

ج – نلاحظ لديهم ضعفًا في النضج النفسي لا نظير له حتى عند الأطفال الغربيين الذين يتميزون بحب الاطلاع، إن النمو النفسي عند السكان الأصليين لم يبلغ حتى مرحلة الطفولة الأولى.

د – نظرا لضحالة انفعاليتهم وسهولة تقبلهم الإيحاء فهم معرضون بكثرة للإصابة بحوادث العمل.

(1) A. Porot: Annales medico-psychologiques n°19, p: 19 Paris 1949.

ثانيا: من الناحية العقلية:

أ - إنهم يغرقون في التفاصيل ويعجزون عن التركيب فهم يفتتون القضايا ويرونها متناثرة لا تجمعها وحدة.

ب - لعجزهم عن تصور الأجزاء والتفاصيل في ضوء الكل فهم يضفون على العناصر والأجزاء قيمة مطلقة، ولذلك نلاحظ لديهم استجابات عامة لمثيرات جزئية وتافهة.

ج - إن رصيدهم اللغوي ضعيف جدا لا يستطيعون التعبير عما يخطر ببالهم إلا بصعوبة شديدة.

د - تظهر عليهم حركات اندفاعية عدوانية، يمكن أن تتفجر لأدنى سبب ولا تتناسب مع المثيرات الخارجية، إذن هناك نزعة عدوانية متأصلة في نفوس السكان الأصليين تبحث عن التحطيم والتدمير بمختلف الوسائل.

وقد فسر الأستاذ أنطوان بورو (A. Porot) عميد هذه المدرسة المشعوذة مجموع تلك السمات في مؤتمر أطباء الأمراض العقلية الذي انعقد في مدينة بروكسل سنة 1935 بهذه المقولة المضحكة: «إن السكان الأصليين بشمال إفريقيا يتصفون بتخلف المراكز اللحائية العليا (cortex cerebral) فهم أناس بدائيون يسيطر الدماغ الأوسط على حياتهم وهي حياة قائمة على الوظائف البيولوجية الدنيا وعلى الغرائز» لا داعي للإطالة في سرد هذه الخرافات، فنحن على يقين من أن العلم منها بريء، وقد أشرنا الى إسفافها وتهافتها في مناسبات أخرى وإنما اسمحوا لي أن أذكر فتوى كبير القضاة الفرنسيين في الجزائر سنة 1955 فقد نصح في محاضرة ألقاها على كبار الضباط، وثورة نوفمبر في بداياتها نصحهم بمعالجة تمرد الأهالي باعتباره ظاهرة موسمية على حد قوله بطريقة البسيكودراما وهو يقول بالنص:

«إن الجزائري يحب المعامع ولابد أن ينطلق حنينه الى العصيان من حين لآخر، وهذه حالة بسيطة يمكن معالجتها بواسطة ألعاب مثل الفانطازيا واختبارات البسيكودراما والسيسيودراما لامتصاص هذه النزعة الفطرية.

6 – تدخل الصورة أو البروفيل المنحط للجزائري في إطار استراتيجية مخططة في دوائر الحكم الفرنسية ونعتقد أنها متواصلة الى اليوم عن طريق دفع الشباب والأقل شبابا الى احتقار ذاتهم كأفراد وكشعب، نسمي هذه العملية الخطيرة التي لم تحدث على هذا النطاق الواسع في أي بلد من الجوار المغاربي والعربي نسميها الاستنقاص وكراهية الذات والشعور الحاد بالتفاهة والصغار auto-dévalorisation .

وكلنا على علم بالشعارات الهدامة التي رفعت في السنوات العشر الأخيرة عن بابور أستراليا واللافتات التي تراها أحيانا في الطريق وحتى في مداخل القرى والمدن الصغيرة وتحمل اسم القرية وسهما يشير الى كندا أو أستراليا ثم يأتي بعدها كذا ألف كيلوتمر.

إذا كنا لا نعتبر توصيف وتحليل مراحل من ماضينا مدخلا لتبرير أحوالنا الراهنة، أو حائط مبكى يساعد على الهرب، وإلقاء المسؤولية على سلف نشغل أنفسنا بالخصام حول سيرته الشخصية ومنجزاته ونصنفه الى سلف صالح وآخر غير صالح، فإننا لا نضع كل اللوم على شبيبتنا، فكثير من الظواهر الشاذة والتصرفات الساخطة على الوطنية ومرتكزات الانتماء لهذا الوطن، هي في نهاية أي تحليل نزيه مسؤولية مشتركة تتقاسم ذنوبها كل هيئات المجتمع ومؤسسات الدولة.

إن اتهام الأسرة وحدها، أو حصر الخلل في المدرسة وحدها، هو تضليل ديماغوجي يعني ببساطة أن التهمة موجودة والمطلوب هو أن يلقي كل تيار القبض على المتهم الذي يختاره ويصدر عليه الحكم بدون حاجة الى محاكمة، أي بطريقة استعجالية (expeditive)، لإرضاء أهواء ونزوات لا تصمد للاستقصاء الذي لا يقبل تفسير الظواهر البسيطة بعامل واحد (Mono Faclor) فما بالك إذا كانت على درجة عالية من التركيب والتعقيد.

إن عزل الشباب وإخراجه من «الكل» الاجتماعي واتهامه وحده بالتهلهل والضياع هو جزء صغير من واقعنا، بل إن ما نراه ونسمعه أحيانا في الخطاب المتداول يشبه حيثيات الحكم بالإعدام على المستقبل، فما

هي الخريطة الديمغرافية لجزائر اليوم؟ وكيف ستكون جزائر الغد القريب؟.

لن نثقل هذه الورقة بالنسب والأرقام عن الكتلة (masse) السكانية إلا أننا نشير فقط الى أن مواليد ما بعد 1962 تجاوزوا سنة 1982 (أي بعد عقدين من استرجاع السيادة الوطنية) نصف عدد السكان (57,3)٪ وفي تلك السنة (1982) لم تزد نسبة الذين تزيد أعمارهم على 60 سنة 5,7٪ (الجدول المرفق رقم:2).

	الذكور		الإناث		الذكور	
هرم الأعمار	العدد	النسبة %	العدد	النسبة %	العدد	النسبة %
أقل من 15 سنة	4.593	23.5	4.422	22.6	9.016	46.1
أقل من 20 سنة	5.704	28.4	5.489	28.1	11.193	57.3
من 20 إلى 59 سنة	3.487	17.9	3.735	19.1	7.223	37
60 سنة فأكثر	508	2.6	6.9	3.1	1.118	5.7

جدول رقم: 2 هرم الأعمار بعد عقدين من استعادة السيادة الوطنية

وعلى الرغم من الاستقرار النسبي للمعادلة الديمغرافية أي العلاقة بين المواليد والوفيات من 1985 الى 1995، فإنه من المتوقع أن تتجدد الكتلة السكانية خلال العقدين القادمين، أي في حدود سنة 2010 وهي الفترة التي ستشهد اليوبيل الذهبي للثورة سنة (2004) وإعادة تأسيس الدولة الجزائرية سنة (2008) إذا أرّخنا لذلك بإعلان الحكومة للجمهورية الجزائرية سنة 1958، وبالتالي فإن الذين شاركوا في الثورة من أي موقع كان وكانت أعمارهم سنة 1962 تزيد على الثلاثين سوف يكون القليل المتبقي منهم قد شارف على الثمانين من العمر.

على ضوء الاعتبارات السابقة فإن الوقت القليل المتبقي لجيل الثورة ينبغي أن يكرس بهمة وتبصر وحذر لإصلاح ما أفسده الإهمال، والشروع على الفور

في حوار بلا وصاية ولا استعلاء مع شبيبتنا لغرس العزة الوطنية والافتخار بشهداء الجزائر وأبطالها الأوفياء الذين أدوا واجبهم تجاه الجزائر في عصرهم وظروفهم وهيأوا أرضية صالحة للانطلاق، ينبغي أن يسلموها بثقة وافتخار الى الأبناء والأحفاد، وهذا ما حدث إلى حدّ ما - منذ 1962 الى اليوم، ولكن غلب عليه في بعض الأحيان الجانب الصراعي (conflictuel) وليس التكامل والتضامن بين الأجيال، كما هو معهود في تقاليد شعبنا.

نحن نرى من موقعنا المتواضع أن المهاترة والتجريح المتبادل بين قياديين في ثورة التحرير، وبعض الكلام المبتذل عن أبطال المقاومة ورموز الوطنية الجزائرية هو انحطاط لا يشرف الرفاق الأحياء ولا الأموات من نساء ورجال الثورة والمقاومة، ولا يقدم لشبيبتنا سوى القنابل الموقوتة التي تنسف على المدى المتوسط ماضيهم الرائع، وتزكم أنوفهم بروائح كريهة تنفرهم من الانتماء لهذا الوطن، وتكمل ما قامت به فرنسا الكولونيالية من خراب وتدمير، فهل نقبل القطيعة مع شبيبتنا أي الحكم بالإعدام على مستقبلنا ودولتنا؟!

إذا كان الحديث عن المرأة ودورها في المقاومة وحرب التحرير فإننا نجد ذلك الدور والسمات الملازمة له في دراسات الطبيب المناضل فرانتز فانون وخاصة كتابه سوسيولوجيا الثورة أو العام الخامس للثورة، فقد قوض هذا الباحث الثوري كثيرا من المسلمات الزائفة للمدرسة الاستعمارية الحاقدة وخص المرأة أثناء الثورة باهتمام لم يتواصل مع الأسف عند باحثينا وأساتذتنا في كلية الطب بجامعة الجزائر.

عاش فانون وناضل مع الثوار داخل الجزائر وشاهد بحكم مهنته كطبيب نفسي في مستشفى الأمراض العقلية بمدينة البليدة العديد من حالات الذهان (Nevrose) والعصاب (psychose) من الملاحظة النزيهة اكتشف فرضية المقاومة بواسطة ما سماه الأليات الدفاعية[1] أي احتماء الجزائريين

---

(1) F. FANON: l'an 5 de la Révolution Algérienne, p: 35 Maspero Paris 1959.

وكذلك:

J. Muleman: Le Constantinois entre les deux guerres mondiales, pp: 250-261, OPU, Alger, 1991.

بحصن الدين والتقاليد والتمسك بكل ما هو مخالف للرومي أو النصاري في المأكل والمشرب والملبس والسلوك العام، ويقدم الدكتور فانون المرأة على أنها الحلقة الأكثر استعصاء أمام محاولات الاختراق الفرنسية ويورد مثالا على ذلك هو المسرحية التي أظهرت فيها الإدارة الكولونيالية مجموعة من الفتيات بصدد حرق الحجاب أو الحايك حيث أدت هذه الكوميديا الى نتائج معاكسة تماما لتوقعات ضباط الحرب النفسية (sas) فقد عادت النساء السافرات الى لبس الحائك نكاية في المستعمر ولإظهار مساندتهن للثورة واختلافهن أصلا وثقافة عن الإوروبيات لم يقتصر دور المرأة على المقاومة بالآليات الدفاعية (mécanisme de defesse)، بل كانت أيضا مع طلائع الفدائيين في المدن، والعين الساهرة في الأرياف حيث قامت بدور تأمين اللوجيستيك المتمثل في التموين والإعلام، والتمويه على العدو وتضليله والمشاركة الفعلية في العمليات العسكرية كمجندة وممرضة على طول جبهة القتال .

يذكر الأستاذ تومي انخرط في صفوف جيش التحرير كطبيب سنة 1956 في دراسة اشترك فيها مع الأستاذ تيدجير ونشرت في مجلة الصحة العسكرية سنة 1993[1].

يذكر ما يلي: كان معنا في الولاية التاريخية الثانية حوالي خمسمائة (500) امرأة أغلبهن من الفتيات المجاهدات، بعضهن تحملن مسؤوليات كبيرة وخاصة في ميدان الصحة وقطاع العتاد والتموين.

لقد أظهرن كثيرا من الشجاعة والإقدام، والسلوك البطولي حتى أننا كنا نتساءل ألا يشعرن بالخطر؟ هل يحتقرن الحياة؟ أم لا يخفن الموت؟!

لقد أظهر أولئك النسوة قدرة على التحمل (endurance) تساوي وأحيانا تتفوق على مثيلاتها عند الرجال، لقد رأيت بأم عيني نساءا يحملن 40 كيلوغرام من القمح الدقيق على رؤوسهن ويسرن مسافات طويلة بلا استراحة.

---

(1) M. Toumi, TEDJZA: Les manifestations psychopathologiques chez le combatant de la guerre de libération nationale, IN Revue de la santé militaire T.22, 1993, pp: 15-20 Alger, 1993

لم أشهد شخصيا أي أعراض للهيستيريا أو الانهيار العصبي المعروفة في ظروف الحروب والاشتباكات المسلحة.

إن سلوكهن يزداد صلابة بمرور الوقت وأصواتهن تزداد ثقة ووقارا، وقد لمسنا رغبة خفية في منافستهن الرجال من جنود جيش التحرير والتفوق عليهم.

هذه لقطة جزئية جدا من ملحمة شعبنا العظيمة، فيها من المحن والآلام بقدر ما فيها من البطولات والآمال، ولكن ألا تولد الشعوب العظيمة من المحن الكبيرة؟.

اشترك الرجل والمرأة على حَدٍّ سواء في التضحية والفداء وفي الألم والأمل، لننظر الى سجلنا الباهر في ذكرى عيد انتصار الجزائر كلها نساؤها ورجالها وشبابها وكهولها.

إن المستقبل أمامنا، رصيده تراث المقاومة ومنجزات ثورة نوفمبر الكبرى، ليس المستقبل وراءنا ولا خارج وطننا. هذا هو الحد الأدنى المطلوب للوفاء لشهداء الثورة والانتفاضات التي سبقتها.

أطفالنا موعد مع التاريخ والمستقبل

المحاور

I - الطفل مشروع مواطن الغد والمدرسة خريطة المستقبل.

II - تاريخ الجزائر كفاح من أجل الحرية ومقاومة للهمجية.

III - التراث التاريخي بين الوقائع والتزوير والتأويل.

IV - المعرفة التاريخية وبعض إشكاليات التوصيل البيداغوجي.

V - ثقافة الطفل وطوفان الفضاء الالكتروني.

VI - خلاصة

إختار المتحف الوطني للمجاهد يوم الأول من جوان، وهو اليوم العالمي للطفل للشروع في نشاط ثقافي منظم حول تاريخ الجزائر، وخاصة ملحمتها الكبرى، ثورة التحرير، ومقدماتها في المقاومة الوطنية الطويلة والبطولية بأشكالها وتنظيماتها المختلفة المسلحة والسياسية والثقافية. ينبغي أن نبارك قولا وعملا هذا المشروع الطموح والموجه - كما فهمنا على الخصوص لتلاميذ المدارس والثانويات، الذين يعيش أغلبهم في محيط قاحل، ولا يجدون بين البيت والمدرسة إلا القليل من المشاهد والرموز والمعالم والمصنفات البيداغوجية المشوقة المقروءة أو المرئية والمسموعة التي تعرفهم بأمجاد وطنهم وصمود شعبهم وتضحياته سواء قبل الكارثة المفجعة للاحتلال سنة 1830 أم بعد ذلك حيث أوشكت هذه البلاد على الخروج نهائيا من الجغرافيا والتاريخ.

I- الطفل مشروع مواطن الغد والمدرسة خريطة المستقبل:

يمكن أن يشمل هذا الاهتمام النبيل في المدى المتوسط شبيبة أخرى أكثر هشاشة وتعرضا للجنوح (Delinquence) والضياع في العدمية والسخط والتمرد، وتوجد خارج منظومة التربية والتعليم لأسباب ليس هنا مجال الحديث

عنها تصل نسبتها الى 25٪ من الأطفال الذين تجاوزوا سن العاشرة، وتشير توقعات اللجنة التي شكلتها رئاسة الدولة سنة 1993 أنها ستصل في منتصف العقد القادم الى نسبة 37٪ من الأطفال والشباب أي بمعدل 500,000 طفل وشاب سنويا، بدون تأهيل، سوف يتدفقون على سوق العمل والشوارع ويصبحون من جماعة نواصي الأزقة... (Street Corner Society).

لاشك أن الموعد مع التاريخ يتضمن تطلعا الى المستقبل، مبررات هذا الاقتراح كثيرة نذكر منها:

1 – إن الطفل كما أثبت علماء النفس بإجماع كل المدارس، هو «أب الرجل» حيث يكتسب في مرحلتي الطفولة الأولى (من 1 الى 3 سنوات) والثانية (من 3 الى 7 سنوات) السمات الرئيسية لشخصيته من خلال أساليب التنشئة في الأسرة، وتقوم مؤسسات المجتمع الأخرى وفي مقدمتها المدرسة باستكمال عمليات التربية والتطبيع (Socialisation) وينبغي أن نضيف الى الأسرة والمدرسة منافسهما الأول المتمثل في وسائل الاتصال السمعي البصري، ونكتفي الآن بوصفه بالمنافس الأول، وسوف نخصص جزءا من هذه الورقة لدور وتأثير السينما والتلفزيون بوجه خاص مع التنبيه الى أنهما سيكونان خلال القرن القادم جزءا فقط من الأرمادا الالكترونية للاتصال والشبكات الدولية لإرسال وتبادل المعلومات.

2 – إذن يمكن القول بأن طفل اليوم، هو في الحقيقة مشروع رجل أو امرأة الغد في طور الإنجاز، وبغض النظر عن الاستعدادات (aptitutes) والتوجهات (Vocations) وهي ترجع للفرد نفسه، فإن المستقبل هو حصيلة الأمس واليوم التي يستلمها الجيل اللاحق فإما أن يصححها ويثمنها ويرقيها، وإما أن يعيش عالة عليها، وإما أن يهدرها بالتخاذل والكسل والصراعات المصطنعة أو الموجهة من الخارج.

ولتبسيط المقولة السابقة فإنه من المؤكد أن يكون في هذه القاعة أو خارجها طفل – ما – سيكون رئيس الجمهورية وآخر على رأس إحدى مؤسسات الدولة وثالث أديب أو شاعر أو باحث في الفيزياء أو مخرج

مسرحي أو سينمائي أو باحث في التاريخ وعلوم الإنسان، وقد يكون أحد أبنائه أول رائد فضاء في سكاي لاب (Sky lab) جزائري سوف نختار له اسم أحد أبطالنا التاريخيين.

3 – إن التاريخ ليس مجرد أحداث وأسماء وسنوات مرقمة إنه عقل الأمة وضميرها والنواة التي تدور حولها الذات الجماعية للأمة والمرجعية التي تستمد منها مثلها الأعلى، وتعود إليه كلما أحتاجت لتعبئة قواها ورفع الروح المعنوية ومستوى الطموح، ويقدم الفيلسوف الألماني فيخته نموذجا لدور البعد التاريخي في استنفار الأمة في أوقات الخطر، يقول في إحدى نداءته للشعب الألماني بعد غزو نابليون كما نشرت في كتاب بعنوان خطابات الى الأمة الألمانية:

«أيها الألمان من الشباب والكهول، إنكم من سلالة الفاتحين تاريخكم هو أعظم مفاخركم، مدفع مصفح لا يخترقه رصاص جيوش نابليون كونوا في مستوى تاريخكم، سنثأر لك أيها التاريخ، ويل للمعتدين».

4 – إن النظرة الإعلائية للتاريخ لا تعني عبادة الأسلاف أو السقوط في الطوطمية (Totemisme) البدائية والطقوسية الشكلية التي تخرج الأحداث من سياقها الزماني والمكاني وتخلع عليها صفة الخوارق والمعجزات فالتاريخ من وضع الإنسان، هو محصلة أفكاره وأفعاله وسجل إنجازاته وأخطائه، يمكن لأي جيل – بعد زوال حجاب المعاصرة – أن يدرسه ويستخرج خلاصاته ويعطيه من خلال علمائه المختصين التفسير الذي يريد، ولكن ليس من حقه أن ينفي وجوده أو «يستأجر» تاريخ أمة أخرى أو يدعي البداية من نقطة الصفر.

II - تاريخنا كله كفاح من أجل الحرية ومقاومة الهمجية

إذا تعلق الأمر بالأطفال والشباب فإن المقاربة التاريخية من السهل الممتنع، هي سهلة لأن تاريخنا على درجة كبيرة من الثراء، وإذا نشطت الحفريات والبحوث الأثرية (الأركيولوجية) في الشمال وأقصى الجنوب (الطاسيلي) فمن المحتمل أن نكتشف بالأدلة الموثقة أن تاريخنا موغل

في الزمن وأن أجدادنا ساهموا مع غيرهم في وضع حجر الأساس للحضارة الإنسانية قبل آلاف السنين.

كما يتميز تاريخنا من ناحية المضامين والدلالات، بأنه في جوهره دفاع عن الحرية والكرامة حتى كأنهما الطبيعة الثانية لسكان هذه الأرض (Seconde Nature)، ولذلك فإن دراسة وتدريس ماضي الجزائر هو مصدر إلهام وإعتزاز وليس فيه ما يدعو الى التقليل من شأن شعبنا ودوره الفاعل على مستوى المنطقة الأفرو-عربية وفي حوض المتوسط أين أثبت وجوده وبرهن على خصاله في نشر الحضارة واحترام الجوار والرد على العدوان ونجدة المظلومين.

في ذلك التاريخ مالا يحصى من الشواهد الثابتة، والمغيبة مع الأسف من الذاكرة الجماعية، ليتها تقدم بصور مبسطة للأطفال في شكل حكايات وأشرطة قصيرة أو أفلام الكرتون من نوع ميكي-جزائري تحكي بطولات أجدادنا في مواجهة نظام الهيمنة والاستعباد الروماني (Paxa Romana) الذي أخذ فيما بعد اسم الدوناتية وهي ردّ الأمازيغ أو الأحرار على روما المتجبرة قبل أن تعتنق المسيحية وبعدها، وكذلك الملحمة التي خاضها الأسطول الجزائري لحماية ما كان يسمى دار الإسلام أي ثلاثة أرباع الضفة الجنوبية للمتوسط من طانجة غربا الى الإسكندرية شرقا للرد على حملات إعادة الفتح (Reconquista) الصليبية الانتقامية، وقد شاركت فيها كل أساطيل ما يسمى اليوم بالعالم الغربي أي كل أوروبا - (باستثناء تركيا العثمانية طبعا) - والولايات المتحدة الأمريكية.

لذلك فإن المربين والمعنيين بشؤون الثقافة والإعلام ليسوا في حاجة الى اختلاق الأساطير واصطناع تاريخ «مخبري» عن طريق الاختلاق الخيالي لأبطال ووقائع لسد الفراغ الزمني، كما تفعل بعض البلدان ذات الماضي القصير أو المجهول كما هو الحال بالنسبة للولايات المتحدة أو أستراليا أو كندا على سبيل المثال، وهي كلها بلدان أخرجتها الظواهر الكولونيالية للوجود على حساب السكان الأصليين الذين تم تشريدهم وأبيدت الأكثرية منهم.

III - التراث التاريخي بين الوقائع والتزوير والتأويل

غير أن المقاربة التاريخية الموجهة للأطفال والشباب تكون على درجة كبيرة من الصعوبة لأسباب كثيرة نذكر منها على وجه الخصوص ما يلي:

1 – إن أشنع جريمة حاقت بالإنسانية في العصر الحديث هي ما حاق بالشعب الجزائري ابتداء من سنة 1830، فلم يقتصر الاحتلال الكولونيالي الحاقد والانتقامي على اقتلاع الدولة الجزائرية من جذورها، وتفكيك كل مؤسساتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وبرمجة إبادة واسعة النطاق للسكان، بل تجاوز ذلك الى استئصال ثقافتها وتسخير إمكانيات ضخمة وجيش من الخبراء في الغش والتحايل والتزييف لمسخ ماضيها الحضاري وتمزيق نسيجها التاريخي واجتثاث معالمها الفكرية، ولذلك صفى جسديا أغلبية النخبة المتعلمة بعد أقل من عقد واحد من الاحتلال.

2 – إن المعضلة المطروحة على المختصين في التاريخ ومدرسيه في كل مستويات المنظومة التعليمية ليست كيف نوصل المعرفة التاريخية الصحيحة الى تلاميذ المدارس والثانويات بتقنيات بيداغوجية جذابة ومتطورة، بل هي في البحث عن تلك الوقائع المخفية والمنسية، وتنظيف الموجود منها – (إن صح التعبير) – من التزوير والالتباسات المتعمدة والمفاهيم المزورة التي تعاونت على ترويجها المدرَسة الكولونيالية بكل فروعها المتخصصة في العلوم الاجتماعية، وفي مقدمتها علوم التاريخ والاجتماع والإثنوغرافيا والنفس والطب النفسي واللسانيات.

روج أولئك الخبراء في التخريب بوسائل علمية أو متعلمنة آلاف المصنفات المساندة للتدمير الكولونيالي العسكري – السياسي وغرضهم المعلن هو إيهام الجزائريين (وقد نجحوا نسبيا في التأثير على أقلية في أوساط النخبة والأعيان)، بأنهم «شتات من الناس، ليس لهم امتداد تاريخي يجمعهم، وأنهم عاشوا دائما في حالة أقرب الى التوحش، ولذلك فهم في حاجة الى التمدين والترويض تحت مسؤولية فرنسا المتحضرة، فإذا أرادوا البقاء على قيد الحياة، عليهم أن يشكروا فرنسا المتحضرة ويخضعوا

لقوانينها» وهذه فقرة من خلاصة التقرير الذي قدمه (غ.ف. غوتييه (E. F. Gautier) بمناسبة مرور مائة عام على احتلال الجزائر سنة 1930.

3 – هناك بالتأكيد مجهود كبير يقوم به الأساتذة المختصون والباحثون في الدراسات العليا ومراكز البحث والهيئات الوطنية المعنية بالتاريخ والتراث الثقافي هدفه نفض الغبار عن تاريخنا وجمع وقائعه البعيدة والقريبة العهد وتصنيفها، نشر أغلبها في الخارج (فرنسا بوجه خاص) أو لم ينشر أصلا.

غير أن ذلك المجهود يواجه نوعين من التحدي:

يتمثل أولهما في الوصول الى درجة من التراكم العلمي ذي المستوى الرفيع يسمح بوضع منظور إجمالي يقدم تلك الوقائع في سياقها العام ويستخرج خلاصاتها الجوهرية، ومن المعاينات المؤلمة أن الجزائر هي البلد الوحيد في المنطقة التي لم تتمكن لحد الآن من وضع تاريخ عام مبسط وموجه للجمهور من غير المختصين، وقد توقف المجهود المشكور للرواد مثل مبارك الميلي، وعبد الرحمن الجيلالي والشريف ساحلي ومصطفى الأشرف الخ... منذ أكثر من ثلاثين عاما.

وتكتسي مسألة المنظور التاريخي العام أهمية كبيرة، لأن الاتفاق على وقائع الماضي، ولا أقول على تفسيرها، يساعد على انسجام المجتمع وتلاحم الأمة ووحدتها، وفهم الأوضاع الراهنة والتصوّر الصحيح للمستقبل.

ولعل كثيرا من أسباب التناحر والصراع بين جماعات النخبة حول إشكاليات الهوية والثقافة الوطنية وقضايا أخرى تتعلق بالتقطيع والتجزئة للتاريخ الوطني من يوغورطا الى الأمير عبد القادر، وكأن كل مرحلة هي بداية من الصفر عاشها شعب آخر وليست حركية تاريخية متواصلة بلا انقطاع، يرجع كل ذلك الى الخلط بين الوقائع وتأويلها أي أننا ننطلق أحيانا من أفكار مسبقة سياسية أو إيديولوجية ونبحث عما يؤيدها من الوقائع خارج سياقها التاريخي، فضلا عن الحكم على الوقائع بداية من الأشخاص والفعاليات ورأينا الشخصي فيها، بدلا من استخدام فرضيات علمية صارمة ونزيهة تحترم وقائع الماضي أي تبحث عنها وتقدمها موثقة من مصادرها المادية الحقيقية ولا تقدم التفسير والتأويل على أنه هو الواقعة نفسها.

وإذا أخذنا ثورة التحرير كمثال فإن الذي يهم أطفالنا وشبابنا والمواطن غير المتخصص ليس هو التركيز على الجزئيات والعلاقات الشخصية بين هذا القائد أو ذاك، والأفعال المعزولة والصراعات الفردية، إن الذي يهم هو التاريخ الكلي للثورة، ومن بين محاوره إرادة التحرر الراسخة في تقاليد شعبنا والتصميم على النصر بالاعتماد أولا على النفس، والثقة في جماهير لم تمنعها أمية الحرف والفقر والقهر من ترقية وعيها السياسي وإدراك عظمة الرهان الذي يتطلب الكثير من الصبر والتضحية والالتزام بالقيادة الجماعية، وخلق نواة المؤسسات الديمقراطية على كل المستويات، وهي مؤسسات موازية للإدارة الكولونيالية ومضادة لها في الميدان على الرغم من ظروف الحرب القاسية وعدم التكافئ في ميزان القوة بين الاحتلال المؤيد من طرف الحلف الغربي الأطلسي من جهة والشعب الجزائري المعزول وقيادته المتمثلة في جيش وجبهة التحرير التاريخية من جهة أخرى، وقد استحق شعبنا بصموده وتضحياته تعاطف واحترام أغلب شعوب العالم.

لا يضير الثورة الجزائرية ولا ينقص من عظمتها إبراز جانبها الإنساني وهو في الحقيقة سمتها الغالبة؛ فالحرب لم تكن هدفا في حد ذاته، بل كانت ردا اضطراريا على التجبر والتعنت والطغيان، بعد فشل كل المحاولات الأخرى لإنقاذ شعبنا من وضعية لا تطاق، كما ينبغي أن يعرف شبابنا أن جنود جيش التحرير وفدائييه ومسبليه والخلايا التنظيمية في المدن والأرياف والمعتقلات هم من البشر، وليسوا من الجن أو الملائكة يصيبون ويخطئون ويتألمون ويفرحون ويحزنون، ولكن النتيجة التي حققوها في نهاية المطاف، وهي هزيمة الكولونيالية المباشرة وتحقيق نصر كامل على العسكريتارية الفرنسية ومصاصي الدماء من الكولون ولفيف الخونة، هو مفخرة لكل الأجيال وأن جزائر ما بعد 1962 هي أفضل بكل المقاييس، ومن كل الوجوه من جزائر ما قبل 1962، وأن مكاسبها الجوهرية بما فيها إعادة تأسيس الجمهورية وبناء الدولة الوطنية ينبغي تدعيمها والدفاع عنها بلا تردد أيا كانت التقييمات والمواقف والمواقع الراهنة.

IV - المعرفة التاريخية وبعض إشكاليات التوصيل البداغوجي:

أما التحدي الثاني فيتمثل في كيفية توصيل الحد الأدنى (أو (SMIG) من المعرفة التاريخية وتوظيفها الصحيح لتكوين الشخصية القاعدية للأفراد في مراحل التنشئة والتربية وغرسها في نسيج الثقافة الوطنية لتكون معالم تجيب عن أسئلة من نوع من أنا؟ من نحن؟ كيف كنا؟ وماذا نريد أن نكون؟ فلاشك أن المعرفة التايخية لماضي الأمة تعتبر من الموجهات الهامة للسلوك، وهي التي تعطي خصوصية مميزة لأي شعب، فبالإضافة الى أن التاريخ علم يبحث ويفسر الوقائع الموضوعية للماضي، فهو أيضا خبرة وجدانية تشترك فيها مجموعة بشرية تحتاج في الظروف العادية الى التجانس والتعاون بناء على تراث مشترك بين مجموع أفرادها، وتحتاج في حالات الكوارث والتهديد الخارجي الى التضامن والتعبئة انطلاقا من ذلك المخزون الوجداني المشترك.

إذا وجدت أمة تعاف أو تكره تاريخها فذلك علامة لا تخطىء على تفاقم الانحطاط وشيوع اليأس والفشل والانقسامات وسهولة التدخل الأجنبي، وبذلك تنهار الأمة وتنتهي كمجموعة فاعلة ومؤثرة في محيطها الجيوسياسي والدولي.

إن كيفية التوصيل أو التبليغ البيداغوجي لا تقل أهمية عن المضمون إذ ينبغي اختيار الأساليب والتقنيات التي تتناسب مع مراحل العمر من الطفولة الى المراهقة والابتعاد عن التجريد وطريقة الوعظ المملة بالنسبة لأطفال من الأسهل أن يتعلموا ويكتسبوا قيما وسلوكات سوية وهم يلعبون ويتحاورون بعيدا عن التلقين والسرد والحفظ.

إذا نظرنا الى المنشورات المتعلقة بالثقافة التاريخية العلمية، فإن مكتبة الطفل تكاد تكون مع الأسف خاوية، كما أن مجتمعنا الذي كان معروفا بولعه بالقراءة واحترامه للكتاب، حتى أن أغلب بيوت الجزائريين حتى في أعماق الريف تتوفر على مكتبة صغيرة. إن هذا المجتمع قد عجز عن تجديد إنتاجه الفكري والفني تحت ضغط التخلف المتراكم، وقد أجهزت

سياسة القهر والتجهيل والتفقير الاستعمارية على بقايا ذلك التراث مما اضطر أغلبية السكان الى التراجع الى الشكل البدائي من الثقافة وهو النقل والرواية الشفوية.

ولا نشير هنا الى الحالة المزرية للطباعة والنشر ومغالطات المنطق التجاري التبسيطية التي تعتبر الكتاب بوجه عام من الكماليات، أو يخضع لمقاييس السوق بغض النظر عن مضمونه وأهداف التثقيف مع العلم أن الكتاب سيبقى لأمد طويل من أهم وسائط التثقيف العام والسفير المتجول الناقل للعلوم والفنون والآداب وآثارها الباقية.

V - ثقافة الطفل وطوفان الفضاء الالكتروني:

بالنسبة للوسائل السمعية البصرية، وهي التي تمثل أدوات التبليغ والاتصال الأكثر شيوعا والأسرع تأثيرا في نهاية هذا القرن، فإننا نواجه منذ مدة طويلة وضعية غير متكافئة بالنظر للتطور السريع في ميدان الالكترونيات والمسالك الضوئية، وسيطرة البلدان المتقدمة على صناعة وتسويق المنتجات السينماتوغرافية، وفيما يخص الجزائر فإن ثلاثة أرباع برامج الترفيه والتثقيف الموجهة للكبار والصغار مستوردة من السوق الدولية ومن عدد قليل من البلدان.

سوف يزداد هذا الطوفان في المستقبل القريب مع تزايد الهيمنة أو الإمبريالية الجديدة المسماة النظام الدولي وظواهر العولمة المتعددة الأشكال والمفروضة بواسطة هياكل التبعية السياسية والتكنولوجية والثقافية القادرة على التوالد من الداخل بمساحيق وطنية خادعة، فلم يعد المنتوج التلفزيوني والسينمائي في حاجة الى دراسة مسبقة ومفاوضات تجارية، فقد تمكن عن طريق القنوات الفضائية من اقتحام الحدود وإغراء المواطن في بيته، بل أن أغلب الصحف تنشر برامجها اليومية ولا تستغرب من السخرة أو الإشهار المجاني لبرامج تحمل رسائل إيديولوجية وتستهدف تكوين اتجاهات استهلاكية والترويج لقيم معينة وأسلوب حياة من خلال النجوم، ولترويج منتجاتها في أسواقنا بلا مقابل.

إن أطفالنا وشبابنا الذين يشاهدون عروض العنف والسطو والرفاهية المزيفة على مدار السنة وعبر عشرات القنوات التلفزيونية والفيديو التي تدخل البيوت بلا استئذان وتستقطب محلات عرض أشرطة الفيديو اهتمام شرائح من الشباب «الحيطست» الذين لا يجدون مناصب للشغل أو للتكوين المهني أو فضاءات للترفيه، وممارسة الهوايات في حياة مملة وكلها فراغ، إن أولئك الشباب لا يجدون أي بديل آخر، ولذلك فهم يتقمصون تلك النماذج التي لا تمثل الجيد والمطلوب من ثقافة الغرب وقيمه الأخرى التي تدعو للجهد والاعتماد على النفس والتفوق على الأقران واحترام ما يسمى الحس العام للمجتمع، وقد أثبتت عدة دراسات في الغرب ما يسمى الحالة التالية للمشاهدة التلفزيونية والسينماتوغرافية ولذلك (L'état second) يحمّل المربون هناك أفلام العنف والرعب والجريمة، مسؤولية انتشار العنف بين الأطفال وجرائم القتل والاغتصاب والهروب الى المخدرات والكحول...

يمكن أن نقول نفس الشيء بالنسبة لقسم كبير من الإنتاج الأجنبي المسوق عندنا منذ أمد طويل سواء بطريقة إرادية أي عن طريق الأقمار الصناعية، وباستثناء اللقطات المخلة بالحياء الشائعة في القنوات الغربية التي تستهدف الجنس أو معالجة شيخوخة المجتمع وعدم تجدد الأجيال بسبب الأنانية وانحلال الأسرة وانتشار الفردية، فإن التسويق الإرادي للمنتوج الأجنبي يحمل في الأغلب الأعم كل المساوئ السابقة.

يحدث كل ذلك منذ ثلث قرن، بينما تعوق صعوبات حقيقية تتعلق بالتنظيم والتمويل والخبرة وأخرى مصطنعة فرضتها هياكل التبعية المشار إليها سابقا والوصاية القديمة على ثقافتنا من طرف الدولة الكولونيالية السابقة التي وضعت في وقت مبكر مخططا ذكيا لتوليد التبعية من الداخل.

يحدث كل ذلك بينما يطوي النسيان بطولات حقيقية لنساء ورجال من مختلف الأعمار صنعوا تاريخ الجزائر القديم والحديث وساهموا في ترقية الإنسانية كلها، فكل كفاح وتضحية من أجل الحق والعدل والحرية هو دفاع

عن كرامة الإنسان أينما كان وتمجيد للقيم السامية التي نادت بها كل الديانات السماوية، والمفكرون الوضعيون المجردون من الأهواء والنزوات.

هناك القليل جدا من أطفالنا في المدارس أو خارجها يعرفون معاناة شعبهم، والحالة البائسة التي كان عليها حتى أوائل العقد السادس من هذا القرن، كيف عاشت أجيال متعاقبة تحت الحراب والاذلال اليومي، كيف كان الآباء والأمهات يتألمون وهم يرونهم جوعى وشبه عراة ومحرومين من التعليم في المدارس المخصصة في الأغلب الأعم لأبناء الكولون وقلة من الأعيان الموجهين ليكونوا أعوانا للإدارة الاستعمارية في مراقبة وتسيير الأنديجينا، وباستثناء قلة من الجزائريين أبناء الحركة الوطنية الذين أفلتوا، في غفلة من الإدارة الفرنسية، واخترقوا طوق التجهيل المحكم المسلط على كل الجزائريين، وساهموا فيما بعد في تأطير الثورة وبناء الدولة الوطنية.

VI - خلاصة

ينبغي أن لا نضع اللوم على المشتغلين في قطاعات الفن السابع وخاصة الإنتاج التفليفزيوني والسينمائي الموجه للأطفال والشباب لأغراض التثقيف والترويج الذي نبهت الى أهميته كثير من التوصيات ومشاريع السياسة الثقافية على الخصوص في مستهل الثمانينات فقد تعودنا على قبول الأشياء كلها في حينها أو رفضها كلها دون تمحيص فنكسر الإناء بما فيه، ونفترض لأنفسنا نقطة بداية نقول أنها تحدث لأول مرة ولم يسبقها شيء على الإطلاق، فنشتم أنفسنا من حيث نريد الفخر والتباهي.

هناك فجوة كبيرة بين التصورات وتحضير السياسات من جهة، ووضعها موضع التنفيذ عن طريق استراتيجية قطاعية منسقة ومرنة طويلة المدى من جهة أخرى، من نتائج ذلك الخلل أننا وجدنا أنفسنا كغيرنا من بلاد العالم الثالث ضحية غزو متعدد الأشكال يغمرنا من كل جانب، سلاحه هو الديسكت والفيديو والكاسيت وشبكات المعلوماتية (internet) التي قد نعجب أو نستنكر بعض ما تبثه ولكننا لا نستطيع مقاومتها، وقد تحالف

الفراغ الثقافي مع ظواهر أخرى في حقبة الثمانينات مثل تفشي البطالة والفساد واستعراض البذخ والثروة السهلة والاحباطات الأخرى المتعلقة بالسكن ومستوى المعيشة والإخفاق المدرسي، تحالفت تلك العوامل وأدت الى انفجار 1988 وبداية حقبة الاضطراب والعنف السياسي والانتقام من الدولة الجزائرية التي هي في الحقيقة أعظم إنجازات الثورة، وأهم مكاسب الشعب الجزائري التي استعادها بثمن باهظ بعد أن غيبها الاحتلال عشرات السنين.

للتغلب على النقائص السابقة هناك كثير من الاجتهادات غير المكلفة نسبيا يمكن إنجازها خارج المدرسة وبرامجها المتعلقة بالثقافة التاريخية التي لا تقتصر على دروس التاريخ وبرامجه المسجلة في المنهج (أو المانويل)، بل تمتد أيضا الى كل مواد المنهج والنشاط الفني والجمالي في المدرسة الأساسية، ومن بين تلك الاجتهادات وضع قاموس تاريخي مبسط يجمع الوقائع بالصورة والخريطة والألوان الجذابة يستدرج الطفل للتعليق والسؤال والمناقشة، من الأفضل أن يعتمد ذلك القاموس على الأبجدية وليس على الطريقة الكرونولوجية لتكوين منظور عام عن التتابع والتفاعل والوحدة في المتصل التاريخي، وتدريب الطلبة المتخرجين من أقسام التاريخ وبعض فروع المعرفة الاجتماعية الأخرى مثل الفلسفة وعلوم الاجتماع والنفس والتربية... على التنشيط في المراكز الثقافية ودور الشباب والنوادي المنتشرة في بعض أحياء المدن الكبرى والمدن الداخلية.

مؤسسة الزاوية خزان المقاومة
وحصن العقيدة والتراث - زاوية الهامل أنموذجا

بذل أهل الزاوية والمختصون والمتعاطفون جهودا كبيرة لتنظيم ملتقى حول تراث زاوية الهامل سليلة الطريقة الرحمانية العتيدة على أساس أنها واحدة من أهم مراكز الإشعاع الروحي والثقافي الأصيل في ربوع الحضنة خاصة وعلى امتداد الهضاب العليا عامة.

وإنه لطموح مشروع أن تتوزع محاور الملتقى على قائمة طويلة من قضايا الفلسفة والتاريخ والثقافة وأبعاد التصوف السنّي وتقاليده العريقة في المجتمع الإسلامي بوجه عام، وأشكال تنظيمه في المجتمع الجزائري قبل الاحتلال وبعده بوجه خاص إذ يمكن اعتبار هذا الملتقى مدخلا عاما للتعرف على دور ووظائف الزاوية وتوضيح عدد من المفاهيم المرتبطة بالتصوف و«الطريقة» في تاريخ الحزائر القديم والحديث، وذلك تمهيدا لعقد ملتقيات أخرى متخصصة في الجانب التربوي أو التعليمي السياسي أو الروحي الخاص مثلا بالطريقة الرحمانية وزاوية الهامل بالذات وعلاقاتها بالمقاومة من عهد الأمير عبد القادر الى انتفاضات الزعاطشة والمقراني وثورة التحرير الكبرى.

لقد ساهمت هذه الزاوية القلعة في المحافظة على الهوية الحضارية للأمة، ودافعت بذكاء وإصرار عن رصيدها الروحي العظيم وخاصة أثناء محنة الاحتلال الإجرامي لبلادنا، وقامت بتوجيه من شيخها أحمد بن القاسم وعدد من مريديه الأوفياء، قامت بدور لا يستهان به في ميادين التربية الروحية والأخلاقية المستمدة من تعاليم ديننا الحنيف والتي يلخصها الصوفية في الصبر والتوكل والرضا والرجاء(*)، حرصت الزاوية منذ تأسيسها

(*) فيما يتعلق بأصول التصوف انظر: رسالة القشيري ألفها القشيري سنة 347 هـ الموافق 1045م وكذا الجزء الثاني الفصل 19 من كتاب حضارة الإسلام لآدم ميتز ترجمة عبدالهادي أبو ريدة وكذلك المواقف للأمير عبد القادر.

سنة 1817 الى اليوم على تعليم القرآن وعلومه والفقه وأصوله وأركان عقيدة التوحيد وعلوم العربية كما ساندت بإمكانياتها الذاتية المدرسة الجزائرية منذ فجر الاستقلال وحتى منتصف السبعينات وتطوعت في تلك المرحلة العسيرة بالتدريس في مراحل التعليم الابتدائي والثانوي، تذكيرا بتقاليدنا الإسلامية التي أسست كما تؤكد (هونكا) و(سارتون) الأكاديميات الأولى المتخصصة في تاريخ الإنسانية على نحو ما نراه اليوم في أوكسفورد والسربون أي الجامعة – الكنيسة ذات الشهرة العالمية كما كان الأمر قبل نحو عشرة قرون في بغداد وبجاية والقاهرة وقرطبة، وغرناطة.

ورثت زاوية الهامل والتزمت بأهم خصائص الطريقة الرحمانية وهي الجمع بين التقوى والعمل الصالح والأشتغال بالعلم والتعليم والذود عن الطريقة السمحاء والاعتزاز بالتقاليد الجهادية التي جعلت بلادنا تستحق عن جدارة لقب دار الجهاد، فقد قامت بالدفاع عن غرب المتوسط، أي ما بين طنجة المغربية والإسكندرية المصرية للرد على العدوان الصليبي الحاقد المعروف باسم (RECONQUISTA) بعد سقوط آخر معاقل الإسلام في الأندلس وهو غرناطة سنة 1492.

نصف هذه المبادرة بالشجاعة لأنها تأتي في وقت تشهد فيه بلادنا تحولات سريعة في مختلف الاتجاهات وعميقة على كل المستويات وتبحث عن أفضل السبل للمحافظة على تراثها الروحي والتاريخي وحماية كنوزه من التشوه والضياع، إن التقدم والعالمية أو الكونية universalité هي التي تنطلق من تراث الأمة الروحي والفكري والمادي وتعمل على تعريف الناشئة به وتشجيع العلماء والمختصين على بعثه ونفض الغبار عن كنوزه وليس عن طريق التمجيد اللفظي أو اللعان والاحتقار الاستلابي الذي لا يضيف شيئا الى الحاضر، بل ينشر العدمية والخوف من المستقبل.

نحن على يقين بأن وراء هذه المبادرة رجال من أولي العزم يسيرون على خطى سلف صالح من مؤسسي هذه الزاوية وسلسلتها الذهبية القاسمية التي لا تقتصر على الرجال والصفوة من المريدين، بل تضم أيضا النساء

مثل لالا زينب التي أشاد (جاك بيرك)[1] بمكانتها والانطباع القوي الذي تركته في السيدة (ايزابيل أبيرهارد) (E. Eberhard).

وذلك في الفصل الذي عقده لبوسعادة وشخصية نصر الدين دينيه في كتابه المغرب بين حربين كما أشار بإعجاب الى كتاب الشيخ محمد القاسمي «زهر الباسم في مناقب السيد محمد بن القاسم»: طبعة سنة 1308 هـ بالجزائر.

تدفعنا حقبة الاضطراب ومضاعفاتها الخطيرة على بلادنا منذ نهاية الثمانينات أقول تدفعنا الى التأكيد على أهمية دراسة تراثنا الديني بوجه عام والاهتمام بالتنظيمات الصوفية المنتشرة في شتى أنحاء الجزائر بوجه خاص، وتوصيف مؤسسة الزاوية داخل محيطها الطبيعي والبحث في دورها ووظائفها بدون أحكام مسبقة، ووضعها بنزاهة في سياقها التاريخي المجتمعي، والاهتمام بأبعادها الروحية والسياسية والجهادية، ومن هذه الناحية فإن زاوية الهامل العتيدة هي نموذج لرسالة الرباط بكامل معانيها العلمية والروحية والجهادية، فقد كانت للثورة التحريرية وواصلت بعد الاستقلال مهمتها السامية على الرغم من الظروف الصعبة.

لذلك نحن في حاجة الى مثل هذه الملتقيات لتحقيق هدفين على درجة كبيرة من الأهمية الراهنة والتاريخية: أولهما تنقية تراثنا الروحي من المضامين السلبية والتعميمات الارتجالية والثنائيات المتعارضة، إما عمل وإما فعل وإما دنيا وإما دين وإما ظلام شيطاني حالك وإما نور ملائكي خالص، إما حداثة مستوردة جملة وتفصيلا بلا جذور ولا جهد ذاتي وإما ماضوية تضع الأمة في ثلاجة وتحول التراث الروحي والمادي الى مجرد أكفان، بينما يمزج ديننا الإسلامي بين الواقعي والمثالي، ويضع بين العقل والروح مراتب تتكامل ولا يلغي بعضها بعضا. نجد مفاهيمها ومصطلحاتها في تصانيف كبار متصوفة الإسلام مثل معروف الكرخي والجنيد والقشيري والأمير عبد القادر... وغيرهم ممن استحقوا بالصبر

(1) J. Berque: Le Meghreb entre deux Guerre, p: 147 Esprit-Seuil, Paris, 1962.

والتهجد والتواضع والذكر مرتبة العارف التي عبر عنها الفيلسوف والفيزيائي (إينشتاين) بالقلق الذهني الذي يصل الى الطمأنينة عن طريق ومضة روحية بلا مقدمات ولا استدلال أي في التو عن كيف؟ ولماذا؟.

أما الهدف الثاني فيتمثل في إنصاف مؤسسة الزاوية والتنظيم الطرقي بوجه عام باعتبارها معقل المقاومة الوطنية ونقطة الانطلاق لكل الانتفاضات الشعبية في طول الجزائر وعرضها من بداية الاحتلال وحتى مطلع القرن الحالي، طوال تلك المدة بقيت الزاوية المؤسسة الوطنية الوحيدة التي أفلتت من السحق والتدجين. وكانت شبه هيئة أركان تقوم بالتعبئة والامداد ورفع الروح المعنوية لجماهيرنا وخاصة في الريف والبوادي بعد أن دمرت فرنسا الكولونيالية الدولة الجزائرية وكل منشآتها ورموزها وطبقت سياسة التوحيش والتمزيق الثقافي (ENSAUVAGEMENT) والإبادة العرقية للسكان.

ينبغي تمييز هذه المرحلة الجهادية عن مرحلة تالية، يتفق معظم المؤرخين على تعيين بدايتها بالإنذارات الأولى للحرب العالمية الأولى حيث تمكنت إدارة الاحتلال من اختراق العديد من الزوايا وتجنيدها لخدمة أغراض الاستيطان والتهدئة بعد مقاومة أنهكت التنظيم الطرقي بالإضافة الى عزلة كاملة عن امتدادها الإسلامي خارج الجزائر وإنطواء طوعي يتحاشى كل ما يأتي من العدو الرومي أو الكافر وتحويل ذلك الانطواء الى حَزام واق وآلية دفاعية عن العقيدة والشخصية الوطنية تمنع كما يقول ف. فانون (F. Fanon) من انتشار العدوى وتمنع من اليأس والاستسلام للعدو المتفوق بترساناته العسكرية وتقترح صيغة فعالة لمكافحة الدخيل وذلك بتجاهله ورفض التعامل معه.

لقد تفطن خبراء الاحتلال لدور الزوايا في المقاومة الوطنية وأدركوا في وقت مبكر أهمية الشبكة الطرقية في تأجيج الانتفاضات والتمرد على قوات الغزو الغاشمة حيث كلفت «اللجنة العلمية حول المقاومة الجزائرية» أحد أعضائها وهو النقيب دونوفو (Deneuveu) بدراسة تنظيم الزوايا والطرقية أو ما

سماه الأخوان (KHOUANS) ونشر هذا الخبير العسكري نتائج بحثه سنة 1845، ومن أهم تلك النتائج أن الزوايا هي في رأيه مراكز للتآمر وإشعال فتيل التمرد وهي معادية للوجود الفرنسي وتحظى بكثير من الاحترام بين الأهالي[1]

وقد تواصل اهتمام سلطات الاحتلال بتنظيم الزوايا طيلة القرن الماضي وأوكلت هذه المهمة في مرحلة أولى الى العسكريين مثل الرائد «رين» (L. RINN) الذي وضع خريطة لتوزيع الزوايا والطرق في الجزائر ونبه الى خطورة دورها التربوي والتثقيفي الذي يدافع عن النموذج الأصلي للجزائريين ويبني سدا من الاحتقار والكراهية ضد فرنسا وهي نفس النتيجة التي انتهى إليها كل من الجنرال دوماس (Daumas) في بحثه عن الأخلاق والعادات في الجزائر سنة 1853 والجنرال «دوكرو» الذي أمر بالإسراع في تحطيم الزوايا وحرمان الجزائريين من المدارس الإسلامية الملحقة بها «لأن ذلك هو السبيل لتجريد الأهالي من سلاحهم المادي والمعنوي وإجبارهم على الخضوع لسلطتنا».

واصل خبراء الاحتلال من العسكريين اهتمامهم بالطرق والزوايا حتى بعد الحرب العالمية الأولى بهدف مراقبتها وجمع أكبر قدر من المعلومات عن نشاطها الداخلي وعلاقاتها بمحيطها المباشر وقد استفادت الإدارة الكولونيالية من ذلك التراكم الكبير للمعلومات واستعملتها لأغراض الهيمنة وفي صراعاتها مع القوى الأخرى في بداية القرن حيث يذكر الأستاذ علي مراد في بحثه عن الحركة الإصلاحية في الجزائر من 1923 الى 1940 أمثلة من الشعارات الدعائية ضد الإستانة (في أسطنبول) لتحريض الزوايا ضد الخلافة العثمانية أو ما تبقى من الرجل المريض المتحالف مع ألمانيا.

كما قام باحثون مدنيون من المختصين في علوم التاريخ والاجتماع والأنثروبولوجيا بجهد مواز وخاصة في الفترة ما بين الحربين الكونيتين نذكر منهم جاك بيرك والسيدة إيفون توران وكل من لوكا وفاتان والسيدة كولونا وغيرهم ممن قاموا بملاحظة ميدانية لتنظيم الزاوية الأفقي والعمودي ومكانتها الشعبية ومصادر تمويلها ومدى نفوذها المعنوي.

(1) A. Servier: l'Islam et la psychologie du musulman, p: 362-364 challamel, Paris 1923.

ليس من اهتمامنا أن نعرض بالنقد لتلك الدراسات التي قام بها الخبراء العسكريون أو المدنيون الفرنسيون والمتواصلة الى الآن ولا مقارنتها بما قام به باحثون جزائريون من دراسات قليلة بلاشك حول نفس الموضوع أو تطرقت لجوانب منه كما نجد ذلك عند الأساتذة عمار طالبي، مراد، والأشرف، وأركون على سبيل المثال.

إذ أننا نكتفي بجملة من الملاحظات العامة نوردها بإيجاز على النحو التالي:

1 – تمكن نظام الزوايا خلال مدة تزيد على ثلثي قرن من تغذية المقاومة الوطنية التي وصلت الى أوجها على أيدي أبطال نشأوا أو ترعرعوا في حضن الطرق والتصوف السني الذي كثيرا ما جمع بين الرباط الجهادي في الثغور الإسلامية ونشر العلم والفضائل الخلقية والتزام التقوى والورع.

وقد عبر كثير من قيادات الاحتلال الإجرامي لبلادنا عن مخاوف كبيرة من تنظيم الزوايا ودرجة الانضباط السائدة في داخلها(4)، وقد نقلت الباحثة توران (Y. Turin)(5) نماذج من تقارير وتصريحات لبعض القادة العسكريين مثل الجنرالات دي ميشال، بيجو، وبلانديني والدوق دومال، وتحذر كلها من نشاطها السري والعلني المعادي للوجود الفرنسي في الجزائر، فهي في نظرهم أشبه بمراكز للتوجيه والتربية السياسية ومحطات للإعلام عن الأوضاع في كل جهة وتبادل الأخبار المتعلقة بتحركات الجيش والإدارة الفرنسية وهي عبارة عن محطات بسيطة ومتنقلة داخل النسيج الاجتماعي لها على مدار السنة مواسم واحتفالات ومآتم لابد أن تكون لها علاقة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بالزاوية وأتباعها.

وقد أرجع دونوفو سنة 1845 نفوذ الزاوية الى انتسابهم الى الرسول (صلعم) وتميزهم بالشرف الوراثي ولذلك فهم يحظون بالاحترام والنفوذ المعنوي ويحثون الناس على الحرب وأحيانا يقودونها أو يشاركون فيها.

2 – أهتمت المدرسة الفرنسية بدراسة نظام الزوايا لأغراض عسكرية وأمنية بعد أن تفطنت لدورها الفعال في تأجيج المقاومة وعلاقة قيادات الانتفاضات المتتالية بالزوايا من مقاومة الأمير الطويلة، انطلاقا من الزاوية

القادرية في سهل غريس، على مشارف معسكر، الى انتفاضة منطقة القبائل بقيادة لالا فاطمة نسومر 1854 وانتفاضة أولاد سيدي الشيخ بقيادة بوعمامة سنة 1864، وانتفاضة المقراني والشيخ ابن الحداد سنة 1871 الذي حرض على الجهاد من خلوته في صدوق وجند أتباع الرحمانية على امتداد الهضاب العليا بما فيها مسيلة وبوسعادة.

كان الهدف من تلك الدراسات هو تفكيك الزوايا من الداخل وكسر شوكتها بواسطة الترويض والتجميد والاستقطاب للاجهاز على ما تبقى من مؤسسات المجتمع الجزائري بعد تحطيم الدولة.

لقد وجد الجزائريون سكان البوادي والأرياف ملجأهم الأخير في الزوايا لإنقاذ عقيدتهم وثقافتهم الوطنية من الهجمة المفاجئة لقوات الاحتلال والجالية المتغطرسة والفرعونية التي تسلطت على خيرات البلاد تحت حماية المدافع والحراب ولم تترك للأهالي سوى خيار الموت أو الخضوع (7).

3 – أدت صدمة الاحتلال العنيفة والممارسات الإجرامية التي قامت بها الحكومات الفرنسية المتعاقبة الى الانطواء والتمسك الشديد بخصائص الثقافة وكل ما يميز الجزائري المسلم على النصارى من سلوك وعادات وملبس ومأكل(8)، وقد أدى ذلك الى العناية الشديدة بعلوم الدين واللغة العربية، وبما أن الثقافة والعلوم في بلادنا لم تكن في المقدمة مقارنة بما كان عليه الحال في أوروبا القرنين الثامن والتاسع عشر، وهو ما كان عليه واقع الحال في البلاد العربية والإسلامية فإن محاصرة الزوايا والتضييق عليها من طرف سلطات الاحتلال قد أدى بها إلى الاختناق والتدهور وضعف الأداء التربوي والتعليمي ويشير فاتان ولوكا (J. C. Vatin et Ph. Lucas) في دراستهما التي نشراها 1975 تحت عنوان «جزائر الأنثروبولوجيين»(9) الى الحالة المأساوية التي وصلتها الزوايا، والتي ساهمت في التمرد في بداية هذا القرن كانت نتيجة لمخطط أشرفت عليه القيادات العليا في الجزائر وباريس وتم تنفيذه على يد ضباط الشؤون الأهلية والمستشارين الأثنوغرافيين الذين أظهروا حماسا وابتهاجا كبيرا لنجاح المخطط.

كما أكد كل من بادي وغاليسو الملاحظة السابقة حيث أشارا في بحث تحت عنوان الماركسية في الجزائر نشر سنة واحدة بعد السابق أي سنة 1976 الى ما يلي:

أن انحلال تنظيم الزوايا قد حرم المجتمع في تلك المرحلة الحرجة من تاريخه من المعالم والمرجعيات الروحية والمدنية وجعلت الجزائري العادي يشعر بأنه غريب عن نفسه ولكي يتحرر من الاغتراب ويشعر بذاتيته عليه أن يحافظ على بقائه من الناحية الروحية عن طريق ردود الفعل المعادية للوجود الكولونيالي، وعلى الرغم من أن تلك الردود كانت في النصف الثاني من القرن الماضي عقيمة فإنها بلاشك ساهمت في تماسك الجماعة والإبقاء على الحس الوطني المشترك متخفيا في أعماق الشعب في انتظار تبلوره عقود قليلة بعد ذلك.

هذه الملاحظات أولية غير جامعة ولا مانعة حول مكانة زاوية الهامل ودور نظام الزوايا بوجه عام في تغذية المقاومة والمحافظة على أصالتنا الثقافية وعقيدتنا الإسلامية أثناء محنة الاحتلال الرهيبة، من المهم والمفيد أن تحظى بمزيد من التعمق والدراسة العلمية البعيدة عن الأحكام القطعية والتعميمات السطحية التي ترفض الاستمرارية التاريخية للجزائر مجتمعًا ودولة، وتقدم ماضيها باعتباره مقاطع متنافرة يلغي بعضها بعضا.

وفي هذا السياق تجدر الإشارة الى بعض الإشكاليات المنهجية التي عطلت البحث المتخصص في التنظيمات الدينية من الجوانب التاريخية المجتمعية نذكر من بين تلك الإشكاليات:

1 – سيطر على الدراسات الاجتماعية في الجزائر وبلدان أخرى من المنطقة العربية الإسلامية اتجاهان أولهما تقليدي يعتمد على أطروحات المدرسة الفرنسية الدور-كائمية ويضيف إليها نظريات «ف. باريتو» و«م. ڤيبر» لتحليل الحياة الدينية باعتبارها بنية فوقية يمثلها الهرم الكهنوتي للكنيسة بأشكال مختلفة قبل وبعد النهضة الأوروبية، أما الاتجاه الثاني فتمثله المدارس الماركسية التي تلحق مجمل القضايا

الدينية بصراع الطبقات وتعالجها على ضوء الجدلية المادية، وعلى الرغم من المحاولات المتفرقة لتأسيس اتجاه خلدوني، فإن الفراغ الهائل في النظرية والمنهج حال دون الدراسات المختصة بالمسائل الدينية من الناحيتين التاريخية والاجتماعية.

2 – أدت الحساسية الشديدة تجاه الإشكاليات الدينية الى نوعين من التطرف يدعي أولهما أن الموضوعية تقتضي إخراج الدين من دائرة الاهتمام العلمي، شاعت هذه النظرية تحت تأثير التعلمن (Scientisme) الفرنسي والتجريبية الأنغلوسكسونية التي اهتمت على العكس مما يظهر للبعض في المنطقة بالدراسات الدينية، حيث لا تكاد تخلو جامعة في الغرب والشرق السوفياتي السابق من أقسام لعلم الاجتماع الديني والأنثروبولوجيا والحضارات المقارنة وأبحاث الاستشراق التي تستفيد من نتائج التخصصات السابقة فضلا عن معاهد الثقافة المختصة في التراث الإسلامي القديم والحديث التي تمولها بعض البلدان الإسلامية ويشتغل فيها باحثون من بلداننا ومن بينها الجزائر.

أما التطرف الثاني، فيتمثل في تحويل كل الإشكاليات الى ما نسميه حقيقة الدين أي إعطاء تفسير ديني لكل ما يحدث في المجتمع وإلغاء كل العوامل الأخرى التابعة والمستقلة، فإذا أخذنا بعين الاعتبار ضعف المعرفة العلمية الاجتماعية بالقضايا الدينية والمقاربات اللاتاريخية أي التي تفصل الدين عن المجتمع وتقطع المجتمع عن استمراريته التاريخية وجدنا أن الهروب الى الدين والهروب منه يلتقيان في نقطة مشتركة هي المجتمع نفسه الذي لا يوجد (إذا تعلق الأمر بالإسلام) خارج دينه إلا إذا تصورنا إمكانية مصادرة القيم والمعتقدات(10).

– عالج الفكر الأورو أمريكي المجتمع والتراث الإسلامي ومازالت موضوعاته تحظى باهتمام علمائه وباحثيه، ولابد من الاعتراف بأن حجم المعرفة المتوفرة حولها في الغرب تفوق بكثير الشروح والمحاولات القليلة الجادة المتوفرة في المنطقة العربية الإسلامية، فهي تخضع منذ زمن بعيد

لمنظور استراتيجي لتعميق نتائج الدراسات الاستشراقية التي سبقت وواكبت التوسع الكولونيالي، ليس عيبا أن نهتم بها ونفحص نظرياتها ونتائجها وإنما العيب في اعتناقها والتعصب لها مما جعل شرائح من النخب تستعلي على واقعها المجتمعي وتندد به وتعافه، مع العلم أن قسما كبيرا من العلوم الاجتماعية وأبحاثها المخصصة لتاريخنا وتراثنا هي علوم لتبرير الهيمنة والتغرير بالنخب لخدمة تلك الهيمنة ولا علاقة لها بالتجديد والتحرير.

4- من المهم في دراسة تاريخية اجتماعية (أنثروبولوجية) متعددة الاختصاصات التعرف على أسباب انتشار المذهب المالكي في الجناح الغربي من العالم الإسلامي وازدهار الدراسات الفقهية، والعلاقة بين التصوف والرباط الجهادي وتمحيص عدد من الفرضيات المتعلقة بالاتصال والتصادم الثقافي ومتابعة مضاعفاته الراهنة في مجتمعنا والتيارات الكثيرة التي تتصارع أو تتآلف داخله في كل مرحلة تاريخية.

من الضروري أن يسبق ذلك التمحيص جرد وتصنيف للتراث المتوفر داخل الزوايا أو المتبقي منه على الأقل والإطلاع على المصنفات التي وضعها الشيوخ حول التصوف والسيرة الذاتية للأعلام من المؤسسين والمجاهدين، وفي مقدمتهم إمامهم الأمير عبد القادر وتأملاته في «المواقف» التي بلغ بها مستوى عال من الإشراق الروحاني والتقرب الربّاني.

من الممكن أن تسفر تلك الدراسات على تدقيق كثير من المسائل الغامضة والمعلقة بدون جواب الى اليوم نذكر منها على سبيل المثال التساؤلات التالية:

لماذا التجأت سلطات الاحتلال الى «التوقيع»(11) الإسلامي للالتفاف على المقاومة الوطنية واستقطاب قسم من تنظيم الزوايا، في وقت ظهرت فيه بوادر إنبعاث الحركة الوطنية غداة الحرب العالمية الأولى؟ هل أن شكل المقاومة فقط هو الذي تغير، وأن دور الرديف الذي لعبته بعض الزوايا هو من منظور إجمالي للساحة الجزائرية إعادة توزيع للأدوار، فبينما غذى الإسلام سلسلة من الانتفاضات انطلق معظمها من الطرق والزوايا في

الأرياف والبوادي واستمرت أكثر من نصف قرن كان علماء الدين وممثلوه في المدن أقرب الى الصمت بسبب ما تعرضوا له منذ بداية الاحتلال من تقتيل وتنكيل وإكراه، فقد كان الكثير منهم على رأس مجالس الأعيان التي جندت الشعب للمقاومة، وتنقل تقارير ضباط الحملة الفرنسية تفاصيل لعمليات إبادة تعرض لها العلماء في الكثير من المدن الجزائرية في السنوات الأولى للغزو الفرنسي الغادر.

عندما نجحت الإدارة الكولونيالية في استقطاب أكثر الطرق المنتشرة في الأرياف والبوادي الجزائرية عادت المدينة للمقاومة في تنظيم آخر لا يقل فعالية عن الزوايا، ويشن في نفس الوقت حربا شعواء على علاقاتها المشبوهة بالإدارة الكولونيالية وما لحقها من تدهور أغرقها في ظلام الجهل والتخلف، هذا التنظيم هو جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي مهدت الطريق للإحياء، وبالتالي فإن الصمود والمقاومة كانا في الحقيقة حركية مستمرة، تتبادل المواقع وتتناوب في الوظائف والأدوار، ويمكن النظر إليهما بعد أن تهدأ الانفعالات التي توجبها المعاصرة أو القرب الزمني، أقول يمكن النظر إليهما باعتبارهما حلقات متكاملة وتؤثر كل منها فيما يليها وتتأثر بما سبقها.

هوامش

(1)- J. Berque: le maghreb entre deux guerres esprit-Seuillen 1962.

(2)- A. Sarvier l'Islam et la Psychologie du musulman challamel, Paris 1923.

(3)- E. De Neuveu: Les Khouas, Ordres Religieux chez les musulman d'Algérie, p.10, Paris 1845.

(4)- L. Rinn: Marabout et Khouans, Etude sur l'Islam en Algérie, p: 19, Alger 1884.

(5)- Y. Turin: Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale, p: 120-122, Maspero, Paris 1971.

(6)- A. Merad: Le réformisme musulman en Algérie de 1923 à 1940, p: 57, Mouton Paris.

(7)- A. Sâad Allah: La montée du nationalisme en Algérie, p: 183-190, E.N.L., Algérie 1967.

(8)- De Neuveu: op.cit., p: 13.

(9)- P. Lucas et J.C. Vatin: l'Algérie des Anthropologues, p: 9-15, Maspars, Paris 1775.

(10)- J. Berque: l'Islam, veilleur de la nuit coloniale N. O dossier n°9 Paris 1992.

(11)- S. Hadj Ali, Algérie, le premier séminaire national des Zaouias Maghreb Machrek, n°135, mars 1992.

القسم الثالث

التربية والهوية و«الباتالوجيا» الاجتماعية
رصيد التحرير ورياح التغيير

- مثلث الهوية: أساس الوحدة وجوهر الوطنية.
- المدرسة الجزائرية على أنقاض مدرسة الإقصاء والحقرة الكولونيالية.
- التاريخ في المنظومة هل هي ظالمة؟ أم مظلومة؟
- الأبحاث النفسية والتربوية في مجتمعنا: المقارنة المنهجية والخصائص الثقافية.
- المدرسة الجزائرية في مستهل الألفية الثالثة: آفاق وتحديات.
- وادي ميزاب: المحافظة على حضارة المجتمع وتجديد مجتمع الحضارة.
- «بيرك» المفكر والإنسان من فرندة إلى ختم ترجمة القرآن في سان جوليان.

مثلث الهوية: أساس الوحدة وجوهر الوطنية

تتميز الجزائر وهي واسطة العقد في غرب المنطقة العربية الإسلامية بمقومات للتجانس والوحدة قلما اجتمعت في جهات أخرى من نفس المنطقة أو خارجها، فبجانب وحدة العقيدة (الإسلام في مذهبيه المالكي والأباضي) فقد حدث امتزاج حضاري سكاني استمر أكثر من ألف عام، نتج عنه تبادل تلقائي للسمات الثقافية بمخزونها التراثي الجديد والقديم، أسفر عن إرث مشترك بين جميع الجزائريين، أفشل محاولات الكولونيالية القديمة والجديدة لزرع أطروحات التمايز بين العناصر على أساس عرقي أو ثقافي.

فهناك في طول الجزائر وعرضها أنماط من القيم والشعائر والسلوكات تتفق في المنبع وتتنوع في أشكال التعبير، تجعل الملاحظ النزيه يكتشف بسهولة أن المضامين الثقافية هي حصيلة لأخذ وعطاء داخل مجموعة سكانية واحدة، اندمجت فيها الثقافة العربية الإسلامية والتراث الأمازيغي الى درجة تميز الجزائري عن غيره، وتجعله أقرب الى مواطنه الجزائري من أي شخص آخر.

ولا يقتصر التجانس على مقوميه الأساسيين: العقيدة والثقافة، بل يمتد أيضا الى الجغرافيا والتاريخ والاقتصاد. فقد تمركزت معاقل الرباط وجماعات الدفاع عن الإسلام والعربية في أكثر المناطق عزلة ووعورة مثل الأوراس وجرجرة والونشريس.. ممتدة صوب الجنوب الشرقي والغربي نحو بشار وتندوف وورقلة والمنيعة.. وقد ألتف حولها الشعب واحترم قيادتها ورفعها الى مرتبة الاشراف، أو الأسياد، أو «إمرابضن» فقد كانت مهمتهم هي تعزيز الإسلام وتدريس اللغة العربية باعتبار أن ذلك دفاعا عن الوطن ومقومات وجوده وبقائه.

ولم يذكر لنا التاريخ أبدا حدوث صراع بين مجموعات سكانية سببه نزاع حول تلك المقومات، بل وصلت قناعة معظم الجزائريين الى أن المسلم هو عربي ولا يمكن أن يكون عربي غير مسلم، ويتذكر رجال التعليم والإدارة وحتى الشرطة حوادث سوء التفاهم التي وقعت في الستينات للأقباط والمسيحيين العرب من مصر وسوريا والعراق أثناء شهر رمضان، حيث تعرف أهالي المدن والقرى في بجاية وتيزي وزو وباتنة وتلمسان وشرشال وخنشلة وورقلة وبشار على عرب غير مسلمين.

ومن الناحية التاريخية فإن الانفصال السياسي والمذهبي عن الخلافة في بغداد في العهد الفاطمي (الشيعي) سنة 296 هـ لم يشكك الجزائريين في انتمائهم الثلاثي الأركان والمتمثل في الإسلام السني، والثقافة العربية، والتراث الأمازيغي، واستمرت الأسر الحاكمة وهي كلها أمازيغ تعربوا ثقافيا وعرب تبربروا أيضا ثقافيا يستمدون هويتهم وشرعيتهم من انتماء حضاري موحد مدة تزيد على ستة قرون (296 هـ 922 هـ)، قبل العهد التركي من (922 هـ الى 1245 هـ) حيث مثل التجانس بين الزعاطشة والثعالبة صورة رائعة لوحدة الأمة الجزائرية في العاصمة بالذات، وعلى الرغم من التطاحن على السلطة بين تلك الأسر على طول الساحة الجزائرية فلم يذكر لنا ابن خلدون في مقدمته ولا في ديوان العبر أي تناحر أو تنافر حدث داخل زناتة وصنهاجة أو بينهما قام على أساس الاختلاف حول الهوية والانتماء الحضاري العربي الإسلامي في نمط ثقافي عقائدي كانت فيه «دار الإسلام» تظل الجميع لا مكان فيها للاستعلاء العنصري والتمايز العرقي و«دار للحرب» وهي تعني الجهة التي يأتي منها العدوان، وهي بلاد الفرنجة غربا، وقبائل المغول والتتار شرقا.

وقد تعمق ابن خلدون في وقت مبكر في تحليل مفهومين أساسيين في علم العمران وسوسيولوجيا-المعرفة (cutturel Anthropology)، أولهما: ظاهرة العصبية تعني بالمصطلح الحديث القومية، أي الإحساس المشترك بين مجموعة سكانية تتمثل الى درجة تتوحد فيها عوامل الجغرافيا وشجرة

النسب وأنماط المعيشة في مرجعية واحدة يتولد عنها الانتماء الوطني، وحسب رأيه لا توجد دولة بدون الإحساس المشترك بالانتماء أو العصبية، ونجد مثالا قريبا منا بلغ فيه الإحساس المشترك ذروته هو ثورة التحرير الكبرى عندما كانت كلمة (الأخ) تطلق على الجزائري إذا كان وطنيا وثوريا بغض النظر عن مكانته الاجتماعية وموقعه ويخرج من رابطة الأخوة كل المرتزقة والانهزاميين والمتواطئين وتلحقهم قراهم ومدنهم وحتى أقاربهم بمعسكر العدو.

أما المفهوم الثاني: فهو إلحاحه على الترابط بين التحضر والتمدين وبين الرقي الاجتماعي والثقافي، فالتريف والبداوة هي مراحل أولية في التطور البشري والعودة إليها انتكاس ينذر بتدهور المجتمع، عبر عنه هذا الباحث الناقد البصير بمقولته المشهورة: «إذا عربت خربت»، وهي مقولة يرددها بعض السذج والمغرضين لنشر الانهزامية والفرقة والسخرية من الذات خارج مفهومها العلمي وسياقها التاريخي[1].

وبالإضافة الى العوامل السابقة (العقيدة والثقافة والتاريخ الاجتماعي) فإن الثروة تتوزع عبر الشمال والجنوب ومن الشرق الى الغرب بطريقة تفرض وحدة اقتصادية تلقائية بين الساحل والعمق، بحيث يمتد كل منهما في الآخر من غار جبيلات الى جبل العنق، ومن حاسيات بحبح ومسعود والرمل والبرمة، الى أرزيو وسكيكدة، وعبر سهول المتيجة والحضنة وعنابة ومعسكر وتيارت وسعيدة وبشار، وزعت الجغرافيا منابع الثروة، بحكمة وعناية، بحيث تحتاج أية جهة في الوطن من أقصاه الى أقصاه الى جهات أخرى، في تشابك وتكامل طبيعي، يدعم واقع الوحدة الوطنية ويعطيها قاعدة مادية للانطلاق نحو التطور الذاتي وبناء علاقات متكافئة مع محيطها الجهوي والدولي، إذا نجحت قيادة البلاد في خوض غمار التنمية الحضارية الشاملة، نقول (إذا) لأن الثروات مهما كانت

---

(1) د. عبد المجيد مزيان: النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون، ط -2- ص: 374-375، المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1988.

قيمتها الاقتصادية وتوزيعها الجغرافي لا تعني شيئا في غياب استراتيجية وطنية يكون الشعب هو مصدرها والمستفيد من ثمارها بمنهجية توطد التجانس الثقافي والانتماء الوطني.

ويجد ذلك التجانس والانتماء صداه في التراث الشعبي المشترك وخاصة أثناء الاحتلال الكولونيالي، فقد عبر الشعر الملحون والأساطير والملاحم والأحاجي عن القيم التقليدية الموحدة، ودافع عن هوية الجزائر دينا ولغة وتاريخا ومجتمعا، إن المداح ومنشد الشعر الملحون، والجدة المنفية في كوخ أو خيمة مهلهلة على قمم جرجرة والأوراس والونشريس أو المنقطعة بين كثبان الرمال من الأغواط الى تندوف، كانوا يحركون همة الجماهير بقصائد وأساطير تبدأ بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم والتنويه بانتصارات الإسلام لتحريض الشعب ودعوته للجهاد ضد العدو الكولونيالي ودفعه للتضحية في سبيل كرامته وعزته الوطنية.

لقد كان المداح في أسواق القرى والمدن الصغيرة، إذاعة متنقلة تحمل رسالة بسيطة، بل وساذجة إذا قيست بأجهزة العدو في تلك الفترة ولكنها بالغة التأثير لأنها حافظت على جذوة المقاومة ودافعت عن الانتماء الثقافي لجماهير فتكت بها الأمية وخنقتها العزلة وتراجعت الى مستوى الثقافة الشفوية حيث كان معلم القرآن في قرانا المسحوقة هو الشخص الوحيد – تقريبا – الذي يعرف الأبجدية. ولابد من التذكير أيضا بأنه في هذه الفترة (نهاية القرن الماضي) نجحت الكولونيالية في خلق طبقة صغيرة من البرجوازية القشرية سفهت أحلام الشعب وطموحاته واحتقرت انتماءها العربي الإسلامي وتحولت بالتدريج الى طابور ثقافي سياسي يزايد أحيانا على المتطرفين من الكولون ويطالب بلا حياء بعملية واسعة لغسل دماغ الجزائريين بقطع جذورهم وفصلهم عن انتمائهم لتخليصهم من التوحش يعني مقاومة الاحتلال والمسخ.

لقد حاول جزء من ذلك الطابور الثقافي السياسي أن يلعب دور الوسيط بين الكولونيالية وجماهير الشعب الصامدة والرافضة للمسخ

والاقتلاع الحضاري، فبدأوا يروجون لعلمانية ولائكية مشبوهة دافعها الحقيقي هو تحقيق الاستسلام الثقافي بعد أن عجزت سياسة المدفع والأرض المحروقة على اقتحام حصن الهوية وكسر العمود الفقري للشخصية الوطنية المتكون من العقيدة واللغة العربية والتراث الأمازيغي المشترك والمتشبع بالعاملين الأولين.

إن ذلك الطابور المسخر عن وعي أو غير وعي لتجريد الجزائريين من آخر أسلحتهم وجد نفسه في نهاية المطاف وكيلا يدافع عن الإجرام الكولونيالي تحت قناع اللائكية أو وراء خدعة الاندماج، فالمخطط المرسوم لا يتغير إنه يتمثل في تحويل ما تعجز عنه الإبادة من الجزائريين الى هنود حمر تقدم عينات من بقاياهم الثقافية في المتاحف عند الحديث عن أصل الإنسان في هذه المنطقة من شمال إفريقيا.

لقد كانت الخطة الكولونيالية وما تزال تعتمد أساسا على تدمير الدفاعات الذاتية بواسطة التسلل الثقافي لإثارة الشكوك حول الانتماء الحضاري وإثارة النزاعات الأتنولوجية الوهمية لخلخلة الأمة وإشغال نخبها وقياداتها بإشكاليات مصطنعة مثل الادعاء بأن اللهجات العامية تعاني من اضطهاد الفصحى بينما لم يستنكر أحد العناية بآثار ديكارت أو فولتير أو ريمون أرون أو شيكسبير أو غوته أو هيمنغواي وكلها من التراث الكلاسيكي الفصيح.

هل يتقبل رأي عام ثقافي أو سياسي في بلدان أوروبا أو أمريكا التي تزعم الدفاع عن حقوق ما تسميه الأقليات أن يدرس جزء من ثقافتها وتراثها العريق بلغات أخرى مستعارة مثل ما يحدث اليوم عندنا حيث تتم كل البحوث ومعظم الدروس باللغة الفرنسية فلا تكاد تجد من الأمازيغية وتراثها ولسانيتها إلا الاسم والعنوان على الرغم من الحاجة الملحة لتسجيل تراثها وإثرائه بالبحث والتوظيف والتجديد.

إن اللغة الأمازيغية ولهجاتها المختلفة في الوسط والشرق والجنوب هي أخت شقيقة للغة العربية وتدخل في مختلف التصنيفات الحديثة ضمن

عائلة اللغات الأفروأسيوية ولم يضعها أي باحث نزيه ضمن عائلة اللغات الهندو – أوروبية منذ لايبنتز في القرن السابع عشر (G.W. Leipnitz) مرورا بمشاهير علماء اللغات المعاصرين مثل م. روهلر (M. Ruhler) وغرينبرغ (J. Greenberg) من جامعة ستانفورد، وكل من الباحثين الألمانيين ف. بوب (F. Bopp) وج. غريم (J. Grimm). جميع هؤلاء العلماء يصنفون الشجرة اللغوية (Arbre linguistique) في جذع واحد من بين المائتي (200) «عائلة لغوية» التي تم إحصاؤها وبحثها لحد الآن، ومنها خرجت العربية والأمازيغية وكثير من اللغات السائدة في إفريقيا والشرق الأدنى (انظر: Scientific American Revue N° 164 1991).

لن تتطور الثقافة الوطنية إلا إذا تحررت من أشكال الضغط والقهر والاستخدام الذرائعي للتراث (Leg. Alibi) من طرف جهات متعددة أولها طابور الأعيان الذي حاول منذ الأربعينيات طرح إشكاليات الهوية بعضها على الأقل مستورد من معاهد ايكس أون بروفانس والمعاهد المتخصصة في ثقافات ما وراء البحار لخلق أدبيات سياسية يمكن أن تتحول الى كمائن ومتفجرات على المدى المتوسط والبعيد. إنهم وكلاء متطوعون بالمجان لإثارة التناحر والتمهيد لحكم لم ييأس من استعادة مواقعه السياسية والاقتصادية والانتقام من ذكريات الهزيمة التي تكبدها على أيدي شعب أعزل إلا من دفاعاته الحضارية.

وقد عبرت الباحثة إ. توران (Y. Turin) الفرنسية عن هذه الخطة في كتابها «المجابهات الثقافية في الجزائر» ص: 164 تقول: «لتتمكن الدولة المحتلة من السيطرة على الوضع ويتركز نفوذها في البلاد ويتقبل ولاسيما في المدن النظام الكولونيالي لابد من القضاء على ثقافتهم ولغتهم وشخصيتهم».

ولذلك فإن الفرنسية في الذاكرة الجماعية ليست غنيمة حرب، بل هي طعم لتحويل الجزائر كلها الى غنيمة حرب، لا تقبل الفرانكوفونية السياسية أن يشاركها طرف آخر وخاصة في مجال نفوذها الثقافي والتهام الفريسة، وقصة اعتراض السلطات الرسمية في فرنسا على سياسة اللغات

في المدرسة الأساسية والمشروع الراهن لإدخال اللغة الانكليزية متداولة ومعروفة ولذلك ينبغي أن لا تتدخل الفرنسية وهي أجنبية بكل المقاييس بين العربية واللغات الأمازيغية – كيف تلجأ الفارسية والأردية والعبرية الى الاقتباس من اللغة والفيلولوجيا العربية وتشتق منها المصطلحات والمفاهيم، بينما يرى آخرون عندنا في العربية عدوا ينبغي دحره الى الصحراء؟! إنه لخطأ في الخصم سببه الانفعال والاستهواء المؤدي لتشويش مفهوم الديمقراطية والحداثة.

هذا الضرب من التطرف الانفعالي يقابله في الجهة الأخرى دعاة التحنيط في الماضي ورفض التجدد، وهؤلاء أيضا طابور انهزامي يحسب أن الماضي عبارة عن صندوق سحري فيه مفاتيح لاقتحام كل الأبواب، وهم لا يدركون أن ما كان يعتبر تقدما ورقيا في الماضي هو اليوم في حالته الخام تخلف بالنسبة لما وصل إليه العلم من حولنا، وأي تخلف!.

لقد بقيت عشرات الأجيال تجتر تراث الأجداد بدون إضافة تذكر حتى حدثت الصدمة التي زلزلت مجتمعنا وكادت تخرجنا من التاريخ، فوجدنا أنفسنا رهينة الكولونيالية الحاقدة وفي آخر مواقعنا الدفاعية، ولاشك أن التجديد والإبداع والعقلنة هي سبيلنا اليوم لتعزيز تلك الدفاعات ومواجهة التحديات.

وهناك صنف ثالث يتوغل فيما قبل التاريخ بحثا عن الأصول والفروع لحشد الحجج من غياهب الماضي على أن الشعب ينتمي الى مجموعة متوسطية تقع ما بين قرطاجنة وروما بهدف تقطيع أوصال الماضي التاريخي وتقديمه كأجزاء متنافرة، والهدف هو حشد الأدلة لنظرية تقريبية ومسخرة لخدمة سياسات لا علاقة لها في أكثر الأحيان بالبحث العلمي النزيه، نجد تعبيرا عنها عند هنري بيرين (H. Perrenne) في كتابه عن محمد وشرلمان (Mohamed et Charlemagne PUF, Paris 1970) حيث يخصص جزءا كبيرا من أبحاثه لما سماه غلق (غرب المتوسط (La ferméture de la Méditerranée Occidentale) الذي تحول في بداية القرن

الثامن ميلادي الى بحيرة عربية إسلامية بعد أن كان مدة ألفي عام مجرد فضاء خلفي للأمبراطوريات الإغريقية والرومانية والبيزنطينية التي لم تترك أثرا يذكر على العكس من الثقافة الإسلامية العربية التي حطمت المدرسة القديمة وهدمت وحدة المتوسط (La tradition antique sebrise l'Islam à détruit l'ancienne unité mediterranéenne...) .

إن تاريخ علاقتنا بالمتوسط تحمل دروسا وعبرا ينبغي التعامل معها بصرامة علمية وقناعات وطنية فلم تترك لنا روما ولا بيزنطة سوى خيارين أولهما: الخيانة وعبادة القيصر، وثانيهما: المقاومة والقتل في مهرجانات الوحوش المفترسة للترفيه عن جبابرة روما.

طبعا لا يتوهم أحد أن الجزائر في مشارف القرن الواحد والعشرين يمكن أن تعيش في كهف ثقافي أو سياسي فذلك خرافة.

إن التواصل مع الغرب والشرق في عالم يتكتل سياسيا وتتعدد أقطابه اقتصاديا وتكنولوجيا يعني بالنسبة للجزائر توفير الشروط لحضور فعال يقلل من ضغوط التبعية الموروثة والحديثة العهد، ولذلك ينبغي أن تخضع سياسة تعليم ونشر اللغات الأجنبية لخدمة استراتيجية وطنية مهما كانت متواضعة، حتى لا تستباح ساحتنا الثقافية وتتحول الى ساحة تستعرض فيها دولة واحدة عضلاتها وتقيم في مناسبات تختارها مهرجانات للأعيان يؤكدون فيها لأنفسهم أن الالحاق والخضوع هو طوق النجاة الوحيد، وهذا هو الفخ المنصوب لبعض النخب منذ أمد بعيد لإدخالهم في سجن القيطو-الثقافي (Ghetto culturel) قبل تحويلهم الى بيادق تقدم المصالح الأنانية للغير على مصالح الوطن وتتقرب منه بالسخرية من شخصيتها وتراثها.

وأتذكر في هذا السياق أن أحد المسؤولين في الجامعة الجزائرية حضر في منتصف الثمانينات ندوة علمية في لندن وعندما شاهد لافتة بالعربية أبدى أسفه لزميله الانجليزي عن حظه التعس الذي جعله يرى في لندن «السباقيتي المعجن» فرد عليه ذلك الزميل بأنه لا يعرف العربية ولكن هندستها الجمالية تثير انتباهه!

هل يسخر يهودي من ألواحة التلمودية ولغته ذات الخمسة آلاف عام وهل يقبل أن يتهمه أحد بالتطرف عندما يحول الدين الى جنسية والثقافة الى مسألة سيادة لا تنفصل عن الوطنية، أين اللائكية والعالمية (Universalité) والديمقراطية في بلد يثير تعصبه إعجاب الغرب ولا يفصل بين الانتماء العرقي والدين واللغة، بينما يتنازل البعض هنا وهناك بحجج واهية هدفها إرضاء هذا الغرب نفسه عن مقومات حضارتهم وأركان شخصيتهم بدون مقابل في تمرغ يذكر بالمشاهد القربانية للانتحار الجماعي عند القبائل البدائية، حقا أن من لا يحترم أصله وفصله يستحق أن تدوسه الأقدام!

إن غيرتنا على اللغة العربية الواحدة الموحدة ينبغي أن لا تقل عن غيرتنا على الأمازيغية سواء كانت تارقية أم قبائلية أم شاوية أم شنوية (نواحي شرشال) أم ميزابية... لأنها جزء من ذاتنا التاريخية والثقافية، وينبغي أن نعترف في هذا السياق بأننا لم نبذل الجهد الكافي للعناية بها جميعا فلا العربية وجدت مسعى منهجيا واستراتيجية لتعميمها وتطويرها وتوضيح سوء التفاهم، والتدليس، والمزايدة السلبية التي أحاطت بها، ولا الأمازيغية حظيت بعناية لدراسة تراثها وتبني لهجاتها في تناسق ووئام مثل ما كان الأمر دائما عبر التاريخ، ففي هذا الميدان الحيوي جدا لا تُجدي مكاتب الدراسات عبر البحر ولا عمليات التنظير الملغم، ولا التوصيات المغشوشة للأكاديميات المتخصصة في لغات المستعمرات السابقة.

فمن يفهم تراثنا خيرا منا؟ ومن يتفاعل مع اللغة ومضامينها أفضل من أهلها؟ ومن يغار عليها ويحميها ويطورها بإخلاص لا شبهة فيه غير أولئك الذين عبروا بها عن آلامهم وأحلامهم وذكرياتهم عن الأحداث والمعاناة التي عرفتها اللغة العربية والأمازيغية عندما كانت كلها تتعرض للاستهجان والنفي والتقزيم من طرف من يدعي اليوم التعاطف، ويلبس قناع الدفاع عن اللغات واللهجات المهضومة الجانب أليس ذلك تسييسا للعلم وعلمنة مزيقة لسياسة الهيمنة والتسرب؟!

ولكن... هل أن تقصيرنا دولة ونخبا وقيادات يتوقف فقط عند هذا الجانب الاستراتيجي من شؤوننا؟ الجواب طبعا لا، فهناك جوانب أخرى حيوية قامت فيها اجتهادات ظهر قصورها، ونعاني اليوم من انعكاساتها السلبية مثل الفلاحة والتوزيع الديموغرافي للسكان والمدرسة والجامعة وهيكل الدولة ومؤسساتها.. لن نستفيد كثيرا من التباكي على أخطائنا ولن يتغير حالنا قيد أنملة بتحميل هذا الشخص أو ذاك أو زار أخطاء تتجاوز أسبابها الثلاثين عاما الماضية، فالأهم من ذلك على حد تعبير كونفشيوس حكيم الصين هو أن نصحح هفواتنا بسرعة، ولا نسمح للغير بالاستفادة من أخطائنا.

لقد قامت الدولة الجزائرية بعد تغييب قهري وإلحاق متعسف نعاني اليوم من مضاعفاته في الأفكار والمؤسسات. ولم تكن دولتنا طيلة تلك المدة المظلمة تركة يتوارثها الأمراء والسلاطين تحت حراسة «الحماية»، بل أعيد بناؤها على أشلاء عشرات الآلاف من الشهداء عبر الانتفاضات المتواصلة حتى الجولة الحاسمة من نوفمبر 1954، ساهم في ذلك البناء معلم القرآن في القرية والمداح المتجول في الأسواق، والفلاح المسحوق الذي ترك فأسه وحمل البندقية الى جانب أخيه الفدائي المطارد في الأزقة المظلمة والأحياء الشعبية، كما قدم فيها المصلح المتطوع والمناضل البسيط في صفوف الحركة الوطنية قوت يومه ودمه، فمن يتجاسر اليوم على الزعم بأنه المهدي المنتظر وأن شخصه أو تياره ضمانة وحيدة للديمقراطية والجمهورية والتعددية والإسلامية.

هل غاب عن الذاكرة أن «الماكارثية» التي حطمت رجال العلم والثقافة والسياسة في أمريكا الخمسينات كانت تعيث فسادا من منبر الكونغرس؟! وهو بالضبط ما فعلته الستالينية في محتشدات الغولاغ في سبيريا، ومجموع أوروبا الشرقية.. وسجون الصين الشعبية أثناء الثورة الثقافية.

نعتقد بأن ثقافتنا بكل ألوانها هي في الغالب الأعم ثقافة ملتصقة بالشعب ومعبرة عن نضالاته وتطلعاته الحقيقية، ولن تنجح أي «نومونكالاتورا» في تحريفها عن هذا المسار، أو تسخيرها لخدمة النزوات والأهواء المرحلية.

المدرسة الجزائرية على أنقاض
مدرسة الاقصاء والحقرة الكولونيالية

تنطلق هذه الورقة من تصور عام لدور ومكانة نظام التربية والتكوين في الدولة والمجتمع، باعتبار أن ذلك النظام يمثل خلاصة فلسفية وعملية لاستكمال (أو تعديل) عملية التنشئة والتطبيع (Socialisation) التي وضعت لمساتها الأولى في أحضان الأسرة ومحيطها الإنساني والايكولوجي المباشر، ونخصص جل اهتمامنا لمسألة المرجعية وأفكار التغيير والقطيعة.

من أهداف عملية التنشئة تسليح جيل بأكمله بمجموعة من المعارف والمهارات الذهنية والتقنية عن طريق مضامين ومناهج تربوية تتلاءم مع مرحلة العمر والقدرات الخاصة بها وتساعد على تنميتها وتوجيهها نحو النضج والقابلية للتكيف والمطاوعة (Plasticity) مع متطلبات البيئة. ومقتضيات العصر، والاكتشاف المبكر للتوجهات المتميزة (Vocations) لدى الأطفال في المرحلة الأساسية من التعليم التي تشمل الطفولة الأولى والثانية (من ثلاث إلى سبع سنوات) والطفولة الثالثة من سبعة الى بداية المراهقة التي تختلف بين الذكور والاناث ومن بيئة الى أخرى.

نخصص معظم أهتمامنا في هذه الورقة للنظام التربوي باعتباره، كما أسلفنا خلاصة فلسفية وعملية يتبناها المجتمع وتنجزها الدولة، وقبل ذلك نقترح تحديدا أوليا لمهام المدرسة على النحو التالي(*):

المدرسة هي أكبر تجمع منظم ينقل عبره الماضي التراثي بعد تقييمه ونقده وليس بهدف تجميده أو تحييده، وتفحص فيه خصائص الحاضر

(*) لمزيد من التفاصيل انظر: محمد العربي ولد خليفة: المهام الحضارية للمدرسة والجامعة الجزائرية، ديوان المطبوعات الجامعية، 1989.

بغية فهمه وتطويره، في المدرسة تقرأ الأمة خريطة المستقبل كما تود أن يكون، أي تعد نفسها للمكانة التي تستحقها أو ترغب فيها، ولذلك ينبغي أن تكون القراءة المستقبلية لمهام المدرسة بالغة الدقة والوضوح وبعيدة عن المزايدة والتهريج، فليس هناك مؤسسة أخرى - منظمة أو تلقائية - تحقق الانسجام الثقافي بين فئات الشعب، وترسخ انتماءهم المشترك لوطن واحد، وتضع الخبرة وفن الحياة (L'art de vivre) في متناول الجيل الصاعد، أقول ليس هناك مؤسسة أخرى ترقى في هذه المهام الى مستوى المدرسة.

من الناحية الفلسفية يستمد نظام التربية والتكوين مرجعيته الأساسية من التجربة التاريخية للأمة وخصائصها الحضارية التي تتبناها شرائح واسعة من الشعب وتحددها النخب الفكرية من المختصين في علوم التربية والاختصاصات المجاورة التي تشمل حقل المعرفة بالإنسان والطبيعة والعلاقة بينهما، وتتكلف الدولة بوضع الهياكل والأدوات والأساليب لإنجازها على المستويين المحلي والوطني.

كلمة مرجعية (Frame reference) هنا تعني مشتركات الأمة من عقيدة ولغة وإرث ثقافي - اجتماعي يحدد العلاقات بين الأفراد والجماعات ويضع ضوابط السلوك المتمثلة في القيم والمعايير التي تلتزم بها الأغلبية من المواطنين وتعمل على توصيلها الى الخلف من الأجيال اللاحقة بتحويرات بطيئة أو متسارعة حسب شدة الحراك والتغير الاجتماعي، وأيا كانت الدعوة للتغيير أو القطيعة وخاصة عند اختفاء المعالم في حالات الاضطراب، فلا يوجد مجتمع الآن أو في السابق يخلو من مرجعية وإرث ثقافي مشترك.

أقر هذه الحقيقة الثابتة علماء الإناسة (الأنثروبولوجيا) في أبحاثهم عن المجتمعات التي سموها بدائية (Primitives) واتضح للباحثين المنصفين أي الذين لا يبنون مقولاتهم على التمييز العرقي الأثنولوجي أن «البدائية» ليست أكثر من مصطلح نسبي يضع الثقافة الغربية وجانبها التكنولوجي

بوجه خاص على قمة الهرم ثم يصنف الثقافات الأخرى في المراتب الدنيا أو المنقرضة.

لا يقتصر الأمر على المجتمعات البشرية، بل إن للحيوانات والحشرات «خزان» غريزي أو طاقة حيوية - اجتماعية (Bio- sociale) تمثل ما يشبه المرجعية التي تبلغ درجة عالية من التنظيم والدقة والانضباط، كما هو الشأن في تجمعات النحل والنمل والقطعان الطليقة في الصحاري والأدغال التي لا تستغني على قيادة وتنظيم وتدريب صغارها على أنماط من السلوكات والأرجاع أو المنعكسات يدور أغلبها حول المحافظة على البقاء والتكيف للبيئة.

لا غرو إذن أن تبني المدرسة ابتداء من تلك الفلسفة أو المرجعية ما يسمى الشخصية القاعدية (Basic Personality) لأفراد المجتمع، وتعمل على وضع الحد الأدنى -على الأقل- للوفاق والتعايش والانسجام والتضامن بحكم انتمائهم الى مجال جغرافي - تاريخي واحد يميزهم عن غيرهم أكثر مما يميّز بينهم.

من البديهي أنه لا وجود لمجتمع بلا وطن (مجال جغرافي تاريخي وجداني) ومن الصعب أن يستمر مجتمع بلا دولة، تسهر على ذلك الحد الأدنى من الوفاق أو الانتماء الجماعي، وتقوم بالدور المنوط بها وهو حماية وتوسيع ذلك الحد الأدنى، ولذلك من حق الدولة باعتبارها صورة تمثيلية (Représentative) للمجتمع عبر مؤسسات منتخبة ديمقراطيا، من حقها أن لا تسمح بظهور أنظمة تربوية موازية تهدد الشخصية القاعدية التي تضمن تماسك الأمة، ولا يختلف ذلك عن الدفاع والأمن الوطني إذ لا يسمح أي بلد بإنشاء جيوش أو ميليشيات موازية، فإن حدث ذلك في حالات الفوضى والتفكك السياسي أنهارت الدولة، وتداعت أركان المجتمع، وتراجع الى التشرذم والقبلية.

لقد عرفت الجزائر خلال مرحلة الاحتلال الاستيطاني الإبادي العنصري نظامين للتربية والتكوين يخص الأول الجالية الأوروبية، وهو امتداد لنظام

التربية والتكوين المعتمد في فرنسا، ولمدة تناهز القرن، قاوم الجزائريون هذا النظام باعتباره أحد أشكال القهر والتسلط الاستعماري، ولم تسمح سلطات الاحتلال اللاشرعية إلا لعدد ضئيل جدا من الأعيان والأعوان يعدون بالآحاد بالانخراط في صفوفه، ابتداءا من نهاية الحرب العالمية الأولى وحتى اندلاع الثورة في مستهل الخمسينات، ولذلك يمكن أن نسمي ذلك النظام بكل فروعه وأشكاله المدرسة الفرنسية في الجزائر وليس مدرسة جزائرية على الإطلاق.

ويمكن تصور الآثار المدمرة لتواجد تلك الأقلية المتعجرفة والعدوانية لو بقيت بعد الاستقلال بسجلها الثقيل والأسود وممارساتها العنصرية الإرهابية وهلوسات البارانويا (Paranoiaque) عن التفوق العرقي واحتقار الأنديجينا، بعد هزيمة تلك الأقلية الحاقدة والمعتدية واندحارها مع جيوش الاحتلال، لا يوجد ببلادنا أية أقليات عرقية أو ثقافية أو دينية تعتبر نفسها متميزة عن عامة الشعب الجزائري أو تطلب تنظيمات تربوية أو قانونية أو اقتصادية.. مختلفة عن غيرها.

لا ينفي ذلك بطبيعة الحال وجود تنوع وثراء ثقافي بين الصحراء والتل وبين الهضاب العليا والساحل البحري، وبين المناطق الجبلية والسهلية داخل شريط الشمال من مرسى بن مهيدي الى القالة ومن رقان في الجنوب الأقصى الى مداخله وبواباته في الحضنة والزيبان وعين الصفراء وتاغيت، في كل تلك المناطق يتدرج التنوع في المأكل والملبس والمسكن ويتفاعل مع منظومة القيم، ولكنه يؤكد في نفس الوقت الوحدة التاريخية والراهنة لمجموعة بشرية متضامنة في السراء والضراء، هي مجموعة المواطنين الجزائريين أينما كانوا فوق التراب الوطني وحتى خارجه بحكم الأصل والانتماء، كما تأكد ذلك في كل المحن والامتحانات التي اجتازتها بلادنا في الماضي القريب والبعيد.

وعلى هذا الأساس فأن نظام التربية والتكوين يتضمن مقاربتين تحدثان في مكان وزمان واحد، تتجه الأولى الى نقل متبصر للإرث (Leg) الثقافي

المحلي والعام ويتضمن تراثنا العربي الإسلامي الذي لم نشارك في ازدهاره فحسب، بل أوصلناه الى الجنوب الأوروبي والغرب الإفريقي بهمة وعزيمة لا ينكرها الثقاة من المستشرقين ومؤرخو الحضارة في الألفية الماضية، فضلا عن أن الساحة الإسلامية الأفرو-عربية هي مجالنا الحيوي الطبيعي لأسباب تاريخية وجغرافية وحضارية وسياسية أشرنا الى جانب منها في مناسبة أخرى(*).

أما الجانب المحلي الذي ينبغي نقله وتوصيله الى الناشئة فيتمثل في الخصائص الوطنية التي تعطي لذلك التراث طابعه المميز عبر العصور، شعبنا ليس نسخة باهتة لأي بلد آخر من الجوار القريب أو البعيد، في تاريخه محطات لابد من التوقف عندها وتأملها واستخلاص العبر منها، وفي منتجاته الفكرية والفنية والأدبية ما يضيف الكثير الى ذلك التراث المشترك بنكهة ومذاق جزائري محض.

النقل المتبصر للميراث الثقافي يقع في نقطة وسط بين الاتصال والانفصال (Continuité - Rupture) فلا هو اجترار ميكانيكي لما تركه السلف، لأن تركة السلف فيها الصالح والأقل صلاحية والتافه أو الطالح الذي يمكن اعتباره حتى في سياق عصره حشوا وثرثرة ومغالطات، ينبغي التخلص منها ونبذها دون عقدة أو تردد.

لا ينكر أحد أن منطقتنا العربية الإسلامية والجزائر جزء منها قد عانت لعهود طويلة من الجمود والتخلف، لا زالت بقاياها الى اليوم.

للتخلف والانحدار (déclin) أسباب داخلية تتصل بالسلطة وتنظيم الدولة التي بدأت تتفكك وتنهار منذ نهاية القرن الثالث الهجري (الحادي عسر ميلادي)، وأسباب أخرى خارجية تتمثل في عمليات الهدم والتطويق والاختراق التي شنتها حجافل متتالية من المغول والتتار والصليبيين الذين دمروا تراث الأمة وأوصلوا شعوبها في المشرق والمغرب الى آخر مواقعها

(*) الفصل السابع من كتاب النظام العالمي ماذا تغيّر فيه وأين نحن من تحولاته؟ للكاتب، ديوان المطبوعات الجامعية، 1998.

الدفاعية، وهي التجمد والانعزال وتقديس ما تبقى من التراث ورموزه، وتراجع العقل المبدع في العلوم والفنون والآداب وخاصة في فترة المدّ الكولونيالي الرهيب في أوائل القرن الماضي حيث تغلب الشفوي على المكتوب وأصبح التمسك بالطقوس والشكليات من جهة جزءا من المقاومة الشعبية للعدوان ومن جهة أخرى تثبيتا للتخلف يزيد من تراكمه واتساع الهوة بين الانكماش الدفاعي لبلداننا وما يحدث حولنا في العالم المتقدم وهو نفسه العالم المعتدي علينا والذي نتهمه بجريمة فرض التخلف بالحديد والنار على العديد من الأمم في عالمنا الثالث المبتلي باللامبالاة والنسيان.

إذا كان النقل المتبصر للميراث الثقافي ليس مجرد تحويل لتركة الماضي وتقديمها في حالتها الخام للناشئة، فإن القطيعة والانفصال عن ذلك الميراث في صورتيه العامة والخاصة (المحلية) هو موقف عدمي (Nihiliste) وانهزامي (défaitiste) أمام مطالب الحاضر والمستقبل لا يحل إشكالية التخلف القائم في بلادنا ولا يقدم أي اجتهاد مؤسس لتحقيق التقدم والتطور، فلم يحدث أبدا في التاريخ الإنساني الموثق، إن شعبا أو أمة اتخذت قرارا بشطب مجمل تاريخها أو قسما من تراثها الوطني بإرادتها، والبدء من نقطة الصفر الخيالية، كأن ذلك الشعب أو تلك الأمة وليدة اللحظة التي أتخذ فيها القرار، هذا إذا افترضنا وجود نقطة تسمى الصفر لم يسبقها شيء وما يأتي بعدها يختلف جملة وتفصيلا عما سبقها، وهو افتراض ليس خياليا فحسب، بل هو تسعفي، ولا أساس له من الصحة.

لقد توهمت بعض القيادات والنخب في عالمنا العربي والإسلامي أنه من الممكن تطبيق قرارات الشطب والقطيعة وفرض نقطة الصفر بسلطان السيف أو بسيف السلطان كما حدث في تركيا الأتاتوركية والقوقاز تحت الهيمنة القيصرية - السوفياتية، والجزائر ضحية الاستئصال الكولونيالي للسكان وتاريخهم وثقافتهم.

بالنسبة للمثال التركي فإن الأوضاع الراهنة تؤكد أن التطور والتغيير لا يحدث بقرارات فوقية ومراسيم أبوية، وأن القطيعة المزعومة عن طريق نقطة الصفر هي في الحقيقة حل جانبي ومؤقت لوضعية متأزمة وكارثية يمتزج فيها العجز والتمرد والسخط على الفشل والهزيمة، تدفع تلك الوضعية بعض القيادات للانتقام من الذات التاريخية ورموزها الحاضرة عن طريق تقمص صورة الأقوى والتعويض الزائد (Surcompensation) عن مشاعر النقص والخوف من المستقبل، ولا ريب أن هذا السلوك الهروبي هو رد فعل وليس فعلا.

رد الفعل الكسول المقلد للأقوى والمتشبث كالغريق بمظاهره القشرية لم يحسم شيئا في المثال التركي فمازال هذا البلد الإسلامي الكبير ضائعا بين تناقضاته الجيو-سياسية في البلقان ومع العملاق السلافي (روسيا) ومسجلا في ذيل قائمة الانتظار، على الباب الخلفي للاتحاد الأوروبي وحائرا بين علاقاته الاستراتيجية (؟!) مع الغرب الأورو-أمريكي وعظمته السابقة التي عبر عنها رئيس الحكومة الحالي نجم الدين إربكان في خاتمة حملته الانتخابية موجها خطابه الى خصومه السياسيين: نحن أبناء محمد الفاتح! فمن أنتم؟

وبالنسبة للمثال القوقازي فإن القطيعة مع التراث كانت ومازالت مفروضة من الخارج لأغراض الاحتواء والتذويب (déculturation) بلغت تلك العملية الشنيعة في العهد الستاليني الدموي الى حد تقتيل قسم كبير من شعوب القوقاز وتهجير البقية وتشتيتها في فيافي وشعاب الثلاجة السيبيرية.

مثل الحالة السابقة فقد باءت هذه العملية بالفشل الذريع كما برهن على ذلك شعب تشيتشينيا الصامد وقادته الأبطال من الجوهرة الشهيدة (دوداييف) الى المجاهدين البسطاء من الرجال والنساء الأوفياء لتراثهم الإسلامي القوقازي الأصل (النقشبندية والقادرية) إن كفاحهم المتواصل منذ عشرات السنين وراء الستار الحديدي الرهيب في ظل تواطىء مخز وصمت يقترب من التأييد يجعل ذلك الكفاح شبيها بنظيره الجزائري، وفي

كلتا الحالتين يقدم لنا التاريخ والواقع الراهن دليلا ساطعا على فشل الاندماج والتذويب عن طريق التدمير الشامل والقصف الوحشي بالمدافع والصواريخ.

وبالنسبة للمثال الجزائري فإن قرنا ونيف من الاستئصال الإجرامي لهوية الشعب ومؤسساته وعزل مقاطعاته الترابية بعضها عن بعض وفصله عن محيطه الحضاري لم تقتلع من ذاكرته الجماعية وسلوكاته اليومية أصوله الثقافية ومرجعيته الإسلامية، بل جعلته يميز بطريقة قطعية بين ما هو دخيل وقهري يهدد وجوده ويصنفه بوضوح تحت عنوان واحد هو «الرومي الكافر الظالم» لا يثق في أي من حركاته وسكناته، وعلى استعداد لمقاومته بوسائله البسيطة، لا ننسى أنه حتى بداية هذا القرن كان مجرد لبس البدلة يعني التنكر للزي الوطني، والتشبه بالرومي المستعمر، وبالتالي علامة على الانحراف تثير الشك والريبة في موقف الشخص المعني من الاستعمار، وعلاقته بقومه أي ثقافة وطنه، وقد حدثنا بعض المسنين من السكان القدماء في عاصمتنا الجزائر عن أساليب في غاية الذكاء والحكمة لحث الشبيبة في العشرينات من هذا القرن للتميز عن الغزاة وجاليتهم المتغطرسة من الأرجل والقلوب السوداء.

على ضوء هذا الواقع الواضح، لم يتوقع إلا قلة من الأعيان، نجاح خرافة الاندماج وخداعات الإدارة الكولونيالية، لا نعرف العدد الحقيقي لمناضلي حزب البيان حتى نهاية الأربعينيات بسبب السرية والقمع المسلط على الجميع بمن فيهم الأنصار المخدوعين بحكاية الاندماج المرفوض أساسا من الغلاة المتجبرين (الكولون) والذي استعملته الحكومات الفرنسية لغرض مشبوه لم يخف على معظم الجزائريين، وهو إفشال المقاومة في شكليها السلبي (الرفض المطلق للمستعمر بكسر الميم وثقافته)، والتمردي (الانتفاضات المتتالية حتى ثورة أول نوفمبر 1954).

لا نريد محاكمة رجل دخل التاريخ وفي وزن المرحوم فرحات عباس فنحن نفضل النظر الى الحركة الوطنية في صيغتها الكلية، ولكننا نرى أن تياره قد خدع مرتين، أولاهما اعتقاده بأن الوضعية المأساوية للشعب

الجزائري هي وضعية كولونيالية دائمة وميؤوس منها، وثانيهما اختياره النضال على جبهة أدت في كل الحالات الى طريق مسدود، هذه الجبهة هي إقامة الحجة على الاحتلال الاستيطاني انطلاقا من القيم الإنسانية العالمية وميثاق حقوق الإنسان التي تتغنى بها فرنسا وتدعي زعامتها والدفاع عنها.

لعل هدف ذلك الزعيم هو التخفيف من وطأة الاحتلال في الوضعية التي أقر بأنها وضعية ميؤوس منها على المدى الطويل، لم تعبأ فرنسا بأدبيات الواجهة وواصلت سياسة القمع والاستئصال الثقافي والتحقير العرقي الى آخر لحظة فكان الجواب الصحيح هو الثورة الكبرى التي حاكمت الاحتلال الإجرامي من واقع ممارساته وليس من شعاراته البراقة والمظللة التي خرقها هو نفسه وداس عليها من 1830 الى 1954.

أشرنا في بداية هذه الورقة الى أن نظام التربية والتكوين يتضمن مقاربتين في آن واحد تعمل الأولى على تحقيق الاتصال المتجدد بين الأجيال وصقل الانتماء المشترك لمرجعية واحدة هي الحدود المادية والوجدانية للوطن والأمة، وحدة المرجعية لا تعني القولبة الإيديولوجية أو تحويل المدرسة الى مخبر لصنع الإنسان «الروبو» أو إنسان الأنابيب (IN Vetro) عن طريق التحكم المخبري في معتقداته وميوله واتجاهاته كما يفعل خبراء التحكم في المورثات الحيوية للأجنة(Manipulations biogénétique).

لذلك فإن نظام التربية والتكوين يحتاج الى مقاربة استشرافية متزامنة مع الأولى تستهدف استيعاب معطيات العصر وفحص «العتاد» المعرفي الذي يؤهل الجيل الجديد للتواجد الفعال أي المشارك والمبدع (وليس المتطفل والمتفرج) في معمعة التطور والتقدم واستيعاب مستجدات التراث الإنساني في مجال العلوم والفنون والآداب.

ولكي يكون الاستيعاب إيجابيا وفعالا ينبغي أن يحدث ضمن الإرث الحضاري للأمة وخصائها الثقافية كما هو الحال في المثال الياباني الذي ينافس العالم تطورا، ويتفوق عليه في بعض علوم المقدمة (sciences de pointe) ضمن انتمائه الثقافي الحضاري، إذ أن البذلة الأنيقة لخبرائه لا تلغي

تقديسهم لديانة الشنتو ولباس الكيمونو والأكل بالملقاط ومجموعة أخرى من القيم والسلوكات تجعل من السهل التعرف على الياباني ولو وضع قناعا على وجهه.

وإذا كنا نعتبر نظام التربية والتكوين قاطرة التقدم والتجديد ونرى في المدرسة الاستثمار الأكثر فائدة للدولة والمجتمع، فإن لذلك علاقة بمضامينه ويمجمل الوسائل والأدوات (Pédagogie-didactique) التي تقع في صميم عملية التربية والتكوين فالمدرسة لا تعطي إلا ما تأخذه ليس فيها سحرة ولا خوارق هي مؤسسة اجتماعية وجزء من هياكل الدولة تعكس ما يعج به المجتمع من صراعات وتناقضات حقيقية أو مصطنعة.

يعرف من مارس مهنة التربية والتكوين أو ساهم في الإشراف عليها، أن المدرسة ليست جزيرة معزولة فهي امتداد لما حولها، بتشكيل ذلك الامتداد من ضغوط الواقع و«العقليات» ومستوى تطور الأمة يؤثر كل ذلك على المربين من معلمين وأساتذة وإدارة، وتظهر آثاره في نوع التحصيل المدرسي وكيفه، وطرق تقييمه وتقدير مردوده.

من المفارقات التي شاهدناها قبل بضع سنوات أن الشخص نفسه قد يحكم على المدرسة الجزائرية بالفشل ويلعنها بأقذع الأوصاف لأن ابنه قد فشل في أحد الامتحانات، ثم يتخلى عن ذلك في السنة الموالية، فيشيد بالمدرسة وينوه بها، لأن ابنه قد أجتاز الامتحان بنجاح، وقس على ذلك كثيرا من النزوات الأخرى والميول الشخصية التي يعتبرها بعض الأشخاص مسائل عملية بيداغوجية ثابتة دليل على الأصالة عند أناس، ودليل على العصرنة عند أخرين.

بغض النظر عن هذه المواقف الذاتية فإن مضمون التعليم ليس نهائيا ومغلقا فهو موضوع للتعديل حسب تغير الأهداف التي ترسمها الأمة لنفسها في مرحلة -ما- من تاريخها، وهي عملية ليست فنية (Technique) بحتة، ولا سياسية، إشهارية يقوم بها فريق وزاري يظهر تميزه عن غيره في حكومة سابقة إذ ينبغي أن تتم في إطار ديمقراطي يشارك فيه

كل المعنيين والشبيبة بوجه خاص وتخضع كل الاختيارات الى فحص دقيق من طرف كل الاخصائيين من العلماء والباحثين والساسة في المجتمع المدني والسياسي.

إذا تعلق الأمر بمضامين التربية والتكوين والأهداف المتوخاة منها في المديين المتوسط والبعيد فإن البحث داخل الجامعات والمراكز المختصة هو الأداة الأساسية للترقية والإصلاح والتقييم المتواصل ومن المفيد أن توكل مهام البحث الى فرق متعددة الاختصاصات (Multidisciplinaires) تهتم بإشكاليات تقليدية في البحث التربوي مثل تخطيط التربية واقتصادياتها وسيكولوجية الحشد المدرسي وعلاقاته بالمحيط الايكولوجي، وتأثيرات المجال السمعي البصري (السينما والتلفزيون والكاسيت) وقضايا الترفيه بوجه عام، ومشاكل التحصيل المدرسي (Achievement) والتوجيه والتربية الخاصة الموجهة للمتفوقين أو المعوقين الخ... والتفكير في المسائل الكبرى مثل فلسفة التربية والتكوين وسياساتها أي تكوين المكونين وتنفيذ البرامج وقياس المردود التربوي في فترات تتراوح بين خمس وعشر سنوات...

إصلاح التعليم وتطوير نظامه ليس لعبة للتسلية أو مجرد «نرفزة» شخصية للتنديد بجوانب النقص والخلل التي لا يخلو منها أي نظام تربوي في العالم المتقدم والأقل تقدما، فليس هناك نظام تربوي مثالي لا يقبل النقد والإصلاح والتعديل، وبالمقابل ليس هناك نظام تربوي فاسد كله، كما تسرع البعض في لحظة غضب أو تحريض فوصفوا مدرستنا «بالمنكوبة» يحق للآلاف ممن ضحوا في صمت وسهروا على تلك المدرسة في الأيام الصعبة، وللدولة الجزائرية التي أنفقت بسخاء لتعليم وتكوين الملايين من أبناء الشعب، أغلبهم من ضعاف الدخل وأباؤهم أميون، يحق لجميع أولئك النساء والرجال أن يرفضوا العدمية والمزايدة على شتم الذات وتحقير منجزات وطنهم بغض النظر عن طبيعة الحكم ورجاله، فالغضب على شخص أو سياسة هو موقف يتحمل صاحبه مغبة

الدفاع عنه، ولا يقبل العقل والمنطق والوطنية أن يعمم على الشعب والدولة كلها.

إن الاستماع الى الشتائم المضحكة الموجهة الى المدرسة الجزائرية من الاستقلال الى اليوم، وأحيانا الى مكاسب الجزائر المستقلة كلها، في هذه الحقبة من الاضطراب والاستهتار، لا يمكن اعتباره حتى وجهة نظر، لأن الذي يتهم المدرسة بالشذوذ والانحراف هكذا بالجملة! عليه أن يجد مكانا آخر غير المدرسة تخرج منه عشرات الآلاف من المتمدرسين فيهم كفاءات كثيرة، أثبتت قدراتها في الميدان وخارج التراب الوطني، وفيهم أيضا من هم أقل كفاءة إذ أن ديمقراطية التعليم تعني تساوي الفرص ولا تعني تساوي القدرات والاستعدادات (Aptitudes) والعوامل الأخرى الاجتماعية والسيكوسوماتية المتباينة في كل المجتمعات.

نحن على يقين يزيد على الحدس والتخمين بأن شعبنا لن يتراجع الى الوراء الى نظام الكولون، ومدرستهم السفلى لتكوين الأعوان والأعيان، لن يتنازل شعبنا عن وطنية مدرسته ومرجعيتها الأصلية والتقدمية، فالمدرسة الجزائرية تبقى بنت الثورة الوفية، ومعقد آمال دولتنا الفتية، لإثراء وتنمية مشتركات الهوية، وتحقيق طموحات شعبنا في التقدم والعدالة والحرية، ومشتلة متجددة للوطنية الأكثر اعتزازا بالوطن وغيرة على المواطنة والأشد تعلقا بالحرية والديمقراطية.

التاريخ في المنظومة أظالمة هي؟ أم مظلومة؟

جاءت هذه المبادرة في وقت تحتاج فيه منظومة التربية والتكوين بأكملها الى مقاربة إجمالية حكيمة وجريئة تتجنب التهريج والابتزاز وتستهدف دعم منجزاتها وتحسين أدائها واستحقاق مكانتها التي ينبغي أن تكون متميزة بين مؤسسات الأمة بحكم دورها القيادي في المجتمع.

نحن على يقين بأن وراء الاختيار الموفق لموضوع الملتقى تصور مبدئي وصائب للموقع الخاص لمناهج التاريخ في المدرسة وإدراك للأهمية الاستراتيجية لتاريخ الجزائر وثورتها في بناء الذات الوطنية، انطلاقا من رؤية حضارية طموحة ومتجددة لا تفصل الاستمرارية التاريخية للأمة عن مستجدات حاضرها ولا تحجب عنها التحديات الملحة والعاجلة لمستقبلها.

ينبغي أن نعترف بأن دراسة وتدريس تاريخ الجزائر وثورتها مهمة تتساوى فيها الدوافع المشروعة للروح الوطنية، وضرورات الصرامة العلمية، وما يتطلبه الواجب التربوي من توثيق ونقد وتفسير.

* تكون تلك المهمة موقفا وطنيا لا يقبل الحياد إذا استحضرنا معاناة شعبنا وكفاحه الطويل من أجل البقاء وتعلقه الدائم بمثل الحرية والعدالة والتقدم، حتى ليمكن القول بأن محور تاريخ الجزائر هو المقاومة والصمود ضد الغزاة والمعتدين والدفاع بلا هوادة عن العقيدة ومقومات الشخصية مما أعطاها خصوصية تاريخية تميزها داخل المنطقة وخارجها.

مهمة لا تقبل الحياد:

ولذلك فإن اعتزاز أجيالنا الراهنة واللاحقة بتاريخها وتوظيف دروسه بما فيها من انتصارات وخيبات، لا يمكن اعتباره عاطفيات رومانسية ولا ذاتانية (SUBJECTIVISME) أو شوفينية، لأنه يدخل ضمن الحقيقة التاريخية ولا يحتاج الى خيال أسطوري وأبطال خرافيين لملء الفراغ في الذاكرة الجاعية.

* وتكون تلك المهمة وثيقة الصلة بالمنهج العلمي وأخلاقيات البحث والتكوين إذا نظرنا الى التراكم المعرفي والشبه المعرفي الذي خصت به بلادنا أثناء الاحتلال وبعده، واستهدف في معظمه مصادرة ماضيها وتحريف مضامينه وتشويه دلالاته بطريقة منظمة ومتواصلة الى اليوم.

لقد أدرك منظرو الاستعمار الاستيطاني أن ترويض الشعب الجزائري واخضاعه يتطلب الجمع بين السحق المادي عن طريق عمليات الإبادة العقابية والردعية، وبين محو كل رموزه الثقافية والروحية والسياسية ولا يتأتى ذلك إلا باختطاف تاريخه والتنكيل بماضيه الحضاري واقناع الأنديجينا أو السكان الأصليين بأنهم مجرد مجموعات فسيفسائية متناثرة لا يربطها تراث مشترك ولا توحدها محن وآمال وآلام، ولذلك فإنه لا حاضر لها سوى الخضوع، ولا مستقبل لها على الإطلاق.

لا ريب أن جرد ذلك التراكم المعرفي المدغول والكشف عما فيه من دس وتضليل في مستوى المصطلحات والمفاهيم والنتائج والخلاصات المتعلمنة خلف الوقار الأكاديمي المزيف، سوف يساهم في إسقاط كثير من المقولات الفاسدة والمفسدة عن ماضي الجزائر دولة ومجتمعا وتاريخا.

فحص تاريخنا وتنقيته وتحريره من الاستقطاب والهيمنة الخارجية المشبوهة وتبليغ حقائقه الى أطفالنا وشبيبتنا لا يمنع من معالجته بعين ناقدة وتشجيع التلاميذ والطلاب والباحثين على اكتشاف دلالاته وتحليل وقائعه بعيدا عن التلقين والسرد الكرونولوجي والمدخل الهستوريوغرافي.

إن إنقاذ تاريخنا من الضياع والمصادرة، يمر حتما على مراحل من أهمها تعبئة إمكانيات ضخمة للاسراع بجمع مادته الخام وتنظيمها ووضعها في متناول رجال العلم والتربية وتشجيع المؤهلين في ميادين البحث التاريخي والتربوي على وضع نظريات ومدارس وطنية في التحليل والتفسير التاريخي تساهم في إثراء وتعميق معرفتنا بالتراث المشترك لشعبنا المتمثل في ماضيه الحضاري المتواصل بلا انقطاع.

هناك بالتأكيد جهود لا تنكر لتطوير الجانب الكمي والكيفي لتدريس التاريخ واهتمام بالتقنيات البيداغوجية المتعلقة بالكتاب والمعلم والوسائط المساعدة على إعداد وتوصيل مضامين البرنامج في مختلف مراحل التعليم والتكوين، غير أن تلك الجهود تبقى قاصرة إذا لم تؤديها وسائط أخرى في المحيط الاجتماعي والثقافي العام، ولعلنا لا نضيف جديدا إذا أكدنا على أهمية الإعلام والمتاحف والسلاسل المبسطة والمتخصصة في الإخراج المشوق لمقاطع من تاريخ الثورة وأبطالها والتعريف بوقائع محددة من ماضينا قبل الاحتلال وبعده.

لن أكلف جمعكم الموقر مشقة الاستماع لأدبيات متداولة حول مناهج تدريس التاريخ وأساليب التدريب والترقية المستمرة لإطارات المدرسة الجزائرية لسببين:

أولهما: إن الخبرة هي وليدة الاقتناع والرغبة والإرادة ولا يوجد مكان آخر غير المدرسة يتطلب أعلى درجة من الإخلاص والكفاءة والاتقان، وعلى هذا الأساس فإن المدرسة ينبغي أن تكون رهاننا على المستقبل وليست رهينة صراعات ظرفية (CONJONCTURELS) وانفعالات بافلوفية وميول مذهبية لا تعكس التوجهات الكبرى للمجتمع ولا تعبر عن طموحاته الحقيقية.

المدرسة رهان وليس رهينة:

أما السبب الثاني الذي يغنيني عن الخوض في تلك الأدبيات فيتمثل في العدد الكبير الموجود بيننا من ذوي الخبرة والتجربة والاختصاص الأكاديمي المطلعين على المعطيات الراهنة للمنظومة التربوية والقادرين على التمييز بين الإشكاليات الموضوعية التي تواجهها وهي على مشارف نهاية العقد الأخير من هذا القرن، وبين المشاكل المصطنعة الناجمة عن حالة القلق والاستقطاب الخارجي والاضطرابات المطبق على بلدنا في هذه المرحلة الحرجة من تاريخها.

لاشك أن من أسباب الصراع والاضطراب (تقصيرنا) الجماعي في وضع منظور متكامل ومتعدد الاجتهادات لتاريخنا الوطني وتمكين أجيال الاستقلال من التعرف على ماضيهم القريب والبعيد من خلال المضمون المدرسي (CURSUS) بوجه عام ومناهج التاريخ بوجه خاص.

وفي هذه المسألة بالذات ينبغي الإشارة الى عدد من الملاحظات نوردها بإيجاز على النحو التالي:

1 – إن كثيرا من الانتقادات الموجهة للمدرسة الجزائرية ومضامينها التعليمية وخاصة ما يتعلق بالتاريخ، هي إما شعارات موروثة عن كاتالوق له الى اليوم سطوة ونفوذ بين بعض النخب ويسانده نفخ قوي من بعيد لأغراض التشكيك والاستهواء والانتقام من جزائر الثورة وإنجازها الأكبر، وهو مشروع المدرسة الوطنية الوفية لتقاليد شعبنا وتطلعاته نحو الازدهار والتقدم بعد حرمان دام عشرات السنين، وإما محاسبة للضحية بدل المقصرين، فالمدارس ليست أكاديميات لإنتاج المناهج والأبحاث التاريخية، إنها مسؤولة عن تقديم ما هو موجود منها بمناهج نقدية وبأنسب التقنيات البيداغوجية، ولكن أين هو تاريخنا العام؟ وأين هو موقع الثورة فيه؟

لقد نقلت وسائل الإعلام في الصيف الماضي توصيات رئيس الدولة الفرنسية وهو يلح على المشتغلين بالبحث والتعليم بأن يجعلوا من التاريخ بعدا استراتيجيا في حياة الأمة ومسألة سيادة. بينما ذهبت المعارضة أبعد من ذلك، فقد أعلن ممثلوها في البرلمان بأن السيادة عندها هي التاريخ نفسه وعظمة فرنسا في نظر مواطنيها وفي نظر محيطها الجيوسياسي والدولي.

2 – ساعد على شيوع المدخل العدمي (NIHILISTE) أو ما نسميه نظرية الفراغ أي أن ما سبق لا شيء، أو أسوأ شيء، قلة الدراسات المخصصة لأصول الحركة الوطنية ومنابعها الفكرية والاجتماعية، وسيطرة المدرسة الفرنسية على أغلب ما ظهر منها وتوجيهه نحو التجزئة والتقطيع وتأويله وفق مفاهيم الأيروسانترية التي تلقن الجميع في العالم التابع ما هو علمي وصحيح أي ما يرضيها، وما هو شاذ وخطأ أي ما يخالف مقولاتها المعيارية.

يشيع أستخدام تلك المفاهيم في كتاباتنا وأبحاثنا وكأنها مفاتيح أصلية لتصنيف وتفسير الوقائع التاريخية، نذكر في هذا السياق وعلى سبيل المثال مفهوم القرصنة في المتوسط الذي يوحي لأجيالنا الناشئة بأن أجدادهم كانوا مجرد قطاع طرق وصعاليك يمارسون السلب والنهب أي أن الجزائر كانت في ذلك العهد في حالة لا دولة يتصرف فيها رؤساء عصابات، بينما الحقيقة أن الأسطول الجزائري كان يقوم بدور دفاعي ضد العدوان والتحرش القادم من الضفة الأخرى لحماية الدولة الجزائرية وفرض سيادتها المشروعة على مياهها الإقليمية، بل إن الأسطول الجزائري القوي كان يقوم بذلك الدور نيابة عن كل البلدان الإسلامية في الحوض الجنوبي الغربي للمتوسط منذ سقوط الأندلس، وبداية التوسع الكولونيالي الصليبي تحت اسم إعادة الفتح (RECONQUISTA).

تحرير التاريخ من المفاهيم المغلوطة:

3 – نعتقد أن تحرير تاريخنا من المفاهيم المغلوطة هو مسألة ملحة وذات أولوية طال انتظارها، وبالطبع فإن تلك المهمة لن تكون نتيجة قرارات ومراسيم ومرافعات عاطفية، بل تبدأ بتشجيع البحث في الجامعات والمعاهد المختصة والهياكل المعنية بتاريخ الجزائر بوجه عام وتراث ثورة التحرير بوجه خاص بمنأى عن القيود البيروقراطية والطريقة المعروفة بالحملات الموسمية، الاستثمار في هذا الميدان وفق خطة بعيدة المدى أي بمنظور استراتيجي هو وجه من الدفاع عن السيادة الوطنية وحماية هيبة الدولة بغض النظر عن الأشخاص والعهود.

4 – إن وحدة الأمة والتصور الإعلائي للذات الجماعية أي الإحساس بالتضامن التلقائي مع المجموعة الوطنية والتوحد بها إنما تنبع كلها من النظرة المشتركة للماضي التاريخي في خطوطه العريضة وأحداثه الكبرى ورموزه الحديثة العهد والموغلة في القدم، فالتشتت والعداء ينتج في الحقيقة عن غموض الماضي والتصارع حول دلالته مما يؤدي الى صعوبة الوفاق الاجتماعي والسياسي والشك في المستقبل.

لم تقم أية محاولة جدية لربط ثورة التحرير بما قبلها وما بعدها من منظور الاستمرارية التاريخية للأمة والمجتمع الجزائري بطريقة نقدية تجمع الاجتهادات والمقاربات التفسيرية المختلفة وتسمح بالمقارنة والتفسير، أحيانا لأسباب حماسية غير مقنعة لأن الإشادة اللفظية بمآثر الثورة وهي من تاريخنا المباشر لا يغني عن دراستها باعتبارها الخلاصة الأرقى للحركة الوطنية التي حملت بذورها منذ مطلع القرن الحالي وأحيانا خوفا من إثارة حساسيات، وهذه الآن أقل إقناعا من سابقتها، فعلى الرغم من أهمّية النخبة الثورية الأولى والدور الحاسم للقيادات في التحضير للثورة وإنجازها وعظمة التضحيات التي قدمها شهداؤنا الأبرار، فإن الثورة هي مكسب للشعب الجزائري كله لا يقبل الاحتكار والخوصصة.

5 – إن الخوف من التاريخ أو التخويف به هو مسعى يؤدي بلا ريب الى غموض الماضي وهشاشة الحاضر، منهما معا تنشأ كراهية الذات الوطنية وشتمها بدعوى إصلاحها وتفشي النزعة الكارثية والانسياق وراء مغالطات التشخيص والطعن في المثل العليا والمبادىء الكبرى، لأن بعض الأشخاص لم يرقوا الى مستواها. نتج عن هذا الخلط والتشويش أن خرج شبان أبرياء في أوائل الثمانينات ينادون في شوارع العاصمة «التاريخ الى المزبلة» أي تاريخ يزعج من أوحوا بهذه الشعارات؟ ومن المستفيد؟ إنه بلاشك الكولونيالية وطوابيرها من المخازنية الذين ينتظرون أن تعود الجزائر الى ما كانت عليه قبل 1954.

إن الانقطاعات المصطنعة في الاستمرارية التاريخية للأمة والتفكيك المفتعل لماضيها الحضاري هو من الأسباب الكامنة وراء الكثير من الأخطاء والمفارقات، فلا مستقبل لشعب تاريخه مقطتفات مبعثرة هنا وهناك وروايات شفوية مهددة بالاندثار، تتلقى نخبة تفسيراتها من الخارج وتتنازع على كل واحد من معالمه، وتدعى في نفس الوقت أن لها مشاريع مستقبلية.

لا يوجد في العالم المتقدم والأقل تقدما بلد له تواريخ متعارضة، لها بدايات ونهايات شخصية، توضع وتنزع حسب مزاج الساعة، كما هو

الشأن عندنا، وكأن لكل فريق جزائره الخاصة يحملها وحده فوق ظهره ولا يمثلها غيره(*).

نحن من الذين يميلون الى اعتبار مرحلة شتم الذات ومساءلة الآخر هي مرحلة قد طال أمدها، وأنه قد آن الأوان لتوظيف صحيح أي استراتيجي لرصيدها التاريخي في المنظومة التربوية بوجه خاص، وفي سائر أوجه النشاط الوطني داخل البلاد وخارجها.

ينبغي أن يكون الهدف هو بناء منظور متكامل عن موقعنا الحضاري والجيوسياسي يقوم على الاستمرارية التاريخية للدولة والمجتمع، فلم يكن صدفة أن تقوم إسرائيل بعد الاستيلاء على فلسطين وإقامة الدولة اليهودية بأول «عمل غير» عسكري، وهو وضع الموسوعة العبرية (encyclopedie Hebraique) لتقديم رؤية مرجعية لليهود دينا وقومية وإعطاء قراءة صهيونية للعالم القديم والمعاصر بوجه عام.

6 – نعرف بحكم الممارسة والتجربة المتواضعة أن تطور المدرسة الجزائرية يتوقف على التمييز بين الأهداف المرحلية القابلة للتغيير باستمرار حسب الحاجات الراهنة والمتوقعة، وبين الأهداف البعيدة المدى التي تتطلع إليها الأمة وتتبناها الغالبية من مجتمعنا، وهذه الأخيرة ينبغي أن تكون على درجة من الاستقرار تسمح بوضع فلسفة عامة للمنظومة التربوية بأكملها والاتفاق على سياسة، أي اجراءات عملية لتنفيذها لا تتأثر بتغير الأشخاص ووجهات النظر الفردية.

من الضروري، بل من المتسعجل أن تعمق تلك الفلسفة عن طريق اشتراك جميع المعنيين بشؤون التربية وأن توضع قواعد أخلاقية (Deontologie) للتعامل مع هذا القطاع الحساس والمؤثر في حاضر الوطن ومستقبله، ولا نرى هناك أفضل من التشاور الواسع النطاق والثقة في المختصين من أساتذة ومفتشين ومسؤولين على المستويين المركزي والمحلي، لتعميق تلك الفلسفة والوفاء بالالتزامات أو القواعد التي تفرضها مهنة التربية والتكوين.

(*) أشرنا إلى بعض أسباب ونتائج هذا المدخل اللاعلمي بشيء من التفصيل في كتابنا «الأزمة المفروضة على الجزائر»، دار الأمة، 1998.

لقد أدى الخلط بين البعدين السابقين (المرحلي والبعيد المدى) الى كثير من الظواهر السلبية، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

ما تواجهه المنظومة التربوية من مصاعب التنسيق بين مختلف مراحلها، وعدم وضوح المطلوب من كل مرحلة، والأحكام الارتجالية على التعليم العام والمتخصص والتكوين المهني والحجم الكبير لبرامج التعليم وخاصة في المرحلة الثانوية، والعلاقة بمراحل التعليم اللاحقة، وما يسمى الحياة العملية وإمكانات التشغيل.

7 – تثير كل واحدة من القضايا السابقة جدلا طويلا في الوسط التربوي وخارجه، ويحمل الخطاب المسيس وجهات نظر متباينة عن أوضاع المدرسة الجزائرية ومردودها ونوعية المعرفة والمهارات التي تقدمها، ليس هذا الملتقى مجال مناقشتها، ولكننا نعتقد أنه ينبغي تصنيف التاريخ في قائمة الأهداف البعيدة المدى في المنهاج المدرسي وإعطائه مكان الصدارة في المدرسة الأساسية والتعليم الثانوي بمختلف أنواعه للوصول الى تلك الغاية، فإنه من المفيد مراجعة حجم البرنامج وتوزيعه الراهن داخل مرحلة المدرسة الأساسية والتعليم الثانوي والتساؤل عن مدى تكامله مع مواضيع المناهج الأخرى العلمية والاجتماعية والتقنية ومدى تناسبه مع التدرج الذهني، والقابلية للتحصيل في سنوات العمر ما بين السادسة والثامنة عشرة.

وعلى الرغم من أهمية «المعامل» (Coefficient) باعتباره حافزا خارجيا للتلاميذ للعناية بالمناهج والتحضير للامتحانات، فإنه من الضروري تأييد «المعامل» بحوافز أخرى بيداغوجية تتصل في معظمها بالمعلم والوسائط التربوية التي لا يمثل الكتاب إلا جزءا منها في عالم تسيطر عليه وسائل الاتصال السمعي البصري والأقمار الصناعية التي أدت الى تدويل أحادي الجانب للثقافة والرؤية التاريخية، تجعل شبابنا مجرد مستهلك سلبي لمنتجات موجهة عن بعد لأغراض ليست دائما في خدمة العلم والمعرفة والإنسانية.

في هذه المنافسة غير المكتافئة ينبغي أن تتفوق المدرسة على نفسها بالاستخدام الجيد لإمكانياتها الراهنة والاعتناء بالكفاءات الكثيرة التي تجمعت خلال العقود الثلاثة الماضية نتيجة الاستثمار الهائل في هذا القطاع بعيدا عن الرضى الذاتي والاسترخاء والكسل العقلي، وبعيدا كذلك عن نظرية الفراغ الانتحارية التي تدّعي أن ليس في منظوماتنا التعليمية سوى السيء والأسوأ.

بين التوصيف الذي قدمه المؤرخ أجرون (C.R. Ageron) عن حالة التعليم في الجزائر سنة 1961 (200 ألف فقط من حوالي ثلاثة ملايين في سن التمدرس وصلوا المرحلة الابتدائية و12% تجاوز تلك المرحلة الى التعليم الثانوي ونسبة هامشية جدا وصلت التعليم العالي) «دراسة بمناسبة الذكرى الثلاثين للاستقلال نشرت في مجموعة الملفات رقم 9 (Collection Dossiers, N-ON9, 92) بين ذلك التوصيف وما تحقق في الجزائر من 1962 الى التسعينات فرق كبير على الرغم من بقاء حوالي الثلث من شعبنا على عتبة الأمية، ولذلك فإن جهود المنظومة التربوية وهياكلها المختلفة تبقى دائما أقل من وعد الثورة وحلمها الجميل.

الأبحاث النفسية والتربوية في مجتمعنا
المقاربة المنهجية والخصائص الثقافية

المحاور

I - التراكم المعرفي والتطبيقات النفسية والتربوية.

II - أهمية التجربة التاريخية في المقاربات العلمية.

III - سيكولوجية العنف التدميري.

IV - نحو جدول أعمال للبحث والتطبيق.

V - خلاصة واقتراحات.

من الطبيعي أن نعبر في البداية عن مشاعر السعادة والامتنان لجامعتنا الأم (جامعة الجزائر) والمجلس العلمي لمعهد علم النفس والتربية، الذي تربطنا بأساتذته وأعضائه علاقات المودة والاحترام - فقد قضينا في رحابه قسما من زهرة العمر - على الدعوة للمشاركة في الأيام الوطنية المخصصة هذه المرة، لموضوع واسع وعلى درجة كبيرة من الأهمية، وهو: «علم النفس وقضايا المجتمع الحديث».

I - التراكم المعرفي والتطبيقات النفسية والتربوية:

نصف الموضوع بالاتساع، نظرا للتراكم المعرفي (الابستمولوجي) الهائل في العلوم السلوكية التي يتسابق فيها التنظير (Théorisation) مع التطبيق، من السهل أن ندرك حجم التراكم والتسابق، إذا ألقينا نظرة فاحصة على ما تنشره الدوريات الأكاديمية من ملخصات (Abstracts) في مختلف مجالات البحث السيكولوجي التربوي، وهي تعد سنويا بالمئات إن لم يكن بالآلاف، ساعد الإنتاج العلمي الغزير على إبراز حقيقتين:

أولاهما: ان علوم النفس والتربية لم تعد مجرد ضيف يستأجر غرفة جانبية في «حوش» العائلة الكبيرة للعلوم الاجتماعية، وقد أدعى البعض منها أنه «علم العلوم» (Science des sciences)، على حد تعبير دور كايم (E. Durkheim) وهو يصف علم الاجتماع.

أما الحقيقة الثانية: فهي أن علوم النفس والتربية أصبحت أشبه بنقطة الالتقاء في مفترق الطرق (Carrefour) بين العلوم الطبيعية، وعلوم الإنسان والعلوم الأداتية (Instrumentales) مثل الرياضيات -الإحصاء- المعلوماتية.

وعلى الرغم من الاتجاه المتزايد نحو التخصص وظهور فروع جديدة فرضتها متطلبات الحياة العصرية، وحاجات المجتمع في حالات الاستقرار والاضطراب، والحرب والسلم، فإن كل تلك الفروع تتغذى من جذع مشترك واحد، هو الأسس المنهجية العامة (Paradigme) التي يتفق عليها كل الباحثين في علم النفس والتربية، وبذلك انتهى الجدل حول «علمية» علوم النفس والتربية كما «تعقلت» نزعة «التعلمن» (Scientisme) التي سادت حتى أوائل هذا القرن.

نقول إن هذا الموضوع يكتسي أهمية بالغة، وذلك بالنظر الى التحولات الجارية في مجتمعنا ومن حولنا، فيالإضافة الى الانشغالات التقليدية الناجمة عن تسارع وتيرة التغير في العقد الأخير من هذا القرن، التي تعرض أمامنا قائمة طويلة من القضايا أو الملفات التي تمثل حقلا خصبا وبكرا للتوصيف والتحليل، مثل جناح الأحداث في أحياء الإسمنت (Betonville) وشخصية المرأة العاملة وسيكولوجية المهاجر وإشكاليات التنشئة الاجتماعية والتربية والتعليم... بالإضافة الى كل تلك الانشغالات، فإن الجزائر تعبر الى القرن القادم وهي مثقلة بأكثر من عقد من الاضطراب والتحديات الخطيرة.

يرجع جانب من تلك الوضعية الى تناقضات قديمة في البنية الفوقية (Supra) للمجتمع، تبدو ظاهريا في حالة كمون (Latence)، ولكنها في الحقيقة نشيطة، وتظهر مضاعفاتها في البنية التحتية (Infra)، في صور

مختلفة، من الثنائيات المتعارضة (Dichotomies) التي لا تقبل التعايش والتركيب، مما يؤدي الى تأجيج وضعيات صراعية وإهدار الوقت والجهد في اشتباكات منهكة، وأحيانا شرسة حول الهوية، وأنماط التنمية، ومكانة المرأة، ومعايير الاستحقاق، والجزاء وأشكال التدين (Relgiosité) الخ...

كما تكشف تلك التناقضات والصراعات عن جانب آخر هو حالة التخلف الكيفي (ضعف الحصيلة العلمية الثقافية في المجتمع) وتأثيرات التركة الفاسدة للكولونيالية التي شجعت التناقضات الموجودة منذ عهود التخلف والجمود، أو غرست بعضها وأوجدتها من العدم بهدف تحقير الذات (Autodévalorisation) الفردية والجماعية للجزائريين.

من الإنصاف أيضا ونحن نتحدث عن أهمية الموضوع أن نشير الى أن الأزمة التي تجتازها الجزائر، هي أزمة مفروضة جزئيا على الأقل من الخارج بسبب دورها الرائد في حركة التحرر العالمي ودفاعها عن المطالب المشروعة للبلدان المهمشة والمستغلة في إطار ما سمي «الثالثية» (Tiermandisme)، وقد أخذ ذلك الفرض أو الالزام لكي لا نقول الانتقام اسم العولمة (Mondialisation)، ولها أوجه كثيرة من أهمها الوجه الاقتصادي الذي يفرض تنافسا غير متكافىء وتنازلات يقدمها الأضعف للأقوى بدون مقابل سوى الكلام المعسول.

وقد أدى تظافر النقائص الداخلية في استراتيجية التنمية وهندستها واستغلالها من أطراف وهيئات خارجية كانت تنتظر الفرصة، الى سلسلة من الانهيارات من بينها انخفاض مستوى المعيشة وانتشار الفقر(Paupérisation) والبطالة، وظهور أشكال من الانحراف لم يسبق لها مثيل، مثل السطو وإدمان المخدرات وتفكك الروابط الأسرية (تفشي الطلاق) والانتحار وتزايد عدد المصابين بالذهان (Névrose) والعصاب (Psychose) وفقدان المعالم (Repères) وتصارع المرجعيات والإحساس بالغربة والإحباط والصراعات العلنية والخفية بين الأجيال، وبروز القيم المادية على حساب القيم الذاتية والأخلاقية الخ...

الوجه الآخر للعولمة باعتبارها من أسباب الأزمة المفروضة هو العولمة الثقافية وتكنولوجيا الاتصال والتبليغ التي مكنت عددا قليلا من البلدان في شمال العالم من فرض سيطرة مطلقة على الإنتاج العلمي والفني والتكنولوجي بسبب نجاحها في استثمار الذكاء والخبرة وتحكمها في وسائل التبليغ بواسطة الأقمار الصناعية والشبكات المعلوماتية (Internet) التي ألغت التأشيرات (Visas) والحدود الجغرافية، وهي الآن في طريقها الى تقليص مفهوم السيادة الوطنية وسحق الثقافات المحلية.

صحيح أن تلك الانعكاسات السلبية - (وقد يراها البعض إيجابية) - لا تخص الجزائر وحدها، غير أنه من الضروري التذكير بأن عمليات التفكيك (désarticlulation) والاقتلاع (déracinement) والاحتواء قد بدأت في بلادنا في زمن مبكر أي غداة الاحتلال مباشرة، حيث قام المختصون في علوم النفس والاجتماع بدراسات ميدانية واسعة النطاق لصالح المؤسسة السياسية والعسكرية الفرنسية لأغراض التهدئة (Pacitication) ولتوطيد الاحتلال، وباستثناء مقاربات قليلة جدا فإن معظم تلك البحوث قامت على أفكار قبلية هي مزيج من الاستعلاء العنصري والإيروسانترية، أما هدفها الحقيقي كان على الدوام هو إفشال المقاومة الشعبية واختراق مؤسساتها وزرع التشتيت العرقي الثقافي (Vatin et Lucas, 1982) والجمع بين القمع والإغراء والحرمان كما أشار الى ذلك الأستاذ أجرون بعد ثلاثين عاما من الاستقلال في دراسة تحت عنوان «فشل فرنسا الجديدة» (Ch. Ageron, 1992).

على الرغم من أننا لسنا بصدد الحديث عن هذه التركة الثقيلة في هذه الورقة الموجزة فإن مفاهيم الأنديجينوفيليا (l'Indigénophilie) قد تواصلت بقوة في جامعة الجزائر أثناء العهد الكولونيالي، وتميزت أقسام التاريخ والطب النفسي (A. Porot, 1949) على الخصوص بنشاط استهدف رسم ملمح (Profil) مشوه وكاريكاتوري لشخصية الجزائري وسماته وأنماط سلوكه.

إذا كنا نتمنى أن يتوسع البحث وأن يقوم أساتذنا وطلابنا في معاهد علوم النفس والتربية عبر جامعتنا الوطنية بدراسات معمقة تستعمل أدوات صارمة تضع ذلك التراث المغشوش بين قوسين وتبين بدون أية نزعة شوفينية تهافت فرضياته ومسلماته فإن ذلك لا يعني الاعتراض على الاستفادة من التراث العلمي في علوم النفس والتربية والاجتماع والمشاركة في الثقافة العالمية، بل التواجد في صميمها.

الواقع أنه ليس لنا خيار آخر، فإذا كانت العزلة مفروضة من الخارج فإنها تكون ضربا من العدوان، أما إذا أردناها نحن، واتجهنا الى الانطواء فإنها في هذه الحالة تكون أقرب الى الانتحار، لقد أكدنا هذا الموقف في دراسة منشورة (محمد ع. ولد خليفة 1997) على النحو التالي:

«ليست لنا خصومة أو حساب نصفيه مع ماضينا الحضاري، في كل أبعاده، إنه هو الذي يخاصمنا وينتظر منا مزيدا من النقد والغربلة، والإضافة والتطوير لإيصاله الى راهنية (Actualisation) تضعه في صميم التقدم والرخاء (...) كما أن التحديث ينتظرنا منذ أمد طويل، لكي نتمثل أفضل الموجود فيه بعقلنا نحن وإدماجه في تراثنا المشترك، باعتباره امتدادا طبيعيا ورافدا نوعيا في التراث الإنساني المتجدد».

. إن الذي يثير الحذر والاعتراض هو الوصاية على الثقافات المحلية والتهديد بالقضاء على خصوصياتها المميزة وتنميط أو نمذجة (modlling) المجتمعات بطريقة تشبه الاستنساخ الجيني (Clonage Génétique).

بالصورة التي أشار إليها، وندد بها العالم الفسطيني الأمريكي الجنسية «إدوارد سعيد» (E. Said, 1993) وأوضح بعض نتائجها أ. ميمي بقوله: «فقر وتبعية، هكذا حالة المغلوب، لا هو حي يرزق، ولا ميت يرحم، إلا أن الحرية الشخصية والجماعية هي في كل الحالات أفضل من العبودية والاغتراب (A. Mémi, 1968).

II - أهمية التجربة التاريخية والخصوصية الثقافية في المقاربات العلمية:

لاشك أن معظم، إن لم يكن كل النظريات والانساق المنهجية، هي من تصميم وابتكار العلماء والباحثين الأورو-أمريكيين، وأن مساهمة المنطقة وخاصة بلدان المغرب هي الى حد كبير جزئية، وأحيانا هامشية، لا يعني ذلك التقليل من الجهود التي يبذلها الباحثون الجزائريون في ميدان الدراسات العليا (ما بعد التدرج) داخل البلاد وخارجها وفي مختلف مجالات البحث التطبيقي واجتهادهم لاستيعاب التراكم العلمي في علوم النفس والتربية والاستفادة من التقنيات والمناهج الحديثة وتطويعها لخصوصيات الواقع الاجتماعي الثقافي والشروع في تقديم إجابات للإشكاليات الكثيرة المطروحة منذ زمن بعيد.

وقد أشار الأستاذ المرحوم د. بوسبسي في دراسة جيدة نشرها في بداية هذا العقد سنة 1990 (Dr. M. Boucebci, 1990) الى نوعية الصعوبات التي يواجهها الاخصائيون في الطب النفسي (وعددهم حسب م. بوسبسي سنة 1990 لا يتجاوز 300 في كل مستشفيات الجزائر) – الباحثون في علوم النفس وطبيعة الميدان الذي يعملون فيه، وهو يتميز حسب رأيه بأنه في حالة عبور أو انتقال (Transition) بين عدد من الوضعيات المتجاورة أو المتصارعة لأسباب كثيرة يذكر منها على سبيل المثال:

– وضعية التثاقف أو التداخل الثقافي (Interculturalite) بين الأنماط التقليدية الموجودة بالفعل والنماذج المطلوبة على مستوى الأفراد وشرائح من المجتمع أو المتداولة في الخطاب العام السياسي والجمعوي، مما يؤدي الى تناقض وجداني (Ambivalence) وصراعات بين الحاجة الى الانتماء الى مجموعة (عائلة – عشيرة – رابطة...) تضمن للفرد الأمن والحماية، وبين الحاجة الى تأكيد الذات عن طريق ممارسة المواطنة.

– الدور المتزايد لوسائل الإعلام في تأجيج التناقضات السابقة فتأثيرها يمس كل الأجيال، ويصل الى كل أنحاء الوطن، ويؤدي أحيانا الى

انتكاسات نفسية مرضية (Psychopathologiques) عند الشرائح الأقل استعدادا لتقبل أنماط من السلوك والقيم «المتحررة» التي تعرضها شاشات «الباربول».

يمكن أن يأخذ مجموع الملاحظات السابقة دلالة أعمق وأشمل إذا وضعناها في سياق التجربة التاريخية للمجتمع الجزائري ومخزونها النشيط في الضمير الجمعي والمؤثر في سيكولوجية الذات ونظامها الداخلي (Self System) فمن المعروف أن الاستجابات السيكولوجية تكسب دلالات خاصة عندما تصبح آليات دفاعية تجاه مثيرات خارجية (Stimulus) تستهدف تجريد الفرد والجماعة من مرجعياتها ونظامها القيمي، وهذا ما حدث بالفعل طوال العهد الكولونيالي، فكلما أمعن ذلك النظام الكولونيالي في خلخلة البنية الاجتماعية النفسية للجزائريين كلما ازدادت أغلبية السكان في الأرياف والمدن تمسكا بالأنماط التقليدية واعتبار كل ما يعرض عليها بالإكراه أو بالترغيب أنماطا دخيلة مرتبطة بالوضعية الكولونيالية وجزءا من جهازها العدواني، وقد قدم الدكتور فرانتز فانون توصيفا إجماليا لتلك الاستجابات الدفاعية ونماذج من دراسة الحالة (Etude de Cas) قبل الثورة وأثناءها (F. Fanon, 1959-1968).

لاشك أن عددا كبيرا من الاستجابات الدفاعية التي لعبت دور جهاز المناعة (Immunité) مازالت نشيطة وفاعلة الى اليوم في الضمير الجمعي لشرائح كبيرة من المجتمع، فهي ماتزال تقرن شعوريا أو لا شعوريا بين منجزات التكنولوجيا الحديثة وأنماط السلوك المرافقة لها، وبين وظيفتها السابقة - (التحقير والإخضاع في الوضعية الكولونيالية) وبالتالي تذكر بالموقف الذي تطلبته في ذلك العهد وهو التحصن أو التخفي وراء الأنماط التقليدية ويصل ذلك الموقف أحيانا الى حد التقديس.

وعلى الرغم من تناقص تلك الاتجاهات بوجه عام تحت وطأة التحولات التي حدثت بعد الاستقلال وبداية تشكل طبقة متوسطة كبيرة نسبيا من المتعلمين والتكنوبروقراط أو الإطارات المعروفين في مصطلح «ميلز»

(C. W. Mills) بأصحاب الياقات البيضاء (Cols Blancs) فإن الاتجاهات السابقة ماتزال شائعة بين مختلف شرائح العمر، وبين النساء والرجال على حد سواء.

وأيا كانت التسميات التي تطلق عليها في الخطابين السياسي والإعلامي (محافظة - رجعية - أصالية - أصولية تراجع) فإنها موجودة في كل المجتمعات، على اختلاف -طبعا- في الدرجة والشدة، فقد لاحظ ريكالينز (Ph. Ricalens, 1992) أن حضارة المدينة في أوروبا قد حطمت كل الوحدات الاجتماعية الطبيعية، واستبدلتها بالطوائف (Sectes) والمافيا القوية (...) كما أن التكالب على الاسنهلاك والفردية (Individualisme) والسلوك المادي البحت قد أنهت بشكل مفجع، أعظم قيم المجتمع، وهي التضامن والتآزر الذي تمتعت به الأرياف، حتى منتصف القرن الحالي.

كما أن الآليات الدفاعية تستعيد فعاليتها في المراحل الانتقالية تحت وطأة التغيرات المتسارعة والانهيارات المتتالية لمعالم ومرجعيات كانت محل ثقة، وتوفر حدا أدنى من الأمن النفسي للأفراد والجماعات الذين يشاهدون في ذهول انهيار الأنماط التقليدية الموروثة وظهور أنماط أخرى موازية لها، تعطي تعريفات وشروطا مغايرة للدور والمكانة وما يتطلبه ذلك من قيم وسلوكات، وبما أن تلك الأشكال المستحدثة غير متوطنة في النسيج النفسي الاجتماعي، فإنها تكون في حالة «احتكاك» ومصدر توتر دائم، وكأنها قائمة إضافية من المرجعيات السلوكية في الشبكة القيمية تبحث عن مكانها داخل الأنا الجماعي (Moi Social).

إذا كنا نعطي أهمية للتجربة التاريخية للمجتمع الجزائري في توصيف وتفسير مجمل الوضعيات الصراعية وأشكال التوتر والإحباط الناجمة عنها وطرق الرد عليها، فإننا لا نزعم أن الفرد والجماعة في الجزائر يمثلان نمطية (Typologie) راكدة، مغلقة على نفسها أو منفصلة تماما عما حولها، الحقيقة أن التغير عملية (Processus) تظهر على الخصوص من خلال مسرعاتها ومن بينها:

1 – الصدمة الكولونيالية والمقاومة الطويلة للاحتلال وما أعقب ذلك من مواقف الرفض والتقبل والانبهار والتردد والانطواء والحساسيات المتصلة بالهوية (Identité) والأصالة (Authenticité) المستمرة الى اليوم.

2 – ثورة التحرير التي أحدثت تحولات واسعة وعميقة في النسيج الاجتماعي، فقد أدت المعاناة ثم الانتصار الى تغيير كبير في صورة الجزائري عن نفسه، وساهمت في خلق ذات مثالية (Moi idéal) ترفع كثيرا من مستوى الطموح واعتبار الذات الى درجة تتجاوز أحيانا استحقاقات الذات الواقعية (Moi réel) .

ينبغي أخذ مثل هذه المعطيات بعين الاعتبار عند توصيف وتحليل ظواهر نفسية اجتماعية بارزة في مجتمعنا مثل الميل الى المساواة البدائية (Egalitarisme Primaire) والحساسية العالية تجاه الغبن والحقرة، وعدم رضى الفرد بحالته الراهنة، والمطلبية (Revendication) والاحتجاجية (Contestation).

3 – يمكن أن نضيف الى تلك المسرعات أشكال التنظم وإعادة التنظيم التي عرفتها مختلف الهياكل والقطاعات والخطابات الإيديولوجية بألوانها المتعاقبة، والانتشار السريع لوسائل الاتصال والتبليغ والحاجة المتزايدة الى تبعية متبادلة (interdépendence) ، والعاملان الأخيران في طريقهما الى تحويل العالم كله الى قرية كونية (Village planétaire).

III - سيكولوجية العنف التدميري:

لا يمكن أن نغفل ونحن نشير الى التحولات والانهيارات والهزات ومضاعفاتها السيكولوجية من منطلق التجربة التاريخية لمجتمعنا الآثار المدمرة للعنف الانتقائي (اغتيال النخب وتشريدها بسبب مواقفها أو أفكارها) والعنف العشوائي (القتل والتنكيل الجماعي لنشر الرعب والتشكيك في كفاءة ومصداقية الدولة)، في بلد كان مدة طويلة أثناء الاحتلال، ساحة مفتوحة للعنف الوحشي وضحية له، وهو معروف على

العموم بتعلقه بقيم الرحمة والتضامن والتسامح، فقد جعلته تجربته المريرة، وخاصة تلك القريبة في الذاكرة الجماعية -(حرب التحرير)- واحدا من أكثر البلدان تعطشا الى الأمن والسلم واحتراما للكرامة البشرية.

لسنا في حاجة الى التدليل على هذه المقولة التاريخية النفسية الاجتماعية لأنه من الثابت أن المجتمع الجزائري كان طيلة عدة قرون في حالة دفاع ضد العدوان الخارجي، ويكتفي بالرد على العنف المسلط عليه أثناء الاحتلال، ولم يكن العنف خلال الثورة سوى جزء مكمل في استراتيجية التحرير، اضطرّ الى استعمالها بعد فشل كل وسائل الإقناع الأخرى كما ورد ذلك في بيان أول نوفمبر 1945، وقد توقف العنف بمجرد الوصول الى الهدف وهو الاعتراف بحق تقرير المصير والسيادة الوطنية، ولذلك لم يرد الجزائريون على الجرائم الإرهابية التي قام بها المتطرفون في المنظمة السرية (O.A.S).

وعلى الرغم من قلة الاحصاءات المقارنة فإن الجزائر سجلت في ربع القرن الماضي (قبل سنة 1992) أقل نسب الجريمة والجنوح في المنطقة العربية والمتوسطية، وخاصة لدى شريحة الشباب في المدن والأرياف.

إذا كانت الأسباب والمضاعفات الأليمة لهذه المحنة قد حظيت باهتمام واسع من طرف الساسة والإعلاميين وتنظيمات المجتمع المدني، بما فيها من مفكرين وفنانين - (وقد اقتصر الاهتمام في معظم الأحيان على التوصيف والتنديد) - فإن التحليل والتفسير السيكولوجي والمقاربات العلاجية (Thérapeutique) لا تزال في بداياتها، وتتطلب تعميق البحث في إشكاليات على درجة كبيرة من التشابك، والتعقيد وتشكيل فرق من المختصين المؤهلين في العلوم السلوكية، وخاصة علم النفس الإكلينيكي والعلاجي والطب النفسي والأمراض الاجتماعية (Pathologique) لدراسة مجموعة من الظواهر بعضها يمكن مشاهدتها بالعين المجردة مثل قضبان الحديد والمتاريس والتحصينات المختلفة التي تحمي السكنات الفردية والجماعية وتجعلها أشبه بالسجون الاضطرارية.

ما هي آثار القلق والحصر (Anxieté) والمخاوف المرضية (Fobies) على العلاقات الأسرية؟.

وما هو تأثيرها على الإنتاج والإنتاجية؟ والصحة العامة للسكان؟ وخارج الخلفية السياسية ما هي دوافع العنف؟ ولماذا يأخذ شكلا دون آخر؟ هل هو ناجم عن استجابات عقابية خارجية (Extra-punitives) أو هو ناجم عن استجابات عقابية داخلية (Intra-punitives)؟

IV - نحو جدول أعمال للبحث والتطبيق النفسي والتربوي:

يمكن تعميق مثل هذه التساؤلات وغيرها عن طريق الملاحظة الميدانية وبناء فرضيات تنطلق من مفاهيم الدافعية (Motivation) والاحباط والتحويل والعدوانية (Agressivité) باعتبارها جزءا من الجهاز الدفاعي للفرد في حالات السواء، أو عندما تتحول الى ضدها وتؤدي الى تدمير الذات والآخرين... تسمح مثل هذه الدراسات في المدى المتوسط والبعيد بإعادة تأسيس (Refondation) نظري وتطبيقي في ميادين علوم النفس والتربية عن طريق تراكم نتائج البحوث، وتصميم أو تكييف أدوات البحث مثل الاختيارات والمقاييس والاستبيانات وتشكيل فرق متعددة الاختصاصات (Multidisciplinaires) ومشتركة بين المعاهد لتأطير حلقات البحث في الدراسات العليا، والعمل بتعاقد مع مؤسسات القطاعين العام والخاص حسب صيغة تقديم الخدمة (Préstation de service) مثل المدارس والمستشفيات والمصانع ومؤسسات إعادة التربية ونوادي الشباب ومراكز المعوقين وكل ما يتعلق بالانتقاء والتوجيه في الحياة المدنية والعسكرية الخ...

هذه عينة صغيرة من جدول الأعمال الثقيل الذي ينتظر باحثينا في العلوم السلوكية، والعلوم الاجتماعية بوجه عام، ويمكن للمجالس العلمية أن تقوم بجرد تفصيلي للمباحث والمحاور ذات الأولوية في هذه المرحلة، من منظور إعادة التأسيس التي أشرنا إليها سابقا، وهي لا تعني اختراع علم

جديد، بل تؤكد فقط على أهمية الخبرة التاريخية لمجتمعنا وعدم تجاهل خصائصه الثقافية المشتركة والفرعية (Sous- Cultures)، والنظر الى الواقع الاجتماعي في حالته المتحركة أو الدينامية.

هذا النوع من المقاربة هو في رأينا الطريق الصحيح لمعالجة إشكاليات أساسية في علوم النفس والتربية وتطبيقاتها في بيئتنا المحلية مثل الأسرة الصغيرة (النووية) التي أصبحت النمط السائد أو المرغوب، ومفهوم السلطة الأبوية ونظام الأمن النفسي الاجتماعي عند الشباب المحروم من التشغيل والترفيه والسكن، وسيكولوجية العامل المسرح من الخدمة والدراسات المسحية أو الإجمالية لحالة «البين – بين» التي يعبرها المجتمع كله على المتصل قروي – حضري (Rural- Urban continum) وما حدث من تغير في نظام التنشئة والتطبيع (Socialisation) التقليدية كما وصفتها السيدة ن. زردومي (N. Zerdoumi, 1970).

ويدخل في الجانب التطبيقي من مشروع جدول الأعمال السابق نشر الثقافة السيكولوجية التي تساعد على الوقاية قبل العلاج من الأمراض النفسية، وتساهم في تنوير الجمهور وتحسيسه بمخاطر الانحرافات التي تمتد جذورها الى مراحل الطفولة وتنبيهه الى «عقلنة» سلوكه، وعدم الاطمئنان الى ممارسات الشعوذة المنتشرة في الأرياف والمدن.

من المحتمل عندما تتراكم الدراسات النظرية والتطبيقية في علوم النفس والتربية والاجتماع والأنتروبولوجيا ويهتم المختصون بالأبحاث عبر الثقافة المقارنة (Cross- Cultural) أن نتوصل الى ما يسميه «كاردنر» (A. Kardiner, 1945) التخوم أو الحدود السيكولوجية للمجتمع، وقد حددها ذلك الباحث في صورة تعميمات نوجزها على النحو التالي:

1 – توجد في كل مجتمع أساليب للتفكير والحكم والتعليل يتعامل بها الناس مع المحيط المادي والمعنوي، وتكون ما يسمى الحس المشترك (Sens Commun).

2 – تتميز كل ثقافة بنظام خاص لتحقيق الأمن النفسي الاجتماعي يكتسبها الفرد والجماعة لحماية الذات والدفاع عنها تجاه التهديد الخارجي أو الداخلي، وهي وإن كانت تختلف من مجتمع الى آخر فهي متقاربة في المجتمع الواحد.

3 – تعتبر القيم الدينية من أكثر العوامل تأثيرا في الشخصية وتضييقا للتباين بين الأفراد والجماعات، ويظهر تأثير تلك القيم على الخصوص في الفعاليات الثلاث الأساسية للشخصية وهي الإدراك والانفعالية والوجدانية (Perception émotivité afféctivité).

4 – يضع كل مجتمع تعريفات خاصة للحظوة والمكانة ويحدد معاييرها، وهي وإن كانت تختلف حسب الأزمنة والأجيال، فإنها تنزع الى الثبات النسبي داخل جيل واحد وفي فترة تاريخية محددة.

لا تتسع هذه الورقة لمناقشة بعض القضايا المنهجية التي تطرحها القراءة النقدية للتراكم العلمي الكبير في علوم النفس والتربية، وأخذ الخبرة التاريخية والخصوصيات الثقافية بعين الاعتبار، ولكننا نقول بأن ذلك يتطلب تظافر جهود العلماء والمختصين في علوم المجتمع بوجه عام على مستوى المنطقة الأفرو–عربية وتبادل الخبرات بين مراكز البحث والمعاهد المختصة بطريقة دورية وبمختلف وسائل التي تتيحها وسائط الاتصال العصرية وأيا كانت متاعب التنسيق العلمي بين المعاهد والجامعات في بلادنا وضخامة المجهود المطلوب من العلماء والباحثين، فقد يكون من المفيد التنبيه الى المسائل التالية:

V - خلاصة واقتراحات:

1 – القراءة النقدية لأدبيات العلوم الاجتماعية ومن بينها علوم النفس والتربية تعني التحقق من بعض المقولات التي لاقت رواجا بين الباحثين مثل الادعاء بأن النزعة التجريبية والمدخل الرياضي هي المقابل الوحيد للعلمية (Scientificité) أو أن بإمكان الباحث أن يلتزم بحياد مطلق ويتجرد

تماما من ثقافته وقيمه أو أن هناك نظريات في علم الاجتماع والعلوم السلوكية تقبل التعميم على الجنس البشري كله، وتتجاوز الزمان والمكان الذي وضعت فيه.

2 – إن تلك النظريات وأدواتها المنهجية ليست أيضا بريئة من التوجيه والاستخدام الإيديولوجي، فمن المعروف أن كثيرا من اختبارات علم النفس ومباحث الروح المعنوية والدعاية في بلدان مثل ألمانيا وبريطانيا والولايات المتحدة كانت بتمويل ولصالح المؤسسة العسكرية، كما استخدمت فيما بعد كسلاح في الحرب الباردة بين المعسكرين، وهو ما حدث في الاتحاد السوفياتي السابق، حيث استخدم علم النفس والطب النفسي لتوزيع المنشقين بين الكولاغ ومصحات الطب العقلي، وقد ميز العالم الأنكليزي (H. Eysenck) بين العلم وسوء استخدامه (Abuse) وقدم نماذج كبيرة لتواطئ العلماء، أو الاستخدام السيء لنتائج أبحاثهم (أيزنك، 1964).

3 – إن التحولات والهزات العنيفة التي تصاحبها لا تخص بلادنا وحدها فقد أثارت اهتمام باحثين يعيشون في بلدان تقود قافلة التقدم الثقافي والاقتصادي والتكنولوجي، فقد نشر العالم الأمريكي «إ. فروم» (E. Fromm) بحثا عاين فيه سلسلة من الاختلالات وحذر من مضاعفاتها على الانسجام الاجتماعي والاستقرار، ولاحظ أن الأفراد يزداد إحساسهم بالتعاسة والضياع، وتنتشر بينهم الاتجاهات العدمية (Nihilistic) وأشكال العنف تجاه الذات أو الآخر، والتعصب والانتقام من المجتمع وكل رموزه التاريخية والراهنة، كما لاحظ عالم الاجتماع السويسري «ج. زيغلر» (J. Zigler) نفس الظواهر في غرب أوروبا بسبب عبادة «العجل الذهبي» وانتشار النفاق والفساد في قمة الهرم الاجتماعي (J. Ziegler 1988).

4– حالت صعوبات موضوعية وأخرى مصطنعة دون تنشيط البحث في العلوم الاجتماعية، واتجه واضعو سياسات البحث الى التركيز على ميادين البحث في العلوم والتكنولوجيا (على الأقل من حيث النصوص والنوايا

المعلنة)، لاشك أن وراء التوجه رغبة مشروعة في تدارك الهوة التي تفصلنا عن العالم المتقدم الذي يقود الحداثة ويبني ما بعد التاريخ كما يقول دول (Doll) وما بعد الحداثة على حد تعبير فوكوياما (F. Fukuyama) غير أن تلك الرغبة المشروعة لا تبرر بأي حال من الأحوال إهمال علوم المجتمع، فالتقدم يكون كليا أو لا يكون.

5 – إن تفاقم بعض المشاكل الراهنة واستعصاءها على الحل يرجع الى حد كبير الى النقص الفادح في معرفة الواقع الاجتماعي على ضوء تطوره التاريخي، والتنبؤ بصيرورته عن طريق البحث العلمي، بدل الاكتفاء بالتموقع (Positionnement) على الخريطة السياسية وترديد شعارات قد تمدح الواقع الاجتماعي وقد تندد به، ولكنها لا تعرفنا بأسباب السكون الظاهر على السطح، وحالة الاضطراب والغليان في الأعماق، ولا تساعد على التكهن والاحتياط والتخطيط للمديين المتوسط والبعيد، وتلزمنا في الكثير من شؤوننا بالالتجاء الى حلول استعجالية وقرارت يوما بيوم!

6 – كيف يمكننا التخطيط والاحتياط والتنبؤ ومعظم تاريخنا الاجتماعي والسياسي والثقافي إما مجهول وإما مقطع الى أجزاء متناثرة ومتنافرة، وإما موضوع من وجهة النظر الكولونيالية، ولخدمة مخططات الهيمنة والتبعية.

كيف يمكن توظيف العلم والخبرة ومباحث هامة عن الشخصية والثقافة والتربية ومشكلات التوافق وقضايا المرأة والدين – (مباحث علم النفس والاجتماع الديني هي من أكثر المباحث تخلفا عندنا وفي المنطقة العربية والإسلامية) لا تحظى بالاهتمام، على الرغم من أنها تؤجج صراعات حادة، وتنطلق أحيانا من أفكار قبلية أو تحريضية وتعميمات متسرعة وتنتهي الى محاكمات تحدد سلفا من هو الجاني ومن هو الضحية.

7 – إننا في حاجة لمعرفة أنفسنا بأنفسنا طبقا لمقولة سقراط الشهيرة، وأن ننظر بعين نقدية للدراسات التي وضعها الآخرون عنا، وأن نعمل على التحرر بالتدريج من الوصاية العلمية السياسية للأقطاب (Patrons) الذين

يحركون الساحة الجامعية ومجالات التقانة (Software) عن بعد وننتقل بناء على خطة محكمة من وضعية الخدمة التابعة (Sous - traitence) حيث توظف خبراتنا الجزائرية لصالح قوى أخرى لها استراتيجيات جهوية أو كونية، ننتقل الى وضعية المشارك الذي يمد يده الى تعاون بغير حدود وبلا عقد ولا تعقيد.

8 – لا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بتكوين ما نسميه الأوزان الفكرية الثقيلة (Think tanks) التي تعمل في مناخ من حرية التفكير والتفكير الحر، والإمكانات التي تساعد على البحث والتطبيق بدون قيود أو حواجز، وأن يحظى الباحثون الذين ينتجون الثروة ذات القيمة المضافة العالية – (العلوم والتكنولوجيا والآداب والفنون) – بالعناية والتقدير من طرف المجتمع المدني والقيادات السياسية. وأن يعتبر الباحثون أنفسهم جزءا من الأمة ليسوا فوقها ولا تحتها لأن مكانهم الطبيعي هو أن يكونوا عقلها وضميرها.

9 – أما من الناحية العملية فإنه من الضروري أن يأخذ التفكير(Réflexion) مكانه ويسبق كل قرار أو عمل وأن يكون العلماء حسب اختصاصاتهم هيئات استشارية دائمة لدى مؤسسات الجمهورية الخاصة والعامة ولدى السلطات العمومية من البلدية الى رئاسة الجمهورية.

والأهم من كل ذلك هو أن يتجاوز الباحثون وخاصة المختصون في الفلسفة وعلوم التاريخ والنفس والتربية والاجتماع المهمة التقليدية المتمثلة في شرح الأمر الواقع ومرافعات التبرير الى مهامهم الحقيقية، وهي التنوير وكسر الحلقة المفرغة للتخلف واستكشاف المستقبل والمساهمة في التجديد والتحرير.

المراجع

1- Ch. Ageron: l'Echec d'une nouvelle France, in N. obs. dossier n°9, Paris 1992.

2- M. Boucebci: aspects actuels de la psychitrie en Algérie, inf. psy. n°10 prrivat, Paris décembre 1990.

3- F. Fanon: les donnée de la terre, Maspéro, Paris 1968.

4- F. Fanon: sociologie d'une révolution, Maspéro 1968.

5- E. Fromm: To have or to be Harper N. y 1976.

6- A. Kardiner: The psychological frontiers of society, N.y 1945.

7- A. Memmi: l'homme dominé, Paris 1968.

8- A. Porot: annales médico-psychologiques n°19, Paris 1949.

9- E. Said: culture and imperialism, A. A. Knopf, N.y 1993.

10- J.C. Vatin et Lucas: l'Algérie des authropologues, Maspéro, Paris 1982.

11- J. Zeiglers: victoire des vaincus, Sevil 1968.

12- Zerdouni: enfant d'hier, l'éducation de l'enfant en milieu traditionnel algérien, Maspéro, Paris 1970.

13 – أيزكك: مشكلات علم النفس، ترجمة جابر عبد الحميد، دار النهضة العربية القاهرة، 1964.

14 – م.ع. ولد خليفة: النظام العالمي مدخل لدراسة الهيكلة الجديدة للعالم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1998.

المدرسة الجزائرية في مستهل الألفية الثالثة آفاق وتحديات.

المحاور

I – بعض دلالات الحصيلة ومؤشرات المستقبل.

II– المتغيرات بعيدة المدى.

III– تحديات من داخل منظومة التربية والتكوين.

IV– تحديات من خارج المنظومة.

V– خلاصة.

نظام التربية والتكوين هو قاطرة المجتمع وبوصلة المستقبل، إذا انطلقنا من هذه المسلمة التي ثبتت صحتها في كل الأزمنة والأمكنة، فإنه من الطبيعي أن نستشرف آفاق نظامنا التربوي على ضوء التغيرات المتلاحقة في بلادنا، وفي العالمَ من حولنا، وهو عالم يتحول بسرعة الى قرية كونية (Village planetaire) مفتوحة تنقسم الى ما يسمى دول القلب (Core States) المسيطرة ودول الأطراف (Perifery states) المهمشة.

تفرض علينا تلك التحولات المتسارعة مواجهة تحديات كبيرة وتحضير الإجابة على إشكاليات قديمة العهد وصعبة يأتي في مقدمتها كسر حلقة التخلف المفرغة وتأسيس التقدم والتحديث ابتداءا بالمدرسة وزرعه في النسيج الاجتماعي الثقافي للأمة من أجل تأهيل الأجيال القادمة لدخول سباق لا يرحم سلاحه هو العلم والتكنولوجيا، والتفوق في إنتاج الثروة والخبرة والفنون والآداب.

I - بعض دلالات الحصيلة ومؤشرات المستقبل:

قبل تقديم عناصر أولية من القائمة الطويلة للتحديات الداخلية والخارجية التي تنتظر منظومة التربية والتكوين، بل الجزائر كلها في مستهل الألفية الثالثة، قد يكون من المفيد الإشارة بإيجاز الى عدد من المسائل المتعلقة بالاستشراف والحصيلة في صورة ملاحظات على النحو التالي:

1 – يقترن الاستشراف في مداه الزمني بالتخطيط سواء أكان قطاعيا (Sectorielle) أم على المستوى الوطني، ويتطلب توفر معلومات تفصيلية دقيقة ومنظمة في بنوك المعطيات، ومتابعة للتطورات والتنبؤ بها عن طريق مراكز البحث والدراسات الاستراتيجية التي تضع السيناريوهات الاسقاطية (Scenarios Progectionls)، وتختبر فرضياتها على ضوء المستجدات المحلية والدولية، وتكشف الدراسات المستقبلية بوجه عام عن خوف الإنسان من الغد المجهول ورغبته الدائمة في توسيع مساحة المعلوم، ويسمى غاستون باشلار هذه الرغبة بجدلية الوقت (Dialectique du temps)، وهي التي تضع الإنسان وأفعاله داخل الزمان، وتجعل الزمان غير موجود خارج الإنسان.

2 – تزايدات مع اقتراب نهاية القرن وبداية الألفية الثالثة الدراسات المستقبلية عن مصير الإنسان والكون والأنظمة السياسية والاجتماعية يقدم بعضها وجهة نظر علمية أو يعرض رسالة إيديولوجية، وبعضها الآخر مجردُ شعوذة تجارية أو دينية، فقد ظهر في العقدين الآخيرين عدد من الدراسات تحمل كلها اسم نهاية، نذكر منها على سبيل المثال: نهاية الإيديولوجية «لدانييل بل» (D. Bell) ونهاية التاريخ لـ ف. فوكوياما (F. Fukuyama) ونهاية الديمقراطية لقيهينو (J. M. Gueheno) كما تنبأ بعض علماء الاجتماع والاقتصاد والفلاسفة بنهاية الدولة الأمة، وفي سنة 1970 نشر هال ليندساي كتابا سماه حريق كوكب الأرض، تنبأ فيه بفناء العالم سنوات قليلة قبل نهاية القرن فباع منه 28 مليون نسخة وحصل على مقعد مليونير في وول ستريت.

كما قام بعض المشعوذين بترويج خرافات بلباس ديني، سموها الكارثة الأخروية أو اقتراب يوم القيامة، أدت الى الانتحار الجماعي كما حدث لجماعة معبد الشمس وطائفة أبواب الجنة.

3 – إن استطلاع المستقبل لا علاقة له بالتفاؤل والتشاؤم. أو البحث عن الفال من نوع «حظك اليوم»، فهو يتضمن رؤية تاريخية مستقبلية في آن واحد، تنبع من التجربة التاريخية للأمة وتنطلق من المعطيات الموضوعية للواقع وليس من الحتميات الجامدة، وهي كل المقاربات والنظريات التي ترتكز على عامل واحد، وقد انتهت... كلها الى تجريدات طوباوية (utopiques) لم تصمد طويلا وأصبحت جزءا من اللاواقع التاريخي، كما حدث للنازية التي زعمت أن الرايخ سيعمر أكثر من ألف عام.

4 – بالإضافة الى التحفظات السابقة، فإن الدراسات المستقبلية هي فرع حديث النشأة يعود الى مجال أوسع هو دراسة النظم، وقد يستعمل للمتاجرة بالتوقعات (Predict on business) أو لأغراض الضبط الاجتماعي أو التعرف على الخصم، كما أن هناك كثيرا من الأحداث الهامة التي وقعت في ربع القرن الماضي لم يتنبأ بها أحد، نذكر منها على وجه الخصوص الانهيار السريع للاتحاد السوفياتي.

5 – لكي يكون للاستشراف في ميدان التربية والتكوين مصداقية ينبغي أن يعتمد على تشخيص دوري، صارم ودقيق لأداء المدرسة الجزائرية ومردودها من المعارف والمهارات، وأن يستنطق دلالات الحصيلة بنزاهة وموضوعية من أجل التقدم خطوة الى الأمام، وجعل مضامين التكوين أكثر راهنية (Actualises) والمؤطرين والمناهج أقرب الى النجاعة والفاعلية، فالمستقبل هو جهد يومي لكل الأجيال يؤدي الى تراكم التجربة والخبرة، يضاف إليهما ما يفعله جيلنا نحن الآن، وهو ما عبر عنه ابن خلدون في مقدمته الشهيرة بقوله: إن إدارة الملك والسياسة تحتاج الى دربة ودراية.

6 – إذا كنا نعتبر نظام التربية والتكوين مشتلة المستقبل وأهم استثمارات الدولة والمجتمع في المورد الأول، الباقي والمتجدد وهو

الإنسان – المواطن، فإن تقييم واقعها الراهن والنظر فيما ستكون عليه في مستهل الألفية القادمة، ينبغي أن يكون مؤسسا على مقاربات علمية تتجنب الانتصارية (Triomphalisme) والرضى عن الذات مثلما تتحاشى التذايت (Subjectivisme) وما يؤدي إليه من أفكار مسبقة وأحكام قطعية، بروج لها منذ سنوات المتخصصون في صناعة شعارات الفشل والهزيمة لتحقير الذات الوطنية (Auto-dévalorisation) وتخفيض المعنويات(démoralisation) فالجزائريون ليسوا أحسن الناس ولا أسوأهم، لا الآن ولا من قبل، إنهم مثل غيرهم من الناس، وليس من المبالغة ولا الشوفينية أن نقول إن في طاقاتهم الكامنة والظاهرة وماضيهم القريب والبعيد وموقعهم الجيوسياسي ما يؤهلهم لأن يكونوا من بين أحسن الناس.

II - المتغيرات بعيدة المدى:

إذا رجحنا الفرضية السابقة عن مؤهلات الجزائر واعتبرنا التوقع عملية مستمرة في التاريخ، وأن التاريخ يختلف في سياقه العام وليس في جوهره ورهاناته (Enijeux) وهي على الدوام تحقيق القوة الذاتية والهيبة والمناعة (invulnérabilité) فإننا نجد في الماضي والحاضر متغيرات بعيدة المدى تسمى عند المختصين في الدراسات المسقبلية وحدات القياس والاستطلاع (Parameters).

من بين تلك المتغيرات بعيدة المدى نذكر بإيجاز:

1-– مكاسب ثورة التحرير وفي مقدمتها إعادة تأسيس الجمهورية والشروع في بناء الدولة الوطنية البنت البكر لثورة نوفمبر 1954، لا يسبق هذا النسب أية صفة أخرى، وفي ميدان التربية والتكوين فقد حاولت الجمهورية إنجاز وعد الثورة بوجه عام، فقد اعتبرت أن إحدى الأولويات العاجلة هي إنقاذ شعبنا من الأمية والتخلف المتراكم قبل وبعد الاحتلال الإجرامي لبلادنا ووضع الأسس لبناء مدرسة وطنية في توجهاتها، ديمقراطية تفتح أبوابها لجميع أبناء الشعب وتعمل على ملاحقة التطور

بإطارات ومسيرين من الجزائريين، لقد تحقق كل ذلك بنسب متفاوتة، بغض النظر عن الأشخاص والعهود، ولكن الجزائر من البلدان القليلة في المنطقة التي يتولى فيها رجال ونساء مسؤوليات وطنية عليا، سياسية واقتصادية وعسكرية تخرجوا من هذه المدرسة وهم ينتمون الى أصول شعبية لا علاقة لها بطوائف الأعيان المغلقة والامتيازات الموروثة، ونحن نتوقع أن يستمر هذا التوجه العام في المستقبل.

2 – أنجزت الجزائر خلال ثلث القرن الماضي حظيرة هائلة من الهياكل والمرافق البيداغوجية تكون اليوم شبكة مترامية الأطراف، وهي تضمن تمدرس ربع سكان الجزائر، أي أن واحدا من كل أربعة جزائريين موجود الآن على مقاعد الدراسة، كما أن حوالي 65% من الأطفال الأقل من 17 سنة يحصلون على الوسائل البيداغوجية ومساعدات أخرى، إما مجانا أو بأثمان رمزية، للتقليل من التفاوت الطبقي وتحقيق مبدإ تساوي الفرص بين كل المواطنين، بل إن مدارس الجزائر ومعاهدها المدنية والعسكرية فتحت أبوابها لتلاميذ وطلاب من بلدان صديقة وأخرى أقل صداقة، ولم تعمل على الإطلاق على نشر إيديولوجية أو تكوين لوبي يخدم مصالحها، ونحن وإن كنا لا ندافع عن حصيلة الجزائر ومدرستها ولا نبحث عن متهم لتبرير النقائص فإنه من الضروري أن نشير الى كل الباحثين الفرنسيين والإدارة الاستعمارية نفسها تثبت أن نسبة التمدرس في الجزائر سنة 1960 كانت تتراوح بين 10 و12%.

3 – إن تعميم وتدعيم المدرسة الأساسية يبقى في توقعنا هدفا دائما للدولة الجزائرية بالنظر الى وظائفها الهامة التي يتجه الإصلاح الحالي الى إعادة صياغتها لتكون أكثر إجرائية، وتتمثل تلك الوظائف وفق المنظور المستقبلي فيما يلي:

1.3 – من الناحية الثقافية التجذر (Enracinement) في حقائق التاريخ الوطني في تواصله واستمراريته بلا انقطاع والاعتزاز بالخصوصيات الثقافية الجزائرية المشتركة والفرعية وتأكيد الانتماء الوطني، الواحد في تنوعه، والمتنوع في وحدته.

2.3 – من الناحية التربوية ستكون المدرسة مخبرا كبيرا لاكتشاف المواهب والاستعدادات (Aptiudes - Vocations) والتدريب على فن الحياة (L'art de vivre) وفق متطلبات عصر السرعة والدقة والانضباط في الحياة العامة والخاصة وتنمية قدرات التلاميذ على التعلم الذاتي وممارسة المواطنة والحس النقدي، والمحافظة على البيئة.

3.3 – من ناحية مضامين التكوين، لا مفر من تجديد المعارف العلمية والتحكم أكثر فأكثر في التطبيقات التكنولوجية، وتوجيه المواهب بناء على اختبارات دقيقة، لتنمية استعدادها وتكوين نخبة ممن ينتجون في المستقبل العلم والتكنولوجية وهي أعلى قيمة مضافة (plus value) في النصف الأخير من هذا القرن، ولا ينبغي أن يكون ذلك على حساب علوم الإنسان والمجتمع والفنون الجميلة، لأن تخلفنا في هذا المجال لا يقل عن تخلفنا فيما يسمى التيكات الخمسة (les cinq tiques) وهي الأنفورماتيك (المعلوماتية) والبيوتكنيك والتليماتيك والالكترونيك والبيروتيك (أي الإدارة والتسيير).

4.3 – ومن الناحية الاقتصادية، لن أتحدث عن تكلفة التكوين ومستواه ومردوديته في الإنتاج، بل أكتفي بمجال هام هو التكوين المهني الذي ينبغي أن يتطور بسرعة عن طريق التوجيه والتوعية بأهمية الإطارات المتوسطة في مجتمع ما يزال يعاف العمل اليدوي ويتوهم أن المكانة مرتبطة بالياقة البيضاء (col blanc)، ولذلك ينبغي أن نحدث قنوات التوجيه بين التعليم الأساسي والتكوين المهني ونتخلص من التوجيه عن طريق الفشل (orientation par l'échec) وإلا وجدنا أنفسنا في المدى القريب نمتلك جيشا من الضباط السامين بدون صف ضباط وجنود مدربين جيدا، ويبدو أن التجربة الألمانية هي نموذج يستحق الاهتمام، وخاصة ما يتعلق بالعمل أثناء التعلم وإعادة التعليم والتكوين أثناء العمل.

4 – سوف يضع الحشد المدرسي المتزايد أعباء ثقيلة على كاهل الدولة والمجتمع، فإذا افترضنا أن النمو الديمغرافي سيتراوح خلال العقد

القادم بين نسبة 2.7 و2.5%، فإن عدد تلاميذ المدرسة الأساسية والتكوين المهني سيكون حوالي 8 ملايين ونصف أما تلاميذ الثانويات فسيصل عددهم في نهاية العقد الى 2 مليون، فإذا أضفنا نصف مليون آخر من الشباب سيكونون في الجامعات والمعاهد العليا وقدرنا التأطير الإجمالي لمنظومة التربية والتكوين بحوالي (500.000) من المعلمين والأساتذة من بينهم (370.000) في التعليم الأساسي و(120.000) في التكوين المهني والتعليم الثانوي، وحوالي (30.000) في المعاهد العليا والجامعات ومراكز البحث فإننا سنجد في نهاية العقد القادم أن ثلث السكان أي واحد من كل ثلاثة جزائريين - (بدل واحد من كل أربعة حاليا) - إما يكون أو يتكون في أحد مستويات منظومة التربية والتكوين.

5 - سوف تمثل شريحة العمر الأقل من عشرين سنة في عام 2010 حوالي 35% من مجموع السكان، وذلك حسب تقرير لجنة الخبراء الذي تم تحضيره برئاسة الجمهورية سنة 1993 وعلى الرغم من التناقص البطيء في التزايد السكاني فإن هذه الشريحة هي المعنية مباشرة بالتربية والتكوين، وبالنظر الى انعكاسات الأزمة المفروضة على الجزائر من الداخل بالتخريب، ومن الخارج بالتضييق ومحاولات الزعزعة والتشويه، وبالنظر كذلك الى الموارد الشحيحة المنتظرة في بداية الألفية القادمة، فإنه من الضروري الإسراع بتطبيق سياسة حازمة وحوافز مقبولة اجتماعيا لتنظيم النسل والتخطيط العائلي، وإعادة النظر في الانتشار الحالي للسكان على التراب الوطني والحد على الأقل من تفاقم الاختلالات الخطيرة بين الشريط الساحلي بالمقارنة بالهضاب العليا والسهوب، وبين الشمال بالمقارنة بالجنوب، وذلك لأسباب اجتماعية اقتصادية ولعلاقة الانتشار السكاني باستراتيجية الأمن والدفاع الوطني بمعناه الواسع.

6 - بناء على التقييم الحالي لأداء منظومة التربية والتكوين ومردودها الكمي والكيفي فإن المدرسة الأساسية بعد الإصلاح ستواجه نوعين من التحديات:

أولهما من داخلها ونشير إليه في النقاط التالية:

III - تحديات من داخل منظومة التربية والتكوين:

1.6 – تجديد المناهج وغربلة البرامج عن طريق تنشيط البحث في البيداغوجية العامة والخاصة، والاطلاع المستمر على التقنيات الجديدة في العالم، ليس طبعا عن طريق الزيارات السياحية، وإنما عن طريق النقد والمقارنة والرغبة في الاتفاق.

2.6 – اكتشاف أساليب للتكوين المستمر المهني والعلمي بالنسبة لما يقل عن نصف الإطارات المعنية بالتعليم والتسيير أي حوالي (180.000) إطار وتشجيع الترقية الذاتية (Mise à niveau) بحوافز مادية ومعنوية، ومن أهمها نسبة النجاح المدرسي (وفق معايير دقيقة) بالنسبة لفصل واحد أو مدرسة أو ناحية من الوطن.

3.6 – إيجاد آليات بالاشتراك مع التكوين المهني للحد من التسرب المدرسي الذي سيصل الى حوالي (300.000) شاب سنويا.

4.6 – رفع نسبة النجاح المستحق، والانتقال من النسبة الهزيلة حاليا والمقدرة بـ 1/4 تلاميذ المدرسة الأساسية و1/10 تلاميذ الثانوي الى نسبة 50% على الأقل في نهاية العقد القادم، وبالنسبة للتعليم الثانوي بكل فروعه فإن البكالوريا ينبغي أن لا تكون التأشيرة الوحيدة لمتابعة الدراسات العليا ويتطلب ذلك توثيق الصلة بعالم الشغل وإدماج التعليم والتكوين في منظور شامل للتنمية مركزها الموارد الإنسانية وليس العكس كما هو الحال الآن، أي التكوين من أجل التكوين بعيدا عن الحاجات الحقيقية للاقتصاد، هو الآن موضوع سلبي لعمليات التدويل (mondialisation) وليس شريكا فاعلا فيه.

5.6 – تدعيم البعد الثقافي للتربية وإعطاء أطفالنا إجابات بسيطة ومقنعة عن تساؤلات تتردد بانتظام حول من أنا؟ من أنت؟ من نحن؟ في عصر تتجمع فيه قارات بأكملها وتقوده كتل كبرى لأغراض التوسع والهيمنة والنفوذ الاقتصادي والثقافي، وتتجه قوى كبيرة الى ما يسميه الفيلسوف « إيف ميشو » (Yves Michou) الهويات المرنة (les identités flexibles) .

7.6 – انطلاقا من فكرة الهوية المرنة التي نعني بها هنا تنمية الخصوصية الثقافية بالاقتراب أكثر فأكثر من العالمية (universalité) سيتركز الاهتمام في العقد القادم، على إثراء اللغة والثقافة العربية داخل وخارج المدرسة الأساسية بطريقتين:

1.7.6 – تجديد اللغة العربية وتطويرها والابتكار في إطار الأكاديمية الجزائرية للغة والثقافة العربية، وذلك بهدف الوصول الى ما يسمى اللغة الوسطى الغنية (Langue médiane standart) ذات الاستعمال الواسع والمشترك بين مختلف المستويات الثقافية.

2.7.6 – الاهتمام بالترجمة على الطريقة اليابانية لكل ما صدر ويصدر في العالم بكل اللغات، في مجال العلوم والفنون والتكنولوجيا والآداب، وذلك جنبا الى جنب مع اللغة الأمازيغية وليس ضدها فلم تكن أي منهما أبدا، وعبر التاريخ ضرة (co-épouse) للأخرى في هذه البلاد.

8.6 – كما نتوقع أن يطبق الإصلاح سياسة ذكية لاتقان اللغات الأخرى، تخضع لمصالح الجزائر الجيوسياسية والاستراتيجية على المدييْن المتوسط والبعيد، وليس لخدمة مصالح بلدان أخرى في الجزائر، وفي رأينا هناك خمسُ عائلات لغوية ينبغي أن تحظى بالأولوية على الترتيب التالي:

1.8.6 – العائلة اللغوية للقوس اللاتيني (L'arc Latin) وهي الفرنسية والإسبانية والإيطالية والبرتغالية.

2.8.6 – العائلة الأنغلوسكسونية – الجرمانية، وهي الانكليزية والألمانية.

3.8.6 – العائلة الإفريقية الوثيقة الصلة بالتراث الإسلامي والعربية وهي الولوف والسواحيلي.

4.8.6 – عائلة اللغات السلافية وفي مقدمتها الروسية.

5.8.6 – العائلة الآسيوية وعلى الخصوص اليابانية والصينية.

من الواضح أن تعلم تلك اللغات يكون عن طريق اختيار الأولياء والتلاميذ، ويخضع للخريطة المدرسية، حسب الإمكانيات المتوفرة،

ولكن من الأفضل أن يبدأ تعليمها في المرحلة الثانية من المدرسة الأساسية لتصبح تخصصات في الجامعة وما بعد التدرج (post graduation).

9.6 – العناية بالبعد الروحي والجمالي في العملية التربوية والعمل على أن يكون من بين معلمي التربية الدينية أساتذة في الفيزياء والرياضيات وعلوم الطبيعة والاجتماع والنفس والتاريخ، ومن المؤسف حقا أن هذه المادة تقدم في كثير من الأحيان عن طريق التلقين بسبب التخلف الكبير في الأبحاث الخاصة بالدين في أبعاده الروحية والاجتماعية والعقلانية على الرغم من أن الإسلام هو أحدث الديانات السماوية وأكثرها قربا من المنطق وطبيعة الكون والإنسان.

10.6 – والأخير من تلك التحديات وليس أخرها هو التصدي لطوفان الأمية الشبيهة بالسرطان في جسم الأمة، فقد وصلت نسبتها سنة 1992 الى 37% من السكان يزيد سنهم على العاشرة (تقرير رئاسة الجمهورية)، ومن البديهي أنه لا يمكن لأي أمة أن تتقدم وتحقق مطالب الانسجام والتضامن والسلم الاجتماعي إذا كان أكثر من ثلث المواطنين فريسة للأمية، وقسم كبير منهم من الاناث، إن النشر الأفقي للتعليم سيساهم في المديْن المتوسط والبعيد في اقتناع أغلبية المجتمع بأن الجزائر في حاجة الى المشي على رجلين هما الرجل والمرأة وأن التساوي في حقوق وواجبات المواطنة هو واحد من شروط الانتقال من الجمود أو التباطئ الى السرعة في التطور والتكامل بين الأجيال بدل التفكك والصراع.

لاشك أن لهذه الآفة تأثيراً على المحيط المباشر للمدرسة وعلى أدائها نفسه فضلا عن انعكاساتها السلبية على التشغيل للمدرسة وعلى أدائها نفسه وفضلا عن انعكاساتها السلبية على التشغيل والتدريب المهني والأداء الاقتصادي والمستوى الثقافي للمجتمع بكامله، لذلك فإنه من المستعجل والجزائر تستعد للاحتفال في منتصف العقد القادم (نوفمبر 2004) باليوبيل الذهبي للثورة أي ذكراها الخمسينية وانتهاء عهد الغبن والتوحيش الكولونيالي (Ensauvagement)، من المستعجل أن تجند بلادنا كل إمكانياتها لوقف هذا

الطوفان، فما الفائدة في وجود نخبة صغيرة متفوقة وسط بحر راكد من الجهل والانحطاط الثقافي؟ وماذا تستطيع أن تفعل لتسريع الحركية الكلية للمجتمع؟ لقد أكد «فوكو» (Foucould) هذه الحقيقة في دراسته الأركيولوجيا المعرفة (Archéologie du savoir) بقوله: إن التخلف مثل الورم (Tumeur) يتخضم ويتزايد إذا كانت المعادلة على الترتيب التالي: سلطة، ثروة، علم ويزول، أو على الأقل لا يتضخم إذا عادت المعادلة السابقة الى وضعها الصحيح وهو: علم، ثروة، سلطة (Savoir, Avoir, pouvoir).

IV - تحديات من خارج منظومة التربية والتكوين:

7 – أما التحديات الخارجية فهي تعني المدرسة باعتبارها كشافة المستقبل (Pionière) وتشمل كل مؤسسات المجتمع المعنية بالتنظيم والتسيير والبحث العلمي، نذكر من بين تلك التحديات:

1.7 – بينما كانت المنطقة كلها ومن بين بلدانها الجزائر تغوص في التخلف وتتقهقر الى الوراء وتردد بلا وعي من فوق المنابر كل يوم جمعة «أن كل جديد بدعة وكل بدعة ضلالة وأن كل ضلالة في النار» – (أقول بلا وعي لأن الإسلام هو أعظم تجديد في تاريخ الإنسانية) – وتتساقط الواحدة تلو الآخرى تحت ضربات التوسع الصليبي الكولونيالي حدث ما يلي:

– تضاعفت المعرفة العلمية لأول مرة سنة 1750.
– تضاعفت للمرة الثانية في نهاية القرن الماضي.
– زادت ثلاث مرات في نهاية الحرب العالمية.
– تطلبت عشر سنوات فقط لتتضاعف للمرة الرابعة ما بين (1960 و1970).

2.7 – قدر «ماك لوهان» (Mac Luhan) التطور المذهل للمعرفة الإنسانية بالوحدة الزمنية بقوله إن حجم ما أنتجه الإنسان من المعرفة والتكنولوجيا في مدة ثلاث سنوات فقط من نهاية هذا القرن تساوي 30 سنة مقارنة ببداية القرن، وثلاثمائة سنة من عصر نيوتن وثلاثة آلاف سنة من عصر الكهوف، وأن ما ينبغي أن يتعلمه التلميذ في أية مادة من المنهج الدراسي يزيد ثماني مرات عما كان يتعلمه جده في العشرينيات من هذا القرن.

3.7– تضاعف حجم الإنتاج التكنولوجي مليون مرة ما بين (1960–1980).

4.7 – هناك (35.000) مجلة علمية متخصصة من بينها (6.200) مجلة تصدر في الولايات المتحدة تنشر في مجموعها حوالي 2 مليون دراسة أو تعريف باختراع جديد سنويا، بمعدل ما بين (5.000 و7.000) دراسة وبحث يوميا تمثل 20 مليون كلمة وحسب «أنديريا» (J. Anderea) فإنه قد تراكم حتى 1985 حوالي 10 ملايير شكل طباعي مرقم في أوروبا والولايات المتحدة.

5.7 – تتحكم الولايات المتحدة بواسطة 450 بنك وقاعدة للمعلومات والمعطيات في 90% من المعطيات العلمية والتكنولوجية الأكثر حداثة، وتستخدم حظيرة من العقول الالكترونية تزيد حوالي الثلث عما هو موجود في سائر أنحاء العالم.

6.7 – تحول مركب الإعلام، الاتصال الى سلطة تكنولوجية سياسية قادرة على التبليغ عن بعد والتأثير من الداخل، من التليفون المنقول الى البارابول الى الشبكة المعلوماتية (Internet) الى الأقمار الاصطناعية والمراكب الفضائية التي تكشف باطن الأرض وأعماق البحار والمحيطات وتتجول ما بين الأرض والمريخ أصبحت كل مناطق العالم تحت العدسات لأغراض الاستكشاف والجوسسة.

8 – ومن بين المؤشرات الدالة على ما سيكون عليه العالم في مستهل الألفية القادمة:

1.8 – سيصل عدد سكان العالم خلال القرن القادم الى عشرة مليارات، بعد أن انتقل خلال القرن العشرين من مليار واحد الى ستة ملايير، سيكون 56% منهم في القارة الأسيوية ومليار وستمائة مليون سيكونون في أوروبا وأمريكا.

2.8 – سيتضاعف عدد السواح من 500 مليون سائح الى مليار سنة 2010.

3.8 – يتوقع تقرير الأمم المتحدة عن سنة 2000 (Global out loock) والمعهد الدولي بأمستردام أن أقل من 150 شركة متعددة الجنسيات سوف تحكم سيطرتها على الاقتصاد الدولي عن طريق التجمع في مركبات كبرى

والانتشار في جنوب العالم (délocalisation) أين توجد أسواق الاستهلاك واليد العاملة الرخيصة، وهي تحرك في منتصف هذا العقد رأسمال يقدر بألف ومائة مليار دولار أي أكثر من 25% من الناتج العالمي الخام.

4.8 – سيتجه العالم الى مزيد من العولمة من أعلى تحت ضغط الأحادية القطبية وغطاء الترابط المتبادل (Interdépendance)، وسوف تكون حسب مؤشراتها الحالية عولمة انتقالية وإقصائية تصنف البشر الى نوعين: أولهما: راقي وممتاز، وثانيهما: مجرد فضلات (déchets) بشرية تنهب ثرواته ويحسب له فقط الحد الأدنى من السعرات الحرارية كما هو الحال الآن في إفريقيا ضحية المجاعات والأوبئة والانقلابات الكاريكاتورية.

V - خلاصة

هذه أمثلة قليلة من تحديات نهاية القرن وبداية الألفية القادمة التي تواجه منظومة التربية والتكوين والجزائر كلها أمة ودولة ومجتمعا، وإذا كنا نعتبر أن عصرنا هو عصر الدقة والسرعة والاستثمار الجيد للذكاء وقوة الإرادة السياسية فإن المدرسة الأساسية والحلقات التالية وخاصة التكوين المهني والبحث العلمي ينبغي أن تكون هي رهاننا الحقيقي على المستقبل وليست رهينة (Otage) للصراعات الإيديولوجية. فمن علامات التخلف التي لا تخطىء كثرة الجدل اللفظي وقلة العمل الجدي تصدق هذه المقولة من سفسطة خطباء أثينا في عهد الانحدار(déclin) الى أيامنا هذه.

إننا لا نثق في التمنيات والوعود الطوباوية، وخطابات الوعظ والاتكالية (Fatalisme)، لأن الألفية القادمة تنتظر منا ديناميكية جديدة هي مزيج من الخيال والطموح والواقعية، ولذلك نتوقع أن يكون مستقبل المدرسة الجزائرية بعد الإصلاح أرقى من أمسها ويومها، ومن المحتمل جدا أن تهدأ العاصفة وتزول حقبة الاضطراب المؤقت ويستأنف شعبنا ونخبه الوفية مسلكيته التاريخية (Vocation historique) وهي الدفاع عن حرية الوطن والمواطن وزرع التقدم والديمقراطية والمشاركة بفعالية في إثراء التراث الإنساني والحرص على تطبيق العدالة الاجتماعية ورعاية من

ينتجون الثروة وهم المفكرون والعلماء المبتكرون في كل المجالات الذين سيتخرجون من المدرسة الجزائرية، مدرسة المستقبل.

إن التقدم والحداثة الحقيقية لا تصنعها الشعارات وخطب مدح التقدم أو سبّ التخلف ولا القرارات والمراسيم الفوقية، إنها تنشأ أساسا في نظام التربية والتكوين، وتظهر نتائجها في تراكم المعرفة والتطبيقات التكنولوجية، عن طريق البحث العلمي، والترقية الثقافية لكل المجتمع.

من الإنصاف أن نثمن في نهاية هذه الورقة المجهود الذي قام به المجلس الأعلى للتربية لتنظيم حوار وتشاور واسع، شارك فيه المعنيون والمختصون من ذوي الخبرة والتجربة، وذلك على الرغم من قصر المدة والمصاعب التي تصاحب مرحلة التأسيس.

أيا كانت النظرة لنتائج ذلك المجهود، وهي في رأينا جديرة بالاهتمام، فإنه ينبغي النظر الى سياسة الإصلاح على ضوء الاعتبارات التالية:

– لا يوجد نظام تربوي كامل ونهائي، فهناك جدلية دائمة بين متطلبات التغيير الاجتماعي وبين التطور المستمر في مضامين التكوين ووسائله وأهدافه.

– ينطلق الإصلاح من تحليل صارم ونزيه لحصيلة ينبغي وضعها في سياقها التاريخي ومحاكمتها حسب أهدافها المرحلية بعيدا عن الانطباعية والمزاجية والنزعة العدمية التي تبحث عن نقطة الصفر، أو تدعي أن كل ما سبق هو لا شيء أو أسوأ شيء.

– ينبغي أن ينطلق الإصلاح من منظور إجمالي لنظام التربية والتكوين باعتباره سلسلة متصلة الحلقات تتبادل المدخلات (inputs) المخرجات (outputs).

– لكي يتحاشى الإصلاحية الترقيعية (eclectisme) والإصلاحية الجزئية (réformette) أن يتصف بالمرونة ويضع سلما متدرجا للأهداف والوسائل ويقترح فرضيات للتعديل.

– إذا تأكد المشرفون من جدوى وفعالية مشروع الإصلاح بعد الفحص والتجريب الأولي فإنه من المفيد أن يستغرق تطبيقه دورة كاملة تسمح بالحكم على نتائجه وإعادة النظر في فلسفته ومحتوياته.

– ينبغي أن يسبق الإصلاح ويواكبه بحث تربوي منظم، استشرافي، متعدد الاختصاصات، فالبحث العلمي في مجال التربية والتكوين هو الذي يمنع من الارتجالية والتجريبية (empirisme) العشوائية.

– ينبغي أن يقوم مشروع الإصلاح على نظرة توافقية بين فعاليات المجتمع السياسية والاجتماعية والثقافية أشبه بمعاهدة بين أطراف تعمل بتضامن لبناء المستقبل انطلاقا من مشتلته الحقيقية، وهي نظام التربية والتكوين.

وننهي هذه الورقة بثلاثة اقتراحات ذات بعد استراتيجي تشغل بالنا منذ مدة وهي:

1 – إنشاء مركز للأبحاث المتخصصة في شؤون بلدان القوس اللاتيني (إيطاليا، فرنسا، إسبانيا، البرتغال) وتشجيع العلماء والخبراء الجزائريين على العمل في هذا المركز، فمن المعروف أن عددا كبيرا من الكفاءات الجزائرية من أعلى مستوى تعمل في مراكز البحث النشيطة في بلدان القوس اللاتيني وتساهم في تعريف مراكز القرار الأرومتوسطية بطبيعة الإشكاليات المطروحة على بلادنا وآفاق الجزائر على المديَيْن المتوسط والبعيد، أما نحن فإننا لا نكاد نعرف شيئا أكثر مما يقوله الأوروبيون عن أنفسهم، بل إن بعض ما نتوهم أننا نعرفه عن أنفسنا قديما وحديثا هو من صنعهم.

2 – إنشاء مركز للأبحاث في الشؤون الإفريقية، إذ أن لنا في غرب ووسط القارة اهتمامات وعلاقات تاريخية لابد من إنعاشها، والعمل على اختراق الطوق السياسي الاقتصادي الذي يحاصرها من كل الجهات.

3 – إنشاء معهد متخصص في اللغة العربية وتراثها المغاربي الإسلامي واللغة والتراث الأمازيغي ومجالات التعاون في الثقافة والاقتصاد والخدمات والعلاقات الدولية، ويتجه الى البحث في المشتركات والخصوصيات التي تجمع بين كل أبناء المنطقة ما بين البحر والصحراء الكبرى، فالمستقبل للتجمعات الجهوية مهما كانت العوائق والصعوبات الموضوعية أو الناجمة عن تقديرات آنية وضغوط خارجية.

وادي ميزاب المحافظة على حضارة المجتمع وتجديد مجتمع الحضارة

لابد في البداية من التنويه بهذه المبادرة الشجاعة لتنظيم مهرجان له أبعاد وطنية للاحتفال بالذكرى الألفية لتأسيس العطف، باعتبارها أحد المراكز العمرانية الأولى على مداخل الجنوب الجزائري الشاسع، وإحدى قلاعه الأمامية التي حافظت طوال هذه المدة على نمط أصيل من الحياة الاجتماعية الاقتصادية والثقافية المرتكزة على أصول العقيدة الإسلامية والتنظيم الداخلي للمذهب الإباضي.

نصف هذه المبادرة بالشجاعة، لأنها تأتي في وقت تشهد فيه بلادنا تحولات سريعة في مختلف الاتجاهات، وعميقة على كل المستويات، وتبحث عن أفضل السبل للمحافظة على تراثها التاريخي وتطويره من الداخل وعلى ضوء المستجدات في عالم لا يرحم الضعفاء والمتقاعسين، وتستحضر تجربتها التاريخية وخلاصاتها النظرية والعملية. من بين تلك الخلاصات الصادقة بالأمس واليوم أن طريق التقدم والعالمية (universalité) يبدأ من الاعتزاز بموروثنا الحضاري والتعريف به وتشجيع الإبداع الفكري والجمالي انطلاقا من كنوزه العلمية والفنية والعمرانية وليس من التمجيد اللفظي أو اللعان والاحتقار الاستلابي.

طريق التقدم الذاتي:

ينبغي أن يعبر التقدم الذاتي على طريق إعادة فحص الإرث الحضاري ونقده وراهنيته (Actualisation) التي تسقط منه القشور والحشو واللغو الذي اعتراه طيلة عهود الانحدار (déclin) وما أعقبه من انكسار عطل ثقافتنا العربية الإسلامية وأدى الى تقهقر على كل الجبهات، وفي كل الميادين، ومن أهمها نظام الحكم والثقافة والتربية وتنظيم المجتمع.

ليس هناك تناقض بين العناية بالتراث والمشاركة في رهانات (enjeux) العصر فما هو معاصر اليوم سيصبح حتما مجرد تراث عند أحفادنا من الجيل الثالث بعدنا، كما أنه لا سبيل الى التقدم بدون تراكم الخبرة وإثرائها جيلا بعد جيل، ولذلك يتفق الباحثون في علوم الإنسان والطبيعة على أن تاريخ العلم هو جزء من العلم نفسه، فليس هناك على الإطلاق بداية من نقطة الصفر في كل مجالات المعرفة الأنطولوجية والإبستمولوجية أي تلك التي تتعلق بموجودات الكون والأنساق الفكرية والمذهبية. إن الذي يبدأ من العالمية من المحتمل أن يضيع فيها ولا يضيف شيئا لتراث قومه، ومن المحتمل أكثر أن يبقى هامشيا على أطرافها، وقد يطويه النسيان.

إن الإلحاح على العناية بالخصوصية الثقافية الوطنية في امتدادها التاريخي وحركيتها الراهنة، لا يؤدي الى التنكر للقيم العالمية التي هي تراث الإنسانية كلها، ساهمت في بلورتها وإثرائها حضارات الشرق والغرب بالتداول والتعاقب، ولذلك ينبغي أن لا نقبل أن تفرض حضارة الغرب الراهنة بإنجازاتها الهائلة وإخفاقاتها الكثيرة – مرجعية معيارية (Normative) ملزمة وإجبارية لكل الثقافات.

ليس في الدعوة للاهتمام بثقافتنا الوطنية وتراثها المادي والمعنوي الغزير تراجع نحو الانعزال والتقوقع، لأن العزلة إذا كانت مفروضة من طرف أو أطراف أجنبية فهي تهديد مباشر لتطورنا وأمننا بالمعنى الواسع لكلمة أمن، كما حدث لبلادنا في العهد البائد للاحتلال الإجرامي، أما إذا كانت عزلة وتقوقع إرادي فهي ضرب من الانتحار البطيء يهلل له أعداء الجزائر الموتورون والمتربصون.

إن الذي ندعو إليه دول المقدمة، المتواجدة جغرافيا وراء البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، هو احترام حق الاختلاف الثقافي بين الأمم (droit à la différence) بدل أطروحاتهم القائمة على مغالطات الاستعلاء العرقي الثقافي وادعاءات الوصاية على بلداننا الخارجة لتوّها من قبضتها الاستعمارية، والتي يجتاز أغلبها فترة نقاهة بعد كل ما عانته من تخريب

ونهب ودمار، مستمر الى اليوم، تحت اسم حق التدخل باسم الوصاية على حقوق الإنسان (droit à l'ingérece) وقد رأينا في البوسنة والهرسك والصومال والعراق وبورندي... ما يخفيه هذا الحق المزعوم من ميكيافلية وابتزاز يخدم مصالح الأقوى وبجعل المبادىء السامية مجرّد ذريعة للضغط على الأضعف وإبقائه تحت رحمتها، إن كان للقوى المهيمنة وأباطرة المال والإعلام وسلاح الدمار الشامل رحمة!

لاشك أن وراء هذه المبادرة الشجاعة جهد منظم قامت به هياكل الولاية وكثير من الهيئات والجمعيات وخاصة مجالس الأعيان، فقد عرفت أن التفكير في هذا الاحتفال والتحضير له قد استمر حوالي عشر سنوات، أي منذ 1986، حيث بذلت المجالس والهيئات المعنية جهودا متواصلة لإقامة المهرجان وتنويع فعالياته، وإشراك العديد من خبراء العمران وهندسة القصور العتيقة ورجالات الفكر والفن والأدب من الجزائريين وبعض الأجانب المختصين.

إن مشاركتنا المتواضعة تنطلق من قناعة وهي أن تراث وادي ميزاب هو تراثنا الوطني تراث الجزائر كلها، ودليل على الاستمرارية التاريخية لمجتمعنا ودولتنا الفتية، فنحن نرى أن الاحتفال المؤيد بالبحث العلمي والتنقيب الأثري (الأركيولوجي) والمحافظة على الطابع العمراني وحماية الآثار التاريخية هو دفاع عن سيادة الأمة واستمراريتها التاريخية، أقول إن الاحتفال بتأسيس مدننا ومعالمنا الكبرى مثل العطف وورقلة (ورجلان) وتلمسان وبجاية (بقايث) وقسنطينة وتيارت (تيهرت) والطاسيلي وبشار وقصبة العاصمة، ووادي سوف على سبيل المثال وليس الحصر، هو عمل حضاري يصل حاضرنا بماضينا، ويستحضر شواهد من تاريخنا المشترك، تعزز الانتماء الى وطن واحد يجمعه جذع مشترك امتزج فيه الإسلام بالوطنية والتراث الشعبي والانتماء الجماعي للثقافة العربية التي لم تكن في يوم من الأيام ثقافة عرقية، أو إيديولوجية إقصاء واضطهاد لأي كان في هذه البلاد.

لقد قامت على ذلك المثلث – (إسلام، وطنية، تراث شعبي في إطار الثقافة العربية) – وحدة صمدت أمام كل العواصف والمؤامرات التي حاكها الاستعمار وخبراء الفتنة والتضليل.

نجد ضمن تلك الوحدة التاريخية تنوعا وثراء يسميه علماء الأناسة (الأنثرويولوجيا الثقافية) الثقافات الفرعية (Subculture) التي تخرج من الجذع المشترك القائم على وحدة المجال الفيزيائي، أي الاتصال المباشر بين البدو والريف والحضر عبر العصور، وعلى الإحساس الجماعي بالانتماء الى أمة واحدة تحفزها عوامل موضوعية دائمة للتضامن في السراء والضراء.

ليس من السهل في هذه الورقة المتواضعة الحديث عن المآثر الألفية للعطف وصمودها أمام تعاقب القرون والأحداث في ما كان يعرف بالمغرب الأوسط الإسلامي وعهد الحملات الصليبية لدول القوس اللاتيني وبالخصوص إسبانيا وفرنسا وإيطاليا، فلا يوجد في العالم المعاصر كثير من المدن والقرى التي حافظت على تراثها الثقافي، والعمران جزء منه، ونظمت حياتها الاجتماعية على أساس الجمع المنسجم بين التراث ومتطلبات الحداثة، والتطور، ولذلك تستحق العطف لقب «أم القرى» المعلقة على سفح وادي ميزاب المنيع.

ليس صحيحا أن الحداثة (modernité) والتقدم تبنى على أنقاض التراث الأصيل، لأن تدمير التراث أو تشويهه بالتقليد الببغائي يقطع التواصل التاريخي بين الأجيال، ويفسد الطابع المميز لنمط الحياة في الجماعة المحلية والمجتمع بوجه عام، ولذلك ينبغي أن نعتبر ألفية العطف واحدة من الشواهد على خصوصية ثقافتنا الجزائرية، فعن طريق تلك الخصوصية الثقافية وتجربتها التاريخية نصل الى العالمية ونضيف إليها مساهمتنا الخاصة في الحضارة الإنسانية.

مصلحة الجماعة أعلى من مصلحة الفرد:

إذا كان من الصعب الحديث عن مآثر العطف القديمة والحديثة خلال ألف عام، فإنه من الأصعب الإلمام بتراث وادي ميزاب الديني والاجتماعي الذي لا يعرف كنهه إلا الراسخون في العلم من أبناء المنطقة أنفسهم، فقد وصل الامتزاج بينهما (العقيدة والتنظيم الاجتماعي) درجة من الدقة والإحكام جعلت أغلب الباحثين من المستشرقين المختصين في علوم المجتمع يضعون لبحوثهم عناوين متواضعة مثل مدخل، محاولة، ملاحظات، إلخ... ويبدأون باستشارة فقهاء وعلماء الناحية، ويطلبون مساعدتهم أثناء البحث مثل ما فعل دانجيل (G. dangel) وڤروسمان (Grosmann) ولويكي (T. Le wicki) وكوبيرلي (P. Cuperly) الخ...

من أسباب هذه الصعوبة ما يزخر به وادي ميزاب من ثروات تراثية وراهنة متواصلة بلا انقطاع، فأين ما وليت وجهك في هذه المنطقة وجدت مجتمع الحضارة وحضارة المجتمع، من معالم العمران المميز برونقه وجماله وتكيفه مع المناخ ونفعيته الوظيفية وحفظه للحرمة (Intimite) الى منارات العلم والثقافة المنتشرة في ربوع قرارة وبريان وبني يزقن وغيرها من مراكز الاشعاع الديني والتربوي والثقافي، نجد أبلغ تعبير عنها في الشعار الذي يرفعه معهد الحياة في قرارة والذي يجعل الخلق الحسن يسبق العلم، ومصلحة الجماعة أعلى من مصلحة الفرد.

لقد توصل معظم حكماء الإنسانية الى هذه الخلاصة من أرسطو في كتابه «الأخلاق» الى نيكوماخوس، الى إينشتاين في «مذكراته» التي انتهى فيها الى أن الإيمان بقدرة الله سبحانه وتعالى ومثل الخير هي أعلى مراتب العلم، الى فيلسوف الرياضة المعاصر برتراند راسل في كتابه عن «الأخلاق والسياسة» الذي أقر في نهاية حياته بأن السياسة التي لا تقوم على الفضيلة تنزل بالمجتمع الى مستوى أدنى من الحيوان.

يشعر الزائر لهذه الديار – سواء أكان ضيفا أم سائحا بالهيبة والوقار، حيث تلتقي حكمة الشيوخ في مجامع العزابة بتضامن الجماعة وتنظيمها

المحكم ومساهمتها بفعالية في تسيير الشؤون العامة عن طريق الشورى والانضباط والتوزيع الدقيق للمهام اقتداء بالمجتمع المثالي الذي أسسه القرآن وطبقه رسولنا الأعظم محمد (ﷺ) وخلفاؤه الراشدون.

لم تحفظ أية منطقة في الجزائر تراثها المكتوب بمثل ما فعلت واحة ميزاب، فمن يستطيع أن يطالع أو يبحث في الفقه وأصوله دون أن يواظب على أبواب مكتبة القطب أو يستشير حافظها العلامة المرحوم الشيخ محمد إطفيش في بني يزقن وزملائه العلماء الأجلاء في مكتبات مليكة وقرارة وغيرها من منارات العلم في ربوع واحة ميزاب العريقة.

يقول أحد مؤرخي المغرب الإسلامي من جامعة الجزائر في مقدمة كتابه عن السياسة والنظم وخاصة نظام الحسبة، وبعد أن لاحظ ندرة المصادر في الجزائر وتوزعها على المكتبات في الدول المجاورة أو في أوروبا يقول ما يلي:

«إن الصعوبات لجمة أمام من يؤرخ لفترة –ما– من فترات تاريخ المغرب العربي الإسلامي خصوصا إذا تعلق الأمر بالنظم وبالأجهزة الإدارية وبمظاهر الحضارة (...) والسبب في ذلك يرجع إما لعدم وجود المصادر أصلا، أو وجودها، مع فقرها الواضح في النصوص الكاملة، وهنا ألاحظ مدى أهمية المصادر الخطية التي تتناول بعض فترات تاريخ بلادنا وتوجد إما في المكتبات العامة بالمغرب وتونس أو الخاصة بواحة ميزاب، وتمتاز هذه التي توجد في ميزاب بأهميتها الفريدة في بابها، لا من حيث رقي مستواها العلمي والفني، وإنما لأنها هي التي تتحدث وحدها بإفاضة عن سير الحركة الخارجية المغربية ونضالها السياسي والمذهبي، وهي الفترة التي تظهر من أغمض فترات المغرب». [د. موسى لقبال: المغرب الإسلامي، ص: 8 مطبعة البعث 1969].

لا يقتضر الأمر على حفظ التراث القديم وهو بدوره يتجاوز الألف عام، بل إن علماء المنطقة وأدباءها وشعراءها قد أثروا ذلك التراث وأضافوا إليه الكثير ولعبوا أدوارا قيادية في الحركة النهضوية والوطنية على مستوى

الوطن واتسعت نشاطاتهم العلمية والسياسية لتشمل العالم العربي والإسلامي، مثل العلامة المرحوم الشيخ بيوض، والمؤرخ المعروف محمد علي دبوز وسلفه محمد بن يوسف أطفيش صاحب الرسالة الشافية التي وضعت توصيفا شيقا وحيا لوادي ميزاب.

نهضة الجزائر الحديثة:

من هذه السلسلة المتصلة الحلقات من العلماء الأفاضل التي تكاملت بين القرنيْن الخامس والثامن الهجري (11—14 ميلادي)، نذكر أمثلة قليلة ليستْ جامعة ولا مانعة لتذكير شبابنا الصاعد بنضال أجدادهم على جبهة العلم وخدمة الإسلام بإخلاص وكفاءة وتفاني، لا نبتعد كثيرا في تلك السلسلة فنحن لسنا من المختصين في أصول العقيدة ولا من دارسي مقولات علم الكلام ومذاهب السلف الصالح لذلك سنقتصر على بعض المحدثين الذين يعرفهم أهل الناحية خيرا من غيرهم، نقتبس سيرتهم من مطالعاتنا العامة، ونترك لأهل الاختصاص تحليل جوانب أعمق من حياة وأفكار أولئك العظماء.

– إبراهيم بن محمد بن يوسف أطفيش، من مشاهير العلماء والأدباء من مواليد بني يزقن تتلمذ على العلامة المرحوم محمد بن يوسف الذي أشرنا إليه فيما سبق وكان من مريديه ولازمه الى حين وفاته سنة 1332 هـ الموافق لسنة 1914م، وقد استكمل إبراهيم تعليمه في جامع الزيتونة بتونس، وشارك في حركتها الوطنية والسياسية بقيادة الشيخ عبد العزيز الثعالبي المؤسس الأول للحزب الدستوري التونسي، ونظرا لقوة نشاطه وتأثيره في أوساط الجماهير وتحريضه على مقاومة الاستعمار، ألقى عليه الفرنسيون القبض ثم نفوه من تونس، فالتجأ الى القاهرة سنة 1923م وأسس فيها مجلة «المنهاج»، كما شارك في تحقيق عدد من كتب التراث أثناء عمله في دار الكتب المصرية.

وقد أوصلته عزيمته وكفاءته الى أعلى المسؤوليات حيث عينته دولة عمان ممثلا لها في جامعة الدول العربية، كما كان في أوائل الستينات رئيسا

لوفدها في الأمم المتحدة، وقد ترك المرحوم إبراهيم أطفيش مجموعة كبيرة من المقالات والدراسات الأدبية والسياسية التي نشرها ما بين الثلاثينيات والأربعينيات في الصحف والمجلات المصرية أثناء مقامه في القاهرة مقتديا في ذلك بجده إبراهيم بن يوسف بن عيسى أطفيش الذي وردت سيرته في كتاب الأستاذ محمد علي دبوز: نهضة الجزائر الحديثة.

– ومن بين العلماء الموسوعيين وأساطين النهضة الجزائرية محمد بن يوسف بن عيسى أطفيش المتوفي سنة 1914 في مسقط رأسه بني يزقن بعد عمر ناهز القرن (94 عاما)، نصف هذا العالم الكبير بالموسوعة لأنه تقريبا بحث وألف في كل علوم وفنون عصره، بل إنه كان يبحث ويكتب حتى وهو على ظهر سفينة، وهو بذلك يجدد تقاليد ابن رشد الذي قال إنه لم يتوقف عن التعلم والتعليم إلا ليلتين فقط، أولاهما ليلة وفاة والده وثانيتهما ليلة زفافه، وكذلك تقاليد ابن خلدون عالم العمران، الثاقب الملاحظة الذي وضع في خلوته على مقربة من فرندة أصول علم العمران وعلم الاجتماع المقارن.

نرى من خلال القائمة الطويلة لمؤلفاته أنه صال وجال في أغلب مجالات المعرفة القرآنية والأدبية وفنون الشعر والأخلاق واللغة، نذكر من بين تلك المؤلفات:

– هميان الزاد ليوم المعاد في ستة أجزاء.
– التيسير في تفسير القرآن في سبعة أجزاء.
– داعي العمل ليوم الأمل في أربعة أجزاء، فسر فيه القرآن من سورة الرحمن الى سورة الناس.
– وفاء الضمانة في أداء الأمانة في ثلاثة أجزاء، جامع الشمل: ترتيب الترتيب وهما كتابان في الحديث.
– حاشية على الموجز الذي وضعه العلامة أبو عمار عبد الكافي ودرسه في السبعينات الدكتور عمار طالبي أستاذ الفلسفة الإسلامية في جامعة الجزائر.

- شرح عقيدة العزابة في التوحيد.
- شرح النيل في سبعة عشر جزءا.
- شرح مختصر العدل والإنصاف في التشريع الإسلامي.
- فك الغاني من ربقة المعاني، في البلاغة.
- تحفة «الحب» في الطب.
- الشافية في تاريخ ميزاب وأنساب قبائله وعشائره.
- إيضاح الدليل الى علم الخليل، في العروض وموازين الشعر.
- الرسم في قواعد الخط العربي.
- وآخر مؤلفاته هو شرح معالم الدين للتميني توفي قبل أن يكمله.

لا نريد أن نطيل في ذكر عينات من أعلام المنطقة فكتب السيرة والتاريخ تغص باسمائهم وآثارهم الجليلة.

لقد شارك رجالات ميزاب في حركة النهضة والإصلاح الديني والاجتماعي، وحافظوا بغيرة كبيرة على جزء هام من تراث الجزائر عن طريق البحث والتأليف والتربية والتعليم وساهموا في تيارات الحركة الوطنية التي تبلورت في نهاية الربع الأول من هذا القرن، بل إن نشاطاتهم أمتدت الى المغرب والمشرق العربي، عرفوا بقضية الجزائر المكافحة ببراعة جلبت كثيرا من التعاطف والفهم من طرف الأشقاء الذين كانوا يجهلون كل شيء عن بلادنا المعزولة تحت وطأة القهر والاحتلال.

لقد واجه شعبنا في هذه المنطقة مؤامرات الاستعمار الفرنسي وأساليبه الميكيافيلية في السيطرة والتشتيت عن طريق فرق تسد، وإنشاء مجموعات إثنية متناحرة تتبادل الحقد والكراهية ليستعملها بعضها ضد بعض، فحاول في نهاية الأربعينيات إنشاء أحزاب جهوية للقبائل والشاوية وميزاب، وجند لذلك إمكانيات كثيرة، باءت كلها بالفشل بفضل الحس الوطني لشعبنا وحرصه على وحدته الترابية وإرادته القوية في استعادة دولته الوطنية التي أجتاحتها جحافل الاحتلال في ذلك اليوم المشؤوم من جويلية 1930.

كما كافح رجال هذه المنطقة، وخاصة علماؤها الوطنيون عن طريق التربية الدينية والمدنية والتوعية السياسية والاجتماعية المخطط الإجرامي للاستعمار الفرنسي القائم على التجهيل والتوحيش (Ensauvagement) والتقسيم والتجزئة، واجه أولئك الرجال بصبر وثقة في النفس ذلك المخطط الخطير الذي كان هدفه الحقيقي هو إضعاف الجزائريين من الداخل وإفشال مقاومتهم للاحتلال والطغيان الذي وصل أقصى درجات القهر والاذلال والاستعلاء العرقي الثقافي وخاصة من طرف الأقلية الفرعونية من الكولون المستوطنين بالقوة في الجزائر.

نجد محاولات التمزيق في التراكم الكبير الذي خلفته المدرسة الاستعمارية البائدة، ويعرف باسم الأنديجبنوفيليا (Indigénophilie) القائمة على الدراسات الأتنوغرافية والأثنولوجية للأجناس البشرية وتصميم نظريات مزيفة عن التفوق العرقي وابراز الاختلاف بين مناطق الجزائر ومهمة فرنسا في تمدين البدائيين والمتوحشين.

قام بذلك العمل خبراء من ضباط الحيش الفرنسي وكثير منهم كان على رأس مكاتب الشؤون الأهلية (BA) والبلديات المختلطة (Communes mixtes) قبل أن يتحولوا الى قيادة فرق القمع والتهدئة والحرب البسيكولوجية المعروفة باسم لاصاص (SAS) نذكر من بينهم دوفو (Deveaux) وكل من هانوتورنو ولوتورنو (Hanoteau et Letourneux) وساباتيي (Sabatier) وجول دافال (J. Daval) وماسكوري (E. Masqueray) الذي كتب في نهاية القرن الماضي بحثا عن تكون المدن في جزائر الحضر وخص فيه قبائل جرجرة وشاوية الأوراس وميزاب وأظهر فيه التمايز والاختلاف الكامل في نمط الحياة وطبيعة العلاقات الاجتماعية والأصول العرقية، ليصل كتاب آخرون الى استنتاجات وهمية عن الأصل اللاتيني الروماني لكل هؤلاء السكان وإمكان تمسيحهم كما توهم ذلك المونسيور لا فيجري (Mg. Lavigerie).

أسقطت ثورة التحرير الكبرى في الأول من نوفمبر 1954 كل تلك الادعاءات الباطلة وبرهن شعبنا في كل مناطق البلاد على وحدته وإرادته

في التحرير واستعداده للتضحية بلا حساب من أجل كرامة الوطن وعزته، وأكد للرأي العام الدولي أن حرب التحرير ليست حربا دينية ضد المسيحية السمحاء وإنما ضد من يستعملون تعاليمها ويحرفونها لأغراض البغي والعدوان، وهي كذلك ليست حربا عنصرية فليس للجزائريين أية عداوة مع الشعب الفرنسي في حد ذاته وإنما ضد الاستعمار المسلط عليهم بالحديد والنار وثورتهم هي كفاح مشروع من أجل الحرية، على الرغم من أن شعبنا فقد نصف سكانه خلال ربع قرن من الاحتلال، ولم يسترجع عدد السكان الذين كانوا فيه سنة 1830 (حوالي خمسة ملايين نسمة) إلا في أوائل هذا القرن.

ساهمت هذه المنطقة في المقاومة الوطنية الشعبية مثل ثورة ميزاب سنة 1861 وواجهت الحكم العسكري المباشر منذ 1902 على أثر انتفاضات عين صالح وتيدكانت وتوات وغرارة سنة 1899 وقدم أهلها قوافل من الضحايا والشهداء.

خلال الثورة ساهمت المنطقة بالصفوة من أبنائها في المعركة الحاسمة، وقد تولى الكثير من رجالاتها مسؤوليات قيادية، وفي مختلف المواقع ضمن جبهة وجيش التحرير الوطني داخل التراب الوطني وفي الخارج، وقامت نخبتها المثقفة بدورها في جبهة التعبئة العامة والإعلام المضاد للدعاية الاستعمارية التي تنشر سمومها من صوت البلاد أو من فرنسا ذاتها، وقد توجه جزء من ذلك الإعلام والتحسيس بكفاح الشعب الجزائري الى الدول العربية، حيث أن رجال وادي ميزاب يتقنون اللغة العربية ومعروفون بفصاحتهم ومعرفتهم القديمة ببلدان المغرب والمشرق العربي.

لذلك لم يكن صدفة أن يضع نشيدنا الوطني الشاعر العبقري مفدي زكريا وأن يخلد تاريخ الجزائر وأمجادها في إلياذته العظيمة التي أسعفني الحظ أن أكون من بين الحاضرين حين ألقى قسما منها بصوته في القاعة البيضوية بنادي الصنوبر في ملتقى الفكر الإسلامي الذي نظمه رجل عظيم آخر هو مولود قاسم نايت بلقاسم رحمهما الله وطيب ثراهما على ما أسدياه من جهد مخلص للجزائر دولة وشعبا وتاريخا.

بالإضافة الى المساهمة المباشرة في حرب التحرير والدعم المادي والمعنوي وعن طريق المظاهرات للتنديد بالاستعمار وفضح ألاعيبه الشيطانية، كان وادي ميزاب قاعدة أمامية ومأمونة للثورة في اتجاه الجنوب الشرقي والغربي (الولاية التاريخية 5 والولاية التاريخية 6) ومصدرا للامداد بالسلاح والمؤن والرجال. كما كانت في نفس الوقت قاعدة خلفية يختفي فيها المناضلون والقياديون من مسؤولي جبهة وجيش التحرير لإعادة تنظيم صفوفهم ومراقبة تحركات العدو بين الشمال والجنوب والتحضير للهجومات الشجاعة على قوافله وطوابيره، فكل الطرق كما يقال تخرج من غرداية وتؤدي إليها.

يذكر كثير من المسؤولين والجنود العاديين كرم الضيافة واحتضان أهالي المنطقة لهم بلا منّ ولا شكور، وينوهون بوجه خاص بفضيلة الكتمان أي الاحتفاظ بالسرية وحماية أولئك الرجال مهما كانت المخاطر والصعاب، وهي تعني في ذلك الوقت الموت المحقق بتهمة إخفاء الفلاقة والمتمردين، أو على الأقل أبشع ألوان التعذيب وانتهاك الأعراض.

لقد خرجت الجزائر منتصرة بفضل تلاحم كل أبنائها واستعادت سيادتها الوطنية وانطلقت في بناء الدولة وموسساتها الجمهورية وتصحيح جدي لمسيرة حوالي ثلث قرن فيها الكثير من النجاحات، كما أن فيها بعض الأخطاء في التسيير والتقدير وكما تغلب شعبها على محن وامتحانات عسيرة من قبل سوف يتغلب بلاشك على ما يعانيه من مضاعفات الأزمة الراهنة بعون الله وإرادته القوية في البناء والتشييد على أسس من الحرية والعدل والديمقراطية المستمدة من قيمه ونضالاته التي تمتد على أكثر من ألفين وخمسمائة عام.

«بيرك» المفكر والإنسان
من فرندة الى ختم ترجمة القرآن في سان جوليان

توفي الأستاذ «جاك بيرك» (J. Berque) في نهاية جوان 95، بعد أن أتم رحلة علمية من أعلى طراز، غزيرة الإنتاج، ومتميزة بالمواقف الجريئة والشجاعة المناصرة لكل القضايا العادلة في العالم والمتعاطفة الى حد كبير مع الحقوق المشروعة لبلدان المنطقة العربية وخاصة مع كفاح الشعب الجزائري قبل التحرير وبعده، ومع حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره واستعادة وطنه المغتصب.

رحلة علمية شاقة ومثيرة، تجاوزت النصف قرن، وأثمرت أكثر من ثلاثين مؤلفا عن التاريخ والمجتمع والثقافة، هي حصيلة الملاحظة الثاقبة والمعايشة الفعلية للوقائع وهي تتحرك، تتسارع أو تتباطأ داخل النسيج الحي للعلاقات في المجموعة الإنسانية ومحيطها الفيزيائي، في القرى والمدن والأحياء والشوارع، من فرندة مسقط رأسه الى طنجة وتونس والقاهرة، مرورا بالسهوب والهضاب العليا التي بدأ منها مساره العلمي ببحث شيق عن الحياة الرعوية في سهوب بني مسكين الجزائرية نشره سنة 1936 (Les pactes postoreaux, Beni Meskine, Alger 1936) مدشنا بذلك مدخلا كليا للعلم الاجتماعي يسميه المجال الحيوي الثقافي الاجتماعي من الأطلس، الى الفرات (De l'Atlas à l'Euphrate, sind 78)، بالإضافة الى المؤلفات العلمية، نشر بيرك عشرات من المقالات المبسطة للجمهور من غير المختصين، والعديد من الأبحاث المتخصصة في التاريخ الاجتماعي للإسلام المعاصر، وهو عنوان الكرسي الذي شغله في المعهد العالي الفرنسي المعروف (Collège de France) منذ 1956 أين توافد عليه الكثير من الطلبة والباحثين من المنطقة العربية وخاصة من أقطار المغرب الذين وصل بعضهم اليوم الى مراتب الأستاذية (Professorat) ويتولى البعض الآخر مناصب سامية سياسية ودبلوماسية.

جمع «بيرك» بين الإطلاع الموسوعي على منابع الحضارة العربية الإسلامية والمعرفة الدقيقة بالإشكاليات الاجتماعية الاقتصادية ومضاعفاتها السياسية

والثقافية والقدرة على وضع الجزئي في إطار الكلي، وتفسير الكلي على ضوء عناصره المتفاعلة بمنظور لا يغفل امتدادها التاريخي، ولا ينقص في نفس الوقت من الخصوصية التي تنتظم بها تلك العناصر في زمان ومكان معين، مما يجعل التاريخ الاجتماعي والأنثروبولوجيا الميدانية نسقا واحدا متزامنا (synchronisé) ومتعدد الأبعاد، ويسمح للباحث كما يقول بيرك بأن يكون محققا وشاهدا (Enquêteur Temoin)[1]، (ص: 145، تعليق رقم:4).

تمكن «بيرك» خلال المدة التي قضاها في تدريس التاريخ الاجتماعي للإسلام المعاصر والإشراف على الأبحاث المتعلقة بالمنطقة العربية من تطوير أدواته المنهجية واختبار فرضياته العلمية واستخلاص النتائج العامة التي تقوم في نظره على محور أساسي، هو المعنى العام للتاريخ (Le sens général de l'histoire)[2]، (ص: 430) الذي يصنع الأحداث وتصنعه الأحداث في آن واحد.

من هذا المدخل الفلسفي، أعاد «بيرك» النظر في بعض نتائج أبحاثه في طبعاتها المختلفة، ووضع صياغات جديدة، بل راهنة (up to date) لبعض أطروحاته عن طبيعة الصراع بين ضفتي المتوسط وإمكانات التعايش والحوار وأسباب الاخفاق الكلي للكولونيالية الاستيطانية في الجزائر وتأثير ميراثها «الحاضر الغائب»، (2، ص: 9–13) ودور الإسلام المزدوج المتمثل من جهة في رسم الإطار العام للهوية الوطنية، وتحديد معالم الوطنية من داخل الهوية المشتركة، وتعريف حدودها الخارجية من جهة أخرى[3] (ص: 14–15).

أتقن رجل الضفاف والصحاري (Rivages et déserts) وهو الاسم الذي أطلق عليه في ندوة عقدت لتكريمه سنة 1987 من طرف زملائه وتلاميذه[4]، (ص: 9)، أقول أتقن اللغة العربية وتذوق شعرها ونثرها القديم والحديث، وكان فخورا بعضويته في مجمع اللغة العربية بالقاهرة ونظيره بالمغرب وسوريا.

---

(1) J. Berque: Le Maghreb entre deux guerres- Ed. Seuil, 78.

(2) م م ن.

(3) J. Berque: l'Islam veilleur de la nuit coloniale N.O. collection dossier n° 992.

(4) Rivages et déserts, hommage à J. Berque-Sindbad, 87.

بدأ تعلمها أثناء طفولته التي يصفها بالمتوحشة والسعيدة بمدينة فرندة، وهو يذكر بكثير من التنويه أستاذه المبرز (agrégé) «صويلح» الذي وضع آنذاك (العشرينات من هذا القرن) عددا من الكتب المدرسية بالعربية (Manuels) أي لتعليم اللغة المكتوبة شبه المحرمة حتى على الأنديجينا، كما ألم بعدد من الألسنة الأمازيغية مثل الشلحية المتداولة في الريف المغربي والقبائلية الشائعة في وسط الجزائر.

توج بيرك رحلته العلمية بترجمة كاملة للقرآن الكريم الى الفرنسية (1990) قضى في إعدادها والتعليق عليها ستة عشر عاما، كانت هي خاتمة أعماله الكبرى أتمها وهو معتكف في قرية سان جوليان (Saint julien) جنوب غرب فرنسا، وكأنه يقتفي أثر سلفه العملاق عبد الرحمن بن خلدون الذي أختار «خلوة» غير بعيد عن فرندة بين هضاب تيارت ومعسكر المترامية الأطراف، وعلى مقربة من سهول بني شقران، وكلها مواطن للشعر والفروسية وكرم البداوة النقية.

هنا يتوقف وجه الشبه – (ولا أقول المقارنة فهذه الورقة المتواضعة لا تتسع لذلك) – بين الرجلين، عاش ابن خلدون، وهو أيضا محقق في شؤون عصره وشاهد على انحدار (Déclin) الحضارة والعمران وانهيار السلطة وتفكك الدولة، عاش فكريا خارج عصره، فقد بقي مجهولا حوالي خمسة قرون لم يأبه أحد بأفكاره الأصيلة والجديدة عن الاقتصاد وسياسة الدولة وأسباب التقدم والتخلف في مجتمع مجزأ تفتته الصراعات القبلية والتنافس الشرس بين العشائر بينما كان المغول والصليبيون يطبقون عليه في موجات عارمة تكتسح مشرقه ومغربه وتجهز على وجوده الحضاري بهدف إخراجه لأمد طويل من التاريخ.

مهما قيل عن سيرة ابن خلدون وعلاقاته بالحكام في الأندلس والقاهرة والبلدان المغاربية الثلاثة فإننا لا نشك مطلقا بأن أفكاره المتقدمة والتقدمية عن السياسة والثقافة والعمران هي السبب الحقيقي في إبعاده عن دوائر الحكم الغارقة في التآمر على بعضها البعض والمتلهفة على الحظوة والسطوة ونهب أموال الجباية واحتقار «الرعية» واعتبارها كالمواشي ينبغي مراقبتها لاستغلال منتوجها صوفا وجلدا ولحما باسم القانون وخارج القانون.

ترك ابن خلدون مناصبه السامية في كل تلك البلدان وأصبح مطاردا ومنبوذا حتى في خلوته المسالمة مثلما حدث لابن رشد وكلاهما كان يشغل منصب قاضي القضاة أي وزير العدل وحامل الأختام والمراقب للأحكام وتطبيق التشريعات، وتحالف ضدهما سلطان الساسة المطلق وفساد الحاشية والجهل المطبق ولم نسمع طيلة خمسمائة عام شيئا عن مدرسة خلدونية أو رشدية تطور مناهج الشيخين أو تنقد وتقارن وتصحح نتائج تفكيرهما وتضيف إليها جديدا، كان ذلك هو المصير المحتوم لأمة تنهزم أولا من الداخل بانهيار الثقافة المبدعة وسد المنافذ على الابتكار العلمي وتخدير الناس بالخرافات والشعوذة والبهلوانيات السلطانية.

أما «بيرك» العالم الملاحظ الاجتماعي والخبير السياسي في شؤون المنطقة فقد وجد حوله مناخا مغايرا من جميع الوجوه، في بلاده تحتاج الدولة للمفكرين والعلماء والخبراء بقدر حاجتهم للدولة يفكرون ويبحثون بحرية أي في جو صحي الى حد كبير، لا يهمهم أن يكونوا في خلاف مع السلطة القائمة إذا كان هدفهم البعيد المدى هو خدمة بلدانهم والدفاع عن مصالحها الاستراتيجية ولو تعارض ذلك مع التقديرات الآنية والاعتبارات الظرفية للحكومات ومراكز النفوذ الأخرى.

هكذا كان «بيرك» عالما مطلعا على تفاصيل الواقع المتغير وكشاف (Eclairéreur) للمستقبل، عارض سياسة بلاده في التمسك بالاستيطان الكولونيالي والتضحية بوجود آخر هو في رأيه أهم وأبقى هو الوجه الحضاري الذي ترتسم على قسماته القيم الإنسانية لفرنسا تكون بالنسبة لأقطار المغرب خاصة أشبه بالأندلس بالنسبة لأوروبا! (1، ص: 441)، ولم لا يكون العكس أيضا صحيحا.

نعرف اليوم أن الجنرالات والحكام في «المتروبول» أو على رأس الإدارة وقوات الاحتلال في بلدان المغرب العربي فضلوا الاستمرار في سياسات القبضة الحديدية ضد شعوب المنطقة ولصالح الجاليات المتغطرسة من الكولون، والمتطرفين اليهود، وقد اقترفوا جميعا أبشع الجرائم وانتهكوا حرمات شعوب لا ذنب لها سوى أنها تطالب بحقها في الحرية والكرامة

الوطنية، غير أن «بيرك» لم يدخل السجن ولم يذهب الى المنفى ليطلب اللجوء السياسي الحقيقي أو المزعوم ولم تتوقف منشوراته العلمية عن الصدور ولا تعرضت للحجز واستمرت حلقاته الدراسية، بل أهم من ذلك فقد أسس مثل زميله فرانسيس جونسون (F. Jeanson) شبكة عرفت باسمه (Réseau - Berque) تتكون من طلابه ومريديه وأصدقائه في كل أرجاء المنطقة العربية الإسلامية و«المجال» الفرانكفوني بوجه خاص، إنه سلطة معنوية يحسب لها حساب في الوسط الأكاديمي وفي الرأي العام.

يخرج المطلع على تراث «بيرك» الضخم بانطباع عام هو أن الرجل خدم بلده الأصلي فرنسا بعلمه ونشاطه المتواصل لأكثر من نصف قرن، وترك من بعده جيلا من الباحثين وخاصة في المغرب العربي يسيرون على نهجه ويعمقون أطروحاته، ويفسرون نظرياته في الأنثروبولوجيا وعلم اجتماع المعرفة لا يختلف في ذلك عن معاصرين آخرين له مثل ش.أ جوليان (C.A. Julien) وس.ر. أجرون (C.R. Ageron) وم. رودانسون (M. Rodinson) الخ، الذين سيطروا تماما على البحث التاريخي والاجتماعي ونظرياته ومناهجه ونتائجه منذ أمد طويل، وقام البعض من تلاميذهم ومريديهم في الجامعات المغاربية (تونس والمغرب بوجه خاص) بترجمة مؤلفاتهم الى العربية، وهو بلاشك عمل يستحق التنويه إذا رافقه عمل نقدي صارم يمكن أن يساهم في نشأة مدارس في علوم الاجتماع، ومن أهمها في المرحلة الحالية التاريخ العام أي المشترك بين كل بلدان المنطقة والتاريخ الحديث المتعلق بتنظيم وتفسير الأحداث الكبرى من بداية الاحتلال حتى التحرير (Décolonisation).

نحن على يقين بأن الاخفاقات المتراكمة في المنطقة العربية الإسلامية والإحساس المتزايد بالاحباط والدونية لا يمكن تفسيره سياسيا، فحسب ولا إلقاء تبعاته على مسؤولين في هذا البلد أو ذاك فقط، بل هو أيضا فشل النخبة المثقفة في الجامعات ورجال ونساء الفكر والعلم في استكمال الخطوة الأولى على طريق التحرير بالانتقال من الاستهلاك السلبي لإنتاج غيرهم والعرض الفولكلوري لتراثهم، أقول الانتقال الى مرحلة من النقد الإيجابي ونقد النقد لما عندهم وما عند غيرهم فليس في العلم الاجتماعي مسلمات مطلقة ونهائية إلا عند العجزة والمرضى بداء الكسل العقلي وضعف الهمة.

ولكن ألا نجد أنفسنا في هذه القضية بالذات أمام «دايلاما» تدور بنا في حلقة مفرغة؟ أليس التخلف حالة كيفية وكلية أسبابها نتائج، والنتائج تتحول بدورها الى أسباب؟ كيف يزدهر العلم والفن وتنهض الثقافة في مجتمع تابع في كل شيء؟

وما هو المردود المنتظر من العلماء والمفكرين بوجه عام في أوضاع تجبر البعض منهم الى توجيه رسائل بلا اسم ولا عنوان؟ وتدفع العديد الى الفرار وراء البحر والمحيط وبيع ذخيرتهم العلمية الثقافية لجهات ليست كلها بريئة؟

أين الإرادة السياسية؟ وماذا تعني الإرادة والمفاهيم السياسية كلها إذا تواصلت الدروشة العامة والضياع بالبحث عن الرجل الخارق (L'Homme Providenciel) أو تمادينا في صنع نماذج له من الشمع والكرتون لتكون ظلا على المؤسسات الديمقراطية الحقيقية؟!

إن العلماء والمثقفين هم مواطنون قبل كل شيء لا يفصلهم عن غيرهم من المواطنين الآخرين سوى ما يتميزون به من كفاءة، ولذلك فإن مسؤوليتهم أكثر وأشد كلما تعلق الأمر بتقييم الحاضر واستشراف المستقبل؟ لأنهم يدركون أكثر من غيرهم بأن الشعب ليس هيولا ميتافيزيقية راكدة، من صالحهم من الناحية المبدائية والعملية أن يتسع مجال الحرية وينتشر العدل وتؤدي المؤسسات دورها الطبيعي في حماية الحق ودحض الباطل بغض النظر عن الأشخاص والجماعات.

هذا هو قوام الدولة والمبرر الأهم لوجودها وهيبتها في الداخل قبل الخارج، نقول إن ذلك من صالح العلماء والمثقفين لأنه المناخ الوحيد الممكن لتقدم المجتمع وتحريره من التخلف الكيفي الذي يقيده ويشله من الداخل، والطريق الأصح لاستحقاق السلطة المعنوية الخاصة بالعلماء والأدباء والفنانين الذين يمثلون أثناء حياتهم وبعد رحيلهم جزءا من ضمير الأمة وشاهدا على مفاخرها الباقية.

لن نكون أول ولا آخر القلقين من تلك «الدايلاما» السياسية الحضارية، ولكننا لا نخلط بين القلق الموضوعي وجلد الذات البائس ولن نستبدل أبدا الثقة في الإرادة الكامنة في الشعب ونخبه الوفية والنضالات القاسية والطويلة لأجيال متعاقبة، لن نستبدل ذلك بلحظات ضعف وتراجع تتجه

نحو الركوع الانطباح، ترافقها مناحات جنائزية من تلحين «نوستالجيين» في الخارج وأداء فرق من «كومبارس» الحضيض في الداخل تعودوا على الاشتراك في كل «زردة» تقام لنعي الوطنية وتأبين الثورة التحريرية وتصغير أمجادها بهدف تصفية مكاسبها واقتسام الريع في غفلة من حراسها الأوفياء. ماذا تعني القطيعة في مجتمع يفتقد المعالم (Repères) وتختلط في نظر نخبه خطوط العرض والطول؟ أين الخلل؟ هل أن المجتمع في كل المنطقة مبتلى بقياداته الفكرية والسياسية؟ أم أن تلك القيادات نفسها ليست أكثر من ديكور واقعي للحقيقة الاجتماعية والثقافية ومحيطها الجيوسياسي القائم على منطق النظام الدولي القديم الجديد: الحق مع القوي الذي ينبغي أن يكون قويا دائما وما على الضعيف إلا أن يتفانى في خدمته كالرقيق (Nègre de service) ويشتم بعد ذلك ذاته كما يشاء؟

أملي أن يتسع صدر القارىء الكريم للملاحظات والتساؤلات السابقة ويتحلى وهو يبحث عن سر هذا الاستطراد بالصبر الجميل، فمن دوافع كتابة هذه الورقة تعليق ظهر في إحدى الصحف الصادرة بالعاصمة تحت عنوان «وفاة جاك الجزائري» خال من كل توقيع يقول صاحبه ما يلي:

«يغادرنا (يعني بيرك) مخلفا مكتبة تزيد على ثلاثين كتابا يمكن من خلالها أن يتعلم شاب جزائري تاريخه بطريقة أفضل من ثلاثين سنة من المدرسة الأساسية».

ويضيف:

«إن كتابه (المغرب بين حربين) يعلمنا أكثر من ثلاثين سنة من التاريخ الرسمي عن طعم الحياة في تلك الفترة، وعن الحيل المستخدمة للتعايش بين المجموعات المختلفة في الجزائر الكولونيالية.

ويختم المعلق حديثه بقوله: «يمكننا أن نعتبر بيرك مواطنا لمدينة فرندة أكثر منه فرنسي».

قبل ذلك بعدة أيام أعلنت إذاعة فرنسا الدولية نبأ وفاة «بيرك» على النحو التالي: «توفي الأستاذ بيرك عن عمر يناهز 85 عاما خدم أكثر من نصف قرن الأبحاث العلمية المتعلقة بالشرق الأوسط وشمال إفريقيا وكون أجيالا من المختصين على ضفتي المتوسط، كان كاثوليكيا مؤمنا وملتزما...».

من السهل التمييز بين خطاب اليأس والعدمية وبين الخطاب التقريري الذي يوظف الأحداث ويستثمرها ضمن استراتيجية هي تقريبا محل إجماع على الأقل في الوسط الإعلامي الثقافي، نعرف أن الشعب أو لنقل الرأي العام هو أشبه بجيش بدون إشارات ورتب مميزة يتوقف أداؤه العملي وتضامنه على روحه المعنوية العالية، فإذا توالت إعلانات الإفلاس، وتعالت صيحات الإخفاق لأغراض التثبيط والتحقير انهارت الروح المعنوية وساد الشك وتحقير الذات الوطنية.

في مراحل الاضطراب وعندما يتزايد الاختراق على حساب التعايش الآمن والحوار الحضاري، تظهر النزعات العدمية والثنائيات المزدكية (نسبة إلى «مزدك» داعية الإباحة المطلقة في فارس القديمة)، التي لا تقبل الجدلية التركيبية: ملاك يقابل الشيطان وأصالة منفصلة عن الحداثة وديمقراطية تصارع الديكتاتورية والاستبداد، قطيعة ترفض التواصل، سكون تام لا وجود له إلا في القبور، أو حركة هوجاء تتخبط على غير هدى، تبحث عن نقطة الصفر في معادلة وهمية لأنها تبدأ من لا شيء لتنتهي الى مجهول، فكل الثنائيات السابقة تتداخل فيها الخيوط السالبة والموجبة ولن تتحول الى تيار يولد الضوء والحرارة إلا في حالتها التركيبية التي تتجاوز الماضي بحاضر أفضل منه يجدده ولا يلغيه، ويعيد تنظيم تراثه ومقولاته لتجنيدها في منظور مستقبلي، تتعرف عليه الأجيال وتساهم في صنعه، فالمستقبل حصيلة التراكم الإيجابي للماضي يضاف إليه ما نفعله نحن الآن.

الموضوع الأصلي لهذه الورقة هو الحديث عن «بيرك» المفكر الإنسان الذي تعرفت عليه أكثر من خلال أبحاثه العديدة وشاءت الصدفة أن يتم لقاء وشيء من الحوار السريع، عندما استضفناه في معهد العلوم الاجتماعية بالعاصمة في بداية السبعينات حيث كنا نشرف على مديرية الدراسات ونشرع في تطبيق الإصلاح الجامعي في ذلك القطاع، لاشك أن لقاء محدودا في الزمان والمكان لا يكفي لتقديم نظرة إجمالية لتراث زاخر يحمل وجهة نظر موثقة عن الواقع الجزائري والمغاربي والمنطقة بوجه عام، ويعرض تفسيرات للمعطيات التاريخية والمستجدات التي عاصرها، وتصورات للمستقبل واحتمالاته المتعددة.

الهدف من «الحيثيات» السابقة هو التأكيد على أن هناك الكثيرين ممن يعرفون «بيرك» الإنسان و«بيرك» المفكر المتخصص في المجتمع والحضارة العربية الإسلامية بشكل أعمق وأفضل، غير أن ذلك لا يمنع على أغلب الظن من الإشارة الخاطفة الى واحد من أهم وآخر أعماله، وهو ترجمته للقرآن الكريم التي تطلبت منه كما ذكرنا فيما سبق ستة عشر عاما من التحقيق والمقارنة والتصحيح، وجاءت بعد ترجمة المرحوم سي حمزة بوبكر إمام مسجد باريس على درجة كبير من الجودة والاتقان.

خجل «بيرك» الباحث المتواضع من وضع مقدمة لكتاب الله قائلا في أول سطر: «لا تقديم للقرآن»(on ne préface pas le Coran)[1]، هل هناك ما هو أعظم من الفاتحة أم الكتاب، والبسملة قبلها حيث يرد اسم الجلالة موصوفا أربع مرات بالرحمن الرحيم» (ص: 23).

أطلع «بيرك» قبل النقل الى الفرنسية على أمهات التفاسير مثل الطبري والرازي والجرجاني، وأعمال المحدثين مثل الطاهر بن عاشور، والثعالبي والشعراوي، واستعان بكتب البلاغة واللسانيات مثل السكاكي والزمخشري، ورجع الى ترجمات المستشرقين التي لم يرض عنها في كثير من الأحيان، وخاصة فيما يتعلق بآرائهم في قصص القرآن (Thèmes legendaires dans le Coran) ومفهوم الوحدة الإلهية (ص: 721).

وأنهى ترجمته بدراسة حدد أهدافها فيما يلي:

- دراسة القرآن باعتباره وحدة كاملة ومتناسقة.
- البحث عن الوحدة والتناسق من خلال الوحدات الفرعية (السور) والأقسام الداخلية (الآيات).
- يمكن البحث في التوزيع الداخلي للآيات والنظر فيما يتضمنه من جمال ومجموعات من الكلمات.
- يتطلب الإدراك العميق للنص القرآني الوصول الى نقطة تلتقي فيه الصوتيات (الفنولوجيا) وعلوم النحو والمنطق والبلاغة والالتقاط السمعي للوتائر الطويلة أو القصيرة التي تعطي لهذا النص العظيم قوة تأثير واحدة.
- العودة من الأجزاء الى الكل وفهم تلك الأجزاء على ضوء المجموع.

اختار المترجم عنوانا لدراسته هو «ونحن نقرأ القرآن» (En relisant le Coran) ص: 711–793) قسمها الى خمسة أجزاء هي:

(1) Le Coran traduction de J. Berque, ed Sindbad, Paris 90.

- جمع القرآن.　　　　　　- اللغة (أو إعجاز القرآن).
- المعنى (أو غايات النص القرآني).　- الاستشراف.
- نظرة إجمالية.

تحت هذه العناوين قام المترجم بمجهود كبير للتحقيق والمقارنة والتفسير مستخدما المنهج المزدوج الصاعد والنازل مستعينا بمعارفه في اللسانيات (Linguistique) وتاريخ المنطقة وتحليل المفاهيم وتحليل الأديان (انثروبولوجيا الأديان) فضلاً عن الملاحظات والتعاليق التي يقدمها عن المسلمين اليوم وهم «يبحثون عن مخرج بالرجوع الى المبادىء والأصول بدون أن توضع تلك الأصول في منظور النقد التاريخي وفي سياق الحاضر، فإن تلك الأصول والمبادىء لن تعيد لهم قوتهم التكوينية.

إن الذكر الحقيقي هو الذي يحول الذكرى الى مستقبل (Le vrai dhikr est celui qui retourne le souvenir en avenir)، إنها تلك العملية الخلاقة كما كانت في بدايتها، عملية تمزج الحداثة بالأصالة، وتبدو ضرورية أمام إعادة التجديد المستمرة والمطلوبة من أي نظام في العالم المعاصر، يدرك أن عليه أن يقدم كل الحلول الممكنة.

ولكن أي تجديد؟ إن الثورة التقنية والعلمية قد قطعت مراحل لم يسبق لها مثيل كما أن تلك الثورة تتسع وتتعمق في السلوكات الفردية والجماعية. ويتزايد الشكل الوحدوي للكرة الأرضية ويطرح الكثير من التحديات المعاكسة الراغبة في الخصوصية، أو التميز، وتتساقط الكثير من المسلمات، في كل بلدان العالم الثالث تطالب الجماهير برفع مستوى معيشتها وتناضل من أجل الحريات وحقوق الإنسان.

هنا يفضي تساؤلنا السابق الى تساؤل أعم وأشمل عن الجهد المطلوب للتوافق مع المستقبل، جهد مطلوب من الجميع.

- هل أن الديانات الإبراهيمية في طريقها الى إنجازه؟
- بأية طريقة سوف يتم ذلك؟
- بأي شروط؟　　- بأي ثمن؟

فيما يتعلق بالإسلام فإن الصفحات السابقة تدفع الى الاعتقاد بأنهم (يقصد المسلمين) يظهرون أمام تلك المهام في مستوى أدنى من الإمكانات التي أتاحها لهم نصهم المؤسس (Texte fondateur) «أي القرآن الكريم».

بهذه التساؤلات العامة والإجابات الحذرة ختم «بيرك» دراسته القيمة، ولاشك أنه أطلع على مقدماتها ودواعيها عند مفكرين من المنطقة وعدد من المهتمين بشؤون الإسلام والمسلمين.

لا يسمح السياق الذي كتبت فيه هذه السطور بتقديم أي تعليق على وجهة نظر الباحث الموسوعي «جاك بيرك» ولا ريب أن تلك السطور الموجزة لا تكفي للتعريف بمجهوده الكبير، ولكن يبدو لنا أن تفسير وضعية الانحدار التاريخي (Declin historique) الذي غمر المنطقة العربية الإسلامية منذ أمد طويل وحال الحيرة والتشرذم وانعدام الاستراتيجية على المستوى القطري وعلى المستوى العام بإرجاعها كلها الى أسباب داخلية محضة ثقافية - اجتماعية - سياسية، هو في الحقيقة تفسير جزئي يغفل (أو يغطي) على عوامل أخرى ساعدت على الانحدار والتشرذم واستفادت بلا ريب من حالة الانكفاء العام في طول المنطقة وعرضها.

من التتار الى المغول ومن الصليبية الى الكولونيالية ومن الاختراق والاستقطاب الى النظام الدولي الراهن يبدو لنا أن شعوب المنطقة ودولها في حالة حصار حضاري سياسي دائم تفرض عليها موقعا دفاعيا في مواجهة ضغط متعدد الأشكال لا يترك لها سوى خيار المقاومة أو الاستسلام.

هل تسمح هذه الوضعية بأي تحليل موضوعي ونقد تقييمي لحاضر هو تقريبا غير موجود إلا في الألفاظ الرنانة والمسلية؟ وكيف يشتغل الساسة والمفكرون بالمستقبل وهم لا يملكون من الحاضر سوى ظلال الماضي وقائمة من التمنيات؟ ألا يكون السؤال الأهم هو: هل يسمح التاريخ والجغرافيا بحاضر آخر يلتقي فيه العقل بالنقل، والذكر بالفكر لتقديم فرضية أخرى عن تقدم أكثر إنسانية؟ عندما يحدث ذلك ستكون الشعوب العربية والإسلامية في طريقها نحو المستقبل؟ أي قادرة نسبيا على التحكم في الجغرافيا ومعطياتها الجيو-سياسية ومزودة بإرادة العودة الى قلب التاريخ وإعادة تشكيل فصوله والمساهمة في «تحريرها» من موقعها الجيوستراتيجي الممتاز وفق نصها المؤسس (القرآن الكريم) ومبدؤه العظيم ﴿وخلقناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

إنجاز دار الأمة

2007

ص.ب 109 برج الكيفان 120 16 الجزائر

هاتف/فاكس، 04 22 20 021

«... يمثل التراكم الثقافي بعدا أساسيا في الأنا الجماعي والذاكرة التاريخية للأمة وهي لا تقتصر على سلاسل من أسماء القادة والساسة البارزين أو على حوادث خارقة للعادة، بل تتضمن كذلك الذين يعطون لتلك الذاكرة الجماعية مضامين فكرية وجمالية وبطانة وجدانية ترسخ الانتماء الحضاري والعزة الوطنية...

... تستند كل فصول هذه المساهمة المتواضعة على ثلاثة أفكار رئيسية أولاها: أن الجزائر تتمتع بمؤهلات مادية ومعنوية هائلة، أغلبها في حالة كمون، لا يمكن تفعيلها بالاكتفاء بالاستنساخ والببغائية أو بالاقتصار على الأوصاف الرنّانة، وأن توظيفها الصحيح يتوقف الى حد بعيد على إدراك مسلكية شعبها والانطلاق دائما من تجربته التاريخية، ثانيتهما: أن النخب القيادية، فكرية وسياسية لا يمكن أن تنجح في مهام البناء الحضاري والمؤسساتي وتضمن الازدهار والاستقرار وقوة الدولة لا دولة القوة، وترقية العلوم والفنون والآداب واستحقاق الوطن للهيبة والمناعة، لا يمكنها أبدا أن تنجح أو تضمن كل ذلك إذا تناست حقوق وواجبات المواطنة، أو اعتبرت نفسها طائفة خارج المجتمع أو فوقه، وثالثتها: أن في جوهر الوطنية الجزائرية اعتزازاً طبيعياً بالهوية العربية الإسلامية وبالأمازيغية باعتبارها الرابطة القوية بين الإسلام عقيدة وحضارة والعروبة لسانا وثقافة، فإذا اهتزت تلك العلاقة أو ضعفت فهناك يقينا بصمات للذئب الكولونيالي وروائح متعفنة لتركته الإجرامية، وأن الدولة تعاني من الوهن والاضطراب بسبب فساد التدبير وسوء التقدير.

إننا نميل إلى منهج الجدل الصاعد الذي يرفع الثقافة الوطنية الى مستوى العالمية، ولا نثق في الجدل النازل الذي يبدأ بالعالمية ليحط من عليائه فيما يصبح في نظره فولكلورا للفرجة والتسلية، لقد ضاع [illegible] عالمية بلا وطن ولا جنسية وفقدوا في نهاية المطاف المدار وال[illegible]






ISBN 978-996167210-5
9 789961 672105